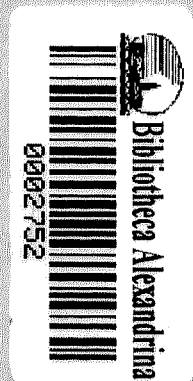


عبد الكريم الخطيب

النبي محمد

أولاد سيدنا محمد

دار الفكر العربي



عبد الكريم الخطيب

النبي محمد

إنسان الانسانية
ونبي الانبياء

الطبعة الثانية

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

وزارة الشؤون الإسلامية
لصاحب: محمد عبد الرزاق
كنيسة الأرمين من الجيش
تليفون ٩٣٤٠٩٤

سُورَةُ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أشهد لقد ظلمت نفسي ، إذ أقدمت على هذا العمل ، بعد أن ظلمت سنين كثيرة أتهيبه ، وأحاذر الإقدام عليه !

فإن الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم وإن يكن طلبه النفس في كل حين ، ورغبتها في كل حال - فقد كان الهمس به ، والتخافت فيه أحب إلى قلبي ، وأرضى لمشاعري وأروح لنفسي ، ... إذ كنت أدع الحواطري الانطلاق في مغامرات السيرة النبوية ومجانيها ، إلى المدى الذي تقدر عليه ، دون أن آخذ نفسي بمنهج ، أو أقف بها عند مورد . بل كان لها أن تروى كل منهج ، وترد كل مورد ، وتنتقل من حال إلى حال كما ينتقل النحل بين ألوان الزهر ! !

° ° °

ولا أدري ماذا حدث حتى انتقل هذا الحديث الخامس الخافت من سيرة الرسول ، الذي كان يبنى وبين نفسه ينساب في مسارب التأميم ، ويسرح بين حنايا الصدر لا أدري كيف انتقل هذا الحديث الخامس الخافت ، إلى هذه الصورة المسموعة المقررة في هذا الكتاب ، الذي يحده القارئ بين يديه ؟ ؟

فلقد كنت حريصاً أشد الحرص على أن أظل قارئاً أو مستمعاً لسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم دون أن أكون مقرئاً أو مسمعاً لها يوماً من الأيام !

لأنني أعرف حق المعرفة جلال هذا المقام ، وأقدرة قدره من الاحترام والتوقير ، كما أعرف حق المعرفة ما ينبغي لسيرة الرسول الكريم من حرمة وتعمون من أن يباح حماها لعل من يقول بعلم وبغير علم ، ولعل من يرتاد حماها بزاد أو بغير زاد !

فليس كل من عرف طرفاً من سيرة الرسول ، وضم صدره على حبه والولاء له ، بقادر على أن يمرر مشاعره وأحاسيسه . وأن ينتقل ما بنفسه من معاني الجلال والعظمة التي تفيض عليه من جلال النبوة وعظمتها إلى كلمات مسموعة

مقروءة ، وأن ينفض ما بصدوره من مشاعر الحب والولاء على الأسطر التي يسود
بها صفحات ، ثم يجعلها كتاباً في السيرة ١١

ولو كان ذلك مما يقع في الإمكان ، أو لو وقع جاء بحجى الرضا والقبول لا يخرج
كل مسلم كتاباً عجياً من أعماقه ؛ في تلك السيرة الكريمة ، ولكانت هذه الكتب
آية الآيات فيما تحمل من معاني الحب الصادق ، التي ضمت عليها صدور المسلمين
للنبي الكريم !

ولكن ما في الصدور شيء ، وما تستطيع أن تحمله الكلمات من هذا الشيء -
شيء آخر ١١

فكيف إذا كانت المعاني من السمو والمكالم ، وكانت المشاعر من الصدق
والعمق على هذا النحو الذي يجده من يطوف بحمى النبوة ، ويطالع أنوارها ؟؟
إن ما تأخذ الكلمات هنا من هذا الجلال ، وما تحمل من تلك المعاني لا يكون
إلا كما يأخذ القلم من ماء البحر ، وإلا كما تمسك اليد من شعاع الشمس ، أو تلتقط
العين من ضوئها !

• • •

فإذا ما تمهيت هذا الموقف ، وأخذتني منه رهبة ، فليس ذلك إلا لأنني أعرف
للموقف جلاله ، وأقدر خطره ، وخطر العثار فيه !

إن العثرة هنا بقاء مشهورة ، تملظ بها الشفاه ، وتشرع لها الأفلام ، ويكثر
من أجلها الطعن والقنال .. فلا يقال للعائر لعاً ، ولا تقبل منه معذرة .. إذ
كان ذلك العثار محمولاً عند أكثر الناس على أنه تناول على مقام الرسول ،
وتجديف عليه ..

وقد يحسن الظن عنه بعض الناس فيجفر الزلة ، ويثيل من العثرة ، ولا يكتفه
لا يخلى صاحبها من الرمي بالجهل أو الاستخفاف .. وقد يشتد بعض آخر فيسرق
التهم ويرى بالكفر والإلحاد ،

وقل في الناس من يقع على الزلة هنا فيلقاها بالأمح والصفح ، ويجد لها في

باب النفرة مدحلا ، حين ينظر إلى الأمر بعينه معاً ، وحين يرى الحسنات
والسيئات جميعاً !

* * *

وعذيري عند نفسي من هذا الموقف الذي سقته إليها ، أو ساقتنى هي إليه —
أننى سمحت لها . ودعوتها إلى الريث والمهل فيه ، فطاولت معها الأيام ، ولويت
زمامها عن هذا القعد زمناً طويلاً ، لعلها ترصى من سيرة الرسول بما أريد لها
الرضا به ، وهو أن تعيش فيها وحدها ، وأن تلتقى بها على غير مشهد من أحد !
وأكثر من هذا ، فلقد تلطفت بها ، وترفقت في صرفها ، فلم أدعها تهم في
كل واد ، وتسقط على كل مرعى ، حين صرفتها عن وجهها تلك ، وأخذت
عليها الطريق إليها — بل قدمت إليها زاداً عتيداً طيباً ، وهو أن تلتقى مع صحابة
رسول الله وخلفائه الراشدين ، وأن تعيش معهم في السر والعلن ؛ تتحدث إلى
الناس بما تشاء من حديث عنهم ، إن كانت تشتهي الحديث إلى الناس في هذا
الباب ، وتحرص عليه .

وقد كان !

فأرغيت لنفسي العنان لتجيا في سيرة صحابة الرسول ، وخلفائه الراشدين ،
وأن تأخذ الوضع الذي ترتضيه لتتحدث بما تشاء من صور الحديث : مقروءة
أو مسموعة !

وكان ذلك — فيما بدا لي أول الأمر — سياسة ناجحة فيما أردت ، إذ سكنت
تلك النوازع التي كانت تطلع بها على نفسي بين الحين والحين ، وتصرخ بها في
أعماقي ليكون لي في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم كتاباً !

وفعلاً .. كاد يقع التصالح بيني وبين نفسي على هذا الموقف ، وأمسكت بالقلم
لأبدأ بسيرة الخليفة الأول ، أبي بكر ، رضى الله تعالى عنه !

وهنا ألقت النفس إلى خاطراً غريباً ، وهو أن أبدأ بسيرة الخليفة الثاني
عمر بن الخطاب ، !

فسألتها : ولم عمر؟ أترأه يفضل أبا بكر ، ويقدم عليه ؟
قالت . مالك ولهذا الظن ؟ ولم تحمل الأمر على المفاصلة ، والتفاضل بين
خلفاء الرسول ؟

قلت : وبم يفسر هذا ... بيني وبينك على الأقل ؟
قالت : إن ما اجتمع بين يدك من سيرة « عمر » يصلح أن يكون كتاباً ،
يقرؤه الناس ، وربما كان القلم هنا أسرع وأطوع في تصوير الحقائق التي تريد عرضها
أما « أبو بكر » فإني أرى أن سيرته لم تكتمل لديك ولم يبلغ عندك ما تريد منها !
ونخيل إلى أن هذه نصيحة ناصح ، ومتورة أمين !
فأقبلت أكتب سيرة « عمر » فكتبتها ، وأخرجتها كتاباً بين أيدي الناس !

* * *

وأشهد أني حين كنت متوفراً على الكتابة في سيرة « عمر » كنت أكاد أنب
وثبا ، لأبلغ خاتمه الكتاب ، حتى ألتقي لقاء مباشراً مع سيرة الرسول ، وأفرغ
جهدى كله في الحياة معها ، وإعلان الحديث عنها ، ومجاهرة الناس بها !
وإذ ذاك عرفت الكيد الذي كادته نفسي ، وانكشف لي سر التدبير الذي
دبرته ، حين ألفت إلى بهذا الخاطر الذي حملني على البدء « بسيرة عمر » !
فقلد كانت سيرة « عمر » عندي خير آذن يأذن لي بالدخول إلى السيرة
النبوية ، ويمهد لي الطريق إليها ، ويفتح كنوز الجلال والعظمة المحجبة في
أنوارها !

فلقد وجدت في سيرة عمر ريح النبوة ، نفاذ الشذى ، فواح الطيب !
ووجدت في عمر العظمة الإنمائية ، والكمال البشرى ، النامي في ظلال
النبوة . المتضىء من مشكاتها .

فكان ذلك إغراء قوياً لي بالتطلع إلى موطن العظمة ، وإلى مصدر الإشعاع !
وليس ثمة شك في أن سيرة صحابة رسول الله وخلفائه الراشدين ، لاتنكف
جوانب العظمة فيها ، ولاتجلى مطالع الأنوار منها حتى ترد إلى المصدر الذي
أفاض عليها ما أفاض ، من جلال وعظمة ، وإشراق !

إن سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم هي النور الكاشف الذي ترى فيه مغارس النبوة ، ويستدل به على ما في مجازها الطيبة من ثمر طيب !

* * *

وبعد :

فإذا عذرت لنفسى بالكتابة في سيرة الرسول ، والمعالجة بالحديث في تلك السيرة المباركة الطيبة - فمن يذر لي عند الناس إن وجدوا زلة أو عثرة ؟؟

حبي أنها كانت نية خالصة ، أردت بها إرواء نفس متعطشة إلى أن تحيا مع الناس في أكرم حديث ، وأطيب سيرة .

« وإنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى » .

فاللهم تقبل هذا العمل ، واجعله صلاة وسلاماً دائماً على نبيك المصطفى وحبيبك المجتبي ، محمد بن عبد الله ، وعلى آله وصحبه ، ومن اهتدى بهديه واتبع سنته إلى يوم الدين ؟

المؤلف

القاهرة في : ٣٠ رجب سنة ١٣٨٣ هـ

٢٧ ديسمبر سنة ١٩٦٢ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين ، وإمام المرسلين
وعلى آله وصحبه ومن امتدى بهديه . وسلك سبيله إلى يوم الدين . .
وبعد :

فإنه الطبعة الثانية من كتاب « النبي محمد » لإنسان الانسانية ونبي الانبياء ،
نعود فلتقى مع أولياء الله وأحباب رسوله ، والمتأسين بسيرته .
وقد كنا ونحن على فية تقديم هذا الكتاب للمرة الثانية بين أمرين :

الأمر الأول : أن نعيد صياغته من جديد ، وأن تدخل عليه ما دخل على
مشاعرنا من أنوار الهدى النبوى ، وما اكتسحت به أبصارنا من أضواء سيرته
المباركة الطيبة ، التي تتجدد بها الحياه كلما تفتأت ظلالها علينا ، وكلما هبت أنسامها
العطرة في أحوائنا . . وكان ذلك من شأنه أن يجعل من هذا الكتاب كتاباً جديداً
ربما احتلط به الأمر على من قرأه في صورته الأولى : حين يرجع إلى فصل من
فصوله . أو باب من أبوابه . .

والأمر الثانى : هو أن تقدم الكتاب كما هو ، وأن نجعل هذا الذى زودتنا
به السيرة البهوية المباركة من زاد جديد ، كتاباً آخر يلحق بهذا الكتاب ، ويكون
مكملاً له .

وقد أثرت الأمر الثانى . وها هو ذا الكتاب فى صورته الأولى ، لم نزد عليه
إلا بعض العبارات التي نراها لازمة لتوضيح معنى أو استبفاء فكرة . .
نسأل الله أن ينفع به ، وأن يشبنا عليه ، وأن ينزل منزل الرضاء والقبول من
صاحب الديرة صلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وصحبه والتابعين إلى
يوم الدين .

وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين ؟

القاهرة فى : جمادى الأول ١٣٩٦ هـ
أبريل ١٩٧٦ م

المؤلف

صلوات .. وابتهالات الكلمة الطيبة

« ضرب الله مثلاً

« كلمة طيبة .. كشجرة طيبة ..

« أصلها ثابت . وفرعها في السماء ..

« تؤتي أكلها كل حين .. بإذن ربها ..

« ويضرب الله الأمثال للأمس . اعلمهم يتذكرون » !

° ° °

« محمد .. محمد .. محمد .. محمد ..

يا للكلمة الطيبة .. المباركة ..

ويا لروعة جرسها .. وصفاء لحنها !

من جوهرها الكريم يصاغ الكلم الطيب .. وتولد الكلمات الحسان !

محمد ، وأحمد ، وحمد . ومدح !

فأى إلهام . وأى تدبير ، وأى قدر اصطفاك — أينما الكلمة المباركة

الطيبة — لابن عبد الله اسماً ، ولخاتم النبيين سمة وعلياً ؟ !

وأى إلهام ، وأى تدبير ، وأى قدر حفظك — أيها الاسم النبيل — في

ضمير الحياة تلك القرون الكثيرة المتطاولة .. لم ينطق بك فم ، ولم يكتب

بجلاك وليد ؟ !

حق إذا وضعت أمة بنت وهب وليدها اليقيم ، وملأت عينها من قسرات

وجهه الوصى ، وثغره الباسم ، وجبينه المشرق — أحست أن وليداً آخر

يتفلك من سدرها ، وينطلق إلى فيها .. وإذ لسانها يتحرك ، وشفتاها

تصادحان بنغم وادع ، رقيق .. محمد .. محمد .. هذا هو وليدى .

وذاك اسمه .. ولانى لأرجو أن يحمد ، وأن يكون محمداً ! !

فحمد . . الكلمة الطيبة المباركة .
ومحمد . . النبي الأسمى . . مبعوث السماء بالهدى ودين الحق . .
محمد . . كلمة . . هي سيدة الكلام !
ومحمد . . لإنسان . . هو سيد الأنعام !

ويلتقى العظيمان :
الذات . . والكلمة !
المسمى . . والاسم !
فيشهد التاريخ معجزة الحياة . . المعجزة الخالدة . . التي تخلق من كلام .
وجرت على لسان !

فلقد تفجرت من الكلمة ينابيع الحكمة ، وصورت آيات البلاغة والفصاحة
فيجسم لبلاغتها البلاء ، ويخرس لغناها الفصحاء .
ولأول مرة في حياة البشر . تكون الكلمة آية ، وتصبح الآية معجزة
خالدة ، تتحدى الناس على مدى الأجيال ، وتطاول الأزمان !
ولأول مرة في حياة الرسل تكون معجزة الرسول في فمه . . كلمات تجري
على لسانه . فتعجز لها الوجوه ، وتخرس لها الألسنة . . !
« أم يقولون افتراه ، قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات . . وادعوا
من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين » .

ومحمد . . !

كم أنت موفورة الحظ أيها الكلمة المباركة الطيبة !
لأنك أبدأ في قلب كل مسلم ، وعلى لسانه ، وملء فمه وسمعه !
فمن يوم أن ولد ابن عبد الله وأنت فور يبدد الظلام ، وهدى يدفع الضلال .
وحق يدمغ الباطل . . ولما أنت رحمة راحة حيث ضحك قلب ، أو تحرك
بك لسان !

ومن يوم أن ولد ابن عبد الله ، وأنت تستأثرين بالمكان الأول ، في مقام
الذبيوع والانتشار ، بين الكلمات الحية العاملة في الحياة . .
لقد اختصك الله - أيتها الكلمة الطيبة المباركة - بهذا الفضل الغدق ، فجعل
ذكرك عبادة ، وصلاة ، ودعاء !

وكان مما فضل الله به عليك - أيتها الكلمة المباركة الطيبة - أن جمع بينك
وبين اسمه تعالى ، وجعل الإيمان به لا يتم إلا ولك نصيب فيه ، وذكر معه !
فالصلاة على « محمد » في شريعة الإسلام مرضاة للرب . . مغفرة للذنوب .
والشهادة برسالة محمد ركن من أركان الإسلام . . لا يكمل إلا بها ،
ولا يقبل إلا معها !

في كل أذان تتردد كلمة « محمد » ، وفي مفتتح كل صلاة تذكر كلمة « محمد » ،
وفي التشهد من كل صلاة ، وفي مختتم كل صلاة تذكر كلمة محمد !

إن أدنى ما يجب على المسلم أن يذكره من كلمة « محمد » لا يقل عن عشرين مرة
كل يوم في مقام الصلاة المفروضة . . أما الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فلا يقف المسلم
بها عند حد أبداً ، والزيادة فيها زيادة من خير ، واستزادة من رحمة ورضوان .
لأن أى كلمة قد تعيش في الناس زمناً ما . . يطول أو يقصر ، ولكنها
لن تمحى مع الناس حياة ملازمة أبداً . . وإن يرتبط مصيرهم بها في كل حين !
بل تدور معهم دورة ثم ينتهى دورها ، وتختلفها غيرها من الكلمات . . وهكذا
دواليك . . تولد كلمات ، وتموت كلمات ، شأنها شأن الكائنات الحية ، من الإنسان
وحیوان ونبات .

أما كلمة « محمد » فقد عاشت ، وستعيش في الناس أبداً الدهر !

لأنها تنكس كل يوم السنة جديدة تهتف بها ، وتستقبل كل وقت أهلاً
وأ نصاراً ، يجتمعون عليها ، وينصون تحت لوائها . .

لأنها كلمة مباركة طيبة . . « تؤق أكلها كل حين بإذن ربها » . .

مانطق بها مؤمن بالله إلا ارتفع في المألا الأعلى ذكره ، وزاد في ميزان
الخير خيره !

ذلك هو بعض « محمد » الكلمة . . الكلمة التي انقسمت إلى ابن عبد الله
الوليد . . اليتيم . . النبي . . الأُمِّي . . رسول رب العالمين !

* * *

أما « محمد » الدات . . ذلك اليتيم الفقير الذي عرفته « مكة » وليدًا ، وعرفته
البادية رضيعًا ، ثم استقبلته مكة غلامًا ، وشهدته نبياً مرسلًا ، يحمل في فمه دعوة
الحق ، يؤذن بها في الناس : « أن آمنوا بربكم . . وشهدت قومه يلقونه بالسوء ،
ويرمون به بالضر والأذى ، ورأته يلقي ما يلقي في صبر جميل . . لا يبرم ولا يضجر . .
وإن صجرت لذلك الأرض ، وضجت السماء ! . . ثم نظرت إليه في أسى وحزن
وهو مهاجر إلى المدينة ، حاملاً معه رسالته ، طالماً بها في هذا الأفق الجديد من
آفاق الجزيرة العربية .

— أما « محمد » هذا الإنسان الذي عرفته الحياة ، وعرفه الناس ، فما أجد
الكلمة التي تحمل بعض مشاعري لهذا الإنسان العظيم . . الإنسان الذي شامت
إرادة الخالق أن يكون مبعوثه إلى الناس كافة . هدى ورحمة للعالمين !

غرق أعرابي في لجج الليل المتضاربة في صدر الصحراء العريض ، وضلت
في ناظريه معالم الطريق . فوقف مقيداً بالحيرة والذهول ، لا يدرى إلى أي
اتجاه يتجه . ولا إلى أي منصرف ينصرف ! وبجأة طلع القمر فلأ الصحراء
بوجهه المشرق الوضئ ، ولبست الموجودات حلة زاهية من النور الفضي الرفيق !
وتطلع الأعرابي إلى القمر ، وقد ملأت الفرحة كيانه ، واستبد العجب به .
وجدت الكلمات على لسانه فما يدرى ماذا يقول . . ؟

إنه يود لو أن القمر منه دان قريب . . إذن أضمه إلى صدره ، واحتواه
بين ذراعيه وغمره ثمناً وحناناً !

أما والقمر أبعد من أن ينال ؛ فإنه لابد من أن ينفس الأعرابي عن تلك
المشاعر بما يقدر عليه من صور الكلام !

فعاد يتطلع إلى القمر من جديد ، ويملاً عينيه من نوره المتدفق ، وجعلت

شفتاه تحتاجان ببعض كلمات هامة حاملة .. هي خفقات قلبه ، وذوب مشاعره !
إنها كلمات أشبه بتغريدة طائر ، أو قصيدة شاعر !

ماذا أقول فيك !

أقول زادك الله جمالا ؟ فأى جمال بعد هذا الجمال ؟
أقول زادك الله علواً ؟ وأين ؟ وهل وراء السماء سماء ؟

ثم سكن الأعرابي في صمت بليغ !

وما موقف هذا الأعرابي من القمر في حاله تلك يكون شيئاً إلى حال من يقف
من رسول الله موقف المطالع لسيرته ، الدارس لرسالته ، المتأمل في دعوته ،
المتابع لهذه الدعوة ، والمتابع لأنوارها في الحياة ، وفي أجيال الناس ؛ عصرراً إثر
عصر إلى يوم الناس هذا ، وإلى ما بعد هذا اليوم !

إن الذى يقف من سيرة هذا الرسول الكريم موقف التأمل المنصف ليحد
أنه أمام ظاهرة رائعة من ظاهرات الوجود ، لم تشهد الحياة من قبل شيئاً لها ،
ولم تقع العين على مثله ، فيما يتطلع في الوجود من ظواهر وعجائب !

إنسان من الناس .. ولد لأبوين كما يولد سائر الناس ، ثم لم يخلق من الحياة
إرثاً من الملك أو العنى كما يتلقى بعض المولودين ، وإنما كان الذى تلقاه هو اليتيم
والفقر ، منذ استقبل الحياة ، بل من قبل أن يستقبل الحياة !

هذا الوليد .. اليتيم .. الفقير .. ماذا تظن به ؟ وماذا تقدر له مع الأيام ؟
لو جرت الحياة به على طبيعتها لكان مصيره إلى الضياع في دنيا الضائعين من
اليتامى والفقراء ، في عالم البادية ، وفي كنف الصحراء !

ولو أحسنا الظن بالحياة في شأن هذا الوليد اليتيم الفقير لما بلغ بنا الظن فيه
إلى أكثر من أن يكون فتى من فتيان قريش .. يقطع أيامه ولياليه في محارة
الخنز ، ولعب الميسر ، وفي مغازلة النساء ، ومخاللة القيان .. ثم ينتهى به الأمر
في شيخوخته إلى أن يكون شيخاً من شيوخ قريش ، يأخذ مكانه بين رواة
النبوة ، يستمع إلى ما يدور من أحاديث الجدة والهزل فيها ، ثم تطويه الأيام
فيما طوت من سادات قريش وصعاليكها !

ولكن الذى جاء من هذا اليتيم الفقير كان على غير هذا كله .. كان شيئاً لم يقع فى حسابان أحد ، ولم يدرك فى خلد إنسان !

وأحسبك تنتظر أحداثاً مفاجئة .. وعجائب مذهلة ! كلا !

لم تتغير طبيعة الحياة من أجل هذا اليتيم الفقير .. كل شيء يجرى فى مجراه المأثور له .. فلم تهبط عليه ثروة مفاجئة تبدل بها حاله .. ولم يتحول فى قريته شيء عما عهد فيها من خير وشر ، ومن جد ولهو ، ومن رشاد وغى ، ولم يتغير وجه الصحراء وما يعلوه من جندب وحفاف ، وما يتعاور عليه من زمهرير الشتاء ، وسوموم العصف !

لقد ظل كل شيء كما عهدته الناس .. اليتيم على يثمه وفقره .. وقرين على عهدها فى صحوها ، ونومها ، والحياة على سيرها ، فى نهارها وليالها !

تجرى الحياة ، ويجرى الناس معها ، وكأن لم يكن شيء قد دخل عليها وعليهم ، يوشك أن يبدل سير الحياة ، وأن يعدل موقف الناس فيها . ويفير أوضاعهم منها !

على حين أن هذا اليتيم الفقير كان يمنع حياته فى رفق ، وعلى مهل !

فهو يصدق القول حيث يكذب الناس .. وهو يؤدى الأمانة حيث يخون الناس ! وهو يعف عن الخمر حيث يتهافت عليها الأنبياء والسيان ، ويمزق عن اللغو حيث يتهاك الرجال والغلمان .. وهو يحقر الأوثان ويزوى وجهه عنها حيث يتخاشع لها قومه ، ويسعون إليها مصمحين ومحمسين !

كل ذلك وما إليه من الشوائب الحلوة ، والصفات المكرمة كان يجرى فى وداعة ورفق ، دون أن يثير فى الناس ضجة ويحدث فى الحياة هزة .. لأن ذلك كله كان يجرى عن طبيعة لا تكلف فيها ، ويصدر عن فطرة سليمة لا صنعة معها !

ومن هنا كان إحساس الناس بتلك الصفات فى محمد إحساساً قوياً راسخاً ، واقعاً منهم موقع اليقين ، لأنه دخل عليهم فى هوادة ورفق ، وتأدى إليهم يوماً بعد يوم ، وحالاً بعد حال ، حتى ومنح واستوى ، كما ينضج ويستوى الطعم الحلو فى الثمر الطيب ، والبطر الذكى فى يافع الزهر !

(محمد) .. الصادق الأمين

(محمد) ... العف النزيه

(محمد) ... العاقل الرشيد

(محمد) ... البر الرحيم

(محمد) ... الزاهد العابد

هذا بعض (محمد) فيما عرف الناس منه ، وهو بعد في يفاعه الصبا . وفي
مبعة الشباب ؛ قبل أن يبلغ عمر الرجال ، وقبل أن يتلقى دعوة السماء ، ويؤذن
بها في الناس : أنى لكم رسول أمين .

ولقد تسأل ويسأل الناس :

من أين لهذا اليتيم الفقير بهذا الأدب العالى الرفيع ؟

ومن أين له بهذه الأخلاق المجتمعة على الفضل والنبل ؟

لأنه قد يتيماً لإنسان أن يستقيم على خلق فاضل حيناً من الدهر .. ولكن
هيات أن يستقيم عليه العمر كله على درجة واحدة من السمو ، دون أن يميل
أو ينحدر !

وهيات أن يجمع بين اثنين أو ثلاثة من الصفات الفاضلة على هذا المستوى
العالى ، وأن يمسك بها جميعها فى قوة وفى استقامة دون أن تهتز ، ويتصرم
عقدها !

فأنى لهذا اليتيم الفقير أن يربى نفسه هذه التربية ! وأن ينشأ هذه النشأة
التي لم تقع لأحد فى قومه ؟ وكيف لهذا الفقير اليتيم أن يحوى الفضائل
الإنسانية كلها ، ويمسك بها جميعها ، فى قوة وفى استقامة ، على جميع الظروف
وفى كل الأحوال ؟

أسئلة ظل الناس سنوات غير قليلة ينتظرون جوابها ، كلما رأوا ، محمد ،
أرجاءوا إليه ، واستمعوا منه !

حتى إذا جاءت أنباء السماء تحدث عن أن « محمداً » هو النبي المرسل إلى الناس بالهدى ، والمبعوث فيهم بالرحمة . تنبهوا إلى أن لهذه العلاقة بين « محمد » وبين السماء صلة بتلك الصفات التي اشتمل عليها ، وهذه الأخلاق العالية التي تفرد بها ، وبدأ الناس يعيدون النظر في « محمد » على ضوء هذا الإحساس الجديده الذي دخل عليهم من دعوته : أنه رسول رب العالمين !

والناس — بين مصدق ومكذب بنبوة محمد — . . وقد انصرفت نظرتهم إليه منذ ذلك اليوم الذي ليس فيه نوب النبوة ، وطلع على الناس به .

فالذين آمنوا به وصدقوه ازدادت هذه الصفات في أعينهم سموً وقداًسة ، وبدأ لهم « محمد » من خلالها إنساناً يحيا في الناس بجسده ، ويحيا في الملأ الأعلى روحه .. إنساناً هو وحده بين الناس جميعاً الذي يملأ الفراغ . . بين الأرض والسماء . . بين الناس والملائكة !

وأما الذين أخذتهم العزة بالإثم ، وأعمى الحقد أبعصارهم ، وطمس الحسد على قلوبهم فإنهم استكثروا أن يكون ذلك الشأن العظيم لمحمد وحده من بين سادة قريش وعظمائها ! فجهلوا يرمونه بالسحر والكهانة ، وينسبون هذه القوة الروحية التي اشتمل عليها ، وملأ بها قلوب الناس هيبة — ينسبون هذه القوة إلى قوى السحر والكهانة ، لا إلى أمداد السماء ورحمة الرحمن ! . لأنهم لم يستطيعوا أن ينكروا هذا الواقع الذي تشهد به الحياة كلها ، وهو أن « محمداً » ليس على شاكلتهم ، وإنما هو إنسان نسيج وحده بين الناس . . ولمكنهم مع هذا أبوا أن يضيفوا هذا الذي بان به « محمد » عليهم ، وتفرد به بينهم — إلى الله وأن يقرروا لمحمد بما فضل الله به عليه ، إذ جعله مبعوثه إلى الناس بالهدى ودين الحق !

• • •

لأنه تدبير السماء بلا شك !

ولكن ماذا يدري الناس من أمر السماء وتدبيرها في شريعة محمد ، وفي تدبيره تلك الذنأة الربانية ؟

إن ذلك لم يكن عن معالنة ومجاهرة ، حتى أن « محمد » نفسه لم يكن يعلم من أمر ذلك شيئاً إلى أن آذنه الله بما احتاره له ، حين نزل عليه جبريل في غار حراء ، بأول نبأ من أنباء السماء ! وقد بلغ الأربعين من السنين . . عندئذ عرف « محمد » أن بينه وبين السماء شيئاً ، وأن هذا الشيء صائر به إلى خير . . وخير كثير !

أما قبل ذلك اليوم الذى اتصل فيه محمد بالسماء فإنه : لم يكن يدري من أمر نفسه أكثر من أنه واحد من أحاد قومه ، قد ارتبط مصيره بمصيرهم في زمانهم ومكانهم . . لا يستطيع أن يغير من واقع القوم شيئاً ، وإن يكن قد بدا له من حياتهم ما يكره ، وإن يكن قد حذر نفسه عن أن يدخل عليها ما كره من حياتهم وما أنكر من أمرهم !

* * *

بهذه الأخلاق الكريمة الرضية ، وبذلك السيرة الطيبة القويمة عاش « محمد » في قومه وبين أهله !

ومن أجل هذه الأخلاق الكريمة الرضية ، ومن أجل تلك السيرة الطيبة القويمة أحب الناس « محمد » وأحلوهم من قلوبهم مكان الإعزاز والإكرام . . فحيث كان « محمد » ارتفعت إليه العميون تكملاه ، حيث تجد الراحة والرضا في هذا الإنسان الذى يعيش في الناس أشبه بالنسمة العطرة في الهواجر اللافحة !

قطع « محمد » من عمره أربعين عاماً قبل البعثة لم تجرب عليه كذبة ، ولم تعلق به شائبة ، ولم يتحرك لسان بكلمة سوء .

كذلك أمضى « محمد » حياته كلها قبل البعثة بين قومه . لم يقع بينه وبين أحد منهم شر ، ولا قامت بينه وبين إنسان عداوة ، على كثر ما كان يقع بين الناس والناس من شرور ، وما كان يقوم من مشاحنات ، في تلك الحياة التى كل ما فيها أو أكثره قائم على العداوة والشحناء !

يا سبحان الله !

كيف يسلم إنسان يعيش في تلك المواطن التى يترأى فيها أهلها بالشر الذى

يوقد في النفوس ليران العداوة . ويؤجج سمير الشر ، فيلتهم ما بين الناس من
أواصر القرى ، وأسباب الحب والمودة ؟

فاللون الغالب في هذه الحياة التي كان يحياها العرب قبل الإسلام هو لون
الدم الذي يسيل طبقات السيوف وعوالى الرماح . . فما يستطيع لإنسان في هذه
البادية أن يتوقى الشر ، أو يأمن مبادرة الاحداث ، في أية ساعة من ليل
أو نهار !

إن القوم هناك قد فرغوا لأنفسهم ، وشدوا عزائمهم كلها إلى الحرب
والطعان . . وآمنوا جميعاً بسلطان القوة ، وأسلبوا وجودهم ووجوههم لهذا
السلطان . . فمن لم يكن ذنباً أكلته الذئاب !

هكذا كان الشر بادياً صارخاً مطلاً على الناس من كل أفق ، طالماً عليهم
من كل وجه . .

وشهادة القرآن الكريم عن هذه الحال أصدق شهادة . . حيث يقول جل
شأنه — منبهاً العرب إلى النعمة التي جاءهم الإسلام بها ، فنزع عنهم لباس الخوف
وخلع عليهم خلع السلام والأمن — « واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءاً
فألف بين قلوبكم ، فأصبحتم بنعمته إخواناً ، وكنتم على شفا حفرة من النار ،
فأنقذكم منها . . » (١) !

نعم ، . كيف يستطيع لإنسان أن يدفع عن نفسه هذا الشر المحيط به من كل
جهة . وأن يسلم من هذا الأذى المنفذ إلى الناس من كل صوب ؟ ؟ لأنه لا يكفي
في مثل هذه المواطن الغارقة في الشر والعدوان أن يكف المرء يده عن الناس ،
ويحبس لسانه عنهم ، ليسلم منهم . وينجو من أذاهم . فما أكثرهم ما يكون هذا
الموقف العف النظيف داعية إلى الهزم والسخرية من لاخلق لهم ، أولئك الذين
لا يقيمون قوتاً لخلق كريم ، ولا يحفلون بأصحاب الخلق الكريم . وما أكثر
ما يفرى الحلم والاحسان وكثيراً من السفهاء ، بالتطاول والسفاهة ، إذ يحسبون
هذا الموقف تعاضلاً وتعالى أو جبهة وعزاً . . وعلى كلا الحالين ، فإن هذا الموقف

يُتيح للشهفاء والضلال فرصاً للتعرض بأصحاب الاستقامة والجد ، ويفتح لهم طرقاً إلى النبل من المستقيمين الجادين ، لينخوضوا معهم في الإثم والضلال كما حاضروا ، حتى لا يكون في المجتمع من يشهد سقمهم وضلالهم ، وهو عن النعم والضلال بمعزل !

والعجب في أمر « محمد » مع قومه هؤلاء الذين عاش معهم في عزلة روحية ، وفي هجرة نفسية — أنه مع هذا لم يتحدث بربه وبنعمه ما يتبر شراً ، أو يبرت عذاره ، أو يدعو إلى قطيعة . .

فلقد كان « محمد » مع هذا الاحساس الذي يعيش به في قومه آثر إنسان في قريش عند فريش . . . أحبه العقلاء لعقله وكأله . وهابه السفهاء لجلال حلمه ، وكال عقله ، وعظمة نفسه ، فلم يكيدوا إله بكيد ، ولم يقفوا له في طريق ! .

على أن هذا العجب من تلك الحال يرتفع ، ويصبح أمراً مألوفاً ، واقعاً مع منطق الحياة ، ومجريات الأمور فيها ، إذا عرفنا أن الأخلاق الكريمة والسجايا النبيلة التي لبسها « محمد » منذ دنياه الأولى لم تكن ثياباً مستعارة أو حلياً زائفاً ، وإنما هي بعض نفسه ، وطبيعة من طبعه . . فمن — والحال كذلك — سمة من السمات الذاتية في « محمد » ، أشبه بملاح وجهه ولون جسده ، ثم هي مع هذا الارتباط الوثيق بينها وبين صاحبها — تبدو للتوسم فيها شيئاً فريداً في الكمال والتمام ، لا يرى في غير « محمد » ، ولا يقدر على الوفاء له ، والحفاظ عليه ، بلا وهن ولا ابتكاس غير « محمد » ! ومن أجل هذا كان الذي يرى محمداً في صفاته العالية تلك لا يوى شيئاً غريباً ، وإنما يرى إنساناً سورياً ، زانه الخلق الكريم ، كما يزين الوجه الصبوح صاحبه !

ويحدث الذين أسعدهم الزمان بمناجاة الرسول أنه « كان على الله عليه لو سلم إذا التفت التفت معاً ، وإذا مشى مشى تقليماً (١) » .

لأنه كيان واحد . وليس أوصالاً ممزقة يحويها جسد ، وينتمى مل عليها إلهاب ! كما يرى ذلك في أكثر الناس !

(١) الشفا تعريف حقوق المصطفى ، للفاض عياض جره أول من ٥٧

، إذا التفت التفت معاً ، ا

طبيعة متجانسة تؤلف بين أعضاء الجسد ، وكما يؤلف النغم الموسيقي بين
عديد الألوان من الألحان ا

كذلك شأنه صلى الله عليه وسلم فى صفات الكمال التى اشتمل عليها . .
لأنها أشبه بالصفة الواحدة ، تعمّل جميعها مقدّماته ، متفاهمة . . للحق ،
والعدل والاحسان .

وهكذا الشأن فيما بين ذاته وصفاته . . فليست صفاته شيئاً دخيلاً عليه .
لأنها بعض ذاته ، ولأنها لى المستوى الذى تنقطع دونه الأمانى والاطماع عن تطعمهم
همهم فى مساماته ، أو تنزع بهم أمانيتهم إلى التشبه به .
ومن هنا سكنت فيمن عاصروا ، محمدآء - قبل البعثة - دواعى
الحسد ، وانقطعت أسباب العداوة والبغضاء ا إذ لا يتحاسد الناس فى الميئوس
منه . ولا يتباغضون ا !

ويتلقى ، محمد ، دعوة السماء أنه رسول الله إلى الناس ، وحامل كلماته إليهم
بشيراً ونذيراً لقوم يؤمنون .

وما أن يصدع ، محمد ، بأمر ربه ، ويؤذن فى قومه : أنى رسول الله إليكم -
حتى تغلّى مراحل الحق والحسد ، وحتى تقصد صدور كثيرة ، فتلقى إلى ، محمد ،
بكل ما فيها من حنى ، وبغضة ، وشر ا !

فإذا جد فى الأمر؟ وماذا فى ، محمد ، مما لم يعهد القوم فيه من قبل ا ؟
لأنه الصادق غير المكذب ، .

ولأنه الأمين غير المتهم .

ولأنه الطيب الذى لا يخبث أبداً . .

ولأنه الشهيد الذى لا يهتر أبداً . .

ولأنه الجاد الذى لا يهزو والمتقى الذى لا يهزف ا

فماذا عداها بدا ؟

أن جاءهم رجل منهم على فترة من الرسل يدعوهم إلى الهدى ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور — أنفكروا ماضيهم فيهم ، وتنكروا لحاضره معهم ! أن كان الرسول إنسانا بشراً يقوم بالسفارة بين الله والناس ، تمتلئ القلوب ضغناً ، وتفيض النفوس حسداً .

إن القوم قد استكثروا على « محمد » اليتيم الفقير أن يكون مثل السماء على الأرض ، وسفير الله إلى الناس ! .

أفرغت الدنيا من أصحاب الجاه ، والرياسة حتى لا تجد السماء غير هذا اليتيم الفقير ، تجعله سفيرها إلى الناس ، وحامل كلمتها إلى العالمين .

إن كل ما عرفوا من صفات السكّال في « محمد » لن يرشحه لهذا المنصب الخطير ، ولا يقيمه على رأس هذه الجماعة التي لاتأخذ الحياة إلا من جانبها المادى ، ولا تحسب حساب الناس إلا به . .

« وقالوا: تَوَلَّاهُ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقُرَيْبَتَيْنِ عَظِيمٍ (١) ! أَمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ ؟ لَنْ يَنْصُرَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ، لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا ، وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَحْمَدُونَ (٢) » .

وهب « محمداً » الرجل الاول في قريش ، فإن ذلك لا يخرج به عن أن يكون بشراً ! .

وأنى لبشر أن يطول السماء ، وأن يعرف الطريق إليها ، وأن يأخذ ويعطى معها . ذلك إن يكن فلتقع الواقعة ، وليكن بطن الأرض خير من ظهرها ! ! « وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً »

(١) القرينان : مكة والطائف ، والرجل العظيم الذى يزعمونه في مكة هو الوليد بن المعيرة ، وفى الطائف عروة بن مسعود .

(٢) سورة الزخرف آية ٣٢ .

رسولاً ، (١) . . . وقالوا : لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً ، (٢) .

* * *

« أُمُّ يَسْمُونِ رَحْمَةً رَبِّكَ ؟ » .

هيات . . . هيات !

« إنك لرسول الله . والله يعلم إنك لرسوله . . . » (٣) .

« فاصدع بما تؤمر ، وأعرض عن المشركين » .

« يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ، قُمْ فَأَنْذِرْ ، وَرَبَّكَ فَسْكِرْ ، وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ، وَالرُّجْزَ فَاهْجِرْ ، وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ، وَارْجُبْكَ فَاصْبِرْ » .

وهنا يجمع « محمد » من كيانته رصيد أربعين عاماً من الشوائب الطيبة التي احتواها ، ومن الأخلاق الكريمة التي اشتمل عليها . . من الصدق ، والأمانة ، والعفة ، والاستقامة ، والصبر ، والرضا ، والقناعة ، والرحمة ، والحنان ، والحب ، فيضمها جميعاً إليه ، لتسكون له رداءً وسنداً ، مع ما تمده به الشهادة من قوى وأمداد . . فإنه في وجهه عداوة صارخة ، وفي مواجهة عدو مغيف محقق ، وفي قوم قد جعلوا أصابعهم في آذانهم ، واستغضوا ثيابهم ، وأصروا ، واستكبروا استكباراً . . وهو مطالب أن يسمعهم كلمة الله ، وأن يقيم الحجة عليهم . ثم هو حريص أشد الحرص على أن يستنقذهم من العمى . وأن يخرجهم من الظلمات إلى النور ، بما يحمل في قلبه الطيب الرضى من خير وعطف ومودة :

« أَقْدَ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ، حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ » . . « إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَايِهِمْ ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ

(١) سورة الإسراء آية ٩٤ .

(٢) سورة الفرقان آية ٧ .

(٣) سورة المنافقون آية ١ .

يُضِلُّ وما لهم من ناصرين . . . إنك لا تهدي من أحببت . ولكن الله يهدي من يشاء ،

« وما أرسلناك عليهم حفيظا . . . إن عليك إلا البلاغ » .

« اللهم اهد قومي . . فإنهم لا يعلمون »

ومن قلب منعّم بالحسرة^١ ، مخنوق بالآسى . لهذا اللجاج في العناد ، ولهذا الإصرار على الضلال الذى تقيم^٢ عليه قريش ، وتؤذى نبيها من أجله ، حتى لتنوشه رماحها ، وتتعاوره سهامها^٣ يوم أحد فتدعى جهنم ، وتكسر رباعيته . - من هذا القلب الرحيم الكبير تفيض معانى الآسى والحسرة ممزوجة بالإشفاق والرحمة ، مصورة فى تلك الكلمات الرقيقة : « اللهم اهد قومي . . فإنهم لا يعلمون » .

يا رسول الله !

يا نبي الرحمة . . !

ماذا يقال فيك فى مقام المدح والثناء — وكل مقاماتك مدح وثناء — بعد أن زكّتك السماء ، وقال فيك رب العالمين : « وإنك لعلى خلق عظيم » .

وأى كلام يبلغ صفتك ، ويحلى حقيقتك .^٤ وقد منحك الرحمن صفتين من صفاته : الرأفة والرحمة ، فقال فيك جل شأنه : « بالمؤمنين رءوف رحيم » ، !

فلا مدح ولا ثناء بعد أن خلّع عليك ربك حلال المدح والثناء !

إن كل قول يقوله المادحون بعد^٥ هذا ليس وصفاً لذاتك ، ولا تشخيماً لصفاتك ، وإنما هو تسليح وتمجيد ، وصلاة ودعاء ! يجد فيه القائلون سعادة ورضى ، ويقبسون منه نوراً وهدى ، ويستمدون منه مضاءً وعزماً !

فإذا وقفت ببابك أقبس من أضواء سيرتك ، وأنشق من عبير هديك ، وأنهل من موارد فيضك وفضلك ، فإنما هى وقفة صلوات وتسليمات عليك ،

استجابة لما أمر الله به المؤمنين في قوله تعالى : « إن الله وملائكته يصلون على
النبي . يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه ، وسلموا تسليما » .
فلا مدح ولا تناء ! فانك فوق المدح ، وفوق الثناء ! .
ولكن .

صلوات ، وتسليمات . .

ورحمات ، وبركات . .

الباب الأول الاسم .. والمسمى

« وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يُخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ »
« قرآن كريم »

هل هناك علاقة بين الاسم وصاحبه ! بمعنى أن دلالة الاسم تتحقق في المسمى ، وتفسر في صفاته ، وفي سلوكه في الحياة !

والذى يطلب الجواب على هذا السؤال لا يمكن أن يقع عليه في مقررات علمية ثابتة ، إذ لم تخضع هذه الظاهرة لدراسة علمية منظمة بعد ، وغاية ما عرفت الناس من وشائج القرين بين الاسم والمسمى إنما كان عن ملاحظات شخصية لأحوال فردية ، تصدق أحياناً ، ولا تصدق في كل حين !

على أن الذى يعنى بالتعمق في دراسة هذه الظاهرة ، ورصد النتائج التى تلوح من خلال هذه الدراسة — يقع على كثير من عجائب الانفاق بين المسميات والأسماء ، وقل ألا ينكشف للتأمل في اسم ومسماه شيء من التطابق والتوافق بينهما ، حتى ليكاد يعد ذلك من قبيل الخطأ في التأويل للحالات التى لا تتضح فيها علاقة بين الاسم وصاحبه ، استناداً إلى الحالات الكثيرة التى تبدو فيها تلك العلاقة واضحة أشد الوضوح ، لا تحتاج إلى كثير من النظر والتأمل !

وعلى أى ، فانا — كما قلنا — لا ندخل هذه الظاهرة مدخل الحقائق المقررة ، أو النظريات المحققة ، وإنما نعدّها من الأمور التى تنطوى على حقائق جديدة بالبحث عنها ، والوقوف على أسرارها .

وقد يبدو لسائل أن يسأل : إذا كان هناك علاقة أو شبه علاقة بين الأسماء ومسمياتها فكيف لا يتجه الناس جميعاً إلى أن يسموا ، أو يتسموا بالأسماء ذات الدلالات الجميلة الطيبة ، لتتضح على ذواتهم بعض ما فيها من طيب وجميل ؟

والأسماء مريحة للناس جميعاً ، مبسرة لهم أعظم اليسر ، لا يتكلفون لها ثمناً ، ولا يبدلون من أجلها جم سداً . . . فلكل إنسان أن يتخير لنفسه أو لولده ما شاء من الأسماء ، غير مضيق عليه ، ولا مطالب بحساب ، لما يختار ويؤثر من أسماء . . . فلم يعدل كثير من الناس عن الأسماء السكريمة الطيبة إلى أسماء كريمة منسوبة ؟ ولم تشيع فيهم هذه الأسماء السكرة الثقيلة لفظاً ومعنى ؟

وندع الجواب على هذا السؤال الآن إلى أن ننتهي من حديثنا عن العلاقة التي قلنا إنها قائمة بين الاسم والمسمى ، وأن نعرض لذلك بعض الشواهد المعتمدة على الملاحظة والتجربة !

يقول ابن قيم الجوزية : « لما كانت الأسماء قوالب للعاني ، ودالة عليها اقتضت الحكمة أن يكون بينهما ارتباط وتناسب ، وألا يكون المعنى معها بمنزلة الأجني المحض ، الذي لا تعلق له بها . فإن حكمة الحكيم تأتي ذلك ، والواقع يشهد بخلافه . . بل للأسماء تأثير في المسميات . وللمسميات تأثير بأسمائها في الحسن والقبح ، والحفة والثقل ، واللطافة والسكافة . . كما قيل .

وقل أن أبصرت عينك ذا لقب

إلا ومعناه — إن فكرت — في لقبه

« وكان صلى الله عليه وسلم يستحب الاسم الحسن ، وأمر إذا أبردوا إليه يريد أن يكون حسن الاسم ، حسن الوجه . . !

« وكان صلى الله عليه وسلم يأخذ المعاني من أسمائها في المنام واليقظة . .

« فقد رأى — في منامه — أنه وأصحابه في دار عقبة بن رافع ، فأتوا برطب من رطب طاب . . فأوله — صلى الله عليه وسلم — بأن لهم العاقبة في الدنيا ، والرفعة في الآخرة : وأن الدين الذي اختاره الله لهم قد أرطب وطاب (١) . .

(١) تأول الرسول الكريم : عقبة بالعاقبة ، ورافع بالرفعة . . وجعل العاقبة في الدنيا والرفعة في الآخرة لأن عقبة جاء في النطق قبل « رافع » وكذلك الدنيا تجيء قبل الآخرة .

« وتأول - صلى الله عليه وسلم - سهولة أمرهم يوم « الحديبية » من مجيء سهيل بن عمرو إليه (١) . . فقال : « سهل الله أمركم . »

« وكان - صلى الله عليه وسلم - يكره الأمانة المنكرة الأسماء ، ويكره العبور فيها . كما مر في بعض غزواته بين جهلين ، فسأل عن اسميهما ، فقالوا : فاضح ، ومخز ، فعدل عنهما ، ولم يجوز بينهما (٢) .

« وقد ثبت عنه - صلى الله عليه وسلم - أنه غير اسم « عاصية » وقال : أنت جميلة (٣) !

« وغير - صلى الله عليه وسلم - « حزن » - جد سعيد بن المسيب - وجعله « سهلاً » فأبى صاحب الإسم وقال : « السهل يوطأ ويمتنع » (٤) .

وسمى - صلى الله عليه وسلم - « حرباً » سهلاً ، وسمى « المضطجع » المنبعث ، وأرضاً عفرة سماها خضرة ، وشعب الضلالة سماه شعب الهدى ، وبنو الزنية سماهم بنو الرسدة (٥) .

ويقول ابن قيم الجوزية أيضاً : « ولما كان بين الأسماء والمسميات من الارتباط والتناسب والقراءة ما بين قوالب الأشياء وحقائقها ، وبين الأرواح والأجسام - عبر العقل من كل منهما إلى الآخر كما كان إياس بن مهاوية (٦) ، وغيره ، يرى الشخص فيقول : ينبغي أن يكون اسمه كيت كيت ، فلا يكاد يخطئ » .

و ضد هذا ، العبور من الاسم إلى مسماه ، كما سأل عمر بن الخطاب رجلاً عن اسمه ، فقال : جمرة ، فقال : واسم أبيك ؟ قال : شهاب ! قال : ممن ؟ قال : من الحرقه ! قال : فمن ذلك ؟ قال : بحرة النار ؟ قال فأين مسكنك ؟ قال : بذات

(١) سهيل بن عمرو هو الذي ندبته قريش إلى النبي وهو على جيش المسلمين في الحديبية قرب مكة ، فقد معه صاحبا .

(٢) زاد المعاد جزء ٢ ص ١٧ . (٣) صحيح مسلم .

(٤) صحيح البخاري - وسنن أبي داود . (٥) ابن أبي داود .

(٦) يضرب به المثل في الذكاء ، ونفاذ البصيرة .

لظى . . قال : اذهب ، فقد احترق مسكنك ، فذهب فوجد الأمر كذلك (١) »
فعبّر عمر من الألفاظ إلى أرواحها ومعانيها . .

ولما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة واسمها « يثرب » لا تعرف
بغير غدا الاسم ، غيره « بطيبة » لما زال عنها ما فى لفظ يثرب من التشريب ،
بما فى معنى طيبة من الطيب استحققت هذا الاسم ، وازدادت به طيباً آخر ،
فأثر طيبها فى استحقاق الاسم ، وزادها طيباً إلى طيبها . .
ويقول ابن القيم أيضاً :

« ولما كان الاسم الحسن يقتضى مسماه ويستدعيه من قرب ، قال النبي صلى
الله عليه وسلم لبعض قبائل العرب ، وهو يدعوهم إلى الله وتوحيده . « يا بني
عبد الله . . إن الله قد حسن اسمكم ، واسم أبيكم » .
« فانظر كيف دعاهم إلى عبودية الله بحسن اسم أبيهم ، وما فيه من المعنى
المقتضى للدعوة ؟

ويأخذ ابن القيم من الواقع العملى للحياة شاهداً حياً على ما بين الأسماء
والمسميات من علاقة التجانس والتطابق . فيعرض مشهداً من مشاهد القتال
بين طائفتين من الناس . . الأولى مؤمنة ، والآخرى كافرة . . تدور بينهما
الحرب فتنتصر الأولى وتنهزم الثانية .

والذى يقع فى نفس المشاهد للمعركة ، أو المستمع لأخبارها أن المعركة كانت
بين الإيمان والكفر ، بين المؤمنين والكافرين . . وأن النصر الذى أحرزه
المؤمنون إنما كان بما فى قلوبهم من قوة الإيمان الذى ثبت أقدامهم ، وملا
قلوبهم حمية وقوة !

ولكن ابن القيم ينظر فى ظلال هذه الواقعة فيرى فيها إلى جانب الإيمان
الذى كسب به المؤمنون المعركة دلالة أخرى من شأنها أن تكسب لأصحابها
النصر والغلب . . تلك هى دلالة الأسماء . . التى أدلت بنصيبها هذه المعركة ،
فكان النصر فى جانب الأسماء ذات الدلالات الموحية بالقوة والعزم ، وكان
الاندحار للأسماء ذات الدلالة الدالة على الضعف والخوار !

(١) موطأ مالك .

يقول ابن القيم : وتأمل أسماء الستة المتبارزين يوم بدر (١) . . كيف اقتضى القدر مطابقة أسمائهم لأحوالهم يومئذ . . .

« فكان الكفار . شيبه ، وعتبة ، والوليد . . ثلاثة أسماء من الضعف ، فالوليد له بداية الضعف ، وشيبه له نهاية الضعف ، كما قال تعالى : « الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ، ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبه » ، وعتبة من العتب — أى اللوم — فدلّت أسمائهم على عتب يحل بهم ، وضعف يناههم .

وكان أقرانهم : « عليا » و « عبيدة » و « الحارث » (٢) رضى الله عنهم . . ثلاثة أسماء تتناسب أوصافهم ، وهى العلو ، والعبودية ، والسعى الذى هو الحارث فعلموا عليهم بعبوديتهم وسعيهم فى حرث الآخرة (٣) .

* * *

وسواء أكان هناك تلازم خفى بين الاسم وممياه بحيث يمثلان معاً حقيقة واحدة أم لم يكن . . فإن الذى لاشك فيه أن للاسم مراحات تقع فى النفس عند ذكرها للاسم من الأسماء أو كلمة من الكلمات . . . فكلمات الدجاح والنصر ، والنفى والسعادة ، والتسباب ، تبعث فى النفس رضى ، وتشجيع فى القلب غبطة وروحاً ، على خلاف أضدادها من كلمات : الإخفاق ، والهزيمة ، والفقر ، والشقاء ، والهرم ، فإنها تشيع فى النفس اقتباضاً ، وتبعث فى الصدر وحشة وكآبة !

(١) يشير ابن القيم إلى المباراة التى وقعت أول معركة بدر ، فقد نذبت قريش لمبارزة ثلاثة نفر ، هم : شيبه ، وعتبة ، والوليد ، فتصدى لهم ثلاثة من الأنصار ، فأبّت قريش منازلهم ، وقالوا نريد من ينزلنا من قومنا ، فندب النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثة : على ، وحزم ، وعبيدة بن الحارث .

(٢) المشهور فى كتب الصيرة أن الثالث هو حمزة رضى الله عنه وقد جعل ابن القيم هبده بن الحارث اسمين ، هما : عبيدة ، والحارث . . ولهذا أغفل ذكر حمزة .

(٣) زاد المعاد جزء ٢ ص ١٩ ،

ولذلك حين نسمع اسم سعيد ، ومحمود ، ومحمد ، وحسن ، غديرك حين يصطك سمك بأسماء .. حرب ، وغضبان ، وأعرج ، ومجنذوب ونحوها .. فإنه يلتصق من الأولى روح من ريحها الطيب ، على حين يهب عليك من الثانية ريح بارد ثقيل ، قد يثير قشعريرة تسرى في كيانك كله ، وتملاً نفسك هما وكدرًا . وليس هذا شأن الأسماء ، والكلمات وحدها بل هو الشأن كذلك في المسموعات جميعها من أصوات وألحان .. فهديل الحمام ، وزقزقة العصافير غير نغيق الغرابان والبوم والفرق بينهما كالفرق بين موسيقى الأفراح والموسيقى التي تصحب الجنائز ، وتمش في مركب الموت .

وليس هذا أيضاً شأن المسموع من الأصوات والألحان وحده ، بل هو شأن المنظور من كل شيء .. فالمنظر الحسن الجميل يبعث في النفس ألواناً من مناعر الحسن والجمال ، على خلاف المنظر الشائن القبيح ، فإنه يلقى إلى الناس صوراً مفزعة مزعجة ..

وقد جاء توجيه النبي الكريم : « إذا أبردوا إليهم يريدوا أن يكون حسن الاسم حسن الوجه » .. جاء هذا التوجيه جامعاً لاختيار ما يحسن في السمع والنظر .

وننظر بعد هذا فيما كان لبني الإسلام من حظ ذلك سلام موفور في اختيار الاسم اللائق به ، وبالرسالة التي فدته السماء لها .

فقد بشر به عيسى عليه السلام باسم أحمد ، كما يقص القرآن الكريم في قوله تعالى على لسان عيسى عليه السلام : « ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد » . وإذا كانت نسخ الأنجيل الأربعة التي في أيدي الناس اليوم قد خلت من هذه البشرية على هذا الوجه الصريح ، فإن ذلك لا ينقض ما جاء به القرآن الكريم في الآية السابقة . إذ القرآن هو الحجة القائمة على مافي الكتب السماوية ، لأنه آخرها ، وضابط محكمها والمهيمن عليها ، وفي هذا يقول الله تعالى : « هو الذي أنزل عليك الكتاب بالحق ، مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ، ومهيماً عليه » . . وهيمنة القرآن على الكتب السماوية السابقة إنما تجيء من هذا الوجه الذي أشرنا إليه ، وهو أنه آخرها والضابط لها ، كما تجيء من وجه آخر ، وهو أن التوراة والإنجيل قد دخل عليهما من التحريف ، وللتبديل ،

مالا يُجمل الأطمئنان إليهما أمراً مسلماً به ، إذ أن الأناجيل ذاتها قد تعددت ، واحتلفت فيما بينها ، وهى على رغم تعددها - احتلافها لا تعتمد على أصل واحد ، ولا ترجع إلى الإنجيل الذى أنزل على عيسى عليه السلام . . وإنما هى روايات تتحدث عن سيرة المسيح ، رواها عنه بعض حواريه ، أو من اتصل بحوارييه أو سمع منهم ، وفى هذه السيرة عبارات من عظات السيد المسيح ووصاياه ، وقد يكون فيها بعض آيات من الإنجيل السماوى ، كان السيد المسيح يضمها عظاته ووصاياه ! وإذن فالأناجيل التى ذكرت سيرة المسيح ، تختلف فى تشخيص شخصية المسيح ، وفى تناول مواقفها باحتلاف الكتاب الذين كتبوا هذه السيرة ، ونضجوا عليها من عواطفهم ، ومن ألوان ثقافتهم ، مما جعل هذه الأناجيل تختلف ذلك الاختلاف ، كما يختلف إنسان عن إنسان فى تفكيره ، وفى تصوره للأحداث .

وقد جمع العالم المسيحى « فابرى سيوس » أكثر من خمسة وسبعين إنجيلاً ، وطبعها فى ثلاث مجلدات ، وكشف عن أوجه الخلاف بينها .

غير أن المعمول به الآن فى الديانة المسيحية أربعة أناجيل هى : « متى ، ولوقا ، ومرقس ، ويوحنا » حيث استقر العمل بها فى أول القرن الثالث .

وليس من ههنا دراسة تاريخية محققة للإنجيل السماوى ، أو الأناجيل التى اجتمعت محدثة عنه

ولما الذى وقف عنده ههنا هو أن القرآن الكريم قد ذكر آية صريحة تذكر على لسان السيد المسيح تلك البشرى التى أعلنها فى بنى إسرائيل مبشراً بمولد نبي اسمه « أحمد » . . « إني رسول الله إليكم مصداقاً لما بين يدي من التوراة ، ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد » ثم لا نجد هذه البشرى صريحة تملك الصراحة فى الأناجيل الأربعة التى اعتمدتها المسيحية . وإنما الذى جاء فيها إشارات يمكن أن تقول — فى شيء من التعسف والعسر — لتؤدى معنى يفهم منه ظهور نبي عربى يأتي من بعد المسيح ، موصوفاً بصفات الحمد . فمثلاً فى إنجيل

يوحنا . « إن كنتم تحبوني ، فاحفظوا وصاياي ، وأنا أطلب من الرب ليصليكم
البارفليط آحرأ ليصليكم معكم إلى الأبد (١) .

وفي هذا الانجيل أيضاً : متى جاء البارفليط الذي سيرسله إليكم الرب ، هو
روح الحق الذي من عند الرب ينبشني ، فهو يشهد لي ، وتشهدون أقيم أيضاً ،
لأنني معكم من الابتداء .

وتفسير كلمة « البارفليط » في القاموس العبري ، بكلمة الحمد ، أو كثير الحمد .
ولعل أعجب ما في هذا الأمر الذي يبلغ مبلغ المعجزة أن يحى عيسى مبشراً
بذي يأتي من بعده اسمه « أحمد » ، ثم يظل هذا الاسم في كتاب مكنون لا يسميه
أحد ، حتى يحى صاحبه « محمد » صلى الله عليه وسلم ، فيلبسه ، ثوباً من أثواب
الحمد التي خلعها الله سبحانه وتعالى عليه .

يقول القاضي عياض :

« فهو — أي النبي — أحمد الحامدين ، وأحمد الممجدون ، ومعناه الحمد
يوم القيامة ، ويعتبه ربه هناك مقاماً محموداً كما وعدته . . يحمده فيه الأولون
والآخرون بشفاعته لهم . وسمى أمته في كتاب أنبيائه بالحامدين (١) ، فحقيق أن
يسمى « محمداً » و « أحمد » .

« تم في هذين الإسمين من عجائب خصائصه ، وبدائع آياته فن آخر .. هو
أن الله جل اسمه حمى أن يسمى به أحد قبل زمانه . »

أما « أحمد » الذي أتى في الكتب ، وبشرت به الدنيا ففتح الله تعالى بحكمته
أن يسمى به أحد غيره . ولا يدعى به مدعو قبله ، حتى لا يدخل لبس على ضعيف
القلب أي شك . وكذلك « محمد » أيضاً ، لم يسم به أحد من العرب أو غيرهم ،
إلى أن شاع تبيل وجوده صلى الله عليه وسلم وميلاده أن نبياً سيبعث اسمه « محمد » ،
فسمى قوم قليل من العرب أبناءهم بذلك رجاء أن يكون أحدهم هو . و « الله
أعلم حيث يحل رسالته » ثم حمى الله سبحانه كل من تسمى به أن يدعى اليهود

أو يدعيها أحده له ، أو يظهر عليه سبب يشكك أحداً في أمره ، حتى تحققت السمات (١) له صلى الله عليه وسلم ، ولم ينازع فيهما (٢) .
وفد أخبر القرآن الكريم أن الله سبحانه وتعالى اختار لنبيه « يحيى » عليه السلام الاسم الذي سمي به ، فقال تعالى : « يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى ، لم نجعل له من قبل سمياً » .

فقد حفظ الله سبحانه وتعالى اسم « يحيى » من أن يسمى به أحد حتى جعله سبحانه اسماً لنبيه الكريم « يحيى » عليه السلام .
كذلك سمى الله سبحانه اسم « أحمد » أن يسمى به أحد حتى كان النبي الكريم « محمد » هو الذي يخلق عليه هذا الاسم الكريم .

على أن هناك آية معجزة من آيات الإعجاز فيما أراد الله سبحانه لنبيه « محمد » من تكريم بهذا الاسم الكريم ، فقد أعلن اسمه على لسان عيسى عليه السلام قبل مولده بنحو ستة فرون ، ثم طله . الاسم في أفواه الخواريين ، وفي صحف الإنجيل ، دون أن يحظر ببال أحد أن يسمى به ابناً من أبنائه على عادة الناس في تلك السكهم على تسمية أولادهم بأسماء الديين ، والقديسين ، وأهل الفضل والخير من الناس ، عسى أن يسميوا من بركة أصحابها شيئاً ، أو أن يكون لهم من اسمهم الطيب نصيب .

و « أحمد » في ذاته اسم جميل ، سمح ، حلو النغم ، عذب الجرس ، يفري بالتسمي به ، حتى عند من لا يحسن العربية ولا يعرف مدلوله الذي يدل عليه فكيف ظل هذه القرون دون أن يتفق لإنسان أن يقع عليه أو ينتفع به ؟ إن ذلك إن دل على شيء ، فإنما يدل على أن الله قد أثر فيه بهذا الاسم الكريم ، واختصه به ، وجعله على أفواه الناس ، إرهاباً بمولد النبي الذي سيجعل هذا الاسم ، وبشرى بين يدي بعثته . وفي ذلك آية للمستبصرين من أهل الكتاب الذين يعرفون صفات هذا النبي الأسمى ويجدون مكتوباً عندهم

(١) السمات : هما الاسمان : أحمد ، محمد .

(٢) « الشفا » للقاضي عياض جزء ١ ص ١٩٠ .

فى التوراة والإنجيل، ثم تصرفهم عنه قوة علوية، وتعقد ألسنتهم عن أن نتعامل به، وتجعله علماً لإنسان من الناس .

و (محمد) اسم علم، وهو منقول من صفة .. من قولهم رجل (محمد) وهو الكثير الخصال المحمودة، والمحمد فى لغة العرب هو الذى يحمد حمداً بعد حمد، مرة، بعد مرة (١) .

قال السهيلي: لم يكن محمداً حتى كان أحمد .. حمد ربه، فنبأه — أى جعله نبياً — وشرفه، فلذلك تقدم اسم (أحمد) على الاسم الذى هو (محمد)، فذكره عيسى ابن مريم باسمه (أحمد) (٢) .

وانظر بعد هذا كيف اختار الله لنبه هذا الاسم الطيب « محمد » فسماه « أحمد »، قبل أن يولد . و « محمداً » بعد أن ولد .. فهو الحمد لربه، المحمد من عبادته .. حمد ربه على ما أفاء عليه من فضل، وما أسبغ عليه من نعم، وحمده الناس بما جاءهم به من الحق، وما هداهم إليه من الإيمان، فهو حامد لله، « محمد » محمود من الله ومن الناس .

وبهذا كان النبى بهذين الاسمين جامعاً لصفات الحمد كلها .. فهو الحمد المحمد المحمود، فإذا كان بعد ذلك من يحمد الله فهو من حمد « أحمد » يعترف، وعلى هدايه يهتدى، وإذا كان بعد ذلك فى الناس من يحمده الناس فهو لما يحمد به « محمد » تبع، ولما يفتنى به عليه تابع ومقتد .

ثم انظر فى ذات « محمد » نفسه، وكيف كانت المحامد كلها مجمعة إليه فى أكل صورها، وأجمل أوضاعها . فما كان من خلق كريم محمود فهو فى « محمد » على أوفى صورة وأتمها، وما كان من فعل طيب محمود، فهو فى « محمد » على أجمل حالة وأحسنها .

(١) نهاية الأرب للتويزى جزء ١٦ ص ٧٥ .

(٢) الروض الآنف للسهيل جزء ١ ص ١٥٦ .

وليس يجمع هذه الصفات الكريمة اسم أتم وأعدل من اسم « محمد » ، فقد يكون في أسماء : أمين ، وصادق ونبييل ، وعظيم ، وطيب ونحوها ما ينفي عن صفة أو أكثر من الصفات الطيبة التي إن صدقها مسماها ، أو صدقت هي في المسمى بها كان ذلك دلالة على انصاف صاحبها بالصفة التي تدل عليها دون أن ينسحب ذلك ، إلى غيرها من الصفات : حمداً ، أو ذمماً . . فالمسمى بالأمين ، إن طابق الاسم فيه المسمى ، كان نصيبه من الصفات الطيبة صفة « الأمانة » ، وقد يكون له إلى جانبها صفات أخرى لا تحمد كالجن أو البخل ، ونحوها . . وكذلك قل في الصادق ، والنبييل ، والعظيم ، والطيب ، وما شابه ذلك من صفات . . فقد ينال الإنسان منزلة النبيل أو العظمة بصفة كريمة أو أكثر دون أن يكون من لوازم ذلك أن يحوى الصفات الطيبة كلها . . أما « المحمد » فلا يكون على تلك الصفة حتى يجمع الجاهل كلها ، وحتى نكون كل أقواله وأفعاله على الوجه الذي تحمد فيه عن كل الناس ، وفي جميع الأحوال ، وإن يكون « محمداً » من جمع أكثر المحامد ثم فاته بعضها أو القليل منها .

فإذا نقول بعد هذا في ذلك التوافق بين محمد « الذات » ومحمد « الاسم » لذي سميت به تلك « الذات » ؟ .

قد يقول قائل : وماذا في هذا التوافق ؟ ولم لا تكون الصدقة وحدها هي التي جمعت بين « محمد » الوليد وبين هذا الاسم « محمد » ؟ حتى إذا تألق « محمد » وعلا ذكره في الوجود كان كل شيء مهما صغر ، وكل حدث مهما ضؤل ذاتاً أي شأن . . له تقدير وحساب ، تكثر دلالاته ، وتتعدد مفاهيمه ، ما دام قد اتصل بالنبي ولا بس حياته ؟ ؟

ونقول : إن في ظاهر ذلك القول شيئاً من الحق . . ولكن ليس على إطلاقه في كل ما يتصل بالنبي . . !

حقاً إن عظمة العظيم تلتقي على كل شيء اتصل به ألوانا وظلالا تجعل له في مشاعر الناس مكاناً غير مكانه الذي له ، فيبدو صغيره كبيراً ، وقليله كثيراً ، وواضعه غامضاً ، وقريبه بعيداً . .

ولكن ليس ذلك على إطلاقه - كما قلنا - إذ هناك في حياة العظيم أمور هي في ذاتها رائعة ، مبهجة ، مذهلة ، معجزة . . لا يختلف عليها الناس ، ولا يتباعد بينهم شقة الخلاف إن اختلفوا !

وهنا في تسمية « محمد » ، بمحمد لا يمكن أن يكون ذلك ولبد الصدفة بحال أبداً ذلك أن اسم « محمد » لم يكن من الأسماء المعروفة الشائعة يوم مولد النبي . . وأن الذين تسموا بمحمد كانوا أفراداً . . قيل لإنهم خمسة ، وقيل لإنهم سبعة . . وكلمهم كانوا في عصر النبوة وبين يديها ، وقد أدرك معظمهم الإسلام فمن أين لآمنة بذت وهب أن تقع على هذا الاسم . الذي ربما لم يكن قد طرق سمعها ، أو جرى على لسانها من قبل أن تتحرك به شفتاها ، حين اختارته اسماً لوليدها اليتيم ؟

ثم لو فرض أن اسم « محمد » كان من الأسماء المعروفة عند العرب ، فإن الاتجاه إليه لم يكن من الأمور المنتظرة في شأن هـ الوليد القرشي ، الهاشمي . إذ أن ضخامة الأسماء . في لفظها ، وفي مدلولها . كان لها الشأن الغالب في تسمية المولودين من أشرف قرينين . مثل : حفظة ، ومرة ، وأسد ، وفهر ، وغالب ، وعبد العزى ، وعبد الدار ، وعبد اللات ، وعبد مناة . .

وما أشبه ذلك من الأسماء التي تلقى في قلوب سامعيها الرعب ، والفرع ، وتسكسو مسماها هيبة وقوة - وقد أشرفنا من قبل إلى موقف « حزن » جده سعيد ابن المسيب من الاسم الذي أراد الرسول أن يسميه به وهو « سهل » ، فأبى ، وقال : إن السهل يوطأ ويمتن ، : فكان المتوقع لوليد آمنة بذت وهب أن تتمخبر له إسماً من تلك الأسماء ذات الإشعاع القوى النفاذ إلى مواطن الإرهاب في الناس !

فكيف تنفذ الصدفة بين هذه الحوائل جميعها ، وتحمل إلى ذلك الوليد اليتيم هذا الاسم الفريد اليتيم من بين هذا العديد من الأسماء المنصوبة في قائمة أشرف العرب وأبطالها ؟ ثم كيف تظل هذه الصدفة ذلك الزمن الطويل - والصدفة لحظة عابرة . تجيء خلصة وتذهب خلصة - كيف تظل هذا الزمن الطويل محتفظة للنبي بهذا الاسم الذي سمي به ، دون أن يزحزحه عن مكانه لقب ، أو دون أن تشاركه كنية ؟ وما أكثر الانقلاب والسكنى : . وقل أن يكون في العرب من

لا يكون له كنية أو لقب ، أو كنية ولقب معاً أو عدة ألقاب وكنى ! تعلم على اسمه فلا يكاد يذكر على لسان ؟

كيف يظل « محمد » ، هو « محمد » . . لا كنية ، ولا لقب حتى يكون هو الذى يكنى نفسه « أبا القاسم » .. بعد أن ولد له مولوده « القاسم (١) » .

كيف يكون للصدفة هذا التصرف المتمكن من الأحداث ، الممتد مع الزمن الجارى على الحكمة والمسطى ؟ كيف وتأن الصدفة أن تكون خلصة خاطفة ، وأن تجيء على غير حساب ، وأن تقع بغير تقدير . هكذا خبط عشواء ؟ !

إن يكن ذلك شأن الصدفة فإذا تركت للتدبير والحكمة ؟ وأين تكون مواقع أفعال الله . ومازل رحمته ؟ وأين آيات تدبيره وحكمته ، فيمن يصطفى ويختار من عباده ؟

وأكثر من هذا . !

فإن الفرعين الزكيين اللذين ولدا « محمدا » قد أراد الله لهما اسمين كريمين يليقان بهذا النبي العظيم الذى سيجسب إليهما . فأبوه « عبد الله » وأمه « آمنة » ، والدين الذى جاء به « محمد » هو دين العبودية الخالصة لله : « إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً » ، والشريعة التى يدعو إليها « محمد » شريعة أمن وسلام : « يا أيها الذين آمنوا ادخوا فى السلم كافة » ، ولا تتبعوا خطوات الشيطان ، إنه لكم عدو مبين » .

فالعبودية والأمن هما الابدان الكريمتان اللتان قدمتا محمداً إلى الإنسانية ، وأطلعتا شمسهما على هذا الوجود !

وأكثر من هذا أينما فإن اسم المرأة التى أَرْضَعته يدخل فى هذه الظاهرة التى نتحدث عنها . . فاسمها « حليلة » ، وموطنها « نجد » وقومها بنو « سعد » ! ولنا أن نقول إن محمداً قد رضع الحلم من حليلة ، إلى ما أفاض عليه ربه من فضله ، وأذافه من رحمته ! وأن شأنه وشأن شريعته العلو والإسماع .

(١) والقاسم : صفة من صفات النبى .

وإذا كان من الحائز أن يسلم اسم الأب أو الأم أو الموضع من ضلالات
أسماء الجاهلية وشذاعتها ، وسوء مواردها ومصدوها ، فإن مما لا يمكن أن يكون
إلا بتدبير أن تسلم هذه المسميات أسماءها جميعاً ، فيسلم اسم أبيه ، واسم أمه ،
واسم مرضعته ! ، ثم لا تكون بحيب تخلو من العيوب والمقايح ، بل تزين
بأحسن ما يمكن أن يزين به اسم من صفات ، ويجمع إليه من خير .
ومن عجب أن تكون هذه الأسماء .. عبد الله ، وآمنة ، وحليمة « أسماء
غير شائعة ولا غالبة ، ثم يجتمعن على نسق !

وقليل جداً في العرب - قبل الإسلام - اسم « عبد الله » ، فما عرف العرب
العبودية الخالصة لله ، حتى عند من عرف منهم أن للعالم إلهاً هو الله ، بل كان
ولاؤهم ، وعبوديتهم للأصنام التي عبدوها من دون الله . فضافوا أنفسهم إليها
وقالوا : عبد العزى ، وعبد اللات ، وعبد مناة ، وعبد ود ، وقد كان أقرب
شئ إلى عبد المطلب إذ أضاف ابنه « عبد الله » هذا إلى معبود ، أن يضيفه إلى
صنم من تلك الأصنام .. أما أن يضيفه إلى « الله » ، فذلك أمر لا يعلم تأويله
إلا الله . . !

وكذلك اسم أمه « آمنة » بذت وهب ، واسم مرضعته حليمة السعدية ..
كان أقرب شئ إليهما من الأسماء ماشاع بين العرب الجاهليين : كفراء ،
وحنساء ، وأم الهيثم ، وما شابه تلك الأسماء .. ولكنه فضل من الله الذي شمل
النبي من قبل أن يولد ، وبعد أن ولد ، واصطفى للنبوة . وفي هذا يقول الله
سبحانه وتعالى لنبيه الكريم : « وكان فضل الله عليك عظيماً » .

وبعيد أننا نلتبس هنا من دلالات الأسماء على مسمياتها شيئاً يضاف إلى
جلال النبوة ، أو يزيح قيامها على أصول ثابتة وطيدة من الحق والعدل والخير ،
فإن ما نقيمه السماء ليس في حاجة إلى شئ يدعمه أو يستنده !

ولكن الذي نلتصقه من هذا التوافق المطرد في اجتماع الأسماء الطيبة الزكية
كلها للنبي في شخصه ، وفي أبويه ، وفي مرضعه - الذي نلتصقه من ذلك هو تلك
العناية الصمدانية التي حمت حمى الرسول أن يطوف به طائف سوء ، أو يلم

به طيف خبيث .. إنه حمى النبوة العظمى ... وإنه لنى حماية الله ورعايته
وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

• • •

ونجيب الآن على السؤال الذى 'افترضناه' آنفاً . وهو : إذا كان هناك
علاقه ، أو شبه علاقته بين الأسماء ومجياتها ، فكيف لايته الناس جميعاً إلى
أن يسموا ، أو يتسموا بالأسماء ذات الدلالات الجميلة الطيبة ، لتتضح على
ذواتهم بعض ما فيها من طيب وجميل ؟؟

ذلك سؤال يدور فى نفس أى إنسان يقف على هذه الظاهرة ، ويعلم من
أمرها شيئاً .

والأمر ليس من السهولة واليسر كما يبدو لأول وهلة . إن الأمر فى ظاهره
مطلق إطلاقاً تاماً ، بلا قيود ، ولا حدود .. يتناوله المرء من قريب ، كما يتناول
الهواء برئته ، أو يغترف من النور بعينه . فما على الإنسان إلا أن يعتمد أى
اسم يريد ، فيحرك به شفثيه ، وبسمى به من يشاء ، فإذا الاسم ملك له ، وإذا
المسمى محكوم بهذا الاسم مستظل به !

هذا ما يبدو فى ظاهر الأمر ، ولكن الواقع يشهد لخلاف ذلك . فحين
نستعرض أسماء الناس ، أو « أعلامهم » نجد عجباً عجباً ... فهناك كثرة كثيرة
من الأسماء الجافية ، أو الموحدة ، أو المستقبحة . قد ألقاها الناس على أبنائهم
وكانهم تحت سلطان قاهر حملهم عليها ؛ حتى يبدو أن الناس لو حلوا وشأنهم
لما جرت هذه الأسماء على ألسنتهم ، ولقروا منها فراراً ..

فإنك لتجد فى الناس من سمى ابنه . مشحوتاً ، أو شحاتاً ، أو مسروقاً .
أو حابساً ، أو كلباً ، أو حماراً ، وليس بينه وبين الأسماء الجميلة — فى ظاهر
الأمر — حاجز أو حائل .

ولكن الأمر على خلاف هذا .. إن الحياة تفرض على الأحياء أن يشغلوا
كل جانب فيها : الحسن والقبيح . والسهل والوعر ، والخصب ، والجندب ، حتى
نحتفظ بتوازنها ، فلا يرجح جانب ويخف جانب ، فتضطرب ، وتفسد ،

ولو كان للناس أن يتطلقوا من غير أن تصحبهم هذه الخيوط غير المنظورة التي تمسك بهم - لكأن وجعهم جميعاً واحدة . ولاختاروا الحس منها وهجروا القبيح ، ولعمروا السهل دون الوعر ، وأهروا في الخصب دون الجذب ، ولما رأينا أننا نتمكن الصحراء أو نعيش بين الثلوج أو في الأدغال ؟

وليس ذلك شأن الإنسان وحده ، بل إنك لتجد عالم الحيوان محكوما كذلك بهذه القوة الخفية ، ومشدودا بتلك الخيوط غير المرئية ... فهناك طيور تعيش في القفر ، لا ظل ، ولا ماء وليس بينها وبين الماء والظل إلا أن تفرد أجنحتها وتنطلق إلى هذا النعيم الذي حرمت منه ، فتبلمنه فن غدرة أو روحة من غدواتها أو روحاتها !

وأكثر من هذا ، فإننا نرى « العصفير » مثلاً في المسكان الواحد ، في البلد الواحد ، بعضها ينشئ الدور ، ويخترق الأبواب والنوافذ ، ويتعرض للهلاك في سبيل النقاط حبة أو فتاة خبز ، على حين يكون على رمية منها مخازن الخبواب في العراء ، وفي مواطن الحصاد والدرس ، يغشاها كثير من هذه العصفير ، وينال حاجته منها من قريب !

ولا تسأل : ما هذا ؟ فذلك تقدير العزيز العليم . الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى !

ولا نجد بداً من أن ننقل هنا نظرة من نظرات « الجاحظ » النافذة في هذا الأمر ، فإنه لم تقل منه ملاحظة هذه الظاهرة ، ولم تغب عن باله في دراساته للحياة وللأحياء !

يقول الجاحظ :

« واعلم أن الله تعالى إنما خالف بين طبائع الناس ليوفق بينهم ولم يجب أن يوفق بينهم فيما يخالف مصالحتهم .

« لأن الناس لو لم يكونوا مسخرين بالأسباب المختلفة ، وكانوا مخيرين (١)

(١) في الأصل مجبرين وهو تصحيف .

في الأمور المتفق والمختلفة لجاز أن يختاروا بأجمعهم الملك والسياسة ،
وفي هذا ذهاب العيس وبطلان المصلحة ، والبوار والتواء (١) .

« ولم يكونوا مسخرين بالأسباب ، مرتين بالعلل لورغبوا عن الحجابة
أجمعين ، وعن البيطرة والقصابة والدباغة (٢) .

« ولكن كل صنف من الناس مزين عندهم ما هم فيه ، ومسهل ذلك عليهم
فالخائف إذا رأى تقصيراً من صاحبه أو سوء حذق ، أو خرقاً ، قال له :
باحكام ! .

« والحجام إذا رأى تقصيراً من صاحبه قال له . يا حائك !
ولذلك لم يجمعوا على إسلام أبنائهم في غير الحياكة ، والحجابة ، والبيطرة
والقصابة .

« ولولا أن الله تعالى أراد أن يجعل الاختلاف سبباً للاتفاق والائتلاف ؛
لمسا جعل واحداً فقيراً ؛ وآخر طويلاً ؛ وواحداً حسناً والآخر فييهاً ؛
وواحداً غنياً ؛ وآخر فقيراً ، وواحداً عاقلاً وآخر مجنوناً ؛ وواحداً ذكياً ؛
وآخر غيباً .

« ولكن خالف بينهم ليختبرهم ؛ وبالاختيار يطيعون ؛ وباطاعة يعدون !
« ففرق بينهم ليجمعهم ؛ وأحب أن يجمعهم على الطاعة ليجمعهم
على المشيئة .

« فسبحانه وتعالى ما أحسن ما أبلى . وأحكم ما صنع وأتقن ما دبر !
« لأن الناس لو رغبوا كلهم عن عار الحياكة لبقينا عراة ولو رغبوا
بأجمعهم عن كد البناء لبقينا بالعراء ، ولو رغبوا عن الفلاحة لذهبت الأقوات ؛
ولبطل أصل المعاش .

« فسخرهم على غير إكراه ، ورغبهم من غير دعاء !

(١) التواء : الهلاك .

(٢) كانت أمثال هذه الصناعات والحرف مما تأماه النفس العربية .

ولولا اختلاف طبائع الناس وعلمهم لما اختاروا من الأشياء إلا أحسنها ،
ومن البلاد إلا أعدلها ، ومن الأعمار إلا أوسطها .

• ولو كان كذلك لتناحروا على طلب الواسط ، وتشاجروا على البلاد
العليا ، ولما ربحهم بلد ، ولما تم بينهم صلح !
• فقد صار بهم التسخير إلى غاية القناعة !

• وكيف لا يكون كذلك وأنت لو حولت ساكني الآجام إلى النياقي ،
وساكني السهل إلى الجبال ، وساكني الجبال إلى البحار ، وساكني الوب
إلى المدر — لأذاب قلوبهم الحميم ، ولألقى عليهم فرط النزاع ..

ثم يقول :

• وليس على ظهرها — أي ظهر الأرض — إنسان إلا وهو عجب بعقله ،
لا بسره أنه له ما اغيره . ولولا ذلك لما توارى كدأ ، ولذا بر حسدا ! .

• ولكن كل إنسان وإن كان يرى أنه حاسد في شيء فهو يرى أنه يحسد
في شيء !

ثم يصير الجاحظ إلى ما نحن فيه من الأسماء والمسميات فيقول :
• ولولا اختلاف الأسباب لتنازعوا بلدة واحدة ، واسما واحداً ، وكشي
واحدة .

• فقد صاروا — كما ترى — مع اختيار الأشياء المختلفة إلى الأسماء القبيحة ،
والألقاب السمجة !

• والأسماء مبذولة ، والصناعات مباهة ، والمتاجر مطلقة ، ووجوه الطرق
متخللة .

• ولكنها مطلقة في الظاهر ، مقسمة في الباطن ، وإن كانوا لا يشعرون
بالذي دبره الحكيم من ذلك ، ولا بالمصلحة فيه .

فبيحان من حجب إلى واحد أن يسمى ابنه محمداً ، وحجب إلى آخر أن
يسميه شيطاناً ، وحجب إلى آخر أن يسميه عبد الله ، وحجب إلى آخر أن
يسميه حماراً .

به . أن ماورد في القرآن من ذكر لمحمد وأحمد قد أضيف إليه فيما بعد ، وذلك رداً على الحجة القائلة : إن أمر الرسالة ما كان ليستقيم ، لو عدل بعد الرسالة إلى اسم محمد .

وفي القرآن الكريم : وإذ قال عيسى ابن مريم ، يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما ببيدي من التوراة ، ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد . ونفساً على الإسلام ما كان من اشتغال كلمة البارقليط ، اليونانية التي وردت في الإصحاح الرابع عشر من إنجيل يوحنا ، والتي يدل معناها على (محمد) .

ونقول : إن ما استدلل به المستشرق « سبرنجر » ، مما نقله من بعض الروايات المدسوسة في كتب السيرة ، ينطوي بالكذب والتلفيق :

فأولاً : ما قيل من أن عبد المطلب جد النبي - صلى الله عليه وسلم - كان ولد دولد اسم « قثم » ، وأنه لما مات هذا الولد حزن عليه ، ثم لما ولد لآمنة بنت وهب ومحمد ، سماه « قثم » ، إحياء لذكرى ابنه الميت ، وذلك بعد ثلاث سنوات من موته - هذا القول يكذب بعضه بعضاً . إذ كيف ينتظر الأب ثلاث سنين حتى يولد « محمد » ، ليسميه « قثم » - أفأكان في أبناء عبد المطلب من يولد له ولد خلال هذه المدة ؟ وكيف وكان له عشرة أبناء ؟

وثانياً : إذا كان عبد المطلب قد سمي حفيده محمداً « قثم » ، ثم عدل عن ذلك بعد أن علم من أمه أنه قد أمرت في منامها أن تسميه محمداً ، فعدل عن ذلك وسماه محمداً - إذا كان ذلك كذلك فكيف يحفظ هذا الاسم المقترح ، الذي لم يشع في الناس ولم يكن إلا حديثاً عابراً بين عبد المطلب وآمنة - كيف يبقى له ذكر في الحياة بعد هذا ؟

أما القول بأن رسول الله قد ظل يحمل اسم « قثم » ، إلى أن كانت البعثة : فكان ذلك الاسم لقباً نبوياً له على حين ظل اسم « قثم » هو العلم عليه - فإن هذا القول تكذبه الشواهد كلها ، ولو أن ذلك كان له أثر من الصحة لما كان حديث قريش إلى النبي إلا بهذا الاسم « قثم » ، ولما عدلت عنه أبداً !! فهل كان شيء من هذا ؟

« سبحانك ما يكون لنا أن نتكلم بهذا ، سبحانك هذا بهتان عظيم » .

* * *

نعود بعد هذا ، فقرر أن الاسم الذي سمي به النبي ، والاسم الذي بشر به عيسى قبل مولده ببضعة قرون - هذا الاسم ليس بمحدد اسم ، وإنما هو دلالة من دلالات النبوة ، ومعجزة من معجزاتها . .

فقد سمى الله اسم محمد ، أن يسمى به أحد قبل النبي . ثم سمى اسم محمد ، أن يظهر إلا بين يدي النبوة ، وألا يسمى به إلا بضعة فقر من العرب ، طمعوا أن يكون أبناؤهم النبي المنتظر ، الذي أظل زمانه ، وبدأت تباشير مبعده ، ثم سمى الله كذلك من سمى بهذا الاسم أن يدعوا النبوة أو يدعيها لهم أحد !

ولو أراد أتباع محمد ، الذين آمنوا بشريعته ، وعرفوا حقيقة نبوته ، وشاهدوا عن قرب أنوار السماء تفيض عليهم من بينهم . . لو أنهم أرادوا أن يتخيروا له الاسم الذي يرونه جديراً به ، مناسباً لجلال النبوة وعظمة النبي ، لما وجدوا أعدل ، ولا أكرم ، ولا أنسب من اسم محمد ، ! .

فسبحان من له الخلق الأمر ، ومن بيده ملكوت السموات والأرض ، ومن إليه يرجع الأمر كله ! . .

« ألا له الخلق والأمر . تبارك الله رب العالمين » .

الباب الثاني

النبوة . . والنبي

هل النبوة ضرورة إنسانية :

نازع كثير من الناس - قديماً وحديثاً - في أمر النبوة . وهل هناك ضرورة إنسانية تدعو إلى أن يقوم في الناس أنبياء ورسول يسفرون بين الله وبين الناس ، حاملين إليهم وصايا السماء وشرائعها ؟

والناس في هذا مذاهب وشيع :

فالمؤمنون بالشرائع السماوية يعتقدون أنهم إنما أخذوا شريعتهم عن رسول من عند الله . وأن هذا الرسول لإنسان من بينهم ، يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإنما اختاره الله منهم ليحمل إليهم شريعته .

وأما غير المؤمنين بشرائع السماء فلا يتصورون أبداً أن يكون بين الإنسان من الناس صلة بالعالم العلوي ، لاختلاف الطبيعة في كل من العالمين : الأرضي والعلوي . . هذا إذا صح - عند القائلين بهذا الرأي - وجود للعالم العلوي . . أما الماديون فلا يعترفون أصلاً بوجود للعالم العلوي . أو عالم الروح . ولذا فنال رأياً عندهم في رسل الله هو الإنكار الصريح للرسالات السماوية ، وللرسل ، والله أيضاً !!

* * *

ولانريد أن نقف طويلاً عند هذه الآراء المتخالفة في شأن الرسل ، وفي طبيعتهم ، وفي الضرورة الإنسانية الداعية إليهم ، وفي إمكان اتصال الإنسان بالمالأ الأعلى إذا دعت السماء لنيل رسالتها إلى الناس !

لأريد أن تقف طويلاً هـا ، حيث أن لنا وقفه في هذا الشأن عند الحديث
عن الرسالة المحمدية !

ولكن أريد أن أعرض - في إيجاز - وجهة نظر المؤمنين بالرسول والمنكرين
لهم ، لنجعل من ذلك مدخلاً إلى الحديث عن نبوه النبي الأعظم محمد بن عبد الله ،
عليه صلوات الله وسلامه !

ولا حديث لنا مع المؤمنين برسل الله وأنبيائه في هذا الأمر ، فذلك هو
إيماننا وعقيدتنا . . وإنما نقف معهم صفواً واحداً في وجه المنكرين للنبوات ،
على اختلاف مذاهبهم وتعدد آرائهم . . ولا حديث لنا أيضاً مع الماديين الملحدون
الذين ينكرون ما وراء المادة ، ولا يعترفون بالإله الخالق ! إذ أن الحديث في
شأن الرسل والأنبياء القائمين بالسفارة بين الله والناس لا مساغ له إلا في ظل الإيمان
بالله ، عند الذين يؤمنون به ! وإنما حديثنا مع أولئك الذين يعترفون بوجود
الله ، ويؤمنون به ، ولكنهم لا يتصورون قيام رسل بين الله والناس ولا يرون
داعية تدعو إلى نبي أو رسول يحمل إلى الناس وصايا السماء !

والذين يذهبون هذا المذهب هم طائفة من الفلاسفة والحكماء الذين تلبس عليهم
الأمر في شأن الرسل ، وأبت عليهم عقولهم أن تستسيغ هذه المهمة النبيلة ، التي
قام عليها أنبياء الله ورسله .

وهؤلاء الحكماء والفلاسفة ينظرون إلى هذا الأمر نظرتين متباعدتين :
نظرة تحقر الإنسان ، فلا تراه أكثر من كائن حيواني كسائر الحيوان . .
لا يعدو أن يكون فصيلة من فصائل الحيوانات ، وسلالة من سلالاتها . . فهو -
والأمر كذلك - مقضى عليه أن يحيا حياته في هذا الركب ، أو في هذا القطيع ،
دون أن يدعى لتغييره شيئاً يتغير به وضعه . ويعزله عن المجتمع الحيواني ، في هذا
الكوكب الأرضي !

تلك هي نظرة الفلاسفة المتشائمين الذين نظروا إلى الحياة بمنظار أسود فأروا
الوجود كله مجللاً بالسواد ، ورأوا الإنسان دودة غارقة في أكوام من التراب .
وفي بحار من الأوحال .

وكثير من الفلاسفة الأقدمين آمنوا بالله ولستكنهم لم يؤمنوا برسل الله ، ولم يرضوا إلا أن يلتقي بالملك الأعلى ويتعامل معه ! وكأن هؤلاء الفلاسفة الذين يذهبون هذا المذهب قد نظروا فيه إلى أنفسهم . فحين وجدوا أنهم وهم الفلاسفة ، وأكمل الناس عقلاً - لم ترفعهم عقولهم إلى الملك الأعلى ، ولم نتج لهم الوصول إليه . فكيف يكون ذلك لإنسان ليس له عقل الفيلسوف ولا فلسفته ! ؟

يقول ابن تيمية عن هؤلاء الفلاسفة : « والمتفلسفة من اليونان والهند منازعون في وجود كمال الحس - أى الحس البشرى - ، وإن أقروا ببعض صفات الأنبياء ، فإنما أقروا منها بما لا يختص بالأنبياء ، بل هو مشترك بينهم وبين غيرهم ، فلم يؤمن هؤلاء بالأنبياء ألبتة (١) » .

وقد عاشت هذه النظرة التى تمسك بالإنسان أن يرتفع إلى ما فوق هذا التراب - عاشت في أجيال الناس حياً بعد جيل ، وكان لها دورات عاصفة في عقول كثير من الفلاسفة والمفكرين .

يقول نبتنه : « لا نريد ملكوتاً في السموات . فتمن بشر . نريد ملكوتاً أرضياً » .

نحن بشر ! أى نحن من دواب الأرض . لا ينبغي أن نرفع أبصارنا إلى السماء ، ولا أن نجاوز هذا الملكوت الأرضى !

فالإنسان في مفهوم هذه الفلسفة السوداء محكوم عليه أن يظل في هذا الوضع الدليل المميز في الحياة ، كائنًا رايياً ، ليس فيه قبس من العالم العلوى وليس هو كما تحدثت عنه الديانات السماوية خليفة الله في الأرض ، والموعد بالعودة إلى العالم العلوى الذى خرج منه !

ويقول نبتشه : « أيضاً : « إذا كان الله قد خاق الإنسان : فإنما خلقه قرداً يلهو به في أبدية الطويلة » !

(١) النبوات : لابن تيمية ص ٢٥ .

هذه هي إحدى النظرتين اللتين تنظر بهما الفلسفة المأثومة إلى الإنسان وهي نظرة تستكثر على الإنسان أن تكون له صلة بالسماء ، وأن يكون في الناس من يطول يديه إلى الأعلى . ويتعامل معه .

أما النظرة الأخرى فهي على خلاف النظرة الأولى في تقييمها للإنسان . . وفي تقديرها للرسالة السماوية . . ومن ثم كانت هذه النظرة ذات شعبتين : شعبة تخلق بالإنسان ، وتجاوز به قدره ، وتراه في مستوى يستغنى به عن وصاية السماء ، وعن تدبيرها لحياته ، وتوجيهها لسلوكه . وتصحيحها لعقيدته . فلا ضرورة إذن لمبعوث من السماء يحمل إلى الناس شريعة ، ويقيم لهم ديناً . . وحسب الناس في هذا أن يقوم فيهم قاده ، ومصلحون ، وفلاسفة . . منهم وإليهم . . من الأرض وفي الأرض !

وشعبه أجرى ترتفع بمقام الرسالة ، فتري أن الإنسان مهما يبلغ من العلو والصفاء فلن يكون له أن يحمل رسالة سماوية عن طريق الاتصال المباشر بالله أو ملائكته !

فإذا كان من الحتم أن تنزل على الناس شريعة سماوية فليكن الذي يحملها إليهم مبعوثاً من العالم العلو . . ودعوى من يدعون أن المسيح هو الله ، أو هو ابن الله ، قائمة في ظل هذا الإحساس الذي يتدافع في صدور الذين يرفعون مقام الرسالة عن أن تتناولها يد إنسان من الناس ، أو أن يستأثر بهذا الشرف العظيم واحد منهم لأنها أكبر من أن يستقل بها فرد ، وأعظم من أن يختص بها إنسان !

ولهذا تتحول بعض الرسل عند بعض الناس عن طبيعة غير طبيعة البشر . . وقالت اليهود عزيز ابن الله ، وقالت النصارى المسيح ابن الله . . ذلك قولهم بأفواههم ، يضاهئون قول الذين كفروا من قبل . . قاتلهم الله أنى يؤفكون ؟ ، وقد كشف القرآن الكريم عن هذا اللون من التفكير الانساني في

مما سمعته دعوى الرسل . فيقول سبحانه وتعالى في قوم صالح : وقللوا أنشراً
مما واحداً فبقية ؟ إنما أذن لفي صلال وسعر ! أألقى الذكر عليه من بيننا ؟ بل
هو كذاب أشتر (١) . . . ويقول حل شأنه في فرعون وقومه : وقللوا
أنثوس لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون (٢) . . . ويقول سبحانه في قوم نوح :
ولئن أطعتم بشراً مثلكم لأكفكم إذن لخاصرون (٣) . . . ويقول جل وعلا
في كفار قريش : و أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر
الناس ، وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم ، قال الكافرون إن
هذا لسحر مبين (٤) . . . ويقول سبحانه : وقللوا لولا أنزل علينا الملائكة
أو نرى ربنا . لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا كبراً (٥) . . .
ويقول سبحانه وتعالى : ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً ، وللبسنا عليهم ما يلبسون (٦) . .

بشيرة الرسل :

لو وقع للناس ما يمتنون من أن يكون الرسول ملكاً لما استقام للناس معه
أمر ولا صلح بينه وبينهم سأن . . . إنهم سينفتمون به ، ويدهلون عن رسالته ، وفي
هذا يقول القرآن الكريم : وما منع للناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن
قالوا أبعت الله بشراً رسولا ، قل لو كان في الأرض الملائكة يمشون مطمئنين
لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولا (٧) . . . وكيف يطمئن للملائكة مقام بن
الناس ؟ إن الملك لا يمكن أن يظهر للناس في أية صورة غير صورة الانسان
إلا كان مبعث فتنة للناس . . . إنهم سيتدافعون إليه تدافع الفراش إلى ضوء
الاصباح ، يدور حوله في لهفة جموعة إلى أن يسقط نصباً وإعياء .

كذلك لا يستقيم أمر الناس إذا جاءهم الرسول ملكاً في صورة إنسان .

(٢) سورة المؤمن ٤٧ .

(٤) سورة يونس ٢

(٦) سورة الأنعام ٩ .

(١) سورة القمر ، ٢٤/٢٥ .

(٣) سورة المؤمن ٣٤ .

(٥) سورة الفرقان ٢٦ .

(٧) سورة الإسراء ٩٥ .

لأنه لا يعبر عما في نفوسهم شيئاً من أمر الرسول البشرى ما دام الملك يلقيهم في صورة آدمية . . فإنه في حالة تلك الإنسان ، يرونه رأى العين في صورة بشرية ، ولا تختلف عما ألفوا من صور الآدميين . . وبهذا كان رد القرآن على هذا المقترح الغبي الأحمق . . ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً ، وللبسنا عليهم ما يلبسون ، (٢) أى أنه لو جاءت الملائكة رسلاً إلى الناس لما جاءوا إلا في صورة بشرية ، لأن مجيئهم في صورتهم الملكية لا يجعل لهم بين الناس مكاناً يطمسونه فيه ، ومجيئهم في صورة بشرية لا يجعل لهم عند الناس شأنًا غير شأنهم مع الرسل الآدميين . وإذن فلا معنى لأن يكون الرسول ملكاً مادام لا يمكن أن يحى إلا في صورة بشرية !

وأنت ترى التفات القرآن إلى تقرير بشرية الرسل واضحاً في هذا الأسلوب المفهم — في موقف الخصومة والجدل . . وهو موقف واحد هنا ، يقف فيه الكفار المعاندون موقف المنكر على الرسول أن يكون بشراً ، وأن دعوى من يدعى من أناس — أياً كان — أنه رسول ادعاء لا يقبل . . وكان من صنيع القرآن في دفع هذا الضلال ، وكشف المستترين به ، أنه جعل القضية قضية جدية يمكن النظر فيها . والاستماع إلى دعوى الخصوم عليها . . فلم يلقيها من أول الأمر بالكلمة الحاسمة ، وأنها ضلال مكشوف ، لا يستأهل الوقوف إزاءه ، والنظر فيه . بل بسط لهم القرآن مجال القول ، وأراحهم أن لقضيتهم شأنًا ، وأن عليهم أن يفتحوا آذانهم لسماع الحكم فيها . . ولو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئين ، لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً ، (٢) فإنه قادر على أن يبعث إليهم ملكاً . . ولكن هل يمكن أن تستقيم حالهم معه ؟ هل يجرؤ أحد أن يقول نعم ؟ فإن قال سفيهه أحمق ، نعم ، قيل له : على أية صورة يلقاك الملك ؟ أعلى صورته النورية ؟ إنك لن تراه ؟ ولن تتعرف إليه ، ولن تأخذ شيئاً عنه ! أم على صورة بشرية ، يخاطبك بلسان بشر وبهيئة إنسان ؟ فديمكن

(١) الأنعام آية ٩ .

(٢) الإسراء آية ٩٥ .

أن يكون هذا . . . ولكن من يدلك على أنه ملك في صورة إنسان ؟ هو كما يبدو لك إنسان ، لا فرق - في ظاهر الأمر عندك - بين الإنسان الملك ، والإنسان الرسول ، وإذن فما يدخل عليك من أمر الرسول البشر سيدخل عليك من أمر الرسول الملك . . وهذا ما يكتنفه القرآن الكريم في قوله تعالى : « ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون » .

الله يصطفى من الملائكة رسلاً . . ومن الناس :

لهذا اقتضت حكمة الله أن يبعث إلى الناس رسلاً من الناس حتى يكون بين الرسول ومن أرسل إليهم لف وأنس . فلا يحدون في رسولهم شيئاً لم يألفوه . . على خلاف ما لو جاء الرسول إليهم في أية صورة غير صورة الإنسان . . لأنه حينئذ سيكون مبعث عجب ودهس ومشارقته وإبتلاء ، أضعاف ما يقع لهم من الرسول الإنسان . . ولهذا أنكر القرآن على المشركين أن يعجبوا من أن يبعث الله فيهم رسولا منهم : « أكان للناس عجباً أن أرحمنا إلى رحل منهم أن أنذر الناس . (١) ، ولهذا كان فيما امتن الله سبحانه وتعالى به على الأمة العربية أن بعث فيهم رسولا من أنفسهم : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم ، عزيز عليه ما عنتم . . حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ، (٢) » وهو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليه آياته وبزكيتهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين (٣) . وكذلك كان فضل الله على الأمم السابقة . كل رسول جاء إلى أمة كان منها ، ولبسانها . . وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ، ليبين لهم ، (٤) ،

صفة الخلق :

وإذا كان الرسول بشراً فما ظنك أن يكون في الناس ؟

-
- (١) سورة يونس : آية ٢ . (٢) سورة التوبة : آية ١٢٨ .
(٣) سورة الجمعة : آية ٢ . (٤) سورة إبراهيم : آية ٤ .

أتراه واحداً من آحاد الناس لا امتياز له في عقل أو خلق ؟ أم تراه إنساناً
فانكاجباراً ، ملاً قلوب الناس فرعاً ورعباً ؟ أم أنه متخاذل ضعيف يلقى من
الناس الذل والهوان ؟

وكلا . . فإن الرسول ليس إلى هؤلاء ، ولا أولئك !

إن الرسول قبل أن ترشحه السماء لحل الرسالة ، وقبل أن يلقى الناس بها ،
ينبغي أن يكون فيه أمارات ودلائل تشهد له برجاحة العقل ، وكال المروءة ،
والعفة ، وحسن الاحدوثة بين الناس ! فلا يعرف الناس منه قبل بعثته فيهم
إلا ما يحمدون ويكبرون !

هكذا رسل الله في أفوامهم . . خيار من خيار . . لم تجرب عليهم كذبة ،
ولم تظهر فيهم ريبة . . وما تكذيب قومهم لهم ، وتطاولهم عليهم بعد الرسالة
إلا عن حسد واستكبار ، وإلا عن شقاق وعناد ! وقد كتف القرآن الكريم
عن شهادة ثمود في نبيهم صالح ، وهي شهادة — على رغم ما واجهوه به من عناد
وتحد وإعنات — لم تستطيعوا إنكارها ، لأنها أكبر وأظهر من أن تشكرو . .
« قالوا يا صالح قد كنت فيما مرجوا قبل هذا ^(١) » أي قد كنت قبل رسالتك
موضع أمل ورجاء لما نرى فيك من الخير والصلاح . . فلما جاءهم يدعواهم إلى
الهدى وبيانهم رسالة ربه أنكروا ما كانوا قد عرفوا منه . . !

وقريس . . مع النبي الكريم . . كان عندها الصادق الأمين . . فلما حاته
دعوة السماء أنكروا ما عرفوا . . ولهذا يهزئه الله سبحانه وتعالى بقوله : « فإنهم
لا يكذبونك ، ولكن الظالمين بآيات الله يحدثون . . » ويقول له أبو جهل :
(والله لا نكذبك ، ولكن نكذب ما جئت به) . !

إن حكمة الله اقتضت أن يكون الرسول المختار لهذه المهمة الجليلة خلاصة
الإنسانية وهاماتها ، في كل عصر ، وفي كل مكان تبزغ فيه شمس النبوة وتتألى
أنوار الرسالة . . فيكون النبي أو الرسول هو الرجل الأول في السكال الإنسانية

بين قومه ، ويكون هو الإنسان الذى تتمثل فيه كالات الجذس البشرى لعصره ،
وتجتمع فيه كل فضائله !

والرسول بهذه الصفات التى اجتمعت له جدير بأن يكون صلة بين السماء
والأرض ، وسفيراً بين الله والناس !

لأنه لا بد أن يكون الرسول الذى يوكل إليه إبلاغ رسالة سماوية إلى الناس
على أكمل صورة إنسانية ، وأتمها فى ظاهر وباطن معاً ، كي يتقبل الناس دعوته
ويستجيبوا لما يدعونه إليه !

وشتان بين أن تسمع الكلمة الطيبة الرشيدة من إنسان تعرف فيه الظهور
والتقوى ، وتجذ فى سيرته وسلوكه الآثار الطيبة لهذه الكلمة الطيبة التى يلتصق
بها ، ويدعوك إلى الاستماع إليها ، والاستجابة لها — شتان بين هذا وبين أن
تجىء إليك هذه الكلمة ذاتها على لسان إنسان هازل عاجز ، لا ترى فى حاله
ما يحملك على احترامه وتوقيره .. لأنه لن يكون لكلمته هنا ثمن . ولا أثر !
لأنها كلمة — على ما بها من حسن — ميتة ، فقدت ما فيها من حرارة وحياة ؛
حين انطلقت من هذا السكيان الحرب ، كما تنطلق القذيفة الفاسدة من « المدفع »
لا تبلغ غاية ؛ ولا تصيب هدفاً !

والرسول هم حملة الكلام الطيب كله إلى الناس .. على ألسنتهم تجرى الحكمة
والموعظة الحسنة ، فتثمر ثمرتها الطيبة فى العقول ؛ وفى القلوب ؛ لما يجذ
الناس فى هذه الكلمات من ربح النبوة ؛ وما يذنبون من شتم سذاهم الطيب
الظهور !

لأن فى كيان رسل الله قوى روحية تنبىع فى وصاياهم وتشريعاتهم القوة
والنفوذ إلى أعماق النفوس ؛ فتملك ناصيتها ؛ وتأخذ بزمامها !

وأظهر دلالة يستدل بها العقلاء من الناس على صدق الرسول ؛ ويفرقون
بينه وبين أدعياء النبوة من السكمان والمشعوذين أن الرسول لا يدعو الناس
إلى فضيلة من الفضائل إلا كان قائماً عليها فى كل أطوار ؛ حياته قبل النبوة وبعدها ؛
ولا ينهى الناس عن رذيلة من الرذائل إلا كان مجانباً لها ؛ عزوفاً عنها ؛ فى كل

حال من أحواله . . . وبهذا يراه الناس قد وافى فعله قوله ؛ وصدق خبره خبره !

وواقع الحياة : شهد لهذا الذى تقول به . . . فصادفت دعوة من دعوات الإصلاح فى أى مجال من مجالات الحياة ؛ الاجتماعية ، أو السياسية ، أو الفكرية حظاً من النجاح إلا بمقدار ما فى الداعين إليها والقائمين عليها من صدق ومن إخلاص ؛ يراه الناس فى هذا التوافق بين مدلول الدعوى وسلوك الداعى ؛ وعلى عكس هذا ما يصادف كثيراً من الدعوات من تفسخ وانحلال ؛ أو من انعكاس واضطراب ؛ إنما هو بما يكون بين مفهوم الدعوة وبين القائم عليها من شجوات وخلللات ، يأخذ فيها كل من القول والعمل طريقاً غير طريق صاحبه .

وقد قدم الله سبحانه وتعالى هذا الخلق الذى يخالف فيه المرء بين قوله وعمله . . . فقال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا . . . لم تقولون ما لا تفعلون ؟ . . . كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون » (١) .

وإذ كان الخلق على تلك العنفة من الانعانة فى حال الإيمان الفرد ؛ وفى خاصة نفسه ؛ فما ظنك به إذا كان هذا الخلق فى إنسان ينصب نفسه لدعوة عامة ؛ يبشر بها فى الناس ؛ أو يحملهم عليها ؛ إنه لتساعة محسدة ؛ وبلاء غليظ !

وانظر كيف رفع الله سبحانه وتعالى قدر رسوله « محمد » فعزله عن جماعة الشعراء ؛ ودفع عنه هذه القرية التى كان يرميه بها كفار قريش ؛ وهو قولهم إنه شاعر ؛ لما رأوا فى القرآن من جلال وروعة لم يجدوا لها تفسيراً لما يتلو عليهم الرسول من كلام الله ؛ إلا أن يضيفوه إلى « النعر » الذى هو غاية ما عرفوا للكلام من تأثير وسلطان على النفوس . . . فكان رد القرآن على هذا بقوله تعالى : « إنه لقول رسول كريم ؛ ذى قوة عند ذى الأمرش مكين ؛ مطاع نعم أمين ؛ وما صاحبكم بمجنون ؛ ولقد رآه بالأفق المبين ؛ وما هو على العيب بصين » (٢) ؛ وفى قوله تعالى : « وما هو بقول ساعر ؛ قليلاً ما يؤمنون ؛ ولا بقول كاهن ؛

(١) سورة المنافقون آية ١ .

(٢) سورة التكاوير آية : ٢٤/٢٢ .

قليلا ما تذكرون ، تنزيل من رب العالمين « (١) . وفي قوله سبحانه : « وما علمناه الشعر ؛ وما ينبتنى له ؛ إن هو إلا ذكر وقرآن مبين » (٢) .

ورفع مكانة النبي عن مواقف الشعر والنعراء إنما هو لما يغلب على الشعر من خيال هو في الحقيقة صورة كاذبة للواقع .. ولما يغلب على النعراء من جريهم في حياتهم على غير ما تنطق به ألسنتهم من شعر .. : « والنعراء يتبعهم الغاؤون . ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون » (٣) . والافتياء لا يقولون إلا ما يفعلون . فما ينبغي لنبي أن يكون شاعراً ؛ لأنه يدعو إلى المعروف وينهى عن المنكر . والشاعر محمول على أن يرضى مشاعره ؛ بما يخلط بين الجد والهزل ؛ وبين الحق والباطل ؛ والهدى والضلال : « والنعراء يتبعهم الغاؤون . ألم تر أنهم في كل واد يهيمون » بل إن الشاعر في أصدق أحواله وأعدلها إنما ينسج شعره من حيوط الخيال ، إذ كان واقعاً دائماً تحت تأثير وجدانه ، ونداء مشاعره ... وهيئات أن تسلم الحقائق — إذا تحكم فيها الوجدان ، وتسلط عليها العهور — من أن تتغير معالمها . ثم هيئات أن يأخذ الشاعر نفسه بما يقول ، أو يجرى في حياته على ما أوحى إليه شياطين شعره . إنه يعلم أن ما يقول من شعر ليس إلا أمانى وأحلاماً ، إن صح بعضها في حال ، فلن يصح أكثرها في معظم الأحوال ، ولهذا قيل : « أعذب النهر أكذبه » .

• • •

(١) سورة الحاقة آية : ٤١/٤٣ .

(٢) سورة يس آية : ٦٩

(٣) سورة النعراء آية : ٢٢٤ — ٢٢٦ .

الباب الثالث

المعجزة .. والإعجاز

ومع ماى الرسول من سمات نفسية ، وروحية ، وعقلية يعرف بها فى قومه ، وبأحـبها المـكان الأول فيهم ، فإنه يطالب دائماً بآيات وبراهين تثبت دعواه التى يدعيها بأنه رسول من عند الله ، يحمل إلى الناس كلمة الله !

ولهذا كانت رسل الله تزود دائماً بالمعجرات القاهرة التى تجيء إلى الناس على غير ما ألفوا ، وتخرج عليهم بما لا يستطيعونه ، أو يجدون له تفسيراً ، إلا أن يذهب إلى الله ، ويحب شهادة على صدق الرسول ، وتأيد دعواه !

المعجزة :

فالمعجزة حدث فريد يجرى على غير مألوف الحياة ، ويخرج على ما بين الأسباب والمسببات من نلازم !

وفد ذكرت السكتب المقدسه كثيراً من المعجزات التى أجراها الله على أيدى الرسل ، كطوفان نوح ، وناقة صالح ، وعصا موسى ، وكلمة عيسى فى إحياء الموتى ، وهى معجزات مادية تقع فى مجال الحس والمشاهدة ! وتقوم الشواهد على عجز الناس عن بحاراتها . والوقوف إزاءها ! فنخرس الألسنة ، وتخضع الأعناق ؟ ومع هذه الحجة القاهرة التى تنطوى عليها المعجزة ، فإن اللاحاح يذهب بالناس ، أو بكثير منهم إلى التهرب من الواقع ، والاحتماء وراء التهم الممنقة ، والمعاذير التافهة ، ليجلسوا من هذا الموقف الذى انكشف فيه أمرهم ، فأسقط فى أيديهم ، ولم يكن لهم من سبيل إلا الإيمان أو الفرار !

ويصور القرآن الكريم بعض هذه المواقف المتهافئة المتخاذلة التى يقفها

المكابرون المماندون في وجه المعجزات القاهرة التي لا يحصىها إلا الصنفاء السفهاء من الناس !

فهمؤلاء بنوا لإسرائيل مثلاً . . لقد رأوا من المعجزات ما ينطق الحيوان ، ويحرك الجماد . العما يلقيها موسى من يده فإذا هي ثعبان مبيت ، ويضرب بها البحر فينشق ؛ فإذا كل فرق كالطود العظيم ، ويضرب بها الحجر فتنفجر منه عيون الماء . . اثنا عشر عينا ، بعدد أسباطهم الاثني عشر .

لقد رأوا كل هذا بأنفسهم رأى العين ، ومع هذا فقد ظلت غيرم اليك تحجبهم عن الإيمان بالله ، وبرسوله . . فكانت قوتهم تلك الآثمة التي حكاهما القرآن عنهم في قوله تعالى . « ولذا قلتم يا موسى ان تؤمن لك حتى نرى الله جهرة . . فأخذنكم الصاعقة وأنتم تنظرون (١) .

فأى عناد بعد هذا ! وأى لجاح في الضلال والزيغ بعد هذا الضلال والزيغ ؟

ومن قبل كانت دعوة نوح إلى قومه ، ورحته عليهم بحيث لا يستطيعون لها دفعا ، فكانوا إذا دعاهم إلى الإيمان بالله جعلوا أصابعهم في آذانهم كي لا يسمعوا فيؤمنوا ، ودخلوا في ثيابهم كي لا يروا فيثأثروا . . !

يقول الله سبحانه على لسان نوح : « ولما قلنا دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغفوا أصواتهم وأصروا ، واستكبروا استكبارا (١) » . . . لأنه الفرار من هذا النور الذي يطلع عليهم من فم النبي الكريم ، فلا يحدون دفعا له إلا هذا العمل المنجول : « جعلوا أصابعهم في آذانهم ، واستغفوا أصواتهم » .

ويذكر القرآن الكريم ما كان عليه بعض كفار قريش من العناد والإصرار على الكفر والإقامة على منافة الرسول مهما تكن الآيات والمعجزات التي تساق إليهم . فيقول سبحانه وتعالى : « ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا : إنما سكرت أبصارنا ، بل نحن قوم مسحورون (٢) ،

لأنه العناد واللجاج فيه ؛ ولأنه التكبر والتسك به ، والحرص عليه » وإن

(١) سورة البقرة آية : ٥٥ . (٢) سورة نوح آية : ٧ .

(٣) سورة الحجر آية : ١٥/١٤ .

يروا كل آية لا يؤمنوا بها ، وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا ، وإن يروا سبيل الفى يتخذوه سبيلا (١) ،

امكانيات المعجزات .

تقف بعض المذاهب الفلسفية من « المعجزة » موقف النك أو الإنكار ، وكثير من الفلاسفة لا يسمون بإمكانها ، وإن كانوا يؤمنون بالله ، ويعترفون بالخالق المبدع لهذا الوجود !

وحجة الفلاسفة أو الفلاسفة على إنكار المعجزة أو الشك فيها حجة داسعة متناهية ، لا تستند إلى حقيقة علمية ولا تعتمد على شهادة من واقع الحياة ، أو من صحف التاريخ !

« المعجزة » عند المؤمنين بالمعجزات حدث خارق للمادة ، لم يحر على سنن الحياة ، ولا ناموس الطبيعة على الوجه الذى ألفه الناس ، وعرفوه !

إنها حرق لنواميس الطبيعة ، وخروج على أوضاعها !

والفلاسفة المنكرون للمعجزات يرون أن كل ما يقع فى الحياة ، مألوف ، وغير مألوف ، هو جاز على طبيعتها ، واقع على ما تقضى به سننها !

إن التلازم بين الأسباب والمسببات لا يمكن أن ينمك أبداً ، وإن الأمور التى تقع من غير أن تكون لنا أسبابها هى فى الواقع نتيجة لأسباب ملازمة ، إذا تحققت الأسباب تحققت هذه الأمور . .

وإن الأحداث التى تبدو غريبة أو خارقة لمألوف الحياة هى فى الواقع أحداث طبيعية ، لم نعرف أسبابها التى لابد أن تكون قائمة وراءها ، وأنه متى عرفنا أسبابها أصبحت غير غريبة ، وزايلها العجب الذى أخذ الناس منها .

ومعجزات الرسل - على هذا - كما يرى الفلاسفة ليست إلا أموراً طبيعية تحرى مع ناموس الطبيعة ، وترتبط بالأسباب كما يرتبط غيرها من الأمور ، وإن دهن

الناس منها ، وتسليمهم بها إنما لخنفاء أسبابها عنهم ، وظهورها بينهم ، منقطعة عن كل علة ، غير مستندة إلى سبب .

وإذن فالمعجزات - على هذا التقدير - أمور واقعة في حيز الإمكان ، وإن أى إنسان يستطيع أن يخرج على الناس بمثل هذه المعجزات إذا أمسك بين يديه بأمر لم يعهده الناس ، ووقع هو على أسبابه دونهم ؟ لأنه يستطيع أن يجعل من هذا الذى بين يديه معجزة يتحدى بها الناس ، ويعجزهم عن الإتيان بمثلها !

فلو فرسنا أن مخترع البخار ، أو الكهرباء طلع على الناس لأول عهدهم بما اخترعه وأراهم آلة تتحرك بالبخار ، أو مصباحاً يضيء بالكهرباء ، وأراهم أن ذلك خاصة من خصوصياته ليس لأحد أن يأتي به أو يمثله ، ثم أفهمهم أنه إنما استمد هذه القوة من الله ، وأنه رسوله إليهم ، لو أن واحداً من هؤلاء المخترعين فعل ذلك لوجد كثيراً من الناس من يصدقونه ويحجب له ، ويؤمن بما يدعوه إليه !

وتصوير المعجزة ، هذا التصوير ، ووضعها بهذا الموضع فيه تلبيسات ومعالجات .

فأولاً : لم ننسب الحياة مخترعاً من المخترعات ولد كاملاً . بل يبدو لأول ظهوره في يد مخترعة خفيها لم تمنح معاملة ، ولم تتحدد ملامحه . ثم يدرج شيئاً فشيئاً نحو النضج والكمال ، ولا يزال مع الأيام موضع زيادة وحذف حتى يبلغ غايته !

وثانياً : أن المخترع مهما يكن شأنه من الغرابة والعجب عند ظهوره . فإنه لم يكن منقطع الأسباب عن سوابق كثيرة من المعارف الإنسانية استند إليها وتعلق بها . فهو لبس من صنع إنسان ، وإنما هو من صنع الإنسانية المعاصرة له ، والسابقة واللاحقة .

وثالثاً : لم يجرؤ مخترع من هؤلاء المخترعين أن يقول إن هذا مما تعجز الحياة عن أن تلده مثله ، أو تكشف المستور عن سره .

ومن أجل هذا لم تكن مخترعات المخترعين ، ولا أعمال العباقرة في العلوم والفنون والآداب مما تدعى له المعجزة ، أو مما يتحدى به في مقام الإعجاز ، إذ كاتب كل هذه المخترعات وهذه الأعمال مما يبازع الناس في مساماتها والحقاف بها أو سبقها ، ولم يحدث قط لإزاء اختراع من المخترعات ، أو عمل من هذه الأعمال الخالدة أن انقطعت عرائم الناس دونها ، أو وفدت منازلهم عن محاربتهم ، وبحلوله الإنيان بمثلها ، أو أحسن منها ..

وليس هذا أمراً مستغرباً ، لأن هذه الأعمال - منها كان لها من روعة - هي من صنع بشر ، يظهر فيها الطابع الإنساني ، وتشم منها ريح الإنسان ، الأمر الذي يدرى الناس بها . ويدنيهم منها ، ويقرب بعينها إليهم .. فلا تنقطع آمالهم دونها ، ولا تسكن عزائمهم إلى التسليم بالعجز عنها .

وليس كذلك المعجزة ، فهي تأتي من أول ما تأتي كإمالة لا يدخل عليها بعد هذا زيادة أو نقص ، لأنها لا قبل الزيادة ولا النقص . إنما من صنع الخالق ، وما كان لمخلوق أن يدخل شيئاً على صنعة أرادها الخالق ، معجزة ،

ومن هنا كانت المعجزة ، مصحوبة بالتحدي من جهة ، وبدعوى النبوة من جهة أخرى . فهي شهادة صدق على نبوة النبي ، وأنه مرسل من عند الله ، وأن العمل الذي جرى على يديه هو من عند الله ، والدليل على أنه من عند الله ، أن أحداً من الناس لا يستطيع أن ينقضه أو يأتي بمثله .

يقول ابن تيمية : « ثم إنه تعالى جعل مسح الرسل ، آيات من علامات وبراهين ، وهن أفعال يفعلها مع الرسل ، يخصهم بها ، لا توجد لغيرهم . . فيعلم العباد لاختصاصهم بها أن ذلك إعلام منه للعباد ، وإخبار لهم أن هؤلاء رسل . (١) » .

ويقول أيضاً : « إنما تكون - أي المعجزة - آية إذا كانت من فعل الله مع التحدي بمثلها ، ودعوى النبوة . . فدلالتها على وجه لا يمكن أن يشترك في ادعائه الصادق والكاذب ، فإذا ظهرت على هذا الوجه كانت آية لمن فعلت على

يده ولهذا لم تمكن أشراط الساعة آية لأحد ، وإن خرفت العادة . إذ لم يكن معها دعوى نبوة ... ولأن موت زيد عند قول الرسول : أيتى أن يميت الله زيدا عند دعائي بموته ... فإذا مات عند دعوته صار ذلك آية له ، وإن كان فعل الموت في الإنسان وغيره من الحيوان معتاداً !

ويقول ابن خلدون :

« ومن علاماتهم — أى الأنبياء — وقوع الحوارى لهم شاهدة بصدقهم ؛ وهى — أى الحوارى — أفعال يعجز البشر عن مثلها ؛ فسميت بذلك معجزه ! وليست — أى المعجزة — من جنس مقدور العباد ؛ وإنما تقع في غير محل قدرتهم ! ثم يقول :

والناس في كيفية وقوعها ودلائلها على تصديق الأنبياء خلاف :

« فالمتكلمون » بناء على القول بالفاعل المختار — أى بأن الإنسان هو الذى يخلف أفعاله — قائمون بأنها - أى المعجزة — واقعة بقدره الله لا بفعل النبي .. وإن كانت أفعال العباد عند المعجزة — من المتكلمين — صادرة عنهم ؛ إلا أن المعجزة لا تكون من جنس أفعالهم ؛ وليس لنبي فيها عند سائر المتكلمين إلا التحدى بها بإذن الله ؛ وهو أن يستدل بها النبي قبل وقوعها على صدقه في مدعاه ؛ فإذا وقعت تنزل منزلة القول الصريح من الله بأنه أى النبي — صادق ؛ ونكون دلائلها على الصدق قطعية ! فالمعجزة الدالة بمجموع الخارق والتحدى ؛ وذلك كان التحدى جزءاً منها .

« وأما الحكماء — ويريد بهم الفلاسفة المؤمنون — فالخارق عندهم من فعل النبي ... وأن النفس النبوية عندهم لها خواص ذاتية ؛ منها صدور هذه الحوارى بقدرته ؛ وطاعة العناصر له في التكوين .. والنبي عندهم — أى الفلاسفة — مجبول على التصريف في الأكوام مهما توجه إليها ؛ واستجمع لها ؛ بما جعل الله له من ذلك .

« والخارق عندهم يقع للنبي . كان - أى الخارق - للتحدى أم لم يكن ؛ وهو شاهد بسدفه ؛ من حيث دلالة على تصرف النبي فى الأكوان ؛ والذي هو أى التصرف - فى الأكوان - من خصائص النفس البهوية ؛ لا بأن ينزل منزلة القول الصريح بالتصديق . فلذلك لا تكون دلالتها عندهم قطعية كما هى عند المتكلمين ؛ ولا يكون التحدى جزءاً من المعجزة ! ولم يصح - أى التحدى - فارقاً لها عن السحر والمكرامة .

وفارقها عندهم عن السحر ؛ أن النبي محبول على أفعال الخير ، مصروف عن أفعال الشر ؛ فلا يلم الشر بخوارقه ؛ والساحر على العند ؛ فأفعاله كلها شر ، وهى فى مقاصد الشر !

« وفارقها عن المكرامة أن خوارق النبي محضة ؛ كالصعود إلى السماء ؛ والنفوذ فى الأجسام الكثيفة ؛ وإحياء الموتى ؛ وتكليم الملائكة ؛ والطيران فى الهواء . وخوارق الولي درن ذلك كتكثير القليل ؛ والحديث عن بعض المستقبل وأمثاله ؛ مما هو قاصر عن تصريح الأنبياء . » (١) .

وأنت ترى فيما نقل ابن خلدون من آراء المتكلمين والفلاسفة أن الفريقين متفقان على أن « المعجزة » خارقة للعادة لا يقدر الناس على مثلها !

كما ترى أن اقتران المعجزة بالتحدى شرط لازم عند المتكلمين ؛ على حين أنه غير لازم عند الفلاسفة ! وهذا الخلاف متفرع عن الأصل قامت عليه المعجزة عند كلا الفريقين ...

فإذا قرر المتكلمون أن « المعجزة » من فعل الله ؛ وليست من فعل النبي .. فإنه ينبئ على هذا أن « المعجزة » لا تقع إلا حين تقتضها ضرورة ، وهذه الضرورة إنما هى الشهادة على صدق النبي ؛ وأنه مبعوث السماء ومؤيد منها بما ينهد له بصدق دعواه .. حيثئذ تنزل « المعجزة » التى يقترحها القوم . كما اقترح الحواريون على المسيح أن ينزل عليهم مائدة من السماء .. وفى هذا يقول القرآن الكريم : « إذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع

ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء؟ قال: انقروا الله إن كنتم مؤمنين . قالوا تريد أن يأكل منها وننظم قلوبنا . ونعلم أن قد صدقتنا ، ويكون عليها من التناهدين ، (١) . فهو لاه حواريو عيسى والمؤمنون برسـ الله . ولكنه إيمان متلبس بالسك والريبة . فهم من أجل هذا يقترحون عليه آية ، ويحددون له صفتها .

وانظر في هذه الطبيعة المسكرة الخبيثة التي تندس في كيان اليهود .

فهم الدين يقترحون المطلوب ، ويحددون صفته حتى لا يكون هناك مجال للتلبس إن كان فيهم من أدعياء النبوة ، فلو أنهم طلبوا معجزة مطلقة فقد تختلط معجزة النبي بشعوذة المسعوذ . . ولكن إذا اقترحوا أمراً على صفة محددة ، وجاء على هذا الوصف كان لا شك أنه معجزة ، وأن الذي يتعامل معهم في .

هذه واحدة . . وأخرى . . هي أنهم — فيما حكى القرآن عنهم — قالوا لعيسى : هل يستطيع ربك . . ولم يقولوا ، ربنا ، لأن إيمانهم بالله مازال متردداً في مراعف الظل والتمسك . . ولو كانوا مؤمنين بالله حقاً لما قالوا في حق الله سبحانه وتعالى . هل يستطيع ، ، فتمالي الله أن يعجزه شيء في الأرض أو في السماء ، إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ، (٢) .

وثالثة من فعلات اليهود هنا . . هي أنهم كما وصفهم القرآن ، أحرص الناس على حياة ، . وعلى كل ما في الحياة ، فلم يذهبوا كفار مكة عندما أرادوا أن يتشبهوا من دعوى النبي فقالوا فيما حكى القرآن عنهم : ، وإذا قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك ، فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ، (٣) لم يذهبوا هذا المذهب ، بل طلبوا ، مائدة ، حافلة بألوان الطعام وأطاييه ، مائدة . . ، يريد أن تأكل منها وتنظم قلوبنا ، ونعلم أن قد صدقتنا ، ونكون عليها من التناهدين ! ، .

(١) سورة المائدة آية ١١٢ / ١١٣ . (٢) سورة يس آية ٨٢

(٣) سورة الأَنْفَال الآية : ٢٢ .

فكم عصفوراً صيد بحجر واحد من هذه الرمية الماكرة ؟
وقد تقع المعجزة ابتداء من غير طلب محدد لها واصفاً لها ، كما هي في ناقة صالح ، وعصا موسى !

وهذا كله بناء على رأى المتكلمين في أن « المعجزة » من فعل الله ، وليس للنبي شأن بها إلا أنها تجري على يديه . . . وهذا تحيى معلنة التحدى !

أما الفلاسفة فإنه ينبئ على رأيهم القائل بأن « المعجزة » من فعل النبي وأن أعمال النبي كلها خارقة للعادة — ينبئ على هذا أن النبي نفسه « معجزة » وأن الخوارق تجري عليه من غير قصد ولا التفات إلى التحدى بها !

هذا خلاصة ما بين المتكلمين والفلاسفة من خلاف في شأن المعجزة على حسب ما نقل ابن خلدون عن الفريقين .

امكان اتصال الإنسان بالآل الأعلى :

« المادية » في كل عصر هي التي تعزل الإنسان عن العالم العلوى ، وتأتى عليه أن يرتفع عن هذا التراب الذى يعيش عليه .

ولا نريد هنا أن نشرح فلسفة الماديين ، وما تقضى به هذه الفلسفة في شؤون الإنسان ، وخاصة ما يسميه المؤمنون الجاقب الروحى منه . . . فقد عرضنا في كتابنا الثانى من « قضية الألوهية » (١) مذاهب الماديين ومقولاتهم عن عالم ما وراء المادية ، وبسطنا القول في إيراد حججهم على ما وراء الحس . .

والذى يعيننا هنا أن نقرر أنه أن الماديين إذ ينكرون العالم الروحى كله ينكرون تبعاً لهذا رسالات السماء — إذ لا سماء ، ولا رسالة عندهم — كما ينكرون الأنبياء ، والديانات ، ويعيدون الحديث عن الأنبياء والديانات أحاديث ملفقة ، وادعاءات كاذبة ، لا تنف أمام النظر العقلى ، ولا تثبت أمام البحث العلمى !

(١) « قضية الألوهية بين الفلاسفة والدين : » « الله والإنسان » للؤلف . الناشر دار الفكر العربى .

ولا تجادل الماديين ، ولا تتف معهم موقف الخمرمة في هذه القضية . .
فقد قلنا ما عندنا في هذا في أكثر من موضع .

ولما نود أن نقف هنا وقفة قصيرة مع الذين يؤمنون بالعالم الروحى ،
ويقولون بأن وراء المادة عالماً آخر غير مادى أرحب وأوسع مما لا يقاس به
هذا العالم المادى ، ولا يحسب بحسابه

هؤلاء الذين يؤمنون بما وراء المادة بينهم أعداد غير قليلين يشكون
في قيام صلة بين العالمين — المادى ، وغير المادى — ثم يسلمهم هذا الشك إلى
شك آخر فى « الوحي » الذى يتلقاه رسل الله من السماء ! ومن ثم فهم شاكون
فى الرسل ، وفى الديانات السماوية التى يحملها رسل الله إلى الناس .

وكان الفيلسوف العربى « المعرى » من هؤلاء النساكين فى النبوات ،
وفى رسالات السماء . . وقد ترددت أصدااء هذا الشك فى كثير من شعره
فى اللزوميات .

يقول المعرى — جاعلاً « العقل » هو النبى الذى يقوم بالهداية ، وهو
النبى القائم فى كيان كل إنسان :

أيها المخرور إن خصصت بعقل

فأسألنه فكل عقل فبى (١)

وواضح من هذا أن « المعرى » لا يجعل هذا الحكم للعقل عند كل الناس ،
بل لعقول الصفوة الممتازة منهم ؟ ولهذا قال : « إن خصصت بعقل » . فهو يخصص
ولا يعمم ، فلا يجعل العقول بهذه المنزلة إلا عنده هو ، وعند أمثاله من الحكماء
والفلاسفة .

وللمعرى مواقف كثيرة يزرى فيها بالشرائع السماوية ، ويهون ، بل يستخف
من آثارها فى حياة الناس . ويود لو نبذ الناس التعلق بتلك الشرائع ، ورجعوا
إلى ما يوجب به العقل ، أو بمعنى آخر ، إن الناس لو أسلموا لأنفسهم لأراء الفلاسفة
والحكماء ، واستثمروا لإلههم ، لمكان ذلك أجدى عليهم مما يتلقون من الشرائع

التي يقوم عليها السكبان والرهبان ، والفقهاء ، وغيرهم من علماء الدين
في كل ملة . . يقول :

والعقل يبحث . . والشرائع كلها خبر يقلد لم يقسه قائس
متمجنون ، ومسلمون ومعتشر متصرون ، وهائدون رسائس (١)
وبيوت نيران تزار تعبدًا ومساجد معمورة وكنائس
والصابئون يعظمون كواكبًا وطباع كل في الشرور حبايس (٢)

وغيره المعري ، كثير من الفلاسفة من سبقوه أو جاءوا بعده يرون هذا
الرأى . . وقد أشرنا إلى بعض هؤلاء الفلاسفة وإلى آرائهم في الرسائل
الساوية .

ونعرض هنا وجوهاً من الرأى ، يدافع بها أصحابها عن الرسائل الساوية
وعن صدق الأنبياء في تلقيها عن الله .

رأى ابن خلدون :

وابن خلدون يبذل جهداً مضنياً موفقاً في إقامة صرح مثين من الأدلة
على إمكان الوحى ، والتقاء السماء والأرض عن طريق مخلوق أرضى ، هو قوة
المخلوقات العالم المادى ، ومن هذه القمة يمكن أن يلبس السماء ، ويلبغ أضواءها .
وهذا المخلوق هو الإنسان الذى يضمع قدميه على الأرض ، ويطارل برأسه السماء !
وفد امتد نظر ابن خلدون إلى آفاق بعيدة في الوجود . وفي هذه النظرة
رتب الموجودات وتدرج بها في مازل والثرى ، درجة درجة حتى انتهت إلى
الإنسان ؛ الذى جملة غاية ما يمكن أن تثمر ، المادة ، من ثم طيب ؛ يمكن أن
يرتقى ، درجة أخرى ؛ ينزع بها عن وجوده كثافة المادة وظلامها ، فيكون
من العالم الدورانى الشفاف . . عالم الملائكة . . وبهذا يمكن أن يتلقى الإنسان
— فى شخص النبى — بالملك فى شخص جبريل . . ويتلقى عنه
رسالة السماء !

يقول ابن خلدون :

« ثم انظر إلى عالم التشكوين كيف ابتدأ من المعادن ثم النبات ، ثم الحيوان . في هيئة بديعة من التدرج . . آخر أفق المعادن متصل بأول أفق النبات ، مثل الحشائش ومالا بذره : وآخر أفق النبات مثل النخل والكرم ، متصل بأولى أفق الحيوان مثل الجلزون والصدف ، لم يوجد لهما إلا قوة اللمس فقط ، ومعنى الاتصال في هذه المسكوفات أن آخر أفق منها مستعد بالاستعداد القريب أن يصير أول أفق المدى الذي بعده .

ثم ينتقل ابن خلدون بنظره إلى عالم الحيوان . . فيقول :

« واتسع عالم الحيوان وتعددت أنواعه ، وانتهى في تدرج التشكوين إلى الإنسان ، صاحب الفكر والروية .

ثم يعرض ابن خلدون بعد هذا أثر العالم العلوى في الموجودات كلها ، ويجعل لهذه الموجودات تدرجاً بها من حال إلى حال حتى تصل إلى الإنسان ، ثم يتدرج إلى العالم الإنسانى في أفرادها ، حتى يبلغ نهاية الأفق الذى يلامس فيه الملاء الأعلى ، ويتهيأ للانتقال إليه .

يقول :

« فوجب من ذلك أن يكون للنفس استعداد للانسلاخ من البشرية إلى المسكية ليصير بالفعل من جنس الملائكة « وقتاً من الأوقات في لحظة من اللحظات وذلك بعد أن تسكمل ذاتها الروحانية بالفعل » (١) .

وأياً كانت هذه النظرة ، وأياً كان حظها من الصحة والصدق ، فإنها تدبّر عن حاجة الإنسان إلى قوة فوقه ، يتعامل معها ، ويفيد منها « ويطمح إلى بلوغها أو مداناتها .

الاختلافات المعجزات باختلاف الأمم :

نرى ماذا يكون لو أن معجزات الرسل كانت جارية على أسلوب واحد

في صورة واحدة . يتلقاها رسول بعد رسول . فتظهر للساكنين كما ظهرت
لأسلافهم . معجزة قاهرة ، تخرس معها الألسنة ، وتخضع لها الأعناق ؟
ماذا يكون لو أنها معجزة واحدة تنتقل مع الرسل رسولاً رسولاً ؟
وتظهر في الأمم أمة أمة ؟ ماذا لو حدث هذا ؟

عصى موسى مثلاً لو أنها كانت في يد نوح ومن بعده من الأنبياء : هود ،
وصالح . وشعيب ، وإبراهيم ، وعيسى ، ومحمد . لو أنها كانت هؤلاء الأنبياء ،
وجرت على أيديهم في أقوامهم أما كان لها في نفوس هؤلاء الأقوام ما كان لها
في قوم موسى ؟

وبمعنى آخر : أما كانت معجزة كافية للتحدى والإعجاز ؟

ويمكن أن يقال في ترجيح هذا الرأي الفرضي - : إن تطويع المعجزة
لواحدة ليد الأنبياء ، وانتقالها من سابق إلى لاحق ، فيه تأكيد لها ، وشهادة
مجددة على أنها ليست وليدة الصدفة ؛ ولا أنها فلتة من فلتات الحياة وقمت
ليد إنسان من الناس . فأتخذ منها أداة للتعالي على الناس مما في يديه . ولإذلال
كبريائهم وفضح مدعياتهم من العلم والقوة .

فإذا تظاهر ظهور هذه المعجزة مرة بعد مرة في أزمان مختلفة ؛ مع احتفاظها
بكل ما فيها من ملامح وميزات - كان في ذلك ما يحسم الشك فيها ، ويقطع باليقين
بأنها من عند الله ، وأنها لا تظهر إلا لمن اختارهم الله رسلاً إلى عباده .

هذا ما يمكن أن يقال في هذا الوجه من الإعجاز ..

ولكن هذا الوجه على ما يبدو من وجاهته مدفوع من وجوه :

فأولاً : يحى المعجزة على صورة واحدة متكررة يفقدها كثيراً من التأثير
العقلي والنفسي الذي كان لها على الناس عند وقوعها لأول مرة . فإن ظهورها
في الناس بعد احتياجها - الطويل أو القصير - لا يثير فيهم تلك المشاعر العاصفة
التي كانت تثيرها عند ظهورها أول مرة .. إذ أن الناس في المرات التالية للمرة
الأولى يلقونها وقد عرفوا عنها كثيراً من صفاتها وأفعالها فلا تقع من

نفوسهم الموقع الذى كان لها فى نفوس من شهدوها لأول مرة عرفتها الحياة فيها ... وهكذا التأن فى كل أمر يعيدس فى الحياة ، وتمتكر دوراته فيها
.. فالشمس على ماهى عليه من عظمة وجلال ، قل ١٠ يلتفت إليها الناس ،
وقل ما يرون ما فيها من عظمة وجلال ١ وذلك لتكرار دوراتها بين المشرق
والمغرب ١ حتى لقد صار ذلك منها أمراً مألوفاً ، وكل مألف تلقاه النفس لقاء
فاتراً ، غير واقفة عنده ، أو ملتفتة إليه ١١

وثانياً : تكرار المعجزة الواحدة ، فى صورة واحدة يوقع فى كثير من
النفوس أنها ليست من عند الله . وإلا لما وقفت قدرة الله عندها . مهما كان
مبلغها من الدلالة على قدرة الخالق وسلطانه . ١

إن الفنان العبقرى لا يرضى أن يحسب فى الفنايين العباقرة بأثر واحد من
آثاره . ولا تنسخ له الحياة مكاناً بين العباقرة الفنايين حتى يأتى بأكثر من شاهد
يشهد له على مكانته وأصالته . ورسوخ قدمه ١

فالعامل الفنى الواحد - مهما يكن فيه من لمسات العبقرية ونخيلها - ليس
إلا نبأ تلقى الناس إلى أن فناً يوشك أن يولد ، ويخرج إلى الحياة . . ويتربص
الناس بعد هذه النبأ مولد الفنان فيما يقدم من أعمال . . فان وقف عند العمل
الأول تزاورت عنه الأبصار ، وحسب عمله الأول فلتة من الفلتات ، أو مصادفة
لم يكن له تدبير فيها ١

والناس فى جناب الله ، وفى قدرته يتوقعون أعمالاً لا تتقف عند حد
فى مجال الاستدلال على قدرة الله . فكل شئ مسخر لله ، خاضع لأمره ،
مستجيب لدعوته ..

١ إنما أمرنا شئ إذا أردناه أن نقول له كن فيكون . .

والرسل هم السفراء بين السماء والأرض . . بين الله والناس . ١
والذى يتوقعه الناس هو أن يروا هؤلاء السفراء فى حلل جديدة من
الرواء والحلال . . كل حلة منفردة بألوانها وأصباغها ، لا تشبه لاحقتها

سابقتهما . فإذا جاء الأمر على خلاف هذا ، وجاء السفراء واحداً إثر واحد في حلة يأخذها اللاحق عن السابق ! ساء ظن الناس - وحق لهم أن يسوء ظنهم هؤلاء السفراء ، وأن يشكوا في صدق دعواهم أنهم رسل من عند الله . فإن ما عند الله كثير لا ينفد ، ولا يجيء على تلك الصورة التي لا تدل إلا على العجز والفقر ! ! ومن شأن المعجزة أن تحدث الناس بلسان فصيح عن قدرة الله ، وعن حاله وعظمته ، وأن ترى الناس الله الذي له ملك السموات والأرض .. الله الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ، وهو السميع العليم ..

وثالثاً : المعجزة في حقيقتها لسان يحدث الناس على قدر عقولهم ، وباللغة التي يتعاملون بها .

وسواء أكانت المعجزة حسية أم عقلية ، فإنها لكي تكون حجة على الناس - ينبغي أن تقدر بقدرهم ، وتحسب بحسابهم ، أو بمعنى آخر ينبغي أن تجري معهم على مقتضى الحال كما يقول علماء البلاغة . . فإذا كانت من الناس بحيث تبعد الشقة بينهم وبينها صعوداً أو هبوطاً - لم تلق بالناس ، ولم يلتقوا بها ، فذهبت مذهباً ، وذهبوا هم مذهباً آخر وكانت وهم كما يقول الشاعر :

أيها المذبح الثريا سبيلا عمرك الله كيف يلتقيان

هي شامية إذا ما استقلت وسهيل إذا استقل يمان

وإذا كان الناس مختلفون في طبائعهم . متفاوتون في ذكائهم ؛ حسب أزمانهم وأوطانهم ، فاللسان الذي يخاطبون يجب أن يكون مختلفاً بحسب هذه الطبائع ، متفاوتاً بتفاوت هذا الذكاء ، حتى يكون لساناً مفهماً يجد من يستمع إليه . ويتلقى عنه !

من أجل هذا كانت معجزات الرسل واقعة على حسب كل أمة واستعدادها العقلي والنفسي . . وكان لكل رسول معجزة أو أكثر تناسب حال قومه ، وتجىء إليهم من الجانِب الذي بلغوا فيه غاية ما عندهم من فطنة وذكاء ومالهم من قوة وجهد !

وكان من هذا أن جاءت معجزات الأنبياء على هذا التقدير . . محسوبة بحساب الأمم واستعدادها .

يقول الجاحظ : « وعلى قدر جهل الأمة ، وغباء عقولها ، وسوء رغبتها ، وخبت عاداتها ، وغلظ مخنتها ، وشدة حيرتها — تكون الآيات . » كفلو البحر ، والمشي على الماء ، وإحياء الموتى ! » (١)

وسنرى فيما نستقبل من أبواب هذا الكتاب بياناً شارحاً للحكمة في اختلاف المعجزات . ومناسبتها لأحوال الأمم كما سنرى لماذا كانت معجزة النبي ﷺ ، معجزة عقلية ، تخاطب العقل الإنساني في أعلى مستوياته وأدناها جميعاً ، فيما حمل القرآن من آيات بينات .

• • •

الباب الرابع

مصادر الرسالة الإسلامية

محمد ، والقرآن ، والصلة التي يجمع بين محمد والقرآن . تلك هي موضع البحث والنظر لمن يريد أن يتعرف على المصادر التي أقامت السريعة الإسلامية على تلك الصورة ، التي تعرفها الحياة ، ويدين بها المسلمون .

من أجل هذا كانت هذه الدراسات الكثيرة لشخصية محمد ، ولحققة القرآن ، ولما بين محمد والقرآن من صلة — كانت هذه الدراسات منظوراً إليها من آفاق مختلفة ، متعددة ، سواء أكان ذلك من المسلمين أنفسهم ، أم من غير المسلمين .

فقد استبد بكثير من المسلمين الشعور الديني ، وغلبتهم عاطفة الدينية ، وصور لهم الوهم الخاطيء أن يأنفوا بتخصية الرسول بألوان وأصباغ ليترضوا بها مشاعرهم الساذجة ، فجاءت هذه الأصباغ الغريبة وتلك الألوان الصارخة على غير ما قدروا وعلى غير ما أرادوا .. إنها تنزل من جلال النبوة وجمالها بمنزلة أصوات دخيلة مزعجة في تشيد علوى ملائكي ! بل إنها — في أحسن أحوالها أشبه بالمصاييح الموقدة تحت أشعة الشمس ، في وجه النهار المشرق !

وكما استبد الخماس الديني ببعض المسلمين ، فجاءوا إلى شخصية الرسول بهذه البضاعة الرخيصة ؛ كذلك استبدت الكراهية للإسلام ، والحقده على نبي الإسلام ببعض الناس فحاولوا أن يلقوا على الإسلام ، وعلى نبي الإسلام ظلالاً معتمة من الريب والفسكوك ، وأن ينزعوا عنهما ما عليهما من عظمة قدسية ، وجمال رباني .. فجاء عملهم هذا على غير ما قدروا ، وعلى غير ما أرادوا فإن ما يبنيه الله لن يهدمه الناس ! وهل يحجب الدخان المتصاعد من الأرض والغيار الشائر من أعاصيرها وعواصفها وجه الشمس عن الحياة يوماً أو بعض يوم ؟ بل إن الشمس لتزداد في العين بهاء وجمالاً إذا أسفرت من وراء الغمام ، وتبدت من خلال السحاب !

على أن كثيراً من الدراسات التي تناولت شخصية الرسول ، وحقيقة القرآن ، من علماء المسلمين ، وغير المسلمين قد جاءت مقتصدة في أغلب أحوالها ، تنزع منزع انوقوف على الحقيقة والتهدي إلى مواطن الحق .

ولا نريد أن نقف هنا على تلك الدراسات المستقيمة المائلة التي قصد بها أصحابها وجه الحق في سيرة الرسول ، وفي شريعة الإسلام ، فإن طريقها واضح لا تهمي سبله على من يلتمس الحق ، ويطلب الوصول إليه .

ولما الذي نريده هنا هو أن نعرض بعضاً من هذه الوجوه الشائبة الممسوخة التي أدخلها على سيرة الرسول ، وعلى حقيقة القرآن هؤلاء الجملة المنتطعون من المسلمين ، أو أولئك الجملة المتعصبون من غير المسلمين .

وأهم ما يعنيننا في موقفنا من تلك القضية أن نظل بمأمن من هذه التيارات المتدافعة من المنتطعين والمتعصبين ، فلا تغلبنا العصبية للعقيدة ، ولا يحملنا الشنآن للمعادين للإسلام على أن نجور في الحكم ، أو نستبد بالرائي . وذلك مانستعين الله عليه ، ونرجو السداد والتوفيق فيه .

شخصية الرسول

كانت شخصية الرسول موضع نظر عميق ، وبحت متصل من أولياء الإسلام ، وأعدائه على السواء ! .

ذلك أن الإسلام وإن كانت تعاليمه منزلة من السماء ، لا دخل لمحمد فيها — إلا أن تناول محمد ، لهذه التعاليم ، وقيامه عليها ، وتطبيقه لها قد جعل بينه وبين هذه التعاليم رابطة وثيقة ، بل إنه جعل منهما كيافاً واحداً . .

فأى مايقع في القرآن من ضروب الكمال والجلال — وكله كال وجلال — يضاف على محمد ، كالا وجلالا . . كما أن أى سناً يضىء من حياة محمد ، — وكل حياته سناً وضياء — يزيد القرآن ألقاً وإشراقاً على ألقه وإشراقه .

وعكس هذا يأخذ هذا المأخذ ، فإن أى عوج يبدو في شخصية الرسول —

وهيأت هيأت — يتسرب إلى القرآن ذاته ، ويساله في الصميم منه . . وإن أى
هأخذ يؤخذ على القرآن — وهيأت هيأت — ينال من محمد ، في شخصيته ،
وفي مكانته !

ولأنه لاختلاف بين المسلمين وغير المسلمين على شخصية محمد ، التاريخية ، فهو
شخصية تاريخية معروفة الزمان ، والمكان ، تشهد لها الوثائق التاريخية نهادة لم
يقدمها التاريخ لأية شخصية أخرى غير « محمد » .

من أجل هذا لم يستطع أشد أعداء الإسلام عداوة ، وأكثهم جرأة على
الحق ، وعدوانا على الحقائق أن يبذر بذرة واحدة من بدور الشك حول شخصية
« محمد » من : حية وجوده في الحياة ، في زمانه ومكانه الذي وجد فيه ، كما لم
يستطع أحد أن ينكر الانقلاب النامل الذي قام به « محمد » في الجزيرة العربية ،
وفي الحياة الإنسانية ، وما أثار في العقول من أفكار ، وما ألقى في القلوب
من معتقدات .

ولكن الذين نصبوا أنفسهم لمحاربة الإسلام لم يسلموا بهذه الحقيقة على
إطلاقها ، ولم ينطقوا بكلمة الحق فيها . . إذ أنهم لو سألوا « لمحمد » بما عرفت
الحياة منه ، وبما حفظ التاريخ له لسألوا الإسلام بأنه دين الله ، وبأنه وحى
السماء ، وشرعية الحق . ودون ذلك أهوال وأهوال . . فإنهم والإسلام في حرب ،
ولس يسألوا له أو يستسلموا إلا بعد أن يرموا بأخر سهم بين أيديهم ، ولما بعد
أن ينفثوا ما في صدورهم من حقد وحسد . .

تخطيط هديان :

كان أقرب شيء إلى الذين حاربوا الإسلام وكادوا له أن يلقوا ظلالا من
الريب والشكوك حول سيرة الرسول ، وأن يعيشوا من صدورهم المريرة نفثات
من الحقد الأسود المحموم فيتبر دخانا يزحف على تلك الشخصية ، فيغير من
حقيقتها ، أو يخفي من معالمها . . فذلك وإن بدا لأول أمره أنه عمل طائش لا يلقى
من الناس إلا استهزاء واستخفافا ، إلا أنه مع الزمن ، ومع ترداد هذا الافتراء
قد يصبح يوما ما حديثا يروى في الناس ، ثم لا يعدم على الأيام أنصاراً ، ثم قد

لا بعدم من أولئك؛ لأنصار من يدخل به على التاريخ ، ويفسخ له مكافأ فيه ..
فها أكثر المفتريات التي ولدت في الحياة مولدا غريبا شائها ، ثم استطاعت مع
الزمن أن تندس في تفكير الناس ، وأن تجدد من العقول « الرخوة » المريضة
طواعية لها ، وقبولا لقوالها الممسوخة المعوجة ! .. وكفى في التاريخ من أكاذيب
وأباطيل ومفتريات غلبت الحقائق ، وأزالها عن مكانها .

كان أقرب شيء إذن إلى الذين حاربوا الإسلام وكادوا له أن يذهبوا
هذا المذهب ، وأن يحكموا رميتهم من هذا الجانب ، فإنها إن صحت أصابت
من الإسلام مقتلا لا يقوم بعده ، وأنهوا هذه الحرب التي لا تنتهي بينهم
وبين الإسلام .

ولسكن الأمر — أمر محمد — أكبر من أن يتغشاه كذب ، أو يظهر
عليه افتراء ..!

ولا تحسبن الذين حاربوا الإسلام ، وحاربوا في الإسلام بجيوش زاسفة
في الحملات الصليبية ، وغير الحملات الصليبية التي شرع لها العلماء والفلاسفة
أقلامهم ، وأقاموا لها دراسات أكاديمية ودارسين محرفين للمفتريات والأكاذيب
المطلية بتلاء العلم ، والمموهة ببريق البحث عن الحقيقة — لا تحسبن هؤلاء
جميعا قد غفلوا عن هذا السلاح ، سلاح التشوين على شخصية محمد وإذابتها
بالدعوى الباطلة ، والأسانيد الملتفة ، ليحيلوا شخصية محمد بعدها خرافة عاشت
في خيال العرب مع كثير من الخرافات التي تأثروا بها في حياتهم - ولسكنهم
كانوا كلما حاولوا خلق عناصر الضلال والبهتان لينسجوا من خيوطها نسيجاً يلقون
فيه شخصية « محمد » وجدوا أنهم إنما ينسجون بيتاً من بيوت العناكب ، يحاولون
أن يسدوا به وجه السماء ، وأن يجنبوا ضوء الشمس في رابعة النهار !! فكان إذا
ولد لهم من هذه الأكاذيب مولود وأدوه ، وواروه التراب .. أشبه بالأجنة التي
تلفظها الأرحام قبل أن تدب فيها الحياة !

إن حقيقة « محمد » التاريخية لم تكن يوماً من الأيام موضع شك أو مثار
خلاف بين المسلمين وغير المسلمين على كثرة ما كان بينهم من خلاف متصل ، وجدل
ملتب في كثير من أصول الشريعة وفروعها ..

عظمة محمد :

وعظمة « محمد » ليست محل شك عند كل من يعول عليه من أهل المعرفة ، وأصحاب الرؤى من غير المسلمين ؛ فضلاً عن المسلمين الذين يرتفعون بمقام نبيهم إلى مستوى من العظمة لا يرتفع إليه بشر ، ولا يدنو منه إلا أنبياء الله ورسله الكرام .

وعظمه « محمد » عظمة بارزه ، أكبر من أن يشكرها مكابر ، أو يعصى السبيل إليها مضلل أو مخادع .

لقد فرضت على أعداء الإسلام أن ينفذوا لمحمد بأنه واحد من آحاد العظماء في تاريخ الإنسانية ، ورأته من روادها ، ومصلح من مصلحيها .

ولكن أبي كثير من هؤلاء أن يعترف لمحمد بأنه نبي ، وأنه تلقى شريعته من السماء . . صنفاً منهم على شريعة الإسلام أن تفيض من هذا ينبوع العلوى ، وأن تتصل أسبابها بالسماء . وهم بهذا إنما يريدون أن تذهب هذه الشريعة مع مذاهب من شرائع سننها المصلحون من الناس . . بمن كافت شرائعهم مستمدة من إلهاماتهم الروحية دون أن تصلها بالسماء أسباب . . وبذلك يذهب « محمد » كما ذهب العظماء في متاحف التاريخ .

لقد ذهبت شريعة « حورابي » وبهت ظل القانون الرومانى . وعفى الزمان على الإسكندر . و نابليون وغيرهما . . ذلك على خلاف الشرائع السماوية ، ورسل تلك الشرائع . . وإن دخل على بعض تلك الشرائع ما دخل من تبديل ، وتحوير . . فإنها على ما دخل عليها لا تزال محتفظة بطابع سماوى ، يضاف عليها الجلال ، والجلودا

عظمة الانسان ، وعظمة النبى :

ولا شك في أن « محمدآ » لو لم يكن نبياً ، لكان إنساناً مرموقاً في قومه ، ولكان له شأن بينهم .

ولكن مهما يكن من شأن الأخلاق الكريمة ، والصفات الطيبة ، والذكاء العبقري الذى يشتمل عليه كيان أى إنسان في الجزيرة العربية ، فإنه لن يتجاوز

هذه الحدود التي كانت تدور فيها قواهم الروحية ، أو النفسية ، أو العقلية ، أو الجسدية . .

فلقد كان يمكن أن يكون « محمد » — لولا أن أكرمه الله بالنبوة ، واصطفاه بالرسالة — كان يمكن أن يكون واحداً من أولئك الذين كان لهم مكافئ في قومهم ، وكانوا بموضع التحلة والاحترام فيهم .

وانظر فيمن عرف في الأمة العربية — قبل البعثة النبوية — بحال أوجبت له التقدير والاحترام ، وأضفت عليه نوب الزعامة والقيادة . . فإنك تجد في الحكماء مثلاً « أكرم بن صيفي » . وفي الخطباء البلغاء « قيس بن ساعدة » . وتجد في الشعراء : امرأ القيس ، وعنترة ، ولييد ، وعمر بن كثوم ، وغيرهم من أصحاب المعلقة . . وتجد في الأبطال الفرسان عنترة ، وعمر بن عبدود ، والحارث بن شهاب . . وتجد في الكهان شقياً ، وسطيحاً ، وغيرهم كثير من تلك الأسماء التي حفظها تاريخ الأمة العربية في الجاهلية لذوى النباهة والشأن من رجالها .

كان « محمد » لولا النبوة — يمكن أن يكون واحداً من أصحاب المعلقة ، أو الحكماء ، أو الخطباء ، أو الفرسان ، أو الكهان . . أو أن يكون فارساً ، أو شاعراً ، أو حطيباً . . ولكن يظل مع ذلك في هذا المستوى الذي عاش فيه « حكماء قومهم ، وشعراؤهم وخطباءهم وكهانهم ، وأصحاب المسكنة المرموقة فيهم .

وماذا تعطى بلاد كالبلاد العربية المجردة أكثر من هذا ؟ بل ماذا تعطى أعدل البلاد جواً ، وأحصنها أرضاً ، وأوفرها خيراً ؟ ماذا تعطى في مجال العظمة ، وماذا تقدم للحياة من عطاء ؟ بل ماذا تعطى الحياة الإنسانية كلها من عظمة وعطاء ؟ إن كل نتاج أرضي مهما يكن من الصفاء ، والقوة ، والسلامة لا يمكن أن يكون شيئاً إلى جانب تلك الثمرات الطيبة التي تنتجها السماء من العالم الأرضي فتسكب فيها سماعات من النور العلوي ، وتطلق فيها شرارة من روح القدس فتكون هذه الثمرات الزكية الطيبة أنبياء الله ورسله إلى عباده ! إن عظمته النبي عظمة لإنسانية سماوية معاً . . التي فيها الإنسان في أكرم خصائصه وأصفى صفاته

بالعالم العلوى ، فنهل من مناهله ، واقبض من أنواره ، ونزود لروحه من شعاعات الحق التى لا تخبو أبداً !

موقف .. وموقف :

لم يستطع أعداء (محمد) - قديماً وحديثاً - أن يكرروا هذا الذى بين يديه ، وعلى لسانه من علم وحكمة . . كما لم يستطع أعداؤه - قديماً وحديثاً - أن يفضوا الطرف عنه ، وأن يحجبوا عن أبصارهم أضواء هذا الجلال الذى يحف به ، أو أن يكرروا شعاعات تلك العظمة التى يجد ريحها كل من يخالطه أو يدنو منه ، أو يطالع سيرته !

ولكن الذى يأباه هؤلاء الأعداء - قديماً وحديثاً - على محمد هو أن يكون متصلاً بالسماء ، مثقياً عن الله تلك الرسالة التى يدعو الناس إليها ، ويبشر فيهم بها ! لأنهم يرضون لمحمد أن ينزل من منازل العظمة الانسانية حيث يشاء ، ويسلمون له أن يكون ما يشاء فيهم ، وفى مناصب السيادة والقيادة عليهم ، ولكن على أن يعزل نفسه من منصب النبوة ، ومن مقام الرسالة ، وأن يحجى إليهم عن طريقه الشخصى ، فإن ما فيه من الصفات الكريمة يؤهله للزعامة المطلقة فيهم !

وقد عرضنا للدوافع التى تحمل الناس على هذا الموقف من أنبياء الله ورسله ، واستكثارهم على بشر منهم أن يطاول السماء ، ويتعامل معها (١) !

وكان موقف قريش من (النبي) هذا الموقف الضادى فائماً على هذا التقدير ، ومقدراً بهذا الحساب . . وهو أن يكون لبشر معاملة مع السماء . . إن هذا إلا قول البئر ، . . ! وأنزل الذكر عليه من بيننا ؟ بل هو كذاب أشر ! .

وقد تولى القرآن الكريم فضح مقولات المعاندين من كفار فريش حالاً بعد حال : فحين قالوا عن النبي إنه ساحر كان رد القرآن :

« هل أتيتكم على من تنزل الشياطين ؟ نزل على كل أفكاريهم .
يُلْقُونَ السَّمْعَ ، وأكثرتهم كاذبون » .

وما جربت قريش على محمد ، حالاً كذب فيه ، ولا عدت عليه في حياته
كذبة واحدة !

وحين قالت قريش عن النبي إنه شاعر أجابهم القرآن : « والشعراء يتبعهم
الغاوون ألم تر أنهم في كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون ما لا يفعلون » ..
والقرآن — كما تعرف قريش — ليس بشعر ، والنبي — كما تعرف قريش —
لا يهيم في أي واد من أودية الضلال ، ولا يقول ما لا يفعل أبداً .. والشعراء
يهيمون في أودية الخيال . ويقولون في أشعارهم ما لا تصدقه أفعالهم .

أنشد « الرزدق » سليمان بن عبد الملك قوله :

ثلاث واثنتان فهن خمس وسادسة تميل إلى شمام
فبن بجانبى مصرعات وبت أفض أغلاق الختام

فقال سليمان : ويحك يا فرزدق ! أحلت بنفسك العقوبة ! أفررت
عندى بالزنا ، وأنا إمام ، ولا بد لي من أن أحبك . . فقال الفرزدق : بأى
شئ أوجبت على ذلك ؟ قال : بكتاب الله . قال : فإن كتاب الله هو الذى
يدرأ عنى الحد ! قال : وأين ؟ قال : فوله تعالى : « والشعراء يتبعهم الغاوون ..
ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون » .. فأنا قلت
بأمر المؤمنين ما لم أفعل ؟

ما أشبه الآية بالجراحة

والموقف الذى رَفَقته قريش من النبي ، قد وقفه أعداء الإسلام بعد هذا
من محمد ، ورسائله . .

فلقد نازع خصوم الإسلام في نبوة محمد ، وإن لم ينازعوا في مكافته من
القيادة والزعامة والإصلاح ، بين القادة والزعماء والمصلحين من الناس .

والذى يرى إليه هؤلاء الخصوم الذين يشككون في نبوة محمد أو يكذبونها
إنما هو — كما قلنا — تجريد السريعة الإسلامية من عناصر الخلود المستمدة من
السماء . ووضعها في دائرة الأنظمة الوضعية التى تخضع للتحويل والتغيير — الجزئى

أو الكلى - بأيدي الناس ! وهذا تتمعى الشريعة الاسلامية من هذا السياج
القدسى الذى حفظها من عبث العابثين ، وحماها من أن تمتد إليها يد بمحو
أو تبديل !

ولقد حاول خصوم الاسلام محاولات محمّدة مضنية أن يدخلوا على الاسلام
من هذا الطريق ، وأن يشككوا فى بعض آيات القرآن بإضافة أو حذف
فما استطاعوا أن يدخلوا عليه حرفاً ، أو يخرجوا منه حرفاً على مدى يزيد على
ثلاثة عشر قرناً !

والآيات التى أرادوا أن يشككوا فيها آيات معدودة ، وليست من الآيات
التي تمس أصلاً من أصول الشريعة . ، ولكن الشك فى أى آية يسحب الشك
إلى القرآن كله .. وهذا ما قصد إليه الذين جاءوا إلى الإسلام مهاجمين
من هذا الطريق . .

إن قداسة القرآن وحدة متكاملة ، فإذا تطرق الشك إلى أية جزئية فيه كان
ذلك داعية إلى الشك فى كل أجزائه ، وهذا يتداعى ذلك البناء الشامخ
المقدس ، وينهار !

محمد . . بعد القرآن :

ورحين أعيانهم أن يزيفوا شيئاً من تلك الوثيقة المقدسة الخالدة عمدوا إلى
مصدرها الذى صدرت عنه ، فأثاروا حول نبوة النبى دحاًفاً متكاثراً من الشكوك
والريب . . وغايتهم من هذا أن يقطعوا الصلة بين القرآن وبين السماء ، وأن
يضيفوه إلى « محمد » كما أضيفت مملقات الشعراء إلى أصحابها ، وكما نسبت أسجاع
السكران إلى أربابها !

يقول « بارثولوميو » الرهاوى : موجهاً هذا الحديث الخطابى إلى مسلم :
« قل لى برك .. ماذا تعنى بالنبوة والرسالة ؟ !

« والله يعلم أنكم ما كنتم تستطيعون أن تعرفوا ، ، لولم يعلمكم المسيحى !

« إنك تقول : إن نبيكم ظل اثنين وثلاثين عاماً (١) لا يتكلم كلام الأنبياء ، ولا هو كان أثناء رسولا ، ولا معلماً ، ولا عرف شيئاً عن الله ، وأنه عرفه بعد تلك الفترة ...

ثم يعضى في هذه السفسطة ... فيقول :

« إذا كنت تشكر بتمام الجد أن شيئاً قد حصل بوساطة محمد ، لإبان تلك السنوات الاثنتين والثلاثين الأولى من حياته .. فكيف لا ينبغي لي أنا المسيحى أن أنكر أحداث تلك السنوات الخمس عشرة التالية (٢) ؟

ثم يخلص من هذا الهزل إلى هزل ... يقول فيه :

« ولكن أخبرنى أولاً — ناشدتك الله — كيف استطاع — محمد — أن يعرف الله ؟ وبأية وسيلة عرفه ؟

« وإذا كنتم تسمونه نبياً فأرونى .. ماذا تنبأ به ؟ وبأى لفظ تنبأ ؟ وما هى وصاياه ؟ وما هى الآيات والعجائب التى صنع ؟ » (٣) .

هذا لون من ألوان التشويش على الإسلام ، وعلى نبي الإسلام ... لم يكن صاحبه يعمل شيئاً من العلم بالموضوع الذى يجادل فيه . . . ويكفى أنه يجمل من حياة محمد ، تلك الخطوط العريضة — كما يقولون — من سيرته . . . تلك الديرة التى لم يختلف على حدودها الزمنية عدو أو ولي « فمحمد ، إنما جاءته النبوة بعد أن بلغ الأربعين من عمره ، لا اثنين وثلاثين سنة كما يقول هذا السيد المتعالم ! ! كما أن نبوة محمد قد ظلت ثلاثة وعشرين عاماً ، لا خمسة عشر عاماً حسب دعواه .

(١) الحق أنه طل أربعين عاماً ، لا اثنين وثلاثين . . . فقد جاء وحى السماء بعد أن بلغ الأربعين من عمره .

(٢) أنها ليست خمس عشرة سنة ، ولكننا ثلاث وعشرون .. هى سنوات النبوة من بعثة النبي صلى وأس الأربعين من عمره ، إلى أن لحق بالرفيق الأعلى فى الثالثة والستين .

(٣) حضارة الإسلام لجوستاف جرونباوم ص ٦٨

ويكفي في سقوط كل مدعيات هذا المدعى أن كان من الجهل بموضوع هذه القصية إلى الحد الفاضح .

نعم . إن الرجل وإن لم يكن يحمل من العلم شيئاً في موضوعه هذا ، إلا أنه كان يحمل طاقة كبيرة من الحقد على الإسلام ، والكرهية له .. ولكن الحقد والكرهية وحدهما لا يفيان شيئاً في التشويش على الحق ، ولا في زحزحته عن موضعه .

ولو أن مع هذا الحقد ، وتلك الكراهية شيئاً من العلم لما كان هذا الخلط ، وذاك الهراء ، ولا استطاع الرجل بما عنده من علم أن يقتصد في هذا النباح ، أو أن يخرج في صورة أقرب إلى صوت العقلاء من الناس .

ومن البديهي ألا تقف من هذا الكلام موقف الجد ، ولا أن نرد على تلك الأسئلة التي سألها . متبحراً - في صورته تهجم واستهزاء .. لأن ذلك كان يمكن لو أننا نجد لهذا الكلام شيئاً من الاحترام في عقولنا ، أو قدراً من الاعتبار في تقديرنا ؟ .. فلندعه يمضي كما يمضي صوت النائحة في جوف الصحراء . ولننظر في صرخة أخرى من تلك الصرخات المجنونة .. فما أكثر تلك الأصوات التي تنطلق من صدور محنقة ، حاقدة ، على الإسلام . وعلى نبي الإسلام .

يقول « ثيوفانيز » المتوفى سنة ٨١٧ م في صدد انتشار الإسلام : وهكذا انتشر الخبر - خبر محمد - من النساء - يقصد خديجة - إلى الرجال ، فباع أولاً أبا بكر الذي جعله فيما بعد خليفة بعده !

وانتهى الأمر بأن استطاعت شيعته أو قل فرقة المارقة ! أن تحصل بالقوة أو قل بالحرب على السيادة على منطقة يثرب ، وذلك بعد أن قضى في البداية عشر سنوات ينشر دعوته سرراً ، ثم قضى عشر سنوات أخرى ينشرها حرباً ، وانتهى الأمر إلى إعلانها صريحة ، وحكم البلاد تسع سنوات !

وكان يعلم أنصاره بأن من قتل عدوه أو قتله عدوه فهو داخل الجنة ! وكان يصف الجنة بأنها موطن سرور جسدي ، وشرب ونهر ، وعناق للنساء وأن بها أنهاراً من نهر ، ومن عسل ولبن ، وأن هناك نساء شير اللواتي

لهم اليوم عناقن مديد دائم ، وله سرور مقيم ، (١) .
وأغرب ما في هذا القول - وكله غريب - أن تقوم فرقة مارقة بإقامة دولة
مترامية الأطراف ؛ وأن تقيم حضارة عريقة راسخة تنفذ سماعاتها القوية في ذلك
الظلام المطبق الذي كان يخيم على أوروبا ، فيفتح لها معالم الطريق إلى الخروج من
ظلمات العصور الوسطى إلى عصر المدنية الحديثة . فإن القوة العاشمة لا يمكن
أن تقيم بناء قويا متماسكا يبقى على الزمن بعد أن تزيله تلك القوة ؛ وتمتلى عنه ...
وقد بقى الإسلام أكثر من ثلاثة عشر قرناً ، يزداد على الأيام أنصاره ؛ وتنفسح
في العالم رقعته ، وسيبقى هذا الدين أبدي الدهر مصدر هدى ، وإشعاع علم ومعرفة ،
لكل عاقل رشيد .

ولا نتقف عند تلك المقررات الباطلة التي يدعيها هذا المدعى عن الدوافع التي
كانت تدفع المساكين إلى الاستشهاد في سبيل الله . وإعزاز دين الله ، ونصرة نبيه ، .
فإن هذا الرجل - شأنه شأن صاحبه من قبل - يستملى قلبه من صار محموم ؛
وقلب مريض ! فلندعه إلى محموم آخر في هذا الصف الطويل ، عن يهود هذيان
الحى من صدور تغلى حقدآ على الإسلام وعلى نبي الإسلام !
يقول ولیم الطرابلسی المتوفى سنة ١٢٧٣ م في رسالة له عن حالة العرب
والنبي محمد ، وشريعتهم ، وعقيدتهم :
« إن العرب يمتقدون أن جبريل نقل الإرادة الإلهية إلى النبي ! ثم صاغ
المؤمنون ما كان ينطبق به كتاباً » .

ثم يملق على هذا الذي يمتقده العرب حسب رأيه فيقول : « إن للكاثوليك
على ذلك رأياً آخر فهم يرون أنه بعد أن مات محمد أراد أنصاره أن يعالجوا
العقيدة والشريعة معالجة شاملة قائمة على تعاليمه .. فلما تبينوا أن الرجل الذي يخط
به العمل (٢) لم يرزق الكفاية اللازمة لأداء ذلك على الوجه الأكمل - طلبوا إلى
اليهود والمسيحيين الذين أسلبوا أن يساعده »

(١) حضارة الإسلام ص ٩٨

(٢) لعله يقصد بهذا الرجل زيد بن ثابت الذي جعله أبو بكر على رأس تلك الجماعة التي
وكل إليها جمع القرآن ، وقد كان مجموعاً عند كتاب الوحي وعبرهم ، كما كان محفوظاً في الصدور .

وهنا تبدو للرجل أن الفرصة سانحة بعد أن احتلق لها هذه الفرية بإدخال جماعة من أسلموا من اليهود والنصارى في عملية جمع القرآن — فيقول :

« وعند ذلك رأى هؤلاء — أي الذين أسلموا من اليهود والنصارى — من الأفضل أن ينتموا فقرات مناسبة من العهد القديم والجديد ، وأن يمزجوها بالكتاب كما اتفق (١١) وبذلك أصبح الكتاب على قدر عظيم من الرواق والجمال المنقول من الكتب المنزلة ، ما بين مسيحية ويهودية أما الجانب الإسلامي الأصيل فليس إلا تشويها وتحويلاً ٩١ . » (١)

وشخصية القرآن التاريخية — إن ساخ هذا التعبير — شخصية لامراء فيها ، ولا اختلاط عليها بين المسلمين ، وخصوم المسلمين ؛ فهي أكبر من أن يحجبها هذا اللغو ، وهي على الصحة والسلامة بحيث تقفل كل ميكروب خبيث يدخل عليها .

وجميع الذين تعرضوا لدراسة تاريخ القرآن من علماء الغرب والذين يعتمد عليهم ، ويؤخذ برأيهم — لا ينكرون هذه الحقيقة ؛ وهي أن القرآن قد جاء به « محمد » ، وأن الجمع الذي قام به أبو بكر ؛ ثم عثمان من بعده ، لم يكن إلا نقلاً له من تلك الوثائق الكثيرة ، التي كانت بأيدي كتاب الرضى ، وعند كثير من الصحابة وغيرهم ؛ وهي مع كثرتها كانت جميعها على الصحة والسلامة الكاملة ، يشهد بعضها لبعض ، ويؤكد بعضها بعضاً . وذلك بالإضافة إلى شهادة الحفظ للقرآن كله ، عند كثير من القراء ، من صحابة رسول الله . .

من أجل هذا لم يجرؤ عالم من علماء الغرب أن يقف لهذه الحقيقة موقف المناقض لها ، أو المناوش عليها . وإنما الذى كان من مقولاتهم هنا : أن هذا القرآن من كلام « محمد » ، وليس وحى السماء ، وربما قالوا إنه استمد مصادره هذا القرآن من ورقة بن نوفل أو غيره من الأحرار والرهبان .. ولكنه على أى حال يضاف إلى « محمد » وينسب إليه !

ولم يقل أحد قبل هذا الرجل أو بعده أن جماعة ممن أسلموا من اليهود

والنصارى شاركوا فى وضع القرآن أو جمعه . . ولم يقل أحد كذلك بأن
فصلا ، أو فصولا من التوراة - فى عهدها القديم والجديد - قد أضيف
إلى القرآن عند الجمع .

لم يقل أحد بهذا القول الرخيص ، لأنه قول يفضح صاحبه ، ويعريه من
كل سمة من سمات العلم . فإن الذين شاركوا فى عملية جمع القرآن فى عهد أبى بكر
وفى عهد عثمان - معروفون معروفة وثيقة فى التاريخ ، لا اختلاف عليها . ! وأغرب
ما فى هذا أن أصحاب هذه الدعوى من الغربيين يستندون إلى أقوال كفار قريش
فى أول الدعوة الإسلامية ، حين أعجزهم أمر القرآن ، فلم يقبلوا أن يكون وحياً
من السماء نزل على محمد . . ثم راحوا يلققون أقوالا فى المصدر الذى يرجع إليه
هذا الكلام العجيب الذين يسموهم د محمد ، إياه . . فقالوا تلك المقولات التى
حكاهها القرآن عنهم فى معرض السخرية بهم والتسخيف لآرائهم فيما نزل من الحق !
يقول الله تعالى : « وقالوا يا أيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون .. لو ما تأتينا
بالملائكة إن كنت من الصادقين » (١) . . ويقول سبحانه : « وقال الذين كفروا
إن هذا إلا إفك افتراه ، وأعانه عليه قوم آخرون .. فقد جاءوا ظلماً وزوراً ،
وقالوا أساطير الأولين اكتبها فى تملى عليه بكرة وأصيلا .. قل أنزله الذى يعلم
السر فى السموات والأرض إنه كان غفورا رحيمًا » (٢) . . فهذه أقوال أخذها
القرآن من أفواه أصحابها وردّها عليهم فى حينها . . فكيف تصبح اليوم حجة
على القرآن نفسه ؟ ثم هذا هو القرآن ، وتلك هى التوراة !

فما الفصول التى أضيفت إلى القرآن ؟ وما مكانها منه ؟

وهل يخفى ما بين أسلوب القرآن ، وترجمات التوراة من تفاوت واختلاف ؟

وهل يستطيع بشر أن يدخل على القرآن بآية واحدة ثم يجد لهذه الآية مكاناً
مطمئناً فيه ؟

(١) سورة الحجر آية ٦ ، ٧ .

(٢) سورة الفرقان آية ٦ .

إن القرآن نسيح وحده في الفصاحة والبلاغة ، وإن أى كلمة غريبة تدخل عليه
تتحقق وتموت ، ولا تجد لها بقاء فيه !

ولو كان في مقدور أحد أن يدحل على القرآن بشيء ليس منه ، وأن يفسد
معامله عند المسلمين لكان ذلك إلى قريش، وإلى غيرها من فصحاء العرب وبلغائهم
الذين حاربوا الإسلام حرباً مريرة طويلة ، أرخصوا فيها نفوسهم ، واستباحوا
من أجلها كل شيء .. ومع هذا فقد عرفوا أن هذا الباب موصد بينهم وبين
القرآن ، وأن كلامهم مهما يكن من بلاغة وبيان ؛ فهو بمنزلة الحصى من كريم
الجواهر ويقيمها .

فكيف يصح لهؤلاء الدخلاء على العرب والعربية ، الداخلين في الإسلام من
اليهود والنصارى أن يترجموا فصولاً من التوراة ، ثم يدخلوها على القرآن ، ثم
تجد مكانها آمناً مطمئناً فيه ؟

وهذه هي التوراة ، وهذا هو القرآن مرة أخرى !

اقرأ فصلاً أو فصولاً من التوراة ، ثم اقرأ سورة ، أو سوراً من القرآن
فإنك تجد طعماً غير الطعم ، ومذاقاً غير المذاق ، فإذا حاولت أن تجمع هذا بذاك
أو ذاك بهذا ، وإن تراوج بينهما وجدت أمراً غير مستقيم لك ولا مطاوع
لصنيعك ... كمن يؤلف بين أنغام تخرج على غير اتفاق أو ترتيب ... أنغام مختلفة
المقامات ، والاتجاهات فانه على فرض أن التوراة — بعهدى القديم والجديد —
هي التوراة التي نزلت على موسى ، وهذا ما تنقضه شواهد التاريخ ، ويشهد به
حال التوراة ذاتها — على فرض صحة التوراة وأنها والقرآن يخرجان من مشكاة
واحدة ، فإن أسلوب الأداء يختلف أشد الاختلاف كاختلاف اللغة العامية الدارجة ،
ولغة الشعر في أعلى طبقاته أو هو أشد .

فالذي يقول : إن فصولاً من التوراة قد أضيفت إلى القرآن فزادته رونقاً
وجالاً ليس أكثر تجنياً على الحقيقة ، ولا أشد إنكاراً في القول ممن يقول : إن
فصولاً من قصة أبي زيد الهلالي أو سيف بن ذي يزن قد أدخلها شوقي كما هي

بحالها في روايته : « عنبرة ، أو « مجنون ليلي » ١١ وشتان بين الحالين ..
هناك وهناك .

وسببه بهذا القول — من حيث الإسفاف والسقوط في مجال البحث العلمي —
مايقوله المؤرخ البيزنطي « ثيوفانيز » الذي نقلنا بعض آرائه آنفاً ...

فقد ألف هذا المؤرخ كتاباً سماه « حياة النبي » . وكان مرجعاً هاماً
— كما يقول . « جرونيياوم » لمن تلاه من الكتاب الغربيين !

يقول هذا المؤرخ : « ولما كان « محمد » المذكور فقيراً ، ويتيم ، فانه قرر أن
يربط نفسه بامرأة ثرية من ذوى فرباه ، هي خديجة ، بأن جعل نفسه وكيلا لها ،
لقاء أجر يتناوله ، يتولى شئون إبلها ، ويقوم بأشغالها في مصر^(١) وفلسطين ١١
« ولم يمض طويل زمن حتى فاز برضا السيدة — وكانت أيماً — بفضل طرائقه
الصريحة . فاتخذها زوجاً له ، وبذلك حصل على إبلها ، وسائر ممتلكاتها ، ١١
وندع هذا التلفيق من القول فيما ينسب إلى النبي من تطلعه إلى المال ، ومن
استيلائه على إبل السيدة خديجة . وسائر ممتلكاتها ، ويكفي أن يحصى نصوص
الإسلام الذين ينظرون هذه النظرة إلى « محمد » — يكفي أن يحصوا تركه هذا
الذي ، وما خلفه وراءه لذريته وأهله ١ لقد توفي صلى الله عليه وسلم ودرعه
مرهونة عند يهودى في حاجة أهله ١ . أفهذا شأن من في نفسه آثاره لحب المال
والثراء ؟ أفهذه تركه من تعلق قلبه بحب المال وجمعه ؛ وقد فتح الله عليه البلاد ،
وأفاء إليه الخير الوفير من فيها ؟
قلنا : ندع هذا .

فلندعه إلى قول آخر لهذا المؤرخ ، بعد هذا القول .

يقول :

« وقد اختلط — أى محمد — فى فلسطين باليهود والمسيحيين . وبواسطتهم
حصل على بعض الكتب المنزلة ١١

(١) لم يكن للرسول الكريم رحلة إلى خارج الجزيرة العربية غير رحلته إلى الشام .. مرة
وهو علام مع عمه أبي طالب ؛ ومرة في قافلة قريش في تجارة للسيدة خديجة ، ولم يكن للمصر
هذا الشرف برحلة إلى أيها في تجارة أو غير تجارة .

ثم ماذا ؟

« وأصيب كذلك بمرض عصبي ! !

« فلما علمت زوجته بأمره حز في نفسها - وهي العريضة الأصل - أن
قد أصبحت اليوم مرتبطة بإنسان لا يقتصر أمره على أنه فقير . بل هو
أيضاً مريض ! !

« فراح يهدئها بقوله : إني تلم في رؤية ملك من الملائكة اسمه « جبريل » ،
ولما كنت لا أقوى على تحمل مرآه : فإني تخور قواي ، وأقع على الأرض !

« وكان يقيم بتلك النواحي راهب قد نفى لكفره . واتخذته صديقاً (١) ،
فأخبرته خديجة بكل شيء ، كما أبلغته اسم الملاك .

« وأراد الراهب أن يقنعها تماماً ؛ فقال لها : لقد قال الصدق ، فما ذلك
الملاك إلا الناموس الذي يرسل إلى النبيين كافة (٢) . »

تهمتان هنا أراد هذا المؤرخ - الذي لم يحترم حرمة التاريخ - أن يرمي
بهما نبي الإسلام ؛ وذلك ليفقد إلى غرض آخر خبيث ؛ وهو أن القرآن إنما
هو هذيان تفيض به نفس محمد ؛ ويتحرك به لسانه في نوبات الصرع ؛ وأن هذا
الهديان إنما هو من أخلاط ما وقع عليه في الكعب المنزلة التي استجلبها معه
من فلسطين .

ولم ينجى هذا المؤرخ بجديد ؛ بل أخذ هذا القول عن كفار قريش ؛
واتهامهم لرسول الله بأنه ساحر أو مجنون . ويقول لهم : إنما يعلمه بشر ! ، .

وقد سجل القرآن الكريم هذه المزاعم الباطلة ، وكبت قائليها .. ثم لم يمض
إلا زمن قليل حتى زالت العتاة عن قلوب كثير منهم ، فاهتدوا إلى الحق ،
ودخلوا في دين الله !

(١) يشير إلى ورقة بن نوفل ، وهو قرشي ، عمت إلى السيدة خديجة بقرابة قريبة .

(٢) حضارة الإسلام ص ٦٧

ولما يذكر القرآن الكريم تلك المزايم الباطلة ، فإنما ليسجل على أصحابها هذا الادعاء ، ثم ليفضحه ، ويفضحهم معه ، على مدى الأزمان المتطاولة !

فإذا حكى القرآن قولهم . « إِن تَنبَهُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا »^(١) وقولهم : يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ^(٢) رد عليهم بقوله : « ن . وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ، مَا أَنْتَ بِنِعْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ، وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ، وَإِنَّكَ لَعَلَى حُقُوفٍ عَظِيمٍ »^(٣) ! وليس هذا مقام يرتقى إليه بشر ! وإذا ذكر القرآن قولهم : وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلًا .^(٤) رد عليهم بعدها بقوله تعالى : وقل أنزلناه الذي يعلم السر في السموات والأرض .. لأنه كان غفوراً رحيمًا^(٥) ، وإذا قالوا : « إنما يعلمه بشر »^(٦) ، رد القرآن بقوله : « لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين »^(٧) .

ومع هذا فكيف يحتمل التاريخ - إن احتملت الحياة - رجلاً مجنوناً ، يخلط القول ، ويهذى به ؟ ثم كيف تقبل الأجيال المتتابعة هذيان مجنون ، وشريعة مجبول ؟ أهذا يقع في الحياة ، وفي الناس من يعقل ، ويعي ؟ اللهم إن ذلك لا يكون حتى تنقلب الأوضاع في الحياة ، ويصبح المجانين على رأس القافلة ! فهل انقلبت أوضاع الحياة حقاً ؟

نعم !!

ويقولها صريحة أحد مسيحي القرن العاشر الميلادي .. إذ يقول :
« عندما شاهد ذلك الراهب الفاسق^(٨) سذاجة القوم رأى أن يمتنعهم عقيدته وشريعة على غرار مذهب « آريوس » وغيره من ألوان الكفر والزندقة التي تحرم من أجلها !

(١) سورة الإسراء آية ٤٧ (٢) سورة الحجر آية ٦ (٣) سورة القلم آية ٤١
(٤) سورة الفرقان آية ٥ (٥) سورة الفرقان آية ٦ (٦) النحل ١٠٣
(٧) سورة النحل آية ١٠٣

(٨) هناك راهبان التقى بهما النبي ، بجيرا « الراهب » في رحلته إلى الشام وقد ألم به ساعة أو بعض ساعة ، وورق بن نوفل وهو ابن عم السيدة خديجة ، وكان يقيم بمكة ، ولعله المصنوع هنا

« فراح يسطر كتاباً هو الذى يسمونه القرآن ، وهو شريعة الله ، ناثراً فيه كل ما أودع من مروق . . فعمل فيه أن الله لا كلمة ، ولا روح ، وأن المسيح لم يكن رباً ، وإنما هو نبى كبير وحسب . .

« وجمع فيه - أى القرآن - شتات قدر صيغهم من أمثال هذه الترهات ؛

« وعند ذلك أعطى كتابه لتلميذه « محمد » ، وأبلغ أولئك البلهاء أن ذلك الكتاب أنزل على « محمد » من السماء ، حيث كان فى سحفظ « جبريل » الملك ، فصدقوه بما قال ، وبذلك مكن الراهب لذلك القانون الحديد (١) .

من الخير ألا نقف عند هذا القول ، ولا فلتنت إليه . . ! فقد وقفنا أكثر مما ينبغى عند هذه المقولات الهزيلة المريضة . . التى ربما ينضح على النفس بعض صورها المنسكرة ، كما يقع ذلك لمن يكثُر مخالطة المجافين ، ويستمتع إليهم . . فلقد كادت تنمى إلى خواطر مضللة من هذا الخلط العجيب من القول . وكدت أسأل نفسى . وماذا لو وقع هذا ؟ ألا يجوز أن يؤثر الأسناد تلميذه ويقدمه على نفسه ، فيحطيه ثمرة عقله ، وعصارة قلبه ؟ وهل احتقن الإيثار من هذه الدنيا ؟ لا ، إن الدنيا بخير !

وما أن صحوت من هذا السكابوس المجنون حتى انتزعت نفسى اقتزاعاً من هذه الهوة المظلمة ، وأسالتها إلى الواقع المحسوس !

إن « ورقة بن نوفل » قد مات بعد قليل من بعثة النبى : . لم يشهد أحداث الدعوة ، ولم يدرك وقائعها ، فكيف يضمن القرآن الذى وضعه بين يدي « محمد » — كيف يضمنه أحداثاً لم تقع إلا بعد أن مات وصار تراباً فى التراب ؟ كيف يذكّر هذه الأحداث التى كان ينزل بها الوحي فى حينها محمداً الزمان والمكان . .

فهذه غزوات النبى مثلاً . بدر ، وأحد ، والأحزاب ، وحنين . . إنها مشاهد حية وقعت بين النبى والمسلمين من جهة ، وبين أعداء النبى والاسلام من جهة ، وقد سجل التاريخ أحداثها من أوثق المصادر ، بعد أن ذكرها القرآن فى سبيلها ،

وشرع المسلمين منها أحكاماً ، وكشف لهم عن كثير من خفايا هذه المواقع وما أصاب المحاربين من نصر أو هزيمة .

فهل كان قس بن ساعدة شاهد هذه المعارك في بدر ، وأحد ، والأحزاب وحنين ؟ لقد طواه الموت — كما قلنا — قبل ذلك بزمن غير قليل . فكيف إذن يذكرها في القرآن الذي وضعه لمحمد ؟

ثم هذه الأحداث التي وقعت من اليهود في المدينة ، والمكائد التي كادوا بها للنبي وللمسلمين . . لقد ذكر القرآن بئىء غير قليل من التفاصيل ما كان من اليهود ، وما نزل بهم من عقاب . . فهل شهد « ورقة » هذه الأحداث ؟ وهل شهد « ورقة » حديث الإفك ؟ وهل شهد واقعة ابن أم مكتوم وإعراض النبي عنه ؟ إن القرآن قد نزل منجماً في ثلاث وعشرين سنة ، فجعل تشريعاته وأحكامه في مواجهة الأحداث التي وقعت خلال هذه المدة ليرى الناس الشواهد العملية لأحكام الشريعة ، فيكون ذلك شرحاً للدس ، وتطبيقاً له ، وشاهداً به . . وفي هذا ما فيه من تمكين لأحكام الشريعة في قلوب الناس وعقولهم . . .

وأكثر من هذا ، فإن الكفار والمشركين كانوا يأخذون على النبي أنه لم يخبرهم بالقرآن جملة واحدة ، كما كانت المكتب السماوية تنزل من قبل ، فذكر القرآن قولهم هذا في قوله تعالى : « وقال الذين كفروا لولا تنزل عليه القرآن جملة واحدة ۝ ١١ » (١) ثم رد عليهم بقوله تعالى . « كذلك . . لنثبت به فؤادك ، ورتلناه ترتيلاً ، ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً » (٢) ۝ ١١ فكيف يتفق هذا الذي كانت تطلبه الكثرة من النبي وهو أن يخبرهم بالقرآن جملة واحدة ، وهو يخبرهم به آية آية ، أو سورة سورة — كيف يتفق هذا مع القول بأنه تناول القرآن مرة واحدة من « ورقة بن نوفل » ؟

وصدق رسول الله إذ يقول : « إذا لم تستح فاصنع ما شئت » ! فلو كان هناك بعض الحياء في تلك الوجوه التي لا يتخذه حياءها شيء لما بلغت الجراءة إلى حد التجدي الصريح للمعاقبة السافرة ، التي يشهدها الناس ، ويرونها رأى الدين !

مع الجاهدين والمنصفين :

على أن من العزاء للنفس ، من هذا السخف الذى يعادفه المرء وهو يقلب آراء الدارسين لشخصية الرسول من علماء الغرب — أن يحد في بعض هذه الدراسات عمقا ، وجدا ، ومقصدا إلى الحق ، وإن كانت تظهر في أحوال كثيرة بعض النفثات المسمومة التي تبهر عن أحقاد قديمة متوارثة للإسلام ولنبي الإسلام — كذلك نجد دراسات كثيرة من بين هذه الدراسات قد تحرر أصحابها تماما من العصبية والهوى ، فوضعوا النبي بمكانه اللائق به ، وأحلوا الإسلام بالمنزلة الجدير بها .

فإذا خرجنا من هذا الجو الخافق ، جو الكراهية ، والحقد ، والكذب ، والبهتان ، إلى هذا الجو النقي ، انطلقنا فيه لحظات قصيرة نبلغ بها ما نشاء ، حيث لا نقف عند تلك الحفر والأخاديد ، التي كانت تلقانا في جولاتنا مع تلك الجماعة الضالة المضللة !

لهذا فإننا سنكتفي بالتقاط بعض الثمرات الطيبة من آراء أولئك العلماء الممحصين المنصفين ، دون أن نعرض لها بالتعليق أو الشرح . فهي في ذاتها في غنى عن التعليق والشرح !

لا هارتين :

يقول « لا هارتين » شاعر أوربا العظيم ، في كلمات قليلة بليغة ، مشحونة بعاطفه مشبوبة من الإجلال والإكبار لنبي الإسلام ، ولما أقام في الأرض من معالم الحق والخير . .

يقول :

« فإنه — أى محمد — نبي أصغر من إله ، وأكبر من إنسان » !

وهذا على ما فيه من حق ، فإن فيه من المغالاة ما لا يقول به مسلم في حق النبي . فإنه مهما يكن شأن النبي من السمو والكمال ، فإنه لا يقاس إلى جانب كمال الله وعظمته ، ولكن الرجل شاعر يجمع به خيال الشعراء ! !

ويقول الفيلسوف الألماني العظيم « جيته » ، وهو يستعرض الدين الإسلامى بوصفه نحوه مهيبة ، ومؤدبة .

يقول مخاطباً « أكرمان » : أنت ترى أن هذا التعليم لا يخفق أبداً . .
ونحن — بكل ما لنا من نظم — لا نستطيع ، بل أقول بوجه عام — إن أحداً من البشر لا يستطيع أن يذهب أبعد من هذا : (١) .

فهدا قول فيلسوف غزا العالم بفلسفته ، ولقح العقل الحديث بأرائه !

ول ديورانت :

وهو صاحب الموسوعة التاريخية « قصة الحضارة فى العالم » وقد كان موقفه فى هذا الألفى العالى الذى يطل منه على البشرية كلها — كان ذلك الموقف باعثاله على أن يقتل فى نفسه كثيراً من دواعى العصبية والهوى ، فجاءت نظراته وأحكامه قريبة من مواقع الحق والعدل . . وحسب السيرة النبوية أن تجد من يقف منها موقفاً محايداً : فإنه عندئذ سيعود بمنغم عظيم من المثاليات التى يرفعها للناس ، منارات للهدى ، ورايات للحق والعدل .

يقول « ول ديورانت » :

« وإذا حكمنا على العظيمة بما كان للعظيم من أثر فى البان — قلنا إن محمداً كان من أعظم عظماء التاريخ . فقد أخذ على نفسه أن يرفع المستوى الروحى ، والأخلاقى ، لشعب ألفت به فى دياجير الهمجية وحراره الجوى ، وجذب الصحراء . وقد نجح فى تحقيق هذا الغرض نجاحاً لم يدانه فيه أى مصلح آخر فى التاريخ كله .

« وفل أن نجد إفساناً غيره حقيقى كل ما كان يحلم به (٢) .

« وقد وصل إلى ما كان يبغيه عن طريق الدين . . ولم يكن ذلك لأنه

(١) تجديد التفكير الدينى الإسلامى ص ١٦ .

(٢) لم يكن النبى من أصحاب الأحلام ، وإنما كان مبعوث ، يحمل رساله سماوية ، ومطلوب منه أن يؤديها على أكمل وجه .

هو نفسه شديد التمسك بالدين وكفى ، بل لأنه لم يكن ثمة قوة غير قوة الدين تدفع العرب في أيامه إلى سلوك ذلك الطريق الذى سلكوه ! فلقد لجأ إلى خيالهم ، وإلى مخاوفهم ، وآمالهم ، وخاطبهم على قدر عقولهم ؟

« وكانت بلاد العرب لما بدأ الدعوة صحراء جددباء ، تسكنها قبائل من عبدة الأوثان ، قليل عديدها ، متفرقة كلتها . . . وكانت عند وفاته أمة موحدة متماسكة . . . وقد كبح جماح التعصب والخرافات . . . وأقام فوق اليهودية والمسيحية ، ودين بلاده القديم : ديناً سهلاً واضحاً ، وصرحاً حلقياً قوامه البساطة والعزة القومية !

« واستطاع في جيل واحد أن ينتصر في مائته معركة ، وفي قرن واحد أن ينشئ دولة عظيمة . وأن يبقى إلى يومنا هذا قوة ذات خطر عظيم في نصف العالم (١) » .

هكذا يقول في الاسلام ، وفي نبي الاسلام ، كل منصف : مسلماً كان أو غير مسلم ، لأن ذلك هو الحق الذى لا يتغير وجهه أبداً ، إذا استقبلته قلوب سليمة ، وعقول واعية مستبصرة !

ويقول . ول ديورانت ، أيضاً عن حياة حياة النبي محمد : «

« وكانت حياة محمد ، فيما عدا النساء والسلطان (٢) غاية في البساطة . . . فقد كانت المساكن التى أقام بها واحداً بعد واحد كلها من اللبن . . . لا يزيد اتساعها على اثنتى عشرة أو أربع عشرة قدماً ، ولا يزيد ارتفاعها عن ثمانية أقدام : وسقفها من جريد النخل ؛ وأبوابها من شعر المعز : أو وبر الجمل . أما الفراش فلم يكن أكثر من حشية : تفرش على الأرض ؛ ووسادة من ليف .

(١) قصة الحضارة المجلد الثانى — الجزء الرابع ص ٤٧

(٢) حياة النبي كلها نسق واحد من البساطة والاعدال ، ونظرة الفريين هموماً إلى النبي وإلى الشريعة الإسلامية في شأن تعدد الزوجات نظرة خاطئة ، وقد عرضنا لها في فصل خاص من هذا الكتاب . . . أما السلطان الذى يستنيه المؤرخ من البساطة التى كانت عليها حياة النبي فإنه سلطان روحى ، لا دخل للقوة المادية ، ولا المظاهر الدنيوية فيه .

« وكثيراً ما كان يتماهد وهو يخضع فـلمـه : ويرقع ثوبه . وينفخ في النار؛ أو يكذب أرض الدار؛ أو يحلب عذرة البيت في فنائه؛ ويبتاع طعامه من السوق؛ وكان يأكل طعامه بيده؛ ويلبس أصابه ١١

« وكان طعامه الأساسي التمر وخبز الشعير : وكان اللبن وعسل النحل كل ما يستمتع به من الترف في بعض الأحيان . . . (١) .

تم يقول أيضاً :

« ولم يتعاط الخمر التي حرمها هو (٢) على غيره؟ . . . وكان لطيفاً مع العظماء؛ بشوئناً في وجد الضعفاء . . . عظيماً مهيباً أمام المتعاضمين المتكبرين . . . متسامحاً مع أعرائه — ومع الناس جميعاً — . . . يشترك في تشييع كل جنازة تمر به . . . ولم يتظاهر قط بأبهة السلطان . . . وكان يرفض أن يوجه إليه شيء من التعظيم الخاص . . . يقبل دعوة العبد الرقيق إلى الطعام؛ ولا يطلب إلى عبد أن يقوم له بعمل يحسد لديه من الوقت والقوة ما يمكنه من القيام به بنفسه .

« ولم يكن ينفق على أسرته إلا القليل من المال؛ رغم ما كان يرد إليه من البنى وغيره من الموارد . . . أما ما كان ينفقه على نفسه فقد كان أقل من القليل، ؟

« وكان صوته موسيقياً حلواً يأسر القلوب، وكان مرهف الحس إلى أقصى حد . لا يطبق الروائح الكريهة، ولا صاعلة الأحراس، ولا الأصوات العالية . . .

« ولكن لعله كان يشهر بأنه بهذه التصحية القليلة جعل كل تشريعائه تصطبغ بالصبغة الدنيوية الرهيبة (٣) .

(١) أهذه حياة أصحاب السلطان؟ وكيف يقوم سلطان في صورة حياة متواضعة كهذه الحياة؟ إن يكن سلطان فهو سلطان روي كما قلنا، لا يفرسه صاحبه على الناس بمظاهر الزم، ولا قوة الحند، وإنما تفرسه أخلاقه، وما يشع منها .

(٢) إن الذي حرم الخمر هو الله في كتابه الكريم، وإن كان النبي قد حرمها على نفسه بفطرته قبل البعة .

(٣) قصة الحصار جـ ٢ / المجلد الرابع ص ٤٤ .

ستائل لين بول :

يقول هذا العالم الفيلسوف عن القرآن :

« إن أسلوب القرآن في كل سورة من سوره أسلوب أبى ، يفيض عاطفة وحياة .

« إن الألفاظ ألفاظ رجل أخلص للدعوة ، ولإنها لا تزال حتى الآن تحمل طابع الحماسة والقوة ، وفي ثناياها تلك الجذوة التى ألقيت بها لإنها ألفاظ قدت من قلب لإنسان يستحيل أن يكون منافقا ، وهذا القلب قلب رجل كان له أخطر الشأن فى تاريخ الإنسانية » (١) .

فوستيل دو كولاوتر :

يقول هذا المؤرخ الفرنسى ، فى الفصل الثانى من كتابه « التمدن القديم » :

« لم يتدخل المسيح بأى وجه من الوجوه فى أمور القضاء ، والتملك والإرث ، وما يخص المدنية من الأحكام ، ليعلم العالم بأن ابتداء المدنية الجديدة والحياة الجديدة ، والتربية الصحيحة ، سيكون من مدينة علم الإسلام ، الذى سيجعل العالم أهلا للعلم والمدنية » .

بار تالهي سفت هيلر :

يقول فى كتابه ترجمة القرآن : وهو يتحدث عن حال فومه الأوربيين :

« لقد أصلحت مفسدات أمرائنا وأشرافنا فى القرون الوسطى ، بمباشرة المسلمين ، وتقاليدهم ، واقتبس فى أسلافنا من المسلمين الآداب الحسنة ، والأخلاق والصفات الجميلة ، والسجايا المحمودة » (٢) .

جوستان لوبون :

يقول هذا المؤرخ الكبير :

« لقد أثر التمدن الإسلامى على العالم تأثيراً محيراً للعقول ، ونفوذ الأخلاق

(١) محمد رسول الله - تأليف ايبين دينيه ترجمة الدكتور عبد الحليم محمود

(٢) ونقول : لقد أصبحنا نأخذ عن الغرب ، كل خلق مردول ، وكل صفة ذميمة .

فهل لنا من عودة الى مابع ديننا الحنيف ؟

الإسلامية وتريدتها قد أدخلت الأمم الأوروبية الوحشية التي كانت تغلق راحة السلطنة الروحية ، في طريق التمدن . ولقد فتحت أفكار المسلمين الجبارة ، أبواب العلوم والفنون والفلسفة ، التي كان الأوروبيون في جمل عنها ، وكان المسلمون أساتذتنا طوال ستمائة سنة .

كارليل :

ويقول الشاعر والأديب العظيم كارليل :
« إن القرآن هو التشريع الأساسي ، لكل زمان ومكان ، ومعدن القضاء ، وقوانينه المتبعة في شئون الحياة ، لتهدى وتنير الطريق لاتباعه ، فيجب على كل عاقل أن يفكر في آياته الحكيمة ، ليخلص بنوره من ظلمات الحياة » .

وليم هيود :

يقول هذا العالم الكبير في كتابه المسمى « حياة محمد » .
« إن القرآن ممتلئ بأدلة من الكائنات المحسوسة ، والدلائل المتعلقة على وجود الله ، وأنه هو الملك القدوس ، وأنه سيجزى المرء بعمله إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، وإن اتباع الفضائل واجتناب الرذائل فرض على العالمين ، وإن الواجب على كل مكلف أن يعبد الله تعالى ، وهي — أى العبادة — صلة سمعاده » .

صبروت اصهوت :

ويقول هذا العالم في كتابه « حياة محمد » أيضاً :
« إن محمداً المؤسس أمة وعلمه هداية وهذا أمر لم يوجد له سبب من قبل ، وإن يوجد وهو أى « لا يعرف القراءة والكتابة » ، وقد جاء بكتاب منتمل على دستور الثرائع والعبادات وأخبار الأمم ، وهو نقي العبارة من الألفاظ المستهجنة ، بآهر الحكمة والحقائق ، وهو معجزة له ، والحق يقال : إنه لمعجزة » .

وهذا بعض ما تنطبق به أفواه قوم قد رضعوا من صغرتهم كراهية الإسلام،
وامتلات رؤسهم بالمفتريات الكثيرة عليه . . ومع هذا فقد نفذوا ببسائرهم
إلى شيء من حقائق الإسلام، فبددت ما كان قد لفها من ظلام، فشهدت شهادة
الحق في رسول الله . وفي كتاب الله .

تم ما قولنا نحن في رسول الله ، وفي كتاب الله ؟ ثم ما مدى ما تطوله أيد بنا
من هذا الخير العظيم الممدود لنا ؟

• • •

ونقف عندا القدر من الآراء المنصفة للسيرة النبوية ، وللرسالة التي حملها
النبي إلى الناس . . .

وقد تركنا كثيراً من المفهومات الخاطئة لطبيعة النبوة ، ولرسالة النبي التي
وقع فيها كثير من هؤلاء العلماء ، على الرغم ، ما كان عندهم من استعداد طيب - -
حسب رأينا فيهم - للبحث عن الحقيقة في غير هوى أو عصبية . . ذلك أننا
لأنحاسهم هنا على عقيدتهم الدينية ، فهم - أى أكثرهم - لا يعترفون في الأديان
جميعاً ولا يؤمنون بما وراء المادة . .

ونظرتهم إلى الأنبياء نظرة قائمة على أنهم أصحاب دعوات إصلاحية نابعة
من أنفسهم وليس بينهم وبين العالم العلوى صلة . . وكذلك كانت نظرتهم
إلى « محمد » يرونه ممسحاً اجتماعياً عظيماً ؛ وإنساناً على مستوى عال من
الخلق والعقل

وإذا كنا لا نسلم لهم بهذا ، كما لا يسلم لهم الواقع التاريخي ؛ ولا يسمح به
منطق الحياة التي دخل عليها الأنبياء برسالاتهم - فإننا نحمد لهم أنهم دفعوا كثيراً
من هذه التهم الباطلة التي ولدها الحقد والكراهية في تلك القلوب المريضة التي
تعمل للإسلام ولأهله بعنة موروثة - فقد أكد هؤلاء الكتاب الأحرار الحقائق
المقررة عن نبي الإسلام ؛ وعن رسالته ، ونفوا عن حمى نبوته تلك الأكاذيب
الزائفة التي كانت تزحف عليها من متعصبة الصليبيين من الكهنة والحكام ؛ والعلماء . .

فقالوا عن محمد ، ما قال التاريخ فيه ؛ وهو أنه أعظم لإنسان عرفته الحياة ؛ وأن شريعته أكل شريعة ظهرت بين الناس .

ويكفي أن نعيد هنا قولة « لامارتين » الشاعر الأوربي الكبير عن النبي الكريم ... يقول : « إنه نبي أصغر من إله ؛ وأكبر من إنسان ! »

دعوات الحق ؛ ونزوات الباطل :

وإذ كان لكفار قريش أن يلقوا النبي بالكذيب ، ويرمونه بالتهم ، ويقولون عنه فيما يقولون : إنه شاعر ؛ وإنه لمجنون ؛ أو إنه مدح كذاب - إذا كان لهم أن يقولوا هذا في النبي ؛ وأن يضلوا عن وجه الحق فيه أول ما يلقاهم بأمره ؛ وأنه تأخذهم الدهشة لهذا الأمر فيكذبون إنسانا عرف بينهم بالصدق ؛ ويتهمون رجلا لقبوه بالأمين ، ولم يحاولوا أن يربطوا بين حاضره وماضيه ، وأن يوازنوا بين الحق الذي يدعوه إليه والباطل الذي هم فيه - فنقول إذا كان لقريش أن تقف هذا الموقف من النبي أول الأمر ؛ وقبل أن تثبت الأيام سلامة موقفه ، وصدق دعواه - فإنه لا ينبغي لأحد له مسكة من عقل ؛ أو إثارة من وعي أن يمارى في رسالة « محمد » الآن وأن يشك في صدقه ، وفي نبوته ... !

فلقد انفسح الزمن لهذه الرسالة ، وعاشت في الحياة قرونا متتابعة ، ونزلت من قلوب الملايين من الناس وعقولهم منزلة الإيمان ، فعاشوا فيها ، وخضعوا لها وجرت حياتهم عليها ... ثم هي مع هذا تزداد على الأيام ألغاً ، وإشراقاً ، وتظهر في الأحداث والنكبات أنها الملاذ الذي يلاذ به ، والملاجئ الذي يلجأ إليه .. ويختبر الناس أفراداً وجماعات وأممًا وجودها فيهم ، وحالها معهم فيجدون أمراً واقعاً لا يتخلف أبداً ، على اختلاف الأزمان والأوطان - يجدون أنهم إذا كانوا قائمين على هدى هذه الشريعة ، متصلين بها ، آخذين بأمرها ونهيها - استقام أمرهم ، وعلا في الحياة شأنهم ، وكانوا في الناس هامة وشامة ! .

وأنهم إذا بعدوا عن هذه الشريعة ؛ وفارقوا حماها عصفت بهم الأحداث ؛ وركبتهم الذلة ، وتخطفتهم الناس ! .

فهم - عرف أصحاب الشريعة هذا ، وآموا عن تجربة وخبرة ، وعن شهادة
التاريخ القريب والبعيد أنهم بقدر قربهم أو بعدهم من الشريعة الإسلامية يكون
حظهم من الحياة ، وتكون مكانتهم بين الأحياء ١ .

ذلك أمر لا يحتاج في الاستبدال عليه إلى علم العلماء ، ولا إلى فلسفة الفلاسفة
بقدر ما يحتاج إلى فطرة هادئة ، وقلب سلم من الحقد ، ليكنف عن مدلوله ،
وليشهد شهادة لا ترد بأن الشريعة التي جاء بها محمد هي شريعة سماوية عامة ، جاءت
لتكون الحكومة التي يحكم إليها الناس على اختلاف أزمانهم وأوطانهم ١ .

إن كفار قريش كانوا أكثر فقهاً ، وأحد بصرًا ، وأصدق تقديرًا من أولئك
العلماء أو أدعياء العلم الذين يشككون في نبوة محمد وفي رسالته التي جاء بها .

لقد دخل المعاندون ، والمكابرون ، والمكذبون من كفار قريش وغيرهم من
العرب - دخلوا في دين الله أفواجاً بعد أن لبثوا بضع سنوات يرقبون سير الدعوة ،
وسيرة صاحبها ... فلما استبان لهم أنهم في وجه نبوة ، وأنهم مع رسالة سماوية ،
ألقوا عن أعينهم غواشي الكبر ، والحمية ، فأنحلت عقدة ألسنتهم وشهدوا أن
الرسول حق ، وأن ما جاءهم هو الهدى المنزل من رب العالمين .

فمن عجب أن يلبث هذا الضلال الذي كان محوماً في عقول من كذبوا النبي
أول أمره - من عجب أن يلبث هذا الضلال متوارثاً ، يثلقه الأخلاف عن
الأسلاف . .

إن عصر العلم الذي نعيش فيه إنما قام على كشف حقائق الوجود ، وتجلية
غوامضها ، كما قام على وضع هذه الحقائق بمكانها اللائق في هناهيج الحياة . والشريعة
الإسلامية ، ونبي هذه الشريعة أبرز وأوضح ما عرفت الحياة من حقائق .

وشريعة الإسلام ونبي الإسلام يقفان من العلم موقفاً صريحاً واضحاً ؛ كما
تقف ظواهر الطبيعة في أجلى صورها ، لا يحجبها كهنوت ؛ ولا يقوم عليهما سدنة ؛
فلسكل ذي بصر ؛ ولسكل ذي بصيرة أن تملأ عينيه بهما ؛ وأن يرود بصيرته
فيهما ، وليس يضير المعدن الكريم أن تتناوله أيدي الخبراء ؛ وأن تبلوه بمالديها

من وائل الاختبار ؛ فإن ذلك السائل ؛ وهذا الابتلاء هو الذى يبين عن حقيقته ؛
ويجلى عن كرم معدنه ١١

أما المعادن الرخيصة ؛ أو الزائفة فإنها تنكشف . ويمضح عوارها عند الحك
والاختبار ؟

فمن التاجى المنفوح أن يقول فائل فى نبى الإسلام إنه أقام دولته على الخداع
والحتل ، أو نسر دعوته بالقوة والسيف .. فان هذه كلها وسائل زائفة ، لا تنمى
جذورها . ، ولا تنضج أعوادها ، ولا ينزغ لها زهر ، ولا ينع منها ثمر ..

والإسلام قد عمقت فى الحياة جذوره ؛ وامتدت وعمقت فروعه ، ونضرت
أعواده ، وفتحت أكمامه ، وطابت مغارسه ونمازه .

وهذا فيصل ما بين الحق والباطل فى كل أمر ، وفى كل شأن من شئون
الحياة المادية والروحية على السواء ١ .

الكريم والأصيل من كل شيء يحيا ، ويمتد فى الحياة ١ .

والحسب الدخيل من كل شيء .. دخيل على الحياه ... أشبه بالسراب
بحسبه الظلماء ماء حتى إذا جاء لم يجده سيئاً .

ولله وشوقى ، إذ يقول :

الجمال لا يلد الحياة مواته إلا كما تلد الرمام الدودا
لم يخل من صور الحياة ، وإنما أخطاه عنصرها فثات وليدا

وصدق الله العظيم إذ يقول سبحانه : « فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع
الناس فيمكث فى الأرض » (١) .

النبي والمنتبى :

يقول ، كارليل ، فى كتابه من الأبطال :

أي يستطيع رجل مخادع أن يؤسس دولة ؟

ويجيب :

« كلا ، وربى !

« إن رجلاً محادداً لا يستطيع أن يقيم بيتاً من آجر ... لأنه إن لم يكن علياً
بخواص الطوب ، والمونة ، وسائر مواد البناء الأخرى لما استطاع أن يقيم بيتاً ...
وإن يقيم - إذا أقام - إلا أكواما منقضة ، لا يمكن أن تقوم اثنتى عشر قرناً^(١) .
تضم بن جدرانها ما يربو على مئة وثمانين مليوناً^(٢) من الناس .. إن بناء المخادع
يشهّر لاشك لساعته^(٣) . »

إن هذا القول الوجيز البليغ هو تليخيص أمين دقيق لقضية الباطل في تلبيسه
بالحق ، وتزييه بزيه . إن البناء الذى يقوم بيد الحق بناء راسخ مكين ، يزداد على
مر الأيام رسوخاً وتمكيناً ، وليس كذلك ما يبنى الباطل ، وما يقيم من معالم ...
لأنه بناء متداع ، تسرى فى أوصاله حى الفناء منذ اليوم الأول الذى يقوم فيه .

يقول « جان جاك روسو » فى كتابه « العقد الاجتماعى » :

« كل إنسان يستطيع أن ينقش كلمات على حجر ، أو يرشو كاهناً وثلياً ،
أو يدعى اتصالاً سرياً بأحد الآلهة ، أو أن يدرب طيراً ليهمس فى أذنه ، أو يجد
وسيلة دنيئة للتمويه على الناس - إن من لا يستطيع غير ذلك يكون فى وسعه
أن يجمع حوله - صدقة - جماعة من الخمقى ، ولكنه لن ينشئ إمبراطورية
أبداً .. وسرعان ما يختفى عمله الجاهل معه !

« إن المظاهر الجوفاء لا تنتج سوى صلات عابرة ، وليس هناك ما يكفل لها

الدوام سوى الحكمة !

إن الشريعة اليهودية ما زالت حية !

١ ، بل قامت نحو أربعة عشر قرناً ، وستقوم ما بقيت الحياة ؛ وما بقى فيها من قرون .

(٢) ان من تضمهم جدران الشريعة الإسلامية اليه م أكثر من أربعمئة مليون من

المسلمين .

(٣) محمد رسول الله ص ١٢٣ .

والشريعة الإسلامية التي حكمت نصف العالم مدى عشرة قرون (١) ،
ما برحت حتى اليوم تعلن عن عظمة أولئك الذين وصعواها (٢) ، وقد لا يرى
فيهم أولئك الذين أعتهم الكبرياء الباجية عن الفلسفة ، أو روح التحيز العمياء .
سوى دجالين حسنى الخط ؟

ولكن السياسة الحسنة تعجب في أنظمتهم بتلك العبقرية العظيمة القادة التي
تنصدر المذنبات الخالدة (٣) .

لأنه لكي تدمج دعوة من دعوات الإصلاح لابد من أن تقوم على دعامين:
الدعامة الأولى : هي سلامة الدعوة ، وملاءمتها للطبيعة الإنسانية ، وتجاوبها
مع المشاعر السامية في الناس ، وتقديرها للضعف البشري ، الذي يعجز معظم
الناس عن مجاهدته ودفعه في أكثر الأحيان .

والدعامة الثانية : قوة الشخصية التي تتولى القيام على هذه الدعوة ، وشرح
حقيقتها ، وتطبيق مبادئها .

فبقدر ما يكون في الدعوة من عناصر الحق والخير ، وعلى حسب ما يكون
عند الداعي من طاقات روحية ، ونفسية ؛ يكون الثمر الذي يجني من هذه الدعوة ،
ويكون الخير الذي يصيب الناس منها .

ومن هنا كان ذلك النجاح العظيم الذي أحرزته الدعوة الإسلامية ، وكان
هذا المحصول الوفير من الثمر الطيب الذي عرفته الحياة ، وسعدت به الأمم .

ومصدر الدعوة الإسلامية ليس هو محمد ، وإن كان هو حاملها ،
والقائم عليها ، والشارح لحقيقتها . فالدعوة الإسلامية ليست من صنع محمد ،

(١) ذلك في الوقت الذي كان يعيش فيه جان جاك روسو ، أما اليوم فقد مضى على
الشريعة الإسلامية ما يقرب من أربعة عشر قرناً .
(٢) واضع الشريعة هو الله وحده ، وليست من وضع أحد ، كما يصح على ذلك معظم
أكتاب المغرب .
(٣) النقد الاجتماعي لجان جاك روسو ص ١٢٥ .

وليس من تفكيره وتدبيره . . لأنها من صنع السماء ، ومن تدبير رب العالمين .
أرسلها إلى الناس هدى ورحمة ، كما يرسل الغيث إلى البلد الجديب .

أما دور « محمد » في تلك الدعوة فهو دور الزارع المجد الخبير بمواسم
الزرع ، العليم بطبيعة النباتات . . . تلقى هذا الغيث الغدق فأقام له السدود ،
وأحرى الجداول ، وشق الأرض ، وألقى البذر ، وطل قائماً على مازرع ،
يحرسه من الآفات ، ويحميه من العاديات ، وينقيه من الحشائش الغريبة ، حتى
يخرج شطأه ، ويستغلظ ويستوى على سوقة ، ثم يزهر ، ويشمر أطيب ما عرفت
الحياة من ثمر .

هذا ما يقوله عالم متمكن ، ومؤرخ نصب نفسه لتاريخ الإنسانية كلها -
يقوله في « محمد » نبي الإسلام ، وفي الحياة التي كان يحيها ، والأثر الذي
تركه فيها .

أما ما يقوله عن القرآن فهو أيضاً قول رجل منصف متمكن من موضوعه
الذي بين يديه .

يقول « ول ديورانت » .

« والقرآن يبعث في النفوس الساذجة — أي ذات الفطرة السليمة —
أسهل العقائد ، وأقلها غموضاً ، وأبعدها عن التقيد بالمراسم والطقوس ، وأكثرها
تحرراً من الوثنية والسكنوتية .

« وقد كان له أكبر الفضل في رفع مستوى المسلمين الأخلاقي والثقافي ،
وهو الذي أقام فيهم قواعد النظام الاجتماعي ، والوحدة الاجتماعية ، وحضهم
على اتباع القواعد الصحية ، وحرر عقولهم من كثير من الخرافات والأوهام ،
ومن الظلم ، والقسوة ، وحسن أحوال الأرقاء . . وبعث في نفوس الأذلاء
الكرامة والعزة ، وأوجد بين المسلمين درجة من الاعتدال والعدل عن الشهوات ،
لم يوجد لها نظير في أية بقعة من 'بقاع العالم يسكنها الرجل الأبيض .

« ولقد علم الإسلام الناس أن يواجهوا صعاب الحياة ، ويتحملوا قيودها ،

بلا شكوى ولا ملل ، وبصفتهم في الوقت نفسه إلى التوسع توسعاً كان أعجب ما شهد التاريخ كله .

« وقد عرف الدين ، وحدده تحديداً لا يجحد المسيحي ، ولا اليهودي الصحيح العقيدة ما يمتعه من قبوله ! » ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله ، واليوم الآخر ، والملائكة ، والكتب ، والنبیین ، وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب ، وأقام الصلاة ، وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ، والصابرين في البأساء ، والضراء وحين البأس (١) .

ثم يقول :

« ولم يعرف عن محمد ، أنه كتب شيئاً بنفسه ، ولكن هذا لم يحل بينه وبين المجيء بأشهر وأبلغ كتاب في اللغة العربية ، أو بين قدرته على تعرف شئون الناس تعرفاً قلما يصل إليه أرقى الناس تعلماً (٢) » .

ومن نظرات ، ول ديورانت ، إلى القرآن قوله :

« لم يكن النبي مشرعاً علياً ، فلم يضع لأمته كتاباً في القانون ، أو موحراً فيه ، ولم يسن تشريعه على نظام مقرر (٣) ، بل كان يصدر الأوامر حسبما تمليه عليه الظروف ، فإذا أدى هذا إلى شيء من التناقض (٤) ، أزاله بوحى جديد ، ينسخ القديم ، ويجعله كأن لم يكن ؟ » .

❦ ❦ ❦

(١) سورة البقرة : آية ١٧٧ .

(٢) قصة الحضارة جزء ٢ ، مجلد ٤ ص ٢٢

(٣) يلاحظ عالياً أن الفلاسفة الغربيين يضيفون إلى النبي القرآن الكريم ، ويجعلونه من وضعه هو ، لا وحياً أوحى إليه !

والحق إن « محمداً » لم يكن هو الذى رسم خطة التشريع السماوى للشريعة الإسلامية ، وإنما هى من صنع الله . نزلت أحكامها بتدبير سماوى ، في مناسبات ربطتها بالحياة (٤) لم تقع تناقض في التشريع بحال أبداً ، وحاشا لله أن تناقض أحكامه ، ولكن التدرج في التشريع — وذلك ضرب عال من البرية الحكيمة — اقتضى أن تجيء الأحكام في خطوات متدرجة . . واحدة بعد أخرى .

هذا ، وقد تتجمع الدعوة والداعى فى كيان واحد ، فىكون القائم على الدعوة هو المنشئ لها ، والمفكر فيها والمصور لحقيقتها .. وهذا شأن الدعوات التى لا يقوم عليها أنبياء الله ورسوله ١ .

فالمصلحون الذين ظهروا فى الناس بأرائهم ، وأعمالهم فى مجال الحياة السياسية أو الاقتصادية ، أو الاجتماعية ، أو الفكرية ، أو الروحية ، إنما اعتمدوا على شخصياتهم ، وما فى كياناتهم من قوى عقلية أو نفسية تدفعهم إلى ذلك رغبة فى الإصلاح ، أو منافع شخصية يجنون من ورأيها جاهاً أو سلطاناً ١

وهذه الدعوات الإصلاحية المعتمدة على الجهد الإنسانى وحده دون أن تكون مستعدة إلى السماء ، مهتدية بهديها . موجهة بوحياها - هذه الدعوات تنقسم بسمتين : (الأولى) أنها محدودة الزمان والمكان .. فإن صوتها مهما علا لا يتجاوز مدى المجتمع الإنسانى الذى يعيش فيه صاحب الدعوة ، ولا يكاد ينفذ إلى ما وراء الحدود المكانية لهذا المجتمع ، إلا إذا كان فيه نعمة إنسانية يستشعرها الناس استشعاراً فيه ، وأنه إذا قدر لدعوة من الدعوات أن تتجاوز حدودها المكانية لمجتمعها فإنها لن تتخطى عصرها الذى ظهرت فيه . وأنها إذا تخطت هذا العصر إلى الأعصار الذى تليه فإن ظلها سينكشف حالاً بعد حال ، حتى يتبخر مع الزمن وتصبح تاريخاً من التاريخ .

(والثانية) من هاتين السمتين اللتين تنقسم بها الدعوات الشخصية أنها لا تسكاد تتجرد من الأهواء الذاتية ، ولا تسكاد تنفصل عن الدوافع الشخصية ، بل كثيراً ما ينتهى أمرها إلى أن تكون هوى خالصاً ، فتوجه بكلياتها وجزئياتها إلى خدمة الداعى : وتحقيق مآربه ١

ومن الحق أن نقرر أن هذا أمر طبيعى ، فالناس هم الناس ، وحسب الذات طبيعة غالبية فى كل إنسان ، مهما غالب فى نفسه هذه الطبيعة ، ومهما حاول أن يعلو عليها بالمثل العليا ، التى يترسمها فى الإيثار والتضحية وغيرها ، لأنه سيقبل له مع كل هذا ذاته التى لا يمكن أن ينفصل عنها أبداً ، ولهذه الذات مطالب ونزعات لا تموت إلا بموته ١

ومن هنا كان ذلك التعمير والتخطيط الذى يصحب الدعوات الإصلاحية القائمة على الإنسان وحده ، المنقطعة عن أمداد السماء .. لأنها أنسبه بمجرى النهر؛ فدينبع من عين صافية رقراقة ، ثم بعد أن يخرج من منبعه يحتك بالجنادل والصخور ، ويتحلل الأعشاب والزروع ، فتعلوه الكدرة ، ويزايله صفاؤه الذى كان له !

أنبي أم عظيم ؟ :

ونعود مرة أخرى فنسأل : أحمد نبي أم عظيم ؟ أى أكانت دعوته صادرة عنه ؛ كما تصدر الدعوات عن المصلحين والعظماء ، أم كانت دعوته تلك التى قام بها من فروع آخر غير تلك الدعوات التى تعتمد على الجهد البشرى وحده ؟

من اليسير الواضح أن نجيب على ذلك السؤال من غير تردد ؛ بأن دعوة محمد ، كانت شيئاً آخر غير دعوات المصلحين من القادة والزعماء ، وأرباب الإصلاح من غير رسل الله وأنبيائه .. !

فقد اتسمت دعوة محمد ، بسمتين حلت منهما أية دعوة من دعوات الإصلاح البشرى .. فامتدت فى الزمان والمكان إلى أبعد حد فيهما ، ولا تزال الأيام بعد مضى نحو أربعة عشر قرناً - تزيد فى امتدادها . ونحن نعرف أن الدعوات البشرية تطرد اطراداً عكسياً فى امتدادها مع الزمن .. فكلما امتد بها الزمن انكشفت ، وتبخرت شيئاً فشيئاً .. !

ثم من جهة أخرى قد خلت دعوة محمد ، من الدوافع الذاتية والأهواء الشخصية .. فلم يكن لمحمد فى هذه الدعوة شئ لحسابه الشخصى ، وإنما خلصت جميعها لحساب الحق والخير الذى ينفع الناس جميعاً .. من كل أمة ، وفى كل جيل !

هذه حقائق ثابتة الدعوة الإسلامية ، لا تحتاج إلى إقامة البراهين عليها ، ولا مظاهر الحجج لها .. !

فما وقف سير هذه الدعوة منذ قامت .. ولا حال بينها وبين غاياتها حائل من حدود الزمان والمكان ! .

وما وفقت الدعوة الإسلامية من صاحبها - محمد - عليه الصلاة والسلام -
موقفاً مميزاً له ؛ أو مترضياً لمصلحة ذاتية عنده !

فهذه هي الدعوة تزداد مع الأيام رقعتها على الأرض ، ويزداد أنصارها ،
وتتكشف للعالم كله أضواؤها ؛ فيحترف لها أعداؤها - راغبين - بأنها الشريعة
الصالحة للحياة الإنسانية ، على امتداد زمانها ومكانها !

وهذا هو نبي الإسلام والقائم على الدعوة . . يحمل أثقالها ، ويلقى من
أجلها ما يلقي من ألوان الازدي ، ثم إذا آتت أكلها . وكثر خيرها ، لم يأخذ من
ذلك شيئاً ، وعاش حياته على خبز الشعير ؛ لا يشبع منه وليس له من إدام إلا
الخل والزيت لا يجمع بينهما !

ثم هذا هو دستور الشريعة الإسلامية يضع « محمداً » حيث يضع الناس
جميعاً . . يعاتبه ، ويحذره ، وينصح له . . فما محمد بمعزل عما يوجب العقاب والتحذير
والنصح من رب العالمين . . يقول تعالى معاتباً لِنبيه : « عيس وتولى أن جاءه
الأنعمى ، وما يدريك لعله يزكى ، أو يذكر فتتفعه الذكرى ! أما من استغنى فأنت
له تصدى (١) » ، ويقول سبحانه في شأن أسرى بدر : « ما كان لنبى أن يكون له
أسرى حتى يشخن في الأرض ، تريدون عرض الدنيا ، والله يريد الآخرة ، والله
عزيز حكيم ، لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم (٢) » . .
ويقول سبحانه وتعالى لنبيه في شأن استغفاره لذوى قرباه . . ما كان للنبي والذين
آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعده ما تبين لهم أنهم
أصحاب الجحيم (٣) » ، ويقول سبحانه وتعالى في هذا الشأن أيضاً : « استغفر
لهم ، أو لا تستغفر لهم ، إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله
لهم (٤) » .

(١) سورة عيس آية ١-٦ .

(٢) سورة الأنفال آية ٦٧ ٦٨ .

(٣) سورة التوبة آية : ٢١٢ .

(٤) سورة التوبة آية ٨٠ .

أفلا كان ، محمد ، هو صاحب هذا التشريع أكان يضع نفسه هذا الموضوع ؟
أو كان يأخذها بهذا الزجر والردع على سماع الدنيا وبصرها ؟

إن عزل المشرع عن التدخل في وضع التشريع الذى يدعو الناس إليه ،
ويأخذهم به هو فى الواقع أعدل سياسة وأحكمها فى إنجاح هذا التشريع ، وفى
حمايته من الهزات والانحرافات ،

يقول « جان جاك روسو » :

« ورغم أن عمله — أى المشرع — هو تأسيس الدولة ، فهو ليس جزءاً
منها ، بل يقوم بوظيفة خاصة وسامية ، لا شىء مشترك بينها وبين حكم الناس . .
إذ أنه إذا كان من يحكم الناس يجب ألا يحكم القوافين . . فكذلك من يحكم
القوانين يجب ألا يحكم الناس ، وإلا كانت قوانينه خادمة لأهوائه ، ولا تؤدي
فى كثير من الأحيان إلا إلى دوام مظالمه . . فهو لن يستطيع تجنب أن تؤدي
وجهات نظره الخاصة إلى انحرافه فى عمله المقدس !

ثم يستشهد جان جاك روسو لهذا بوقائع تاريخيه ، فيقول :

« وقد بدأ ، ليكوريوس ، بالتخلي عن العرس عندما وضع القوافين
لوطنه » . ويقول :

« وكان العرف السائد بين معظم المدن الإغريقية أن تعهد إلى أجنبى بوضع
قوانينها ! !

ثم يأخذ « روسو » فى الكنىف عن خطورة التشريع الذى يصادف مكاناً
من قلوب الناس وعقولهم ، وأن هذا لا يكون إلا إذا استند التشريع إلى قوة
سماوية ، وإلا إذا قام على أساس من الدين . .

يقول « روسو » :

وهكذا يبدو أنه يوجد فى عملية التشريع شيئان غير متفقين : مهمة فوق
طاقه البشر . . تقوم بتنفيذها سلطة ليست شيئاً مذكوراً ! .

« إن الحكماء الذين يتحدثون إلى العامة بلغتهم — أى لغة الحكماء — لا يفهمهم العامة — فهناك الآلاف الكثيرة من الأفكار التي لا يمكن ترجمتها إلى لغة الشعب ، كما أن التطرف في التعميم ووجهات النظر البعيدة تسمو أيضاً على إدراك الناس . إذ لا يتذوق كل فرد غير نظام الحكم الذي يتفق مع مصلحته الخاصة ، ولا يقدر — إلا بمعوكة — المزايا التي تعود عليه من الحرمان المستمر الذي تفرضه القوانين الطبيعية . . ومن هنا كان المشرع لا يستطيع أن يستعمل القوة ولا الإقناع . وعليه بالضرورة أن يلجأ إلى سلطة من نوع آخر ، سلطة تقود بلا عنف ، وتفتن بلا حجة ! .

« وهذا هو السبب في أن آباء الشعوب اضطروا في جميع الأزمنة إلى الالتجاء إلى السماء ، وأن ينسبوا إلى الآلهة حكمة هي في الحقيقة حكمتهم هم ، حقن يقبل الناس الخضوع لقوانين الدولة ، كما يخضعون لقوانين الطبيعة ، ويرون في خلق المدنية السياسية نفس القوى العاملة في خلق الإنسان . فيطيعون بحرية ويتحملون في وداعة ؛ وطأة السعادة العامة ! .

وهذا العقل السامى الذى يسمو على فهم العامة هو ما يضع المشرع أحكامه في أفواه الخالدين ، ليقدوا بوساطة السلطة الإلهية أولئك الذين لا يستطيعون التخلص من عجز الهالكين .

« ولكن لا يستطيع كل إنسان أن يجعل الآلهة تتكلم ، ولا أن يجعل الناس تصدقه عندما يدعى أنه يتحدث باسمها . . فروح المشرع العظيمة هي التي يجب أن تكون دليل رسالته (١) . »

لو أن محمدًا ، كان هو واضع الشريعة الإسلامية ، ولم يكن الله هو الذى نزل عليه كتابها — لكان كما وصفه لامارتين ، فى قوله : « نبي أصغر من إله ،

وأكبر من إنسان ، ، ولما كان لمحمد أو لاتباع محمد أن يقولوا فيه ما قال النصارى
فى المسيح ابن مريم من أنه ابن الله أو ثالث ثلاثة .

ولكن محمدآء يعرف حق المعرفة أنه بشر ، وأن الشريعة التى جاء بها ليست
من صمده ، وإنما هو رسولها ، ومبيلها إلى الناس . . . قل سبحان ربى هل كنت
إلا بشراً رسولاً (١) .

الباب الخامس

خاتم النبيين

« الله أعلم حيث يجعل رسالته »
« قرآن كريم »

- ١ -

داع من السماء ، يحمل بين يديه النور والهدى إلى الناس !
ورسول من الله ، يقوم بالسفارة بين الله ، وبين عباد الله !
ما ظنك أن يكون هذا السفير ؟ وماذا يرثم له في خيالك من صور ؟
إن كثيراً من الناس قد ارتفعوا بمقام هذا السفير إلى أن يكون هو الله ذاته
« تجسد » في صورة بشر ، أو أنه « ابن الله » ، جاء إلى الناس في صورة إنسان !!
و ن كثيراً من الناس أنكر أن يكون هذا السفير بشراً ، حين طعنوا أن هذه
السفارة أكبر من أن تكون لبشر . . فكذبوا برسل الله ، وأبوا أن يعتمدوا
الوثائق التي بين أيديهم إلا أن يشهد عليها شاهد من السماء !! ، وقال الذين
لا يرجعون لقاءنا : لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا !! لقد استكبروا
في أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا (١) .

وما رأيك إن كان هذا الرسول بشراً .. يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ؟
أتراه واحداً من عامة الناس من لا امتياز لهم في عقل أو خلق ؟ أم تراه
واحداً من هؤلاء الذين يستطوا سلطانهم على الناس بالسيف والتعذيب ؟ .
كلا فإنه لا إلى هؤلاء ، ولا إلى هؤلاء ! إن حكمة الله تقضي بأن يتخير

(١) سور الفرقان آية ٢٠ .

لهذه « السفارة » خلاصة الإنسانية . وهامتها . فلا تصطفي لها في أى عصر إلا الرجل الأول في السكال الإنسانى ، فيسكون هو الإنسان الذى تشمل فيه كالات الحزن البشرى لعصره ، وهو بهذه الصفة يكون بالمقام الذى يسامت فيه الملائكة ، ويمافح الملائ الأعلى . وهو بهذا المقام جدير بأن يكون وصلة ما بين السماء والأرض ، وسفيراً بين الله والناس .

— ٢ —

وذلك هو الشأن فى نبوة « محمد » !
لقد رشحته السماء لأعظم رسالة حملها نبي ، ولأكمل دعوته قام بها رسول !
إنه يحمل أحر كلمة من الله إلى الناس !
هى الكلمة الأخيرة . . الكلمة الحاسمة فيما بين السماء والأرض ! فليس بعدها كلام . . إنها الخاتمة ! .

وهو خاتم النبيين . ليس بعده نبي . . وليس وراءه بتير ولا نذير !
وإذ كان ذلك كذلك . . فإن لنا أن نقول إن « محمدآ » هو منتخب الإنسانية كلها . وهو مجتمع كالاتها فى أكل حالاتها وأتم صورها . .
ذلك لأنه جاء إلى الإنسانية حين بلغت رشدها ، وحين أراد لها الله أن تستقل بوجودها . وأن تستقيم على الطريق الذى يملئها تفكيرها . دون أن يقوم عليها من السماء رسول يدعوها إلى الله ، ويرسم لها مناهج الإيمان ، وقواعد السلوك ! .

إن الإنسانية — لعهد محمد — كانت قد جاوزت طور الصبا ، وبلغت أشدها ورشدها . . . ، وهى بهذا جديرة أن تستقل بنفسها ، وأن تستهدى بما أودع الله فيها من عقل ، وبما حملت إليها السماء من وصايا .

قد كانت رسالات الرسل . . قبل محمد — رسالات محلية ، أشبه بالوصاية على الأفراد . يظهر الرسول فى جماعة من الجماعات ، أو قوم من الأقوام ، يقيم لهم وجودهم المعوح ، ويضئ لهم طريقهم المظلم ، ثم لا يلبث أن يخلفه فيهم رسول يخلفه رسول وهكذا .

حتى إذا بلغ الكتاب أجله ، وأراد الله للناس أن يستقبلوا بوجودهم ، وأن يفكروا لأنفسهم ، بعد أن بلغوا الرشد وصاروا في عداد الرجال — كانت رسالة الإسلام ، وكان رسولها الأمين . محمد بن عبد الله . . رسول الله وخاتم النبيين ! ومن هنا ندرك السر في أن الرسالة الإسلامية كانت رسالة « عقلية » و « منطقية » ، تخاطب العقل ، وتجيء لإقناعه عن طريق الحجة القائمة على البراهين الاستدلالية ، التي يستقيم عليها تفكير الناس جميعاً ... عامتهم وخاصتهم على السواء !

إن الرسالة الإسلامية لم تستند إلى معجزة قاهرة تطفئ على عقول الناس ونفثال تفكيرهم ، ونضل لإرادتهم حين لا يملكون لها رداً ، ولا يستطيعون لها نقضاً . وإنما استندت إلى الكلمة وما فيها من عقل ومنطق . . فلم تطلب إلى الناس أكثر من أن يفكروا . وأن يستخدموا عقولهم المعطلة ، وأن يتقبلوا — في غير عناد أو تحرج — ما يتأدى إليهم من عقولهم ... فإنهم إن فعلوا ذلك فإن تبعده يذهبهم وبين الرسالة الإسلامية شقة الخلاف ، بل لإنهم والرسالة سيلمقيان على طريق واحد ، إذا فكروا وأخلصوا التفكير !

« قل إنما أعظكم بواحدة . أن تقوموا لله مثنى وفردى ... ثم تفكروا » (١) . هذا هو عنوان الرسالة الإسلامية ، وهذا هو مفتاحها : استخدام العقل ، واحترام معطياتها .

ليستعمل الإنسان عقله ليفكر فيما تحمل الرسالة الإسلامية من مقررات . . ليتمكر وحده ، بينه وبين نفسه ، متأملاً ، متعمقاً ، أو ليفكر مع غيره ، يعرض الأمر ويقلبه . . مؤيداً . . أو معارضاً !

إنه في كلا الحالين سيصل إلى مقررات إن لم تكن حقاً خالصاً ، فهي أقرب شيء إلى الحق . . لأن العقل بطبيعته — إذا خلا من آفاب العناد والاستكبار — يذهب إلى الحق ، ويهتدى إليه ؛ لأنه شرارة من الحف وقبس من أقباسه ! فالعقل في مواجهة الرسالة الإسلامية محمول على أن يفكر ؛ وأن يتحرك

في كل مجالاته ، غير مقيد بشيء أو مشدود إلى شيء .. بل إن الرسالة الإسلامية لتغري العقل إغراء على التفكير ، بما تنادى به من دعوات عالية إلى إيقاظ العقل وتنبيهه ، وبما تقدم إليه من صور ، وما تفتح له من مجالات ؛ تدعو أكثر الناس ببلادة وغباء إلى استخدام عقولهم ، واستدعاء تفكيرهم ! وقل انظروا ماذا في السموات والأرض (١) .

ذلك على حين كان العقل قبل الرسالة الإسلامية بمعزل عن دعوات الرسل ، وبمنقطع عن معجزاتهم القاهرة ، التي لا تستقيم على منطق العقل ، ولا تدخل في معطيات التفكير !

لأنها أمور خارقة للعادة ، لا تقع إلا على يد رسول . فيقع بها الإعجاز القاهر ، ويقوم التسليم !! الإعجاز الغالب القاهر ، المفهم للعقل . والتسليم القائم على الدهش ؛ والخيرة . والعجز !

وذلك هو شأن الأسلوب الحكيم في التربية ... فالصغير الذي لا يحتمل عقله أحكام المنطق . ولا يخضع تفكيره الصغير لمعطيات ما بين الأسباب والاسباب من روابط — من الخطأ البين . بل ومن القسوة عليه أن يؤخذ بمنطق العقل ، ويحمل على العقل . . وإنما الذي يصلحه ويصلح له هو أن يخاطب بلغة الحس ، وبمنطق المسادة . . فإذا نما عقله شيئاً ؛ كان من التدبير الحكيم أن يخاطب بأسلوب المنطق العقلي . والمنطق الحسي معاً ، وأن يزاوج له بينهما بنسب تكثر فيها العناصر العقلية كلما نما عقله ، واتسعت مداركه ، حتى إذا بلغ مبلغ النضج والرشد أمكن أن يكون عقله هو موضع الاعتبار في مخاطبته ومحاسبته .

والإنسانية — في تقديرنا — بدأت وجودها كما يبدأ كل كائن حي وجوده ، نبتة صغيرة ، ثم شجيرة لا زهر فيها ، ثم شجيرة مزهرة ، ثم شجرة مزهرة مثمرة !!

الرسالة الإسلامية إذن هي الرسالة التي أدركت الإنسانية حين بلغت رشدها،

وحين رفعت عنها وصايا السماء ، التي أقامتها على الناس عن طريق أنبياء الله
ورسله المكرام .

ونسواهد التاريخ تؤيد هذا وتشهد له . .

فالإنسانية لعهد « محمد » كانت في آخر مرحلة من مراحل سيرها نحو النضج
العقلي . . كانت بمثابة طفل قد درج في مدارج الحياة حتى بلغ مبلغ الرجال . .
وكان عليه بعد هذا أن يستوفى حظه من الحياة . وأن يأخذ مكانه فيها ، غير
مستند إلى أحد .

ودع عنك ما يقال من أن الإنسانية قد ارتسكت وردت على أعقابها
زمن البعثة النبوية . وأن الشر كان قد استشرى في الناس وأن الظلام قد أطبق
عليهم ، ولفهم في قطع كثيفة من الجهل والضلال ، وأن معالم الحضارات التي
أقامتها الإنسانية في وادي النيل على يد الفراعنة ، وفي بابل وآشور على يد
الكلدانيين والآشوريين قد ذهبت معالمها ، وضلت في ظلمات الجهل شواهداها ،
ومحيت آياتها . . وأن لمعات العقل اليوناني التي أضاءت العالم القديم قد ذهب
الجهل بنورها ، وحقت الحياة عن أن تلد سقراط ، وأفلاطون ، وأرسطو
مرة أخرى . !

دع عنك هذا . . فالدنيا بخير . . والحياة ولود ، لا يصيبها العقم أبداً . .
وهي سائرة إلى الأمام ، لا ترجع إلى الوراء بحال . !

ربما قد تقع بعض النكسات في الحياة الإنسانية فتضطرب حياة الناس ،
وتسوء أمورهم . . ولكنها نكسات عارضة ، لا تلبث أن تزول ، وتعود إلى
الحياة طبيعتها ، وإلى الناس سلامتهم ! والرجل حتى في حال انعكاسه خيراً من الطفل
في حال صحته وسلامته !

ولا نريد أن نضرب الأمثال لهذا ، ولا أن نذكر مخلفات القرون من
العباقرة والعظماء ، ونعقد المقارنات بين أجيال الناس في الحياة لنعرف أن الحياة
تخطو نحو النضج العقلي ، والكمال الإنساني . لا نريد أن نضرب الأمثال لهذا ،
وحسينا أن نشهد واقع الحياة في عصرنا هذا ، وما بلغ العقل الإنساني فيه من

قوه ، استطاع بها أن يخضع تلك القوه الهائلة من قوى الطبيعة ، وأن يتحكم فيها ، وبسيورها على نحو لم تعرفه الحياه ، ولم يشهده الناس من قبل .

إن القرون الطويلة التي عاشها الناس على هذه الأرض لم يتمكن لهم من أن يستخدموها فوه البخار ، أو قوه الكهرباء ، ولم تفتح لهم الطريق إلى تحطيم الذرة ، وإلى بناء المراكب الكوكبية التي تدور الآن في فلك الشمس كما تدور الأنهار حولها .

إن هذه المتوحات العظيمة التي حققها العقل الإنساني في هذا العصر لم يكن الشهادته التي لا ترد على أن الحياه الإنسانية تنجح دائماً نحو الأمام ، وأنها تصيف كل يوم معارف جديدة إلى معارفها السابقة ، وأن رصيدها من المعرفة يزداد مع الأيام يوماً بعد يوم ! فبقدر ما تزيد الأيام في عمر الإنسانية يزداد رصيدها من العلم والمعرفة .

فإذا قلنا إن عصر النبوة كان هو العصر الذي بلغت الإنسانية فيه رصيدها ، وتخطت فيه مرحلة الطفولة والصبا ؛ كان لقولنا هذا مستند من واقع عصرنا هذا الذي يعد امتداداً لعصر النبوة ! فإن أربعة عشر قرناً في عمر الحياه الإنسانية لا تعد شيئاً إلى جانب عمرها الطويل . . وأن هذه الآلاف والأربعمئة سنة منذ عصر النبوه إلى اليوم ليست إلا مرحلة أو بعض مرحلة من حياه الإنسانية ، وطوراً من أطوار وجودها !

فما بلوغه الإنسانية في هذا العصر من تقدم في مجالات العلوم والفنون ، وما أقامته من صروح للحضارة والمدنية هو في الواقع من صنع هذا الطور الإنساني الذي كان عهد النبوه إيذاناً ببدايته ، والذي قلنا إنه كان الطور الذي بلغت به الإنسانية أول مراحل الرجولة .

يتحدث الجاحظ في كتابه « حجاج النبوه » عن طبيعة الرسالة الإسلامية ، وأنها توجه إلى مجتمع يأخذ الأمور بمعيـار العقل ، وينظر في أعقابها وما تؤول إليه . .

يقول : « كذلك وعيد ، محمد ، بنار الأبدكو عيد موسى بنى إسرائيل بالقاء

الهلاس على زرعهم ، واهلهم على أفئدتهم . . . وتسليط الموتان على ماشيتهم ،
ويأخراجهم من ديارهم ، وأن يظفر بهم عدوهم . .

« فكان تعجيل العذاب الأدنى - أى القريب - فى استدعائهم ، واستئصالهم
وردهم على ما يريدهم^(١) ، وتعديل طباعهم كتأخير العذاب الشديد على غيرهم .
« لأن النديد المؤخر - من العذاب - لا يجر إلا أصحاب النظر فى العواقب
وأصحاب العقول التى تذهب فى المذاهب^(٢) » .

يريد الجاحظ أن يقول إن دعوة محمد كانت إلى مجتمع عاقل مدرك ، ينظر فى
عواقب الأمور ، ولا كذلك كانت دعوة موسى التى تعامل مجتمعاً فى دور طفول ،
لا يأخذ الأمور من جانبها الوافى المعجل .

تنتهى من هذه الحقيقة إلى حقيقة أخرى . وهى أن « النبى ، الذى يحىء إلى
الناس فى هذا الطور من حياتهم ينبغى أن يكون أكمل الأنبياء ، لأنه فى فئة
الإنسانية فى طورها الذى بلغت فيه رشدها ! إذ كان النبى فى كل عصر ، وفى
كل أمة هو ممثل الإنسانية فى هذا العصر ، وفى تلك الأمة ، وهو خلاصة كل
طيب وجميل فيها ! وفى هذا يقول النبى الكريم : « بعثت من خير قرون بنى آدم ،
قرناً فقرنا ، حتى كنت من القرن الذى كنت فيه . . » .

على أننا لسنا فى حاجة إلى هذه المقاييس النظرية ، وتلك الاستدلالات
اللفظية لنتأكد إليها فى الوصول إلى القول بأن نبى الإسلام هو « صفوة » الإنسانية ،
وهو منها بمكان الرأس من الجسد ، أو العقل من الإنسان ، !

لسنا فى حاجة إلى هذا ، فإن نبى الإسلام فى حياته ، وفى سيرته ، وفيما ترك
فى الحياة من آثار هو آية الآيات على السكال ، الذى حوى السكال البشرى كله !
وذلك ما شهد له به أعداؤه قبل أصدقائه ، فى كل عصر ، وفى كل أمة !

والحقائق التاريخية التى تتحدث عن سيرة الرسول حقائق ثابتة موثقة ،

(١) فى الأصل : يريد بهم : وهو لا يستقيم مع سياق الكلام

(٢) من رسائل الجاحظ ٢٤١

لا تقبل السك أو الجدل .. إذ كان نبي الإسلام في المجتمع الذي طهر فيه بالمسكان الذي تحصى عليه فيه حر كاته ، وتعد عليه فيه أفضاسه ، على صورته لم يعرف التاريخ لها مثيلا في حياه إنسان من الناس ، أو حدث من الأحداث !

ولله في هذا حكمه وتدير !

فقد أراد الله سبحانه وتعالى لنبيه الكريم أن يكون في هذه البيئه التي يسكنها الناس فيها كل شيء ، ويتعمرى للحياه فيها كل شيء ! بثمة عارية من كل مايستر أو يبك ، فلاقصور ، ولا فلاح ، ولا حصون يستطيع من يعيش فيها أن يقيم له دنيا كما يشاء ويرضى ، دون أن يطلع الناس من أمره على دقيق أو جليل !

ولنما حياه البادية حياه عارية من كل هذا ، والناس فيها عراة أو شبه عراة . والحيام التي هي سكن الناس في هذه المواطن لا تكتم سرا ، ولا ترد سمعا ولا بصرا .. لأنها أشبه بالتياب التي يرتديها الناس .. قد تنفع في اتقاء الحر أو البرد ، ولسكنها لا تنفع شيئا في الإحتجاب عن الناس ، والتستر دونهم ! وكذلك تلك المدن الصغيرة التي قامت في هذه البادية .. لأنها لا تخرج عن كونها مجموعة من الحيام ، وإن كانت جدرانها من الأحجار ، وسقفها من سعف النخيل !

هذه واحدة .. وأخرى .. هي أن أهل البادية في فراغ عمل ثقيل ، وخاصة سكان القرى الذين لا يتنقلون بتيء ، حتى برعى الإبل والغنم ! أما أهل مكة - البلد الحرام - فقد فرغ أهله من كل عمل .. الرعى يقوم به عبيدهم ، وغلبانهم والتجارة قافلة في الشتاء إلى اليمن ، وقافلة في الصيف إلى الشام ، يندب لها جماعة منهم .. والحرب التي كانت شغل سكان البادية لم يكن لأهل هذا البلد شأن بها ، لأنهم أهل بيت الله ، لا يعتدون ، ولا يعتدى عليهم !

فهذا الفراغ الذي يعيش فيه سكان البادية ، وسكان القرى بخاصة ، وأهل مكة بوجه أحص - هذا الفراغ الطويل الثقيل فد جعل الناس يشغلون بالتافه من الأمور ، ليقطعوا به الوقت ، ويحملوه مادة حية للحياة .. تمسك وحودهم فيها ، وتخيل لميهم أنهم جادون عاملون !

فإذا وقع في القوم حدث جديد التفوا إليه جميعاً ، وقاموا له وفعدوا ، وإن يكن مثل هذا الحادث لا يانعت إليه غيرهم من أهل الحياة الجادة العاملة ..

وسواء هذه الحال قائمة في حياة الريف ، وسكان القرى . . فالناس هناك يجتمعون وينفضون لأقل نبأ أو حدث يقع بينهم . . فإنك لترى الناس جميعاً مشتركين في مداورة الأحاديث وتقليبها عن كل حدث يعينهم أو لا يعينهم .

فإذا ظهر في صحراء العرب ، نبي « فما ظنك مما يقع في حياة الناس من هذا الحدث ؟ تصور الجبال تتبادل مواضعها ، أو الشمس تغير مشرقها ومغربها . . أو تصور ماشئت من المذهلات والأعاجيب في الأحداث ووقعها على الناس ، فإنك لن نداني الصورة التي وقعت لقريش ومن حولها حين طلع عليهم ، محمد ، بقوله : إنه رسول . . رسول رب العالمين !

لقد وقع انقلاب شامل في حياة الناس ، فأخلوا أنفسهم من هذا الفراغ الذي كانوا فيه ، وفرغوا بكل جوارحهم ، وعقولهم ، وقلوبهم لهذا الحدث العظيم :

والذي يعني أن ن سجله هنا من هذه الظاهرة هو أن « محمد » كان منذ اليوم الذي أعلن فيه عن نبوته ، وكشف للقوم عن كلمة السماء إليه ، وهو يمثل حياة الناس في مكة ومن حولها . فرداً فرداً ، رجالاً ونساء ، كباراً وصغاراً ، لم يستطع إنسان أن يخرج بنفسه من هذه السوق التي لا تنقض أبداً . والتي لا يبيع فيها ولا شراء إلا تبادل الأحاديث في « محمد » ، وتداول الآراء فيه . .

ولك أن تحصى عيون أهل مكة وما حولها عيناً عيناً ، وآذانهم أذناً أذناً ، وألسنتهم لساناً لساناً ، وأرجلهم رجلاً رجلاً ، وأيديهم يداً يداً ، ثم إن لك بعد ، هذا أن تصنيفها كلها إلى حساب « محمد » ، مدة الثلاثة عشر عاماً التي عاشها في مكة قبل الهجرة والسنوات العشر التي عاشها في المدينة بعد الهجرة . إن هذه الجوارح جميعها لم تكن تعمل خلال تلك المدة إلا لحساب « محمد » ، ومن أجل « محمد » . له أو عليه . موالية أو معادية .

فهل تظن بعد هذا شيئاً يخفى على القوم من حياة « محمد » أو يفلت من بين أيديهم ؟

وهل تستطيع أن تقع على حدث في الحياة ، أو على شخصية من الشخصيات وقعت تحت ملاحظة الناس ، وتحت أسماعهم وأبصارهم ، وفي قلوبهم وعقولهم مثل ما كان « محمد » من أهل مكة والمدينة وما حولها .. لا أظن أحداً يحصى من التاريخ القريب أو البعيد بساهد واحد يقوم إزاء هذا الحدث أو يناديه !

فإذا أضفت إلى هذا ما كان من صحابة « محمد » ، وامتزاجهم به هذا الامتزاج الروحي والمادى ، في الحل والترحال ، في الحرب وفي السلم ، في المسجد وخارج المسجد ، في يقظته ونومه ، في طعامه وشرابه ، في حديثه وصمته .. في قيامه وقعوده ، في ما يركبه - كان من كل أولئك أعداد لا تحصى لها من الوثائق والسجلات المتنامية المطابقة ، التي تسجل حياة « محمد » لحظة لحظة ، ونفساً نفساً وحالاً وحالاً !

ومرة أخرى .. هل تستطيع الحياة أن تأتي بمثل هذا التسجيل السكشاف لحياة إنسان من الناس ، أو واقعة من الواقعات ؟ هيئات هيئات .. فإن ذلك لم يقع ، ولن يقع إلا مرة واحدة من الناس .. هو رجل الانسانية وواحد ما !

وما وجه الحكمة في هذا ؟

نستطيع أن نجد لهذا التدبير السمارى في شأن « محمد » ، على هذا الذى كان من كشف شخصيته للناس ، ووقوفهم على جميع أحواله - نستطيع أن نجد لذلك أكثر من وجه ، وأكثر من دلالة وحكمة ..

فأولاً : هذا السكالك الإنسانى الذى اشتمل عليه « محمد » ، ينبغى أن يشهده الناس ، وأن يملأوا وجودهم به . إذ أنه ليس فى الحياة مثل هذا السكالك البشرى المتناح للناس أن يشهده ، وأن يأخذوا بحظوظهم كاملة معه ، فإذا أفلت منهم فلن يقهوا له مثال بعد هذا . وفى ذلك ما فيه تضديع لهذا الخير الكثير ، الذى يناله الناس من الاتصال به والأخذ منه !

أرأيت إلى الشمس كيف تنفر للناس ، بوجهها المشرق الرصع من مطلع الصباح إلى مهبط الليل ؟ ثم أرأيتها بعد ذلك تغذى القمر بأصوائها فتجعله حليفة لها بعد أن يحجبها الظلام ، ليبعدو ظلمته ، وينزل وحسه الحياة ؟

لأنها ووليدها القمر آيتان من آيات الله للناس ، ورحمتان من رحمته بهم ..
لأنهما أكبر من أن يكونا لامة من الأمم ، أو لجيل من الأجيال .. لأنهما للأمم جميعاً ، وللأجيال جميعاً .. لأنهما يسعان الحياة كلها في أمهما ، وأزمانها ، وفي كل ما من شأنه أن يحيا عليهما ، ويعيش بهما !

« ومحمد ، في ذاته هو للإنسانية آية كبرى من آيات الله ، ورحمة شاملة من رحمته ، ومن حق الناس في هذه الآية الكبرى ، ومن حقهم في هذه الرحمة الشاملة أن تنكشف لهم هذا الانكشاف التام ، وأن تسفر لهم هذا السفور المبين ، ليأخذوا بحظوظهم كاملة منها ، فيطلع فيهم طلوع الشمس ، يحيي الموات ويبدد الظلمات .. فإذا لحق بالرفيق الأعلى كانت سنته فيهم ، وسيرته معهم فرأى يؤنس وحننهم ، ويكشف معالم الطريق لهم ! !

ونانياً : من وجوه الحكمة في كشف شخصية « محمد » وتجليتها للناس أن رسالة « محمد » كما قلنا من قبل رسالة عقلية ، تعتمد على الحجة الواضحة ، والمنطق القويم ، وأن « محمداً » وقف من هذه الرسالة وقفة المدافع عنها ، في وجه خصومة عسيدة عنيفة ، قد اتخذ أصحابها من الكلام بصاعة وصناعة ، فكان لابد أن يكون « محمد » قائماً من وراء رسالته ، يدفع كيد خصومها ، ويدحض باطلهم ، ويكشف عن سفيتهم وضلالهم !

ومن أجل هذا كانت الرسالة الإسلامية من بين الرسالات السماوية كلها رسالة « مدحمة » .. لم تنزل مره واحدة ، وإنما طلت نحو ثلاثة وعشرين عاما .
تنزل آية آية ، أو سورة سورة ، حسب دواعي الموقف ، وحاجات الناس .

ولو نزل القرآن الكريم جملة واحدة لكانت مهمة الرسول سهلة ميسره ..
لذا تكون في هذه الحالة على صورة متعارف عليها ، بين أوليائها وخصومها ، وتسكون الخصومة فيها خصومة على واقع معروف ، وكان يكفي في هذا أن يدفع

النبي بها كامله إلى الناس ، ويدعهم وشأنهم بها ، أو يعيد تكرارها عليهم مرة ومرة ، دون أن يجيئهم بجديد يفتح باباً جديداً للعدل والخصام .

وكان نزول القرآن على هذه الصورة المجزأة ، وفي هذا الزمن المتطاوّل ، مقتضياً أن يقف النبي دائماً في يقظة وانقباه ، يتلقى اعتراضات الخصوم ، ويستمع إلى ادعاءاتهم فيديرها في صدره ، ويرددها في خاطره ، ويترقب في لطفة وإشفاق كلمة السماء ، وما تلقى إليه من آيات ، يلقي بها القوم على الوجه الذي أراد الله سبحانه أن يلقاهم به . وهكذا ظل الرسول طوال ثلاثة وعشرين عاماً في هذا الموقف ، بين السماء والأرض ، وبين الله والناس ، لم يفرغ لنفسه ساعة من ليل أو نهار .

مهمة شاقة عيفة ، وموقف صعب عسير ، لا يقوم على الوفاء به إلا من ربه العناية الربانية ، وأعدته الإعداد الكامل لهذا الأمر العظيم !

وطبيعة هذه المهمة تقتضى أن يكشف حال « محمد » كله للناس ، وأن يكون كل وجوده فيهم ، فلا يلقاهم من وراء حجاب ، ولا يجعل بينهم آذناً يفتح الباب ويفلقه . وإنما هو للناس جميعاً ، يلقيه في أى وقت ، وعلى أى حال يكون . . حتى لقد بلغ الأمر بالنبي وأهله أن أوذوا في حياتهم الخاصة بما كان يطردهم من الناس ، فلم يجدوا لحظة لطعام أو منام ، واستحيا النبي أن يرد الناس عن هذا الذي كان يؤذيه ، فتولى الله سبحانه وتعالى تنبيه الناس إلى هذا . فقال سبحانه :

« يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ، ولكن إذا دعيتم فادخلوا ، فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنين لحديث ، إن ذلكم كان يؤذى النبي فيستحى منكم ، والله لا يستحى من الحق » (١) وثالثاً : من وجوه الحكمة في كشف شخصية « محمد » وتجليتها بين الناس أن الرسالة المحمدية ليس فيها معجزة من المعجزات المادية ، وإنما معجزته التي

بين يديه هي القرآن الكريم ، والمهجرة فيه شائعة بين آياته وسوره ، يعجز كثير من الناس عن إدراكها على وجه محقق . فإن ذلك يحتاج إلى نظر دقيق ، وبصر نافذ .

فكان لابد لكي تتضح هذه المهجرة القرآنية من أن يكون الذي يقوم عليها هو في ذاته معجزة ، في كالاته ، وفي مقررات دعوته التي يدعو إليها ، فإذا دعا إلى معروف ، أو نهى عن منكر ، رأى الناس في حياته تطبيقاً كاملاً واضحاً لما يأمر به أو يسهى عنه ، وبهذا يرى الناس الدعوة في صورتها الكلامية ، وفي تطبيقها العملي .

هكذا كانت رسالة محمد . . تخير لها الله سبحانه من صور الكلام أصدق وأروع وأبلغه ، وهو « القرآن » ، وتخير لها من صور الأداء أتم صورة ، وأكملها . وأعد لها وهو محمد بن عبد الله .

وكثير من الناس آمنوا بمحمد قبل أن يتلو عليهم آيات الكتاب ، وقبل أن يسمعهم كلام الله . . آمنوا بما آمن به ، وتابعوه دون أن يسألوه شيئاً عما عنده من دلائل النبوة ومعجزاتها . . لأنه هو عندهم آية الآيات ، ومعجزة المعجزات في أمره كله . . ظاهره وباطنه . ، وإن الإنسان العاقل الذي يعرف مواطن الخير ويشهد حظه منه لنفسه ليرى في « محمد » الرائد الموفق لكل ما يدعو إليه ، فإنه لا يدعو إلا إلى الخير ، ولا يهدى إلا إلى الرشاد .

وقد كان إيمان السيدة عائشة « بمحمد » هو إيمان متابعة له وتطبيقاً لما عرفت منه وخبرت من أحواله : وعايذت من صفاته . . في أمانته وصدقه واستقامته ، وعزوفه عن ديبات الأمور وسفاسفها . . وهي - لصلتها بمحمد وبمخاطبتها له - أكثر الناس وأقدرهم على تعرف هذه الصفات واختبارها عن قرب ومدانة .

لما نزل جبريل على النبي صلى الله عليه وسلم في غار حراء لأول مرة بالوحي اضطرب النبي لهذا الأمر وكرب له ، وذهب إلى خديجة وهو في هذا الحال ؛ فسأله ما به ، فلما أخبرها الخبر ، وقال لها : « لقد خسيت على عقلي » . . قالت له : أبشر يا بن عم ، فوالله لا يخزيك الله أبداً . . إنك لتصل الرحم وتحمل

الكل وتسكب المعدم ، وتقوى الضيف ، وتعين على نوائب الحق ، (١) ،
فاستدلت بكل عقلها وسلامة فطرتها ، أن الأعمال الصالحة ، والأحلاف
الفاضلة ، والشيم الكريمة تناسب أتكالها ، من كرامة الله وتأيدته ، وإحسانه ،
ولا تناسب الحزى والخذلان ، (٢) .

وكذلك كان إيمان أبي بكر . . وكثير غيره من العقلاء الراشدين :
ففي حديث الإسراء كثر لفظ فريتس ، وعلت صيحات سمعها تتردد في
أرجاء مكة . ترى (محمداً) بالزور والبهتان .. ولسكن ألصق الناس به ، وأعرفهم
بحاله ، لم يزد هم ما أرجف به المشركون ، وما تخرص به المتخرون إلا إيماناً
على إيمانهم ، من غير أن يسألوا النبي شيئاً ، أو حتى من قبل أن يلقوه وهذا الخبر منه .
روى عن عائشة رضى الله عنها . قالت : « لما أسرى بالنبي صلى الله عليه
وسلم إلى المسجد الأقصى أصبح الناس يتحدثون بذلك . فارتد ناس ممن آمنوا به
وصدقوه . . وسعوا إلى أبي بكر فقالوا : هل لك في صاحبك ؟ يزعم أنه
أسرى به الليلة إلى بيت المقدس ، وجاء قبل الصبح ! ! قال : نعم . إني لأصدق
فيما هو أبعد من ذلك : أصدق به نخب السماء في غدوه أو روجه . »

وقد يقول بعض الناس في إيمان السيدة خديجة : إنه إيمان حب وطاعة ،
أدته المرأة المحبة المطيع لزوجها !

ولكنهم لا يستطيعون أن يقولوا شيئاً مثل هذا في إيمان أبي بكر ، الذي كان
له من أصالة الرأي ، وعلو المسكان في قومه وألفة العروبة التي تملأ صدره ،
ما ينأى به عن أن يكون لمعة يتبع كل ناعق ، ويحب كل داع . إن أبا بكر حين
تابع « محمداً » عرف كثير من رجالات قريش وأولى الرأي فيهم أن أبا بكر
لا يتابع محمداً إلا عن حق بان له ، وربما لم يستتب لغيره . وعن شواهد حال في
« محمد » جعلته يعلم له من أجلها بمقام النبوة ، من غير أن يطلب إليه شهاداً .

(١) الشفا ص ٧٠

(٢) زاد المعاد في هدى خير العباد لابن القيم جزء ٢ ص ١١٤

أو دليلاً .. لأن أبا بكر - عند قومه - بالمكان الذى يجعله أهلاً لأن يقتضى فلايرد قصاؤه ، ويحكم فلا تدفع حكومته ، ولا يخرج أحد عن حكمه ، ولو كان ذلك فى أعظم الأمور شأنًا ، وأجلها خطراً . وما أن آمن أبو بكر وتابع محمدًا ؛ حتى تابعه فى هذا الإيمان نفر من عرفوا فى قرينى بالحكمة ، وسداد الرأى .

فمن آمن بدعوة أبى بكر من قبل أن يتعرف إلى دلائل النبوة ويثبت منها : عثمان بن عفان ، وطلحة بن عبيد الله ، وسعد بن أبى وقاص ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف .

وهؤلاء جميعهم من أهل الشورى الذين جعل « عمر » الخلافة من بعده فى واحد منهم ، وكانوا سبعة منهم على بن أبى طالب ، وعبد الله بن عمر ، على أن يكون شريكاً فى الرأى لا فى الخلافة .

فإذا عرف أن هؤلاء السبعة الذين رشحهم عمر للخلافة من بعده هم الخلاصة الخاصة فى مجتمع الصحابة ، وكان خمسة منهم أسلوا على يد أبى بكر وبمتابعته عرف فصل أبى بكر وقدره بين الرجال .

نعم إن سيرة محمد كانت مروفة لهؤلاء النفر ، فهم أهله وعشيرته ، ولم يكن الذى عرف أبو بكر من أخلاق محمد بالذى احتص به دون قرينى . فإن قرينما كانت تعرف من « محمد » مثل ما يعرف أبو بكر وغیره ، وكان يلتقب فيهم بالصادق الأمين . ولكن أبا بكر كان أسبق إلى التصديق بنبوة محمد ، وأنفذ بصيرة فى ربط ماضى « محمد » بحاضره ، وفى استدناء النبوة من السكال البشرى الذى كان لمحمد .

ولهذا الذى كان يعرفه أهل مكة من صفات السكال فى « محمد » وجد أبو بكر لدعوته آذاناً تسمع بما يدعو إليه من أمر « محمد » ، إذ كان ذلك مسبوقاً بما قرء عند الناس بما عرفوا من مكارم الأخلاق فى الصادق الأمين .

والقول بأن إيمان السيدة حديجة ، بمحمد كان إيمان حب للزوج المحب المطاع قوله ينقضه إيمان أبى بكر بمحمد إيماناً مستمداً من أخلاق « محمد » ، ومن سيرته

فى قومه خلال أربعين عاما مضت من حياته ، لم تحرب عليه كدبة ، ولم يؤخذ عليه فيها عيب ، أو تلحق به تنائبة ...

ثم إن السيدة خديجة ، قد عرفت فى قومها بالعقل ، والحكمة ، والاعتزاز بشخصيتها ، واحترام نفسها ، وما كان لها أن تتابع « محمدآ » عن هوى . وهى التى زهدت فى الزواج زمناً ، حين لم تجد الرجل الذى تراه كفتناً لها ، على كثرة من تقدم لخطبتها من سادات قريش وسراتها . ثم ما أن التفت « بمحمد » حتى رضيت به زوجها ، لصفات الطيبة المكريمة التى تحدث بها الناس عنه . رخصتها هى فيه ، حين اتجر لها فى مالها ، فى رحلة من رحلات قريش إلى الشام .

ولم يكن هذا شأن من خالطوا « محمدآ » وعاشروه من أهل وعديق ... بل إن ذلك كان شأن أهل النظر والبصيرة ممن يطالعون وجه « محمد » ، أوليتقون أحبار محمد على السماع ، ويعرفون منها بعض الجوانب المشرفة من حياته ، وكل جوانب حياته مشرق وضئ !

حدث أبو سفيان بن حرب - على ما كان يسه وبين النبى من عداوة قبل أن يدخل فى الاسلام ، وما بقى فى قلبه من بقايا هذه العداوة بعد أن أسلم - حدث أبو سفيان هذا فقال :

« إن هرقل - ملك الروم - أرسل لى فى ركب فريش ، وكانوا تجاراً بالشام ، فى المدة التى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ماد^(١) فيها أباسفيان وكفار قريش ، فأنوه وهم بإيليا^(٢) ، فدعاهم فى محله ، وحوله وجوه الروم ، ثم دعاهم . ودعا بترجمانه ، فقال : أيكلم أقرب نسباً بهذا الرجل الذى يزعم أنه نبى قال أبو سفيان : فقلت أنا أقربهم نسباً . . فقال : أدنوه منى ، وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره ، ثم قال لترجمانه : قل لهم إنى سائل عن هذا الرجل - أى النبى - فإن كذبنى ، أى أبو سفيان - فكذبوه - .

(١) أى فى المدة التى كان قد جعلها صاح الحديبية مرة سلام بين المسلمين وكفار قريش .
وهى عشر سنين .

(٢) بلد بأطراف الشام من جهة الجزيرة العربية .

قال أبو سفيان : فوالله لولا الحياء من أن يأتروا على كذبا لكذبت عنه (١) ، ثم كان أول ما سألتني عنه أن قال : كيف نسبه فيكم ؟ قلت : هو فينا ذو نسب . قال : فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله ؟

قلت : لا .

قال : فهل كان من آبائه من ملك ؟

قلت : لا .

قال : فأشرف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ؟

قلت : بل ضعفاؤهم .

قال : أين يدون أم ينقصون ؟

قلت : بل يزيدون ،

قال : فهل يرتد أحد منهم من سخطه لدينه ؟ قلت : لا .

قال : فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قلت : لا .

قال : فهل يغدر ؟ قلت : لا ، ونحن معه في مدة (٢) لا ندرى ما هو

فاعل فيها ؟

قال : فهل قاتلتموه ؟ قلت نعم .

قال : فكيف كان قتاله إياكم ؟ قلت : الحرب بيننا وبينه سجال ، ينال منا

وننال منه .

قال : ماذا يأمركم ؟ قلت : يقول : اعبدوا الله وحده ، ولا تشركوا به شيئا ،

واتركوا ما يقول آبائكم ، ويأمرنا بالصلاة والصدق ، والعفاف ، والصلة .

فقال لترجمانه : قل له ، سألتك عن نسبه فذكرت أنه ذو نسب فيكم ، وكذلك

الرسول تبعث في نسب قومها . . وسألتك : هل قال أحد منكم هذا القول ؟

فذكرت أن لا ، فقلت : لو كان أحد قال هذا القول قبله ، لقلت رجل يتأسى

(١) هكذا في البخاري ، والفعل « كذب » بتعدى على .

(٢) يقصد مدة الصلاح

بقول قيل قبله .. وسألتك هل كان من آبائه من ملك ، فذكرت أن لا ، قلت :
فلو كان من آبائه من ملك قلت رجل يطلب ملك أبيه ، . وسألتك : هل كنتم
تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ، فذكرت أن لا ، فقد أعرف أنه لم يكن
ليذر الكذب على الناس . ويكذب على الله . وسألتك : أأشراف الناس اتبعوه
أم ضعفاؤهم ، فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه ، وهم أتباع الرسل . . وسألتك :
أيزيدون أم ينقصون ، فذكرت أنهم يزيدون ، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم .
وسألتك أيرتد أحد منهم سخطه لدينه بعد أن يدحل فيه ، فذكرت أن لا ،
وكذلك الإيمان حين تخالط بشائسته القلوب . وسألتك : هل يغدر ، فذكرت
أن لا ، وكذلك الرسل لا تغدر ، وسألتك : بهم يأمركم ، فذكرت أنه يأمركم
أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وبها كم عس عباده الأوثان ، ويأمركم بالصلاة
والصدق والعفاف ، فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين .
وقد كنت أعلم أنه خارج (١) ، لم أكن أظن أنه منكم ، فلو أني أعلم كيف أخلص
إليه لتجشمت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه (٢) . ،

فهذا ما شهد به أبو سفيان — قبل أن يدحل في الإسلام — من أحوال
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن صفاته وشمائله ، التي كان عليها قبل أن
يوحى إليه ، وهي أحوال وشمائل قد استدل منها هرقل ، — على السماع —
على أنها أحوال وشمائل لا تكون إلا لنبي !

وعن الترمذي أن عبد الله بن سلام قال : « لما قدم رسول الله صلى الله عليه
وسلم المدينة جئته لأنظر إليه ، فلما تبينت وجهه عرفت أن وجهه ليس
بوجه كذاب » .

وعن أبي رزمة التيمي قال : أنبت النبي صلى الله عليه وسلم ، ومعى ابن لى ،
فأريته ، فلما رأته ، قلت هذا نبي الله ! .

وروى مسلم أن ضاداً ، لما وفد على النبي ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم (٣)

(١) أى سيعبت نبي في هذا الوقت

(٢) من صحيح البخارى

(٣) كان من سنة الوفود التي تفد على النبي لإعلان الاسلام أن يقوم خطاؤها وشعراؤها بين
يديه ، يقولون ما أعدوا لهذه المناسبة . فيسب النبي من أصحابه من برد عليهم ، وكان
أحياناً ينولى هو ذلك — صلى الله عليه وسلم .

« إن الحمد لله ، نحمده و نثنيه ، من يهدي الله فلا مضل له ، ومن يضلل الله فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ... » ، قال ضداد : « أعد على كتابك هؤلاء ، فلفظ بلغن قاموس البحر » (١) .. هات بك أبايعك » .

وعن الجلندي — ملك عمان — لما بلغه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو إلى الإسلام ، قال والله لقد داني على هذا النبي الأسمى أنه لا يأمر بخير إلا كان أول أخذه به ، ولا ينهى عن شيء إلا كان أول تارك له ، وأنه يغلب فلا يبطر ، ويغلب فلا يضجر ، ويفي بالعهود ، وينجز الوعد ، وأشهد أنه نبي »

لو لم تكن فيه آيات مبنية كان منظره ينبيـك بالخبر

محمد ... والوحي :

كان أكبرهم أولئك الذين صوبوا سهامهم إلى سيرة النبي أن يقطعوا صلته بالسماء ، وأن ينفوا عن القرآن أنه كلام الله . وأنه كتاب سماوي لشريعة الإسلام ! .

ثم لا حرج عندهم بعد هذا في أن يسلموا « لمحمد » بكل شيء . ليكون مشرعاً عظيماً... وليكن فاتحاً كبيراً .. وليكن مصلحاً ناعماً... وليكن كما يشاء ويشاء له أتباعه ؛ إلا أن يكون نبياً ، ورسولاً ، وإلا أن يكون كتابه منزلاً من السماء متلقى من رب العالمين .

وقد قلنا من قبل إن غاية هذا المسكر الخبيث أن ينفي عن شريعة الاسلام صفة القداسة ، وأن ينزلها منزلة الشرائع والمذاهب الوضعية ، ليكون ذلك داعية إلى الجرأة على العبث بها . وجعلها في معرض التحريج والتعديل ...

هذا ويتخذ الغربيون من الحالات التي كانت تعترى النبي عند نزول الوحي

(١) قاموس الشيء عمقه ،

ذريعة للطعن في حقيقة الوحي ، والتشكيك في الصلة التي يمكن أن تكون بين
و محمد ، وبينه .

ومن عجب أن يعول الزريون في دراستهم لأحوال النبي مع الوحي على
الأحاديث والأخبار التي رواها الثقات من المسلمين عن الرسول أو شاهدها
منه عند الوحي — من عجب أن يكون هذا هو مصدر علمهم بالحالات التي
كانت تعرض للنبي ، ثم يجعلون هذه الأحوال دليلاً على نفي الوحي الذي كانت
هذه الحالات أعراضاً له . وشواهد عليه .

وقد يكون من المستساغ أن يخفى هؤلاء الغربيون أيديهم من الأحاديث
والأخبار التي تحدث عن الوحي ، وعن الأحوال التي كانت تعرض للنبي منه ،
ثم لينسجوا من مقولاتهم ما يشاءون للطعن في حقيقة الوحي ، وفي صحة ما يوحى
به .. فذلك على ما فيه من تلفيق ، وتزييف أقرب إلى المنطق من معالجة الحقائق
الثابتة ، وتحويلها إلى مخلوقات من الباطل الصريح ...

إن خلق الشيء ابتداءً أيسر من إقامته على أنقاض شيء آخر ... هو بناء
من أول الأمر ، ولو كان ذلك البناء على شفا جرف هار .. أما الخلق الآخر فهو
هدم وبناء معاً .. يهدم ثم يبنى ؟ الأول عمل واحد ، والآخر عملان ؟

والزريون كما عرفنا في مواقف كثيرة يختارون دائماً في محاربتهم للإسلام
هذا الأسلوب في خلق الأباطيل ، ورمى الإسلام بها .

فهم يعمدون إلى الحقائق الثابتة من أوثق المصادر الإسلامية ، ثم يتناولونها
كما يتناول الحيوان فريسته بمخالبه وأنيابه ، حتى إذا سال دمها ، وخمدت أنفاسها
وتناثرت أشلائها ، حاولوا أن يجمعوا من أشلاء هذه الحقائق كائناً آخر هو
هذا الباطل ، الذي يريدون أن يقيموه مقام الحق !!

وهم هنا في حقيقة الوحي يعمدون إلى الأحاديث المروية عن الرسول ،
والأخبار المشاهدة من أحواله مع الوحي ، ثم يصوبون إلى هذه الأحاديث
وتلك الأخبار سهاماً مسمومة ، يحرفون بها الكلم عن مواضعه ، ليفسحوا للباطل
مكاناً يشوه الحقائق ويشوش عليها .

فمن الأحاديث والأخبار المروية عن الوحي الذي كان ينزل على النبي ،
والصور التي كان يأتي عليها ، والأحوال التي كانت تعرض للنبي منها . . من هذه
الأحاديث :

ما يروى عن السيدة عائشة أن الحارث بن هشام سأل النبي صلى الله عليه
وسلم : « كيف يأتيك الوحي ؟ » فقال : أحياناً يأتيني في مثل صلصلة الجرس ،
وهو أشده علي ، ثم ينصم عنى وقد وعيته ، وأحياناً ملك^(١) في صورة الرجل ،
فأعنى ما يقول^(٢) . .

ويروى عن السيدة عائشة أيضاً أنها كانت تقول : « إن كان لينزل أى
يوحى — على رسول الله صلى الله عليه وسلم في الغداة الباردة ، ثم تفيض جبهته
عرقاً^(٣) .

وعن عبادة بن الصامت قال : كان نبي الله صلى الله عليه وسلم إذا أنزل عليه
الوحي كرب لذلك وتردد وجهه ، .

فالحالة التي كان يتلقى فيها النبي الوحي حالة تستدعى مجاهدة روحية ، ونفسية
وجسدية ، كي يتيح له هذه المجاهدة حالاً مناسبة للعالم الروحي الذي يتصل به . .
إنه لقاء بين طبيعتين مختلفتين . . طبيعة بشرية ، وطبيعة ملكية . ولا بد أن يحدث
هذا اللقاء احتكاكاً ، وتفاعلاً ، وفوراناً . . في الطبيعتين على السواء . .

يقول ابن خلدون فيما يعرض للأنبياء عامة عند تلقى الوحي . . « وعلامة
هذا الصنف — أى الأنبياء — من البشر أن توجد لهم في حال الوحي غيبة عن
الحاضرين معهم ، مع غطيط ، كأنها غشى أو إغماء في رأى العين ، وليست
منهما في شيء ، وإنما هي في الحقيقة استغراق في لقاء الملك الروحاني ، بإدراكهم
المناسب لهم ، الخارج عن مدارك البشر بالسلكية ، ثم يتنزل إلى المداير البشرية :
إما يسامع دوى من الكلام فيتمهمه ، أو يتمثل له صورة شخص يخاطبه بما جاء

(١) في البخارى : وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً ، فيكلمني فأعنى ما يقول .

(٢) صحيح مسلم — الجزء السابع ص ٨٢

(٣) صحيح مسلم — الجزء السابع ص ٨٢

به من عند الله ، ثم تنجلي عنه تلك الحال . وقد وعى ما ألقى إليه . . ويدركه أثناء ذلك من الشدة والخط ما لا يعبر عنه . . في الحديث : « كان مما يماح من التنزيل شدة » . وقالت عائشة : كان ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد ، فيغصم عنه ، وإن جبينه ليتفصد عرقا . . ، وقال تعالى : « لانا سنلقى عليك قولا ثقيلا » .

ولأجل هذه الحالة في تنزل الوحي كان المشركون يرمون الأنبياء بالجنون ، ويقولون : له ربي ، أو تابع من الجن ، وإنما لبس عليهم بما شاهدوه من ظواهر تلك الأحوال (١) .

ثم يقول ابن خلدون : « وهؤلاء الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، قد جعل الله لهم الانسلاخ من البشرية في تلك اللحظة . فطرة فطرهم الله عليها ، وجبة صورهم فيها ، وفزهم عن موانع البدن وعوائقه ماداموا ملايسين لها بالبشرية ، بما ركب في غرائزهم من القصد والاستقامة التي يحازون بها تلك الوجهة — أي الوجهة المملكية — وركز في طبائعهم رغبة في العبادة تمكف بتلك الوجهة ، وتسيح (٢) نحوها . . فهم يتوجهون إلى ذلك الأفق بذلك النوع من الانسلاخ متى شاءوا — بتلك الفطرة التي فطروا عليها ، لا باكتساب ، ولا صناعة . . فلهذا توجهوا وانسلخوا عن بتريتهم ، وتلقوا في ذلك الملاء الأعلى ما يتلقونه ، وعاجوا به على المدارك البشرية منزلا في قواها ، لحكمة التبليغ للعباد . . فتارة يسمع دويّا كأنه رمز من الكلام يأخذ منه المعنى الذي ألقى إليه ، فلا ينقضى الدوى إلا وقد وعاه ، وفهمه . وتارة يتمثل له الملك الذي يلقي إليه رجلا فيكلمه ويعنى ما يقوله . .

، والتلقى من الملك . والرجوع إلى المدارك البشرية . وفهمه ما ألقى عليه . — كله في لحظة واحدة ، بل أقرب من لمح البصر ، لأنه ليس في زمان ، بل كلها تقع جميعاً ، فتظهر كأنها سريعة ، ولذلك سميت وحياً ، لأن « الرحي » في اللغة الإسراع .

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٨٨

(٢) في الأصل تكشف ، وسيغ ، وهو تحريف .

« واعلم أن الأولى وهي حالة الدوى هي رتبة الأنبياء غير المرسلين - على ما حققوه - أي العلماء - والثانية - وهي حالة تمثل الملك رجلاً يخاطب - هي رتبة الأنبياء المرسلين ، ولذلك كانت أكمل من الأولى ، وهذا معنى الحديث الذي فسر فيه النبي صلى الله عليه وسلم الوحي لما سأله الحارث بن هشام ، وقال : كيف يأتيك الوحي ؟ فقال : « أحياناً يأتيني مثل صلصة الجرس ، وهو أشده على ، فيفصم عني وقد وعيت ما قال ، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني ، فأعني ما يقول ... » .

ولمّا كانت الأولى أشد لأنها مبدأ الخروج في ذلك الانصال من القوة إلى الفعل ، فيعسر بعض العسر . . ولذلك كان يحدث عنه في تلك الحالة من الغيبة والغطيط ما هو معروف . . وسبب ذلك أن الوحي - كما قررناه - مفارقة البشرية إلى المدارك الملمكية ، وتلقى كلام الملك ، فيحدث عنه شدة من مفارقة الذات ذاتها ، وانسلاخها عنها من أفقها إلى الأفق الآخر ، وهذا معنى الغبط الذي عبر عنه في مبدأ الوحي في قوله : « فغطيت حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني . فقال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارئ » وكذا ثانية وثالثة ، كما في الحديث .. !

وقد ينضى الاعتياد بالتدريج فيه شيئاً فشيئاً إلى بعض السهولة بالقياس إلى ما قبله ، ولذلك كانت تنزل نجوم القرآن ، وسوره ، وآيه - حين كان بمكة - أقصر منها وهو بالمدينة .

« وانظر إلى ما نقل - أي روى - في نزول سورة « براءة » في غزوة تبوك ، وأنها نزلت كلها أو أكثرها عليه ، وهو يسير على ناقه ، بعد أن كان بمكة ينزل عليه بعض السورة من فصار المفصل في وقت ، وينزل الباقي في حين آخر . . وكذلك كان آخر ما نزل بالمدينة آية الدين وهي ما هي في الطول بعد أن كانت الآية تنزل بمكة مثل آيات الرحمن ، والذاريات ، والمدثر ، والضحي ، والفلق ، وأمثالها . . (١) .

وواضح من هذا كله أن الأحوال التي كانت تظهر على النبي في وقت تلقى الوحي هي من مستلزمات هذا الاتصال الذي يقع بين إنسان ومملك .. بين طبيعتين مختلفتين ؛ يراد منهما أن يتلاقيا ، وأن يتجاوبا ..

والجدير بالنظر هنا ما لاحظته ابن خلدون من التفرقة بين حالات الوحي التي أشار إليها النبي حين سئل : كيف يأتيه الوحي ، فقال : أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس ، وهو أشده علي ، فيفصم عني . وقد وعيت ما قال ، وأحيانا يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فأعني ما يقول . ، فالحالة الأولى وهي حالة الإدري هي رتبة الأنبياء غير المرسلين — كما يقول ابن خلدون — والثانية ، هي حالة تمثيل الملك رجلا يخاطب هي رتبة الأنبياء المرسلين ، ولذلك كانت أكل من الأولى . .

هذه بعض الأحاديث والأخبار التي روتها كتب السيرة في شأن الوحي واتصال النبي به ، والتي اتخذ منها الغربيون مادة لخلق المفتريات والأكاذيب ، للظعن في رسالة الرسول ، والتسكيك في صدق ما جاء به ، إذ كان عندهم أن ذلك الذي نطق به النبي وسماه قرآنا ، ليس إلا هذيان محرم ، وإلا تفتيات مصروع ، أو مجنون .

وشاهدكم على هذا ؛ تلك الأحوال التي كانت تعرض للنبي حين ينزل عليه الوحي ، ويلقى بما أمر الله به أن يلقيه إليه ! .

وأعجب ما في هذا الموقف من أولئك القائلين بهذا القول أنهم يلتقطون من الآيات والأحاديث والأخبار كلمات يقطعونها من الكيان الكلي للحقيقة . ويمزولونها عن السياق الذي تجري فيه . ثم يبنون عليها ما يبنون من أوهام وأكاذيب !

والذي كان يقتضيه الأسلوب العلمي في البحث عن الحقيقة هنا هو التثبت أولا من هذه الآثار ، والوصول إلى حكم قاطع فيها وفي مصادرهما .. أهى صادقة أم كاذبة .. ؟ ثم يأتي بعد ذلك دور التطبيق لها ، والتعامل بها .. فإما أن تقبل

جميعها ، أو ترد جميعاً . . أما أن يؤخذ من الخبر بعينه ، ويترك بعينه ، فذلك هو التأميق الذى لا تقوم به حقيقة أبداً ،

فهذه الأحاديث والأخبار التى يأخذ هؤلاء الكتاب تساهدهم منها . ما رأيتهم فيها ؟ وما مقدار اطمئنانهم إليها ؟ أهى من الوثائق التاريخية المحررة فى نظرهم ؟ أم هى أحاديث موضوعية مكذوبة ؟ فإن كانت الأولى كان المنطق يقتضى بأن يأخذوا بها ، وبكل ماجاء فيها ، وإن كانت الثانية طرحوها ، وبحشوا عن وثائق أخرى ، يجدون فيها الصدق الذى يطمئنون إليه . . أما أن يجعلوا هذه الأخبار بهذا المكان الذى تتلاعب به عواصف الأهواء ، فيؤمنون ببعضها ويكفرون ببعضها ، ويأخذون بعضاً ويدعون بعضاً ، حسب ما تدعو دواعى الهوى من أنفسهم فذلك أسوأ موقف يقفه عالم أو باحث . . وقد أنكر الله سبحانه هذا الموقف الخبيث من اليهود ، وتوعدهم الخزي فى الدنيا : والعذاب الشديد فى الآخرة .

فقال تعالى : « أفترمنون ببعض الكتاب ، وتكفرون ببعض ؟ فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي فى الحياة الدنيا ، ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون » (١) .

والخزي الذى توعد الله به اليهود فى الدنيا بسبب فعلتهم هذه ، هو خزي يمسبب كل من يقف هذا الموقف فى مواجهة الحق ، حين يقيم استدلالات الباطل على ما يختلس من معالم الحق .

الحق والباطل :

ولو أننا تركنا هذه المغفريات جانbiaً ، وضربنا صفحاً عنها ، دون أن نلفت إليها أو نلفت الأنظار إلى زيفها وزورها لما وقع عندنا أن أحداً يعقل - مجرد العقل - ويفهم - أدنى الفهم - يأخذ بهذه المقولات ، ويضيف شيئاً منها إلى سيرة النبي الكريم .

فإن أدنى درجات النظر لإيها تمسحها ، وتكشف عوارها ..
وذلك ، أنها إنما استمدت حياتها ووجودها من مصادر إسلامية ، تؤمن
بالنبي ، وتؤمن بالرسالة التي جاء بها من عند الله ..

وليس يصح في عقل عاقل أن تجيء المصادر الإسلامية بما يتهم الرسول
بالصرع والجنون ! ثم إنه من جهة أخرى ما كان للتاريخ أن يحتفظ في صدره
بهذا السجل الصخيم من الأخبار والأعمال المصروع أو مجنون ؟ وما كان لجماعة
من الجماعات الإنسانية أن تتعلق بمجنون أو مصروع هذا التعلق ، وتفتديه بالمهج
وبالمسال والولد !

يكفي هذا وحده في فضح هذا الزور . وللباس أهله لباس الخزي والذي ألبسه
الله اليهود الذين آمنوا ببعض الكتاب وكفروا ببعضه !

« وما صاحبكم بمجنون » .

لقد استخزي بعض من كتاب الغرب أن يقف هذا الموقف اللاحق ، وأن
يبدى للناس عارياً لا يستره شيء في ضوء الشمس وفي رابعة النهار .. فإن الذي
يجعل القرآن أو الحديث دليلاً ومستنداً ثم يعود إلى هذا الدليل والمستند فيمزقه ،
ويلقى به في عرض الطريق أشبه بمن يلبس حلة زاهية معجبة يخرج بها على الناس
ثم ينزعها عن جسده ، ويرمى بها في التراب ، ولو أنه خرج إلى الناس عارياً من
أول الأمر لكانت فعلته تلك أقل شناعة ، وأهون خطباً .. ولوجد .. على أقل
تقدير - من يعتذر له أي عذر .. كأن يقول قائل : مسكين ! ليس عنده ما يستره !
أو خائف مذعور أعجله الخوف والذعر عن أن يرتدى ما يستره ! أما أن يكون
وملابسه تأخذ مكانها من جسده ، ثم ينزعها ، وينخلع عنها ، لالشع إلا لأنه
لا يريد ها - فذلك هو الضلال البعيد ، والخزي المبين !

وإذا كان كثير من كتاب الغرب قد استبدت به حمى الكراهية للإسلام ،
فلم يبال أن يضحي بحياته ، ولم يستكشف أو يجرّد من ملابسه على أعين الناس ؛
فإن بعضاً من الكتاب الغربيين لم يحدوا في قلوبهم الجرأة على أن يقفوا هذا الموقف ،

وأن يدعوا على رسول الإسلام أنه مصاب بالصرع والجنون . فائمين شهودهم على هذا الادعاء من كتاب الله وسنة رسول الله ! .

فهذا الكاتب الفرنسي : « لاميل درمنجم » يقول في كتاب « حياة محمد » في معرض الحديث عن الصرع أو الجنون الذي يرميه به إخوانه من كتاب الغرب - يقول :

« غفل المشغولون بأمور النفس الحصريون الذي افترضوه - أي القرآن - من الصرع ، والاستيحاء ، والخيال المتقدم - غفلوا عن حياة الخيام في الصحراء ، وعما يجب أن يبديه الرجل فيها من الخلق والدهاء لينفي زعماً بسيطاً لعصبية من الأعراب .

« حياة محمد منتظمة ، موزونة . قبل بعثته بما يشمل النظر - أي في جميع أموره كلها التي تقع تحت الملاحظة والنظر - وما انفكت تكون كذلك بعدها إلا في حالات الوحي » .

ثم يحىء الكاتب بشاهد من التوراة ، لحال نبي من الأنبياء في حال الوحي وما كان يعتريه في تلك الحالات من تيارات جسدية ونفسية .. يقول :

« قال أرميا : « انسحق قلبي في وسطى ، ارتخت كل عظامي ، صرت كإنسان سكران ، ومثل رجل غلبته الخمر ، ومن أجل الرب ، ومن أجل كلام قدسه » . ومثل هذا ما قاله « عاموس » المدثر بهر دته كـ محمد » .

ثم يقول :

« ولم تنشأ رؤى محمد ووسنيه عن مرض فيه ، بل كانت تبدو عليه علائم المرض بسبب الرؤى والوحي » .

ويقول :

« وهناك عوارض مشتركة بين مريض الأعصاب أو المهوس ، وبين الموحى إليه الصادق : الأول منفعل غير فاعل . والآخر مبدع فاعل ..

ويقول :

« والحق أن ، محمداً ، كان مبرأ من مثل هذه الأمراض على الدوام ، فقد كان تام الصحة إلى أن بلغ سن السكال ، ولم تبدأ العوارص عليه بعد هذه السن إلا عند تقبل الوحي .

« وكان لمحمد بالوحي آلام كبيرة . وكان لمحمد بالوحي حالات مؤثرة ، كره أن يطالع الناس عليها ... ولاحظ أبو بكر ذات يوم - والحزن ملء قلبه - أنه التيب في الحية النبي ، فقال له النبي : « شيبتي هود وأخواتها : الواقعة ، الخافقة ، والقارعة ، .

« وكان النبي يشعر بعد الوحي بثقل في رأسه ، فيطبه بالمراهم . وكان يتدثر حين الوحي فيسمع له غطيط وأنين (١) .

هذا ما يقوله إميل درمنجم في كتابه « حياة محمد ، ... !

ولا تحسبن أنه يكتب عن محمد بماطمة من عواطف الحب والولاء لهذا النبي العظيم ، بل لأنه لا يقل عن غيره من كتاب الغرب تعصباً على الإسلام ونبي الإسلام ، فإن كتابه هذا ملئ بالمغمزات المسمومة ، والوخزات المخدرة . ولكنه هنا أمام هذه الحقيقة السافرة لم يستطع أن يخفى تحت أضواءها شيئاً . .

ولا نريد أن نعيد القول مرة أخرى في دفع هذه المفتريات التي افترها الغربيون على رسول الله . وصوروا بها الحال التي كانت تعرض له عند الوحي . فإن هذه المفتريات كما قلنا ، لا تنمناك عند تقليدها والبحث فيها ، بل لأنها لتنهار كما ينهار بناء من الرمل على الرمل .

أجمنون مصروع يبني دولة ، وينشئ نظاماً ، ويقوم ديناً يعيش في أجيال الناس ، منذ قام إلى اليوم ؟ دون أن يصاب بنكسة أو خلل ؟ أجمنون مصروع يثبت لهذه العواصف العاتية المزجرة وحيداً في وجه أمة صحراوية النفوس ، صخرية الطباع ، ثم لا يكون منه في حال من الأحوال تخاذل أو ضعف حتى يحول هذه العواصف إلى أنسام عذبة ، وريح رخاء ؟

(١) حياة محمد لإميل درمنجم . . ترجمة عادل زعير . ص ٢٨٢

أجنون مصروع ذلك الذى يحمل تلك الشعلة السماوية المقدسة بين يديه ،
ثم يلقى بها الأعاصير الهوج .. هكذا أكثر من عشرين عاما حتى تبدأ العاصفة ،
وتسكن ، ويجتمع الناس على أضواء تلك الشعلة ، ويقبسون منها ؟

ثم !

تم أجنون مصروع مختلط هذا الذى يأسر قلوب معاشره ، ويملك أنفسهم ،
فإذا القلوب خافقة بحبه ؛ وإذا النفوس لاتعرف غذاءها إلا من يبايع الحب
والولاء ، والتفانى ... ؟

إن التاريخ لا يذكر فى سجله يوما أن إنساناً كان له فى الناس رصيد من
الحب والولاء ما كان لمحمد من ولاء وحب !

فى بيعة الرضوان ، ومعسكر الرسول بالحديبية ، يريد دخول مكة ؛ زائراً
للبيت الحرام - بعثت قريش عروة بن مسعود الثقفى ، ليجد مع النبى سبيلاً
إلى الخروج من هذا الموقف . إقالتى والمسلمون معه يريدون دخول مكة ،
وقريش تأبى عليهم ذلك . . وقد التقى عروة بالنبى . وتحدث إليه ، ورأى عن
قرب ما للرسول الكريم عند أصحابه ، وما فى نفوسهم من حب وولاء . لا يتوضأ
النبى إلا ابتدروا وضوءه ، ولا يصبق بصاقاً إلا تسابقوا إليه ، ولا يسقط من
شعره شيء إلا تهافتوا عليه ، رأى عروة هذا رأى العين . فلما عاد إلى قريش ،
قال : يا معشر قريش : إني قد جئت كسرى فى ملكه ! وقىصر فى ملكه ؛
والنجاشى فى ملكه ، وإني والله مارأيت ملكاً فى قوم قط مثل محمد ، فى أصحابه
ولقد رأيت قوما لا يسلونه لشيء أبداً . . فروا رأيكم ، (١) .

وخذ هذا الحادث شاهداً مع الآلاف المؤلفة من أمثاله :

وقع خباب بن عدي فى يد قوم من أعداء المسلمين قبل الفتح ، وأراد
هؤلاء القوم (٢) أن يتقربوا إلى قريش بهذا الأسير ، وبصاحب (٣) له ، ليكون

(١) السيرة لابن هشام جزء ٣ ص ٥٦

(٢) هؤلاء القوم هم حى « عضل والقارة » من قبيلة فزارة ، وبضر المثل بعدتهم .

(٣) صاحبه هو زيد بن الدثنة .

في ذلك بعض الشفاء لما في قلوبهم من موقعة بدر ، وصرعاهم فيها . . . وحين قدم خباب للقتل ، قال له أبو سفيان : « أيسرك أن « محمداً » هـا ، تضرب عنقه ، وأنت في أهلك ؟

فقال خباب :

لا ، والله ما يسرنى أني في أهلي ، وأن « محمداً » في مكانه الذي هو فيه ، تصيبه شوكة تؤذيه (١) .

فانظر إلى هذا الحب الذي لم تعرفه الحياة من قبل ! .

رجل بين الطع والسيف ، يهيج فيه أبوسفيان غريزة الحب للأهل والولد في تلك الساعة ، والموت منه بمصرده ؛ على أن يكون « محمد » مكانه في ساحة الموت ، فيندفع خباب يهدير في غيظ وحنق : لا ، والله . . لا أرضى أن يكون محمد في مكانه وتصيبه شوكة تؤذيه .

أهذا هو ميزان المجانين والصرعى في حساب الإيثار والتضحية ؟ إن يكن ذلك هو الواقع فمرحى بالجنون وبالصرع .

ثم هناك شاهداً آخر ، ربما كان أكبر في دلالاته على معنى الإيثار والحب مما فعل « خباب » وإن كان المبدول هناك النفس ، والمبدول هـا حركة من حركات النفس المطوية على أسنى معاني الإيثار ، والحب ، والولاء .

فهذه « أم حبيبة » زوج النبي ، وبنت أبي سفيان ، يلتقاها أبوها في منزل الرسول بالمدينة ، قبل أن يدخل الإسلام ، وقد جاء موفداً من قريش ليوثق الهدنة التي كانت بين قريش وبين المسلمين ، وليزيد في أمدها .

وليس هذا هو المهم في الأمر ... وإنما المهم هو الآتي :

عندما دخل أبو سفيان على ابنته أم حبيبة ، زوج النبي ، أراد أن يجلس ، ولم يكن غير فراش الرسول شيء يمكن أن يصلح للجلوس — فهم أن يجلس

على هذا الفراش ، ولكن ابنته ردت عليه وطوته دونه ، فقال : يا بنية . . ما أدرى ... أرغبت في عن هذا المراس ، أم رغبت به عني ؟ قالت : بل هو فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنت رجل مشرك . . نجس ! ولم أحب أن تجلس على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : والله لقد أصابك يا بنية بعدى شر (١) ؟ » .

أفهدا لإخلاص وحب تبذله امرأة لزوح مختلط أو مجنون ! فلا تمكن أحداً أن يجلس على فراشه ؟ ومن هذا الأحد ؟ إنه أبوها ، ومن هذا الأب ؟ إنه أبو سفيان ، سيد سادات قريش ، وصاحب عيرها ، ونفيها . . . تم بعد هذه الغيبة الطويلة التي لم يرف فيها إلا أباها ، السيد المطاع ! إن حرارة اللقاء بين الإبنة والأب لم تذهلها عن هذا الذي يقوم في نفسها من فارق كبير بين إيمانها بالرسول الزوج ، وحبها لأبيها الزعيم !

وحذ مثلاً ثالثاً ، وما أكثر الأمثال هنا . . ولكن هذا المثل فريد في بابه ، ولا نظن أنه يقع على تلك الصورة إلا في هذه الحالة التي وقع فيها .

فالمرأة هي المرأة دائماً في موقفها من ضرتها ، لا ترجع في خصومتها لضرتها أو ضرتها إلى عقل ، ولا تحتكم إلا منطق ، ولا تنفي إلى حق . . وإنما هي عداوة دائمة بسبب وبلا سبب ، وحصام متقد بحق ، وبغير حق . . إن المرأة هنا تدافع عن وجودها بكل سلاح . . فمن غير المعقول أن تستحلب المرأة ضرة لها تشاركها حظها من زوجها . . ولكن هذا هو الذي حدث . . وقد حدث على نحو غريب فريد . . أشبه بالحوار من الأمور .

وأم حبيبة ، زوج النبي وبنت أبي سفيان هي صاحبة هذه الواقعة !

جاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم تعرض عليه أن تزوجه من أختها (رمة) بنت أبي سفيان . . فقالت : يا رسول الله . . هل لك في أختي . . بنت أبي سفيان ؟ فيقول الرسول الكريم : « أفعل ماذا ؟ » فتقول : « تزوجها » !

فيقول صلوات الله وسلامه عليه : « أو تحبين ؟ » فتقول : « ليست بمخلية » (١) وأحب من يشاركني في الخير أختي ؟ فيجيبها : « فإنها لا تحل لي » (٢) .

لأنه حير كثير يتلقاه بعير حساب من يعيش في صحبة الرسول ، ويسكن إلى جواره ... وقد سعدت أم حبيبة بهذا الخير الوفور ، وفاض بين يديها ، وملاها عليها وجودها ، وهي واحدة من لساء تسع كن يشاركنها هذا الخير ، إلى جانب هذا المجمع الكبير من صحابة رسول الله ، الذين كانوا يردون موارد العذبة الصافية ويرتوون منها . . ومع هذا فقد كان في هذا الخير العذوق متسع ل هؤلاء جميعاً ولغيرهم . فأرادت أم حبيبة أن يكون لأختها نصيب من هذا الخير ، وحظ من تلك السعادة

وليس الخير الذي تريد أم حبيبة أن تنال أختها منه هو من حظوظ الحياة المادية ومتعها . فقد كانت الحياة المادية في بيت الرسول حياة قاسية فيها جوع ، وحرمان كثير . . وكان ما في بيت أبي سفيان من مطالب الحياة شيء كثير ، وليس في بيت النبي شيء منه . و « أم حبيبة » عرفت الحالين . . حالها في بيت أبيها ، وما ذاقته فيه من ألوان الحياة الرخية الناعمة . . فهل كانت تطلب لأختها التي تود لها حياة أطيب وأكرم من حياة أبيها — هل كانت تطلب لها إلا هذا الغذاء الروحي الذي ذاقته هي عن قرب ، وعرفت ما يجد الإنسان فيه من سعادة غامرة ، ونعيم سابغ ؟

وهل يجد أحد في جوار مجنون أو مختلط شيئاً يستريح له ويمناً به ؟ أيعرف الناس شيئاً من هذا قد وقع في الحياة على تلك الصورة من مجنون أو مصروع (٣) ؟

نعم . . إن علماء الغرب قد أفتاهم علمهم بهذا في موقفهم من نبي الإسلام ، ودراستهم لأحواله في أصنى ساعات حياته — وكل حياته صفاء — وهي ساعة اتصاله بالوحي ، وتلقيه كلمات رب العالمين . . ١

(١) أى أنها لا تحل مكانها ، بل تظل حيث هي في مكان الراج للرسول .

(٢) زاد المعاد جزء ١ — ص ٥٦ .

ثمار الصرع والجنون :

وإذا غفرنا لعلماء الفنون الماسخية أخطاءهم المتهمة أو غير المتهمة — في تخريبهم للعوارض الجسدية التي تعرض للمخاض والصرع ، وفي خلطهم بين حالات الصرع والجنون ، والحالات التي تشرق فيها النفس حين تلمسها لمسة من لمسات العبقرية والذكاء — إذا غفرنا لأبناء القرون الوسطى هذا الخلط . فإننا لا نجد سبيلاً يتحده به الغفران لأناء هذا العصر ، حين يجرون على ما يرى عليه أسلافهم في هذا الشأن . . إذ قامت الدراسات النفسية في العصر الحديث بكشف أعماق النفس ، ورصد أحوالها حالاً بعد حال ، وقد أعان التقدم العلمي الحديث — وخاصة علم التشريح ووظائف الأعضاء — أعان هذا اللقاء أضواء كثره على النفس الإنسانية ، والتعرف على كثير من أسرارها .

على أن الأمر هنا لا يحتاج إلى تعمق في الدراسات النفسية ، ولا إلى استدعاء لكل المقررات الحديثة في علم النفس ، ليعرف الفرق بين عوارض الصرع والجنون وبين حالات الإشراق النفسي ، والعمى الوجداني . .

وللسيخ — عليه السلام — كلمته المأثورة : « من ثمارهم تعرفونهم ، . . » . . ويكنى هنا أن يلقى الرء نظرة على الحصاد الذي تحصده الحياة من عالم الصرع والجنون ! إنه حصاد فسكد ، ليس فيه شيء ينفع به . . إنه أشبه بالنار ترعى في هسيس كل ما يتولد منها دخان . لا حرارة فيه ، ولا نور معه . . !

ماذا يجري على أفواه المخاض والصرع ، وماذا يخرج من بين أيديهم ؟ عبت وهراء . لا يقف عنده أحد ؛ ولا تلتقطه أذن !

وحسب من يطلب شاهداً حياً لهذا أن يفتى مصحفاً للأمراض العقلية ، ويؤيد مع أهله ساعة من نهار ! إنه سيورد مرقاً بما ثقل حمله ، ورخص ثمنه ، من ترهات قد لصقت به ، وارتسمت في رأسه . من هذا الضجيج والصخب ، ومن هذا الهذيان والعبث ! هذا ، في حين أننا نجد أعمالاً رائعة خالدة لأناس كانت نلبسهم حالات من العوارض الجسدية التي تخيل إلى من يراهم أنهم على حال غير الحال المألوفة في حياة الناس !

إن كثيرا من أصحاب العبقریات وأرباب الفنون تمرض لهم أحوال يضطرب لها كيانهم الجسدى ، ويعترهم فيها دوبات أشبه بنوبات الصرع . ولكنهم مع هذا تجدهم فى أصفى أحوالهم الذهنية ، وفى ألمع حالاتهم العقلية . أهم فى تلك الحال يعانون حالا من أحوال « الإنتاج » الفكرى الرفيع ، الذى لا يلبث أن يتمخض عن مولد رائعة من روائع الفن ، أو عروسا مجاوه من عرائس الفكر !

وإن الفرق واضح أسد الوصوح بين تخطيطات المجانين والصرعى ، وبين تهويم المنافين والعباقرة وربحاهم !

يذكر تاريخ الأدب العربى عن « البحرى » أنه كان إذا أمد شعره فى مجلس يستمع إليه الناس فيه ، استبد به الطرب ، وغلبته الذنوة ، وجعل يندو ويروح « ويتمايل يمينا وشمالا ، ويهدر كما يهدر البعير ، وهو يقول لسامعيه : ما لكم لا تعجبون ؟ ما لكم لا تطربون ؟

منظر عجيب .. لا يشك من لم يكن يعرف « البحرى » من قبل ، أنه فى حضرة رجل مجنون أو معتوه !

ولسكنها حال من الوحد أشبه بحال من لعبت برأسه الخمر ، واستبد به السكر !

إنها حال - كما قلنا - تتألى فيها ملسكات الإنسان ، فتصفو بهمه ، ويسحو وجدانه ! ولا تقاس هذه الحال - مهما تبلغ من الكمال والاعتدال - إلى ما يكون عليه البنى فى حال الاتصال بالوحى والتلقى عنه ..

إن النبى فى حال الوحى فى نشوة روحية غامرة .. لأنه يعب عباً من أنوار السماء .. لأنه يشرب من خمر لا لغو فيها ولا تأثيم !

إن التفرقة بين تخطيطات المجانين والصرعى ، وبين هزات الانتشاء الروحى والإشراق النفسى - ليست بالأمر العسير الذى يحتاج إلى علم غزير ، وإلى دراسات عميقة . إذ أن شقة الخلاف بين الحالين بعيدة ، ومدى التفاوت بينهما طويل تمتد ، وبأدنى نظر يستطيع الرء أن يعرف الحق والباطل ، ويميز بين السليم والسقيم !

ابن صياد واختبار النبي له :

وقد كانت للبي الكريم تجربة كانسفة لحال من الهوس الذي يركب بعض الناس ، ويلقى على ألسنتهم أخلاطاً من القوا ، يختلط فيها العقل بالجنون ، والحكمة بالهوى ، والحق بالاضلال . فيجب بعض الناس أن ذلك عن تلقيات غيبته ، ويلتمسون لذلك تفسيرات وتخريجات ، يقيمون عليها ما عوج من القول ، وما اضطرب من الرأي !

و ابن صياد هذا يهودى ، كان من أصحاب النطحات والتخرصات فى زمن النبي ، وقد ائتمت حاله أنظار كثير من الناس ، وأرثهم فيه رأيا . وتحدث كثير من المسلمين أنه المسيح الدجال . وكثر القول فيه ، والاختلاف عليه بين معتقد فيه ، ومتهم له ، أو متوقف فى أمره !

وقد رأى النبي صلى الله عليه وسلم أن يختبر حاله ، ويألو ما عنده ... ليكشف حقيقة أمره للمسلمين .

ففى صحيح مسلم : أن النبي صلى الله عليه وسلم مر بمسيبان فيهم ابن صياد ، فمر المسيبان : وجلس ابن صياد ! . فسكان رسول الله صلى الله عليه وسلم كره ذلك . فقال له صلى الله عليه وسلم : تربت يدك ... أتشهد أنى رسول الله ؟ فقال : لا . بل تشهد أنى رسول الله ! فقال عمر بن الخطاب : ذرنى يا رسول الله حتى أقتله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن يكن الذى ترى (١) ، فلن تستطيع قتله .

وفى رواية أخرى : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بابن صياد ، فقفا له رسول الله صلى الله عليه وسلم : قد خبأت لك خبيئاً فقتل : « دغ » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اخسأ ، فلن تعدو قدرك ، فقال عمر يا رسول الله : دعنى فأضرب عنقه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : دع

() الذى رى : أى الذى تظن ، وكان عمر يحسب أنه الدجال .

فإن يكن الذى تخاف أن تستطيع قتله .. وعن عبد الله بن عمر أن عمر بن الخطاب انطلق مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى رهط قبل ابن صياد ، حتى وجده يلعب مع الصبيان عند أطعم بنى مغالة^(١) وقد قارب ابن صياد يومئذ الحلم ، فلم يشعر حتى ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ظهره بيده ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لابن صياد : أتشهد أنى رسول الله ، فقال : أشهد أنك رسول الاميين ، ثم قال ابن صياد : أتشهد أنى رسول الله ؟ فرفضه رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال : آمنت بالله وبرسله ، ثم قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ماذا ترى ؟ قال ابن صياد : يأتينى صادق . وكاذب . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : خلط عليك الأمر ، ثم قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : لى قد خبأت لك خبيئاً ، فقال ابن صياد هو الدخ ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : اخسأ فلى تعدو قدرك ، فقال عمر بن الخطاب : يارسول الله . أضرب عنقه ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن يكنه^(٢) فلن تسلط عليه ، وإن لم يكنه فلا خير لك فى قتله .

« وعن سالم بن عبد الله ، قال سمعت عبد الله بن عمر يقول : انطلق بعد ذلك — أى بعد الحال التى رآها الرسول من ابن صياد — رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبى بن كعب الأنصارى لى النخل التى فيها ابن صياد ، حتى إذا دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم النخل ، طفق — أى الرسول — يتق بجذوع النخل ، وهو يختل^(٣) أن يسمع من ابن صياد شيئاً قبل أن يراه ابن صياد ، فرآه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو منقطع على فراش فى قطيفة ، له فيها زمرة^(٤) ، فرأت أم ابن صياد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو يتق بجذوع النخل فقالت لابن صياد « يا صاف » وهو اسم ابن صياد : هذا محمد ،

(١) الأطم بناء مرتفع ، وبى مغالة بطن من الأنصار .

(٢) أى إن يكن هو الدجال .

(٣) أى يحق أمره عليه ، ويحييه من حيث لا يشعر به .

(٤) الزمرة : الصوت الحى . لا يكاد يسمع .

فشار (١) ابن صياد ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو تركته بين .. » .

قال سالم ، قال عبد الله بن عمر ، فقسام رسول الله صلى الله عليه وسلم في الناس ، فأثنى على الله بما هو أهله ، ثم ذكر الدجال فقال : إني لأندركموه ، ما من نبي إلا وقد أنذرته قومه ، لقد أنذرته ، نوح قومه ، ولكن أقول لكم فيه قولاً لم يقله نبي : تعلموا — أي اعملوا — أنه أعور ، وأن الله تبارك وتعالى ليس بأعور (٢) .

واس صياد هذا دعي كاذب ، فدر ركبته جنة ، فجعل يحبط ، ويخرف ، فتند منه بعض كلمات ، تبرز فيها بوارق يحسبها كثير من الناس من متنزلات العيب ، وما هي في حقيقتها إلا من لمعات الخيل والجنون ؛ وكم للخيل والجنون من لمعات — ولكن لمعات أشبه بلمعان السراب ، يحسبه الظآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً .

وقد فتن الناس على عهد الرسول بابن صياد هذا ، لما كان يأتي من ضروب الخلط التي تبرز منها بروف كواذب ، وحسبوا أنه هو الدجال الذي أنذرهم الرسول به وحذرهم إياه .

وسرعان ما انكشف أمر هذا الدعي ، واعتزله الناس خوف الفتنة ، وانقاء الشر ، الذي قد يلقاهم منه .

وأحس ابن صياد بهذا ، وضائق به السبل ، حتى لقد حدثته نفسه بأن يطلب الموت لها ، فيستريح وتستريح . وسعى إلى الناس ينفي أنه الدجال الذي كشف الرسول للمسلمين عن صفاته !

عن أبي سعيد الخدري قال : صحبت ابن صائد إلى مكة ، فقال لي : أما قد لقيت من الناس يزعمون أني الدجال ؟ أأست سمعت رسول الله صلى الله عليه

(١) أي هب مذعوراً .

(٢) ذلك أن ما يدعيه الدجال أنه إله ، والعور نقص ، والله تعالى منزّه عن النقص ، وله الكمال كله .

وسلم يقول : إنه لا يولد له ؟ قال : قلت : بلى . قال : فقد ولد لي ! أو ليس سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لا يدخل المدينة ولا مكة ؟ قلت : بلى ! قال : فقد ولدت بالمدينة ، وهذا أنا أريد مكة . ١

« وعن أبي سعيد الخدري أيضاً قال : قال لي ابن صائد : مالي وإسكنكم يا أصحاب محمد ؟ ألم يقل نبي الله صلى الله عليه وسلم : إنه — أى الدجال — يهودى ، وقد أسلمت ! وقال — أى النبي — ولا يولد له ، وقد ولد لي وقال : إن الله قد حرم عليه مكة وقد حرمته (١) »

وهكذا مصير كل باطل ، يبرق بارقة ثم يخبو ويصير رماداً . وكذلك يضرب الله الحق والباطل . فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس ، فيمكث في الأرض . (٢)

الفرائقة العل :

قدر الطاعنون في نبوة « محمد » ، وفي اتصاله بالسماء ، ونقله القرآن عن طريق الوحى من رب العالمين — قـروا أن مفترياتهم التى حاولوا أن يطمسوا بها معالم هذه الحقيقة لن تلقى من العقلاء أذناً صاغية ، ولا تجد في مجال النظر الصحيح ركناً تأوى إليه .. إذ أن هذه الحقيقة الضخمة الراسخة أشبه بجبل تحاول جماعة من الجهل أن تخفي معالمه عن الأنظار . . قدر الطاعنون في نبوة « محمد » هذا الموقف ، ودخل في حسابهم هذه النهاية المخزية التى ينتهى إليها تدبيرهم في هذا الحال .. ففتحوا جبهة أخرى يحاربون فيها القرآن ، على فرص أنه وحى سماوى ؛ وأنه من عند الله ، وأن « محمداً » نقل لإرادة السماء — كما يقول — على لسانه ؛ وسلاحهم في هذا الميدان الجديد يعتمد على إدخال اللبس والتشكيك في صحة القرآن ، من حيث أن النبي — كما يقولون — كانت تعتريه أحوال نفسية وحادية في حال الوحى ، فيختلط عليه الأمر ، ويخاطب بين ما يلقى لإله الملك ، وبين ما يجرى في نفسه من حواطر وتصورات ، وبهذا يكون القرآن الذى

(١) انظر صحيح مسلم / الجزء الثامن / ٩٨٦ وما بعدها .

(٢) - سورة الرعد آية ١٧ .

يقال إنه كتاب سماوى — يكون فى تلك الحال كتاباً مختلطاً ، جمع ما نزل من السماء ، وما نفع من خواطر النبى وتصوراتہ ۱۱

ومن عادة الناقدين الذين دائماً اعتادهم على مصادر إسلامية ، يتخذون منها شواهد لمقولاتهم ، ومستندات لمذعاتهم ، حين يعددون إلى الأخبار السقيمة ، والروايات الهزلية التى دخلت على المصادر الإسلامية فى غفلة من جامع الأخبار ، وفقلة الأحاديث ، الذين يأخذون من كل فم ، دون تمحيص ، أو تحقيق ، غير مقدرين أن هناك من يقف بالمرصاد لتلقف هذه الأخبار ، واعتمادها ، وجعلها حجة على الإسلام ، وأدلة قاطعة فى مقام الاتهام .

والذى يرجع إلى كتب السنة — مثلاً — يجد كثيراً من الأحاديث المروية عن رسول الله ، محملة بكثير من غبار الكذب والفساد على رسول الله . . فإن الذين نصبوا أنفسهم لهذه المهمة الجليلة لجمع أحاديث الرسول كانوا إزاء هذه الأحاديث التى تشتم منها رائحة الفساد والكذب — كانوا بين أمرين : إما أن يحكموا عليها بما يملئهم عليهم ، فيردوها على أصحابها ، ويدعوها هملاً يضيع فى متاهات الحياة ، ويطوى فى أدراج الزمن ، وإما أن بسجلوها كما سمعوها ، ويدعو لكل ذى نظر أن ينظر إليها ، ويقول رأيه فيها !

وقد كان رأى الأول هو الذى أخذ به بعض جامعى السنة ، فلم يتحرجوا هذا التخرج الذى كان من بعضهم — فى البحث والتقصي ، ومقابلة الأخبار ، وغلبة المشكوك فيها ، وفى من تؤخذ عنهم . . وإنما كان يكفهم فى هذا أن يسمعوها من رجل مسلم خبراً يقول إنه يروى عن رسول الله ، وأنه سمعه من فلان عن فلان ، إلى آخر السلسلة من الرواة ، التى تنتهى إلى رسول الله — وكان عذرهم عند أنفسهم فى هذا ؛ أنهم لو تركوا مثل هذه الأحاديث المشكوك فيها كان ذلك حجة قاطعة منهم بإعدامها ، وقد يكون فيها نظر لناظر ، وربما كان فيها تأويل لمناول ! من يأتى بعدهم من العلماء . .

وعن هذا الإحساس قبل كثير من رواة الأحاديث أحاديث ليست موثقة عدهم . ولا فى موضع الاطمئنان منهم ، وجعلوا أمر الفصل فيها والحكم عليها

للمجاعة المسلمين جميعاً . وليس لجامع الأحاديث وحده ، الذى — مهما يكن حظه من العلم والفقه — أن يحيط بكل شيء علماً !

• • •

اتخذ العربيون من هذه الأحبار الضعيفة حجة فيمونها على ادعائهم الكاذبة على الإسلام ، يفتشون منها سمومهم ، ويكيدون بها كيدهم !
فن ذلك ما روى من أن الذى صلى الله عليه وسلم قرأ مرء سورة «الحج» وحين بلغ قوله تعالى : « أفرايتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى » أتبع ذلك بقوله : « تلك الغرانيق (١) العلا ، وإن شفاعتها لترتجى » ، وفى رواية : « إن شفاعتها لترتجى ، وإسما لمع الغرانيق العلا » وفى رواية ثالثة أنه قال : « والغرائقة العلا ، تلك الشفاعة ترتجى » .

فهذه ثلاث روايات فى هذه الواقعة :

الرواية الأولى هكذا : « أفرايتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى ، تلك الغرانيق العلى ، وإن شفاعتها لترتجى » .

والرواية الثانية تجيء هكذا : « أفرايتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى ، إن شفاعتها لترتجى ، وإسما لمع الغرانيق العلى »
والرواية الثالثة : « أفرايتم اللات ، والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى » ، والغرائقة العلا ، تلك الشفاعة ترتجى » .

والقرآن الكريم يقول : « أفرايتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى ، ألكم الذكر ، وله الأنثى » ، تلك إذن قسمة ضيزى (٢) . . إن هى إلا أسماء « سميتنهما أفتم وآبؤكم ما أنزل الله بها من سلطان » (٣) .

(١) الغرانيق : جمع غرنيق ، أو غرنوق ، أو غرانيق وهو طائر مائى يشبه السكرى ، ويطلق على الشاب الأبيض الحجل .

(٢) أى قسمة جائرة إذا جعلوا لهم الذكور ، ولله الإناث ، والذكور فى عرفهم غير الإناث حتى أنهم لقد كانوا يشدون السات .

(٣) سورة النجم آية ١٩٠-٢٢

ومدلول الروايتين الأولى والثانية بنبيء عن أن رسول الله قد ذكر في تلاوته
لسورة النجم آلهة فربش بخير ، وحمل لها عبد الله مكاناً علياً ، حتى إنها لتشفع
عنده ، لمن يلتمس الشفاعة ، ويستأهلها منها . .

وتقول الرواية . . إن النبي حين بلغ آخر السورة سجدة ، وسجد معه المسلمون
والكفار لما سمعوه أننى على آلهم « ١ »

وقد تدخلت مع هذه الروايات روايات أخرى ، وكأها تريد أن تفسر
هذه الواقعة ، وتجد لها منحراً تتجه إليه .

فيقول بعض الروايات : إن الشيطان ألقى على لسان النبي هذا القول الذى
قاله فى حنى تلك الآلهة — اللات ، والعزى ، ومنه — وأنه صلى الله عليه وسلم
كان قد ألم به صبح وحزن شديد لما بينه وبين قوميه من هذا الخلاف المستحكم ،
وتلك العداوة الصارخة ، فتمنى فى تلك الحال أن لو نزل عليه شيء يقارب بينه
وبين قوميه ، أو ألا ينزل عليه شيء ينفهم عنه ، ويباعد شقة الخلاف بينه
وبينهم . . ولهذا فإن النبي حين تلا سورة النجم ، وبلغ فيها الموضع الذى تذكر
فيه تلك الآلهة ألقى الشيطان إليه بهذه الكلمات ، التى ترفع من شأنها ، وتجعل
لها مكان الشفاعة عند الله . . ثم تستطرد الرواية فنقول : إن جبريل عليه السلام
جاء النبي ، فعرض عليه السورة ، فلما بلغ الكلمتين اللتين أدخلهما الشيطان
عليه ، قال له : ما جئتكم بهما ١١ فحزن لذلك النبي صلى الله عليه وسلم ،
فنزل قوله تعالى تسليمة له : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ،
إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته ؛ فينسخ الله ما يلقي الشيطان ، ثم يحكم الله
آياته والله عليم حكيم (١) » ، وقوله : « وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا
إليك لتفتري علينا غيره ، وإذا لاتخذوك خليلاً ، ولولا أن ثبثناك لقد
كدت تركس إليهم شيئاً قليلاً ؛ إذن لأذقناك ضعف الحياة وضعف المات
ثم لا تجد لك علينا نصيراً (٢) » إلى قوله : « إلا رحمة من ربك ، إن فضله

(١) سورة آية ٥٢ .

(٢) سورة الإسراء آية ٧٦ - ٨٨ .

كان عليك كبيراً ، قل لئ احتممت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً» (١) .

وقد كانت هذه الروايات مثار بحث وجدل ، بين علماء المسلمين أنفسهم ، ثم بينهم وبين غيرهم ، ممن يتربصون بالإسلام ، ويتمنون له العثرات ! وقبل أن نقول رأينا في هذه القصة ، وما تفرع لها من ذيول .. نحرص رأياً للقاضي « عياض » في كتابه « الشفا » .

فقد كان للقاضي « عياض » نظر عميق دقيق في هذه المسألة . فيه عقل ، وفيه فقه ، وفيه لون واضح مشرق ، من ألوان النقد ، والنفحص . يقول القاضي « عياض » :

« إن لنا في الكلام على مشكل هذا الحديث مأخذين :

أحدهما : توهين أصله (في سنده ، وفي معناه) .

والثاني : على تسليمه — أي على فرض التسليم بصحته .

المأخذ الأول

(١) توهين اصل الحديث :

« أما المأخذ الأول ، وهو توهين أصل الحديث — فيكفيك أنه حديث لم يخرججه أحد من أهل الصحة ، ولا رواه ثقة بسند سليم متصل .. وإنما أولع به ، وبمثله ، المفسرون والمؤرخون ، المولعون بكل غريب ، المتلقفون من الصحف كل صحيح وسقيم ، وصدق القاضي بكر بن العلاء المالكي حيث قال : لقد بلى الناس ببعض أهل الأهواء ، والتفسير ، وتعلق بذلك المحدودون ، مع أضعف ثقلته (٢) ، واضطراب رواياته وانقطاع إسناده ، واختلاف كلماته ..

• (١) سورة الإسراء آية ٨٨ .

• (٢) أي نقلة حديث الفرائق .

فقائل بقول إنه في الصلاة (١) ، وآخر يقول : قالها في نادى فومه ، حين أنزلت عليه السورة ، وآخر يقول . قالها ، وقد أصابته سنة ، وآخر يقول : بل حدث نفسه فسمها ، وآخر يقول : إن الشيطان قالها على لسانه ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم لما عرضها على جبريل قال : ما هكذا أقرأئك ، وآخر يقول : بل أعلبهم الشيطان أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأها ، فلما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم ذلك قال : والله ما هكذا نزلت.. إلى غير ذلك من اختلاف الرواه ، ومن حكيته هذه الحكاية عنه من المفسرين ، والتابعين ، لم يستندوا أحد منهم ، ولا رفعوها إلى صاحب (٢) .. وأكثر الطرق عنهم فيها ضعيفة واهية .

(ب) توهين معنى الحديث :

ثم يقول القاضى عياض : « هذا توهينه — أى الحديث — من جهة النقل ، فأما من جهة المعنى فقد فامت الحجة وأجمعت الأمة على عصمته صلى الله عليه وسلم ، ونزاهته عن فعل هذه الرذيلة ، إما من تمحيه أن ينزل عليه مثل هذا من مدح آلهة غير الله ، وهو كفر ، أو أن يتصور عليه الشيطان وينبئه عليه القرآن حتى يجعل فيه ما ليس منه ، ويعتقد النبي أن من القرآن ما ليس منه حتى ينفبه جبريل عليه السلام ، وذلك كله ممتنع في حقه صلى الله عليه وسلم . . أو أن يقول ذلك في نفسه من قبل نفسه عمداً ، وذلك كفر .. أو سهواً ، وهو معصوم من هذا كله .. وقد قررنا بالبراهين والإجماع عصمته صلى الله عليه وسلم من جريان الكفر على قلبه أو لسانه ، لا عمداً ، ولا سهواً ، أو أن يشتبه عليه ما يلقيه الملك بما يلقي الشيطان ، أو يكون لشيطان عليه سبيل ، أو أن يتقول على الله ، لا عمداً ولا سهواً ، ما لم ينزل عليه .. وقد قال تعالى : ولو تقول عليا بعض الأقاويل ، لأخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين » (٢) .

(١) يشير الى بعض الروايات التي تقول ان النبي قرأ سورة النجم وذكر ما ذكر عن القرائن في أثناء الصلاة .

(٢) أى صاحب لرسول الله « صحاح » .

(٣) سورة الحاقة آية ٤٥ ، ٤٦ .

ووجه ثان .. وهو استحالة هذه القصة ، نظراً ، وعرفاً .. وذلك أن هذا الكلام لو كان كما روى ، لكان بعيد الالتئام ، متناقض الأقسام ، متمزج المدح بالدم ، متخاذل الأليف والنظم ، ولما كان النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا من بحضرته من المسلمين ، وصناديد المشركين ممن يخفى عليه ذلك ، وهذا لا يخفى على أدنى منأمل ، فكيف بمن رجح حله ، واتسع في باب البيان ومعرفة فمسيح الكلام عليه ؟؟

ووجه ثالث : أنه قد علم من عادة المفاقيص ، ومهاندئ المشركين ، وضعفة القلوب والجهالة من المسلمين نفورهم لأول وهلة ، وتخليط العدو على النبي صلى الله عليه وسلم لأقل فتنة ، وتعميرهم المسلمين والشهامة بهم الفينة بعد الفينة ، وارتداد من في قلبه مرض عن أظهر الإسلام — لأدنى شبهة .

ولم يحك أحد في هذه القصة شيئاً سوى هذه الرواية الضعيفة الأصل ، ولو كان ذلك لوجدت قريش بها على المسلمين الصولة ، ولأقامت بها اليهود عليهم الحجة ، كما فعلوا — مكابرة — في قصة الإسراء ، حتى كانت في ذلك لبعض الضعفاء ردة ، وكذلك ماروى في هذه القصة ، ولا فتنة أعظم من هذه البلية لو وجدت (١) ، ولا تشغيب للمعادى حينئذ أشد من هذه الحادثة لو أمكنت !! فما روى عن معاند فيها كلمة ، ولا عن مسلم بسببها بنت شفة ، فدل — ذلك — على بطلها ، واجشاث أصلها ، ولا شك في إدخال بعض شياطين الإنس والجن هذا الحديث على بعض مغفلي المحدثين ، ليلبس به على ضغفاء المسلمين .

ووجه رابع .. ذكر الرواة لهذه القضية أن فيها نزلت — الآية — « وإن كادوا ليفتنوك عن الذي أوحينا إليك ، لتفتري علينا غيره ، وإذن لا تجدوك خيلياً ، ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً » (٢) . وهاتان

(١) أي أنه لو وقعت حادثة « الغرائق » على الوجه الذي رويته لكانت أعظم فتنة تحب فيها قريش وتضع . ويقول فيها اليهود ويتقولون .

(٢) سورة الإسراء آية ٧٣ ، ٧٤ .

الآيتان تردان الخبر الذي روي ، لأن الله تعالى ذكر أنهم كادوا يفتنونه حتى يفتري ، وأنه لولا أن ثبته — الله — لسكاد يركن إليهم .

« فمنهمون هذا ومنهموه أن الله تعالى عصمه من أن يفتري ، وثبته ، حتى لم يركن إليهم قليلا ، فكيف كثيراً ؟ »

وهم — أى الرواة — يروون فى أحبارهم الواهية أنه زاد على الركون والافتراء . بمدح آلهتهم ، وأنه قال صلى الله عليه وسلم : « افتريت على الله » وقالت ما لم يقل . . وهذا ضد مفهوم الآية ، وهى تضعف الحديث لو صح . فكيف ولا صحة له ؟ وهذا مثل قوله تعالى فى الآية الأخرى : « ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضاوك وما يصلون إلا أنفسهم ، وما يضروك من شيء » (١) ، وقد روى عن ابن عباس — أنه قال — « كل ما فى القرآن « كاد » فهو لا يكون » (٢) قال الله تعالى : « يكاد سا برقه يذهب بالابصار » ولم يذهب . . و « أكاد أخفيها » (٣) ولم يفعل !

قال القنيرى القاضى : « ولقد طالبته — أى النبى — قريش وثقيف إذ مر بآلهتهم أن يقبل بوجهه إليها ، ووعدوه الإيمان به إن فعل ، فما فعل ، وما كان ليفعل » .

الماخذ الثانى

التسليم بصحة الحديث :

يقول القاضى عياض : « وأما المأخذ الثانى فهو مبنى على تسليم الحديث لو صح ، وقد أعادنا الله من صحته . . ولسكن على كل حال ، فقد أجاب عن ذلك أئمة المسلمين بأجوبة ، منها الفث والسمن . . فنها :

(١) سورة النساء آية ١١٢ « كاد » .

(٢) أى ما جاء من القرآن بلفظ « كاد » لعناه أنه لا يقع . ولا يكون .

(٣) أى « الساعة » فى قوله تعالى : « إن الساعة آتية أكاد أخفيها » .

١ - ما روى عن قتادة ومقاتل .. « أن النبي صلى الله عليه وسلم أصابته سنة عند قراءته هذه السورة ، فخرى هذا الكلام على لسانه بحكم اليوم »^١ وهذا لا يصح ، إذ لا يجوز على النبي مثله ، في حالة من أحواه ، ولا يخلقه الله على لسانه ، ولا يستولى الشيطان عليه في نوم ، ولا يقظة ، لعصمته في هذا الباب من جميع العمد والسهو .

٢ - وفي قول « السكبي » إن النبي صلى الله عليه وسلم حدث نفسه ، فقال ذلك الشيطان على لسانه .. وفي رواية « ابن سهاب » عن أبي بكر بن عبد الرحمن ، قال : وسها - أي النبي - فلما أحبر بذلك قال : إنما ذلك من الشيطان » .

ويرد القاضى عياض هذه الروايات بقوله :

وكل هذا لا يصح أن يقوله النبي صلى الله عليه وسلم ، لا سهواً ولا فصدأ ، ولا يتقوله الشيطان على لسانه .

٣ - وقيل : لعل النبي صلى الله عليه وسلم قاله - أي هذا القول - أثناء تلاوته ، على تقدير التقرير والتزييح للكفار ، كقول ، إبراهيم عليه السلام : « هذا ربى »^(١) على أحد التأويلات^(٢) . . (وأن النبي حين قال ذلك قاله) يعد السكت ، وبيان الفصل بين الكلامين ، ثم رجع إلى تلاوته .

يقول القاضى عياض : وهكذا يمكن مع بيان الفصل وقريئة بدل على المراد ، وأنه ليس من المتلو - أي ليس من القرآن - ..

ولا يعترض على هذا بما روى أنه كان - أي هذا القول - في الصلاة ، فقد كان الكلام قبل فيه - ما غير موع^(٣) . . . والذي يظهر وينرجح في

(١) يشير إلى ما حكاه القرآن عن إبراهيم في قوله تعالى : « فلما رأى القمر بارعاً قال هذا ربى » فلما أفق قال : لأحب الآفلين » .

(٢) من التأويلات التي يذهب إليها المفسرون في قول إبراهيم عن القمر « هذا ربى » ، وعن الشمس : « أهذاربى » أنه قال ذلك على طريق الاستهزاء المراد به السجيرة والاستهزاء أي « أهذاربى » ؟ استصغاراً لشأنه !

(٣) أي كان الكلام أول ما فرصت الصلاة مباحاً فيها ، ثم حرم بعد ذلك .

هذا التأويل عند المحققين على تسليمه — أى التسليم بصحة الحديث — أن النبي صلى الله عليه وسلم كان كما أمره ربه يرتل القرآن ترتيلاً ، ويفصل الآى تفصيلاً فى قراءته ، كما رواه الثقات عنه ، فيمكن ترصد الشيطان لتلك السكتات ودسه فيها ما اختلقه من تلك الكلمات ، محاكياً نغمة النبي صلى الله عليه وسلم بحيث يسمعه من دنا لمليه — لك النبي — من السكمار ، فظفوها من قول النبي صلى الله عليه وسلم وأساءوها ، ولم يقدح ذلك عند المسلمين لحفظ السورة قبل ذلك على ما أنزلها الله ، وتحققهم من حال النبي صلى الله عليه وسلم فى ذم الأوثان وعيها كما عرف منه .

وفد حكى موسى بن عقبة فى « معازيه » نحو هذا ، وقال : إن المسلمين لم يسمعوها ، وإنما ألقى الشيطان ذلك فى أسماع المشركين ، وفلوبهم . . ويكون ما روى من حزن النبي صلى الله عليه وسلم إنما لهذه الإشاعة والشبهة وسبب هذه الفتنة . . وقد قال الله تعالى : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته ، فينسخ الله ما يلقى الشيطان ، ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم » (١) فعن « تمنى » تلا ، قال الله تعالى : « لا يعلمون الكتاب إلا أمانى » أى تلاوة . وقوله سبحانه : « فينسخ الله ما يلقى الشيطان » أى يذمه ، ويزيل اللبس به ، ويحكم آياته .

٤ — مما يظهر فى تأويله — أى هذا الحديث — أن مجاهدأ روى هذه القصة . . والفراقة العلا . .

يقول القاضى عياض : فإن سلمنا القصة ، قلنا لا يبعد أن هذا كان قرآناً (٢) والمراد « بالفراقة العلا ، وأن شفاعتهم لتترجى » الملائكة (٣) على هذه الرواية ، وبهذا فسر السكبي « المرافقة أنها الملائكة ، وذلك أن السكمار كانوا يهتقدون

(١) سورة الحج آية ٥٢ .

(٢) أى يقرأ على هذا الوجه : « أفرأيتم اللاب والعري . ومائة المائة الأخرى » ، والفراقة العلا ، تلك اشعاعة ترفيى .

(٣) يقول الله سبحانه وتعالى : « وكم من ملك فى سموات ، لا تفتى سماعتهم شيئاً ، إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى » .

الأوثان ، والملائكة بنات الله ، كما حكى الله عنهم ^(١) ، ورد عليهم في هذه السورة بقوله « ألكم الذكر وله الأنثى » ، فأنكر الله بل هذا من قولهم . . . ورجاء الشفاعة من الملائكة صحيح . . فلما تأوله المنركون على أن المراد بهذا الذكر آلهتهم ، ولبس عليهم الشيطان ذلك ، وزينه في قلوبهم ، وألقاه لآلهم نسخ الله ما ألقى الشيطان ؛ وأحكم آياته ورفع تلاوة تلك اللغظتين اللتين وجد الشيطان بهما سبيلا للإلباس ، كانسح كثير من القرآن ، ورفعت تلاوته ، وكان في إنزال الله تعالى لذلك حكمة ، وفي نسخه حكمة ، ليضل به من يشاء ، ويهدي من يشاء ، وما يضل به إلا الفاسقين ، و « ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض ، والقاسية قلوبهم ، وإن الظالمين لفي شقاق بعيد ، وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربهم فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم ، وإن الله لهادي الذين آمنوا إلى صراط مستقيم » ^(٢) .

ه - وفيل : إن النبي صلى الله عليه وسلم لما قرأ هذه السورة ، وبلغ ذكر « اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى » خاف السكمار أن يأتي بشيء من ذمها ، فسبقوا إلى مدحها بدينك الكتمين . ليخططوا في تلاوة النبي صلى الله عليه وسلم ويتنعموا عليه ، على عايتهم ، وقولهم : « لاتسمعوا لهذا القرآن ، والافوا فيه لعلكم تغلبون » ونسب هذا العمل إلى الشيطان ، لعله لهم عليه . . وأساعوا ذلك ، وأذاعوه ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم قاله ، فخرن لذلك من كذبهم ، وافترأهم عليه ؛ فسلاه الله تعالى بقوله : « وما أوسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ؛ ثم يحكم الله آياته ، والله عليم حكيم » ^(٣) . . وبين للناس الحق من الباطل ، وحفظ القرآن ، وأحكم آياته ، ودفع ما لبس به العدو ، كما ضمنه تعالى في قوله : « لما نحن نزلنا الذكر . وإنما له لحافظون » ^(٤) .

(١) في قوله تعالى : « وهم ليسمون الملائكة تسمية الأنثى » .

(٢) سورة الحج آية ٥٣ ، ٥٤ .

(٣) سورة الحج آية ٥٢ .

(٤) من كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى ، للقاضي عياض ص ١١٦ .

تلك هي القصة التي جاءت في بعض كتب السيرة ، وثقلها بعض المعسرين ، وهي كما ترى أشبه برواية مهلهة النسيج ، متهدمة البناء ، أراد مخرجوها أن يخفوا عواردها ، ويسترؤا هزالها فألقوا إليها كثيراً من الرقع ، حتى لكاد يختفي الأصل ، ولا يرى إلا تلك المرقعات التي أضفيت إليها .

فالمسألة التي قامت عليها القصة مادة فاسدة ، لا يتخلق منها شيء يصلح أن يعيد في الحياة ، وأن يكتب له بقاء مع الأحياء .

إن فيصل الرأي في هذه المسألة هو في كلمة واحدة : نبي ، أو غير نبي .

فإن كان « محمد » غير نبي .. فهذا موقف له حسابه وتقديره ، ولل كلام الذي يقال هنا حساب وتقدير .. فإذا كان « محمد » عند بعض الناس ليس نبياً ، فليس لنا مع من يرى هذا كلام .. فيما ينسب إلى « محمد » من أخطاء ، وما يليق إليه من تهم .. إنه والحال كذلك يتحدث عن إنسان ، مجرد إنسان يجوز عليه ما يجوز على الناس من أخطاء .

أما إن كان « محمد » نبياً ، فإن الذي يمتقد هذا ، ثم يلحق به ما يجري في حياة الناس من أخطاء وعثرات ، وتخبطات ، فهذا مما لا يستقيم بحال أبداً مع صفة النبوة فإن النبي مبالغ عن الله ، وهذه الصفة موصوم من الخطأ والنسيان فيما يتصل برسائله ، وما هو من أصول شريعته أو فروعها ، إذ أن أي انحراف في هذا معناه سوق الناس إلى سبل مهووجة مليئة بالعثرات والحفر ، على حين أن دعوة السماء إنما تدعوهم إلى صراط مستقيم ، صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض !

ذلك هو ما يجب أن يتأكد ، ويتقرر أولاً عند من يؤمن بالأنبياء .. لأنهم لن يكونوا على غير تلك الحال التي توجب لهم العصمة ، وتحمل الرسالة التي يحملونها من أية شائبة تعلق بها !

وإن فن النبوة ، والجليل ، وسوء المصير للنبوة — أن يقول قائل إن « النبي » ويقولها هكذا « النبي » — حين قرأ سورة النجم ، لبي ، أو أحذته سنة أو عليه هاطر فوى في نفسه ، أو ألقى إليه الشيطان ، فلهذا الاعتصام التي كانت تعبدتها

قريش ، وأثنى عليها ، ورفع منزلتها ، وجعل لها شفاعة عند الله !! أهدأ كلام يلتقى أوله مع آخره ؟

نبي يقرأ قرآنًا منزلاً من السماء . . ثم تعدو عليه عرادی الشر فتغير من آيات الله ، وتبدل من شريسته ؟!

أهدأ قول يقول به عاقل ؟ وماذا يترك للجانيين بعد هذا ؟

قد يكون سائفاً أن تنفي عن محمد صفة النبوة ، على سبيل المكابرة ، أو من باب الكفر والإلحاد ، ثم يقال إنه قال في معبودات قريش ما قال !! إن ذلك يكون من شأنه هو ، ولحسابه هو ، وليس للسماء فيه شأن أو حساب !

أما وأن محمداً نبي فإنه في عصمة .. فوق الخطأ ، وفوق النسيان !
عن عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما - قال : قلت يا رسول الله . . أأكتب عنك كل ما أسمع منك ؟ قال : « نعم » .. قلت : في الرضا والغضب : قال : نعم ، فإنني لأقول في ذلك كله لإحقاقه (١) .

ولا تسأل بعد هذا عما فتح ذلك الباطل من حديث « الفرانين » ، وأمثاله — على المستشرقين ومن لا لهم ؛ من مجالات فسيحة يصلون فيها ويجولون وينمزون ويلبزون .. إذ اتخذوا من هذا الحديث المختلق الملقح حجة لإدانة الإسلام ، وسلاحاً لتجريح القرآن ، ووصفه بالصفة التي تجعله أحاديث متصيدة من هنا وهناك . بعضها من السماء ، وبعضها من الشيطان !

فأى كتاب هذا الذي تنازعه تلك القوى ، وتوزعه تلك الجهات ؟ وأي شريعة تقوم على هذا البناء الذي تامل فيه يدان متغايرتان . . يد تبني والأخرى تهدم ؟ وأي نبي هذا الذي يدعو إلى عبادة الله ، وإلى عبادة معبودات من دون الله ؟

هكذا يريد المستشرقون أن تكون شريعة الإسلام ، وعلى تلك الصورة يودون أن يكون مفهوم القرآن .. دستور الشريعة . وترجمان أحكامها . .
« يريدون ليظفروا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون (٢) » .

الباب السادس

الداعي وموطن الدعوة

مفارقات ، ومقابلات :

داعية أمى .. ماقراً كتاباً ، ولا خط يمينه سطرًا ..

وقوم أميون .. أعراب بادية ورعاة لابل وشاه ..

وموطن مقفر جدد .. لا يمسك ماء ، ولا يخرج حباً ..

ماذا يقع في حسابك من دعوة الداعي في هذا الموطن القفر ، ومع هؤلاء
الرعاة الأجلاف ؟

ولانتظر في حسابك هذا إل أن الداعي هو محمد ، ولا أن الموطن هو
الجزيرة العربية ، ولا أن القوم هم أمة العرب !

واجعل نظرتك هذه لآية داعية أمى ، في أى بلد قفر ، وفي أى مجتمع يعيش
عيش البادية ، ويحيا حياة المسحراء !

وانظر حينئذ ماذا يقع في تقديرك لدعوة هذا الداعي .. في بيئته تلك ،
وفي أقوامه هؤلاء ؟

أخرج بك التقدير لهذه الدعوة — في أحسن أحوالها — عن أن تكون
نسمة عالية بليلة هبت في أعقاب يوم طويل من أيام السموم ، فاستروحت بها
الفوس ساعة ، ثم ذهب وذهب ريحها ؟

أو أن تكون نفماً شجياً مؤسأً في وحشة الليل ، وفي هجمة سواده
الحالك .. ثم لا يلبث هذا النغم أن يذوب ، ويفرق في هذا السكون
المطبق العميق ؟

أو أن يكون دوحه ظلياة ينزل بها السفر المتعبون ساعة من نهار ، يتنقون
لفتح الهاجرة ووهج الحجير ثم يتركونها ليستقبلوا هواجس الشمس المحرقة ،
ولفتح السموم المستعر !

لأنه لن يكون لهذا الداعى فى هذه الأحوال وفى تلك المواطن إلا هذا الأثر
المحدود الموقوت ، الذى يلعب البرق فى سواد ليل حالك ، ثم ينطفىء فى شمة
هذا الليل ، وينوص فى ظلامه الدامس !

أرأيت الشعراء ، والمفنين ، والحداء ، وأرباب الآداب والفنون . . ماذا
بقى فى هذه المواطن من آثارهم ؟ وماذا خلد فى الحياة من أعمالهم ؟ ذكريات
عابرة ، ووفيات قصيره يقفها المعجبون بملك الآثار كما يقفون على الدمن
والأطلال !

حساب غير هذا الحساب :

ولكن الأمر يختلف أشد الاختلاف ، ومحصل النظر يجرى بما لم يقع فى
التقدير والحسبان حين يستقبل الإنسان بهطره مطلع ، النبوة ، فى الأمة العربية ..
فى الصحراء البرية !

هالك نجد الداعى على غير ما عرف الناس من الدعاة .

وهناك نجد الصحراء ، وساكنى الصحراء على غير ما عرفت الحياة من الصحارى
وساكنى الصحارى !

ومن ثم كان هذا ، الحصول ، الموفور من معطيات الخير ، وثمراته ، فيما
غرس الداعى من غراس وفيما أخرحت الأرض من طيبات ، وفيما حصل الناس
من خير ، وفيما بلغوا من كمال .. كل ذلك قد جاء على أتم وأكمل ما قدر للبشرية
فى هذه الحياة من تمام وكمال .

وندع كل أمى غير محمد ،

وندع كل صحراء ، وكل من يسكن الصحراء . . غير صحراء العرب ،
وسكان صحراء العرب .. ندع هذا كله ، ولا نطيل الوقوف عنده . ولا تردده
النظر إليه .. فلنا لن نحصل هناك على شيء ذى بل ، هما طال وقرفنا ويرداه

نظرنا . إذ لا جديد بعد النظر الأولى في هذا القفر .. الذى يضم كيانه كل شيء ،
ويحوى الداعى ومن دعا .. !

وليكن وقوفنا كله عند هذا الداعية العربى الأسمى ، وعند هؤلاء العرب
الأميين .. فى هذا الموطن القفر الذى استوطنوه .

ماذا هناك ؟

هناك آيات بينات ، ومعجزات قاهرات ، وأحداث خطيرة مشيرة ، وإتقالات
شامل فى ماديات الحياة ومعنوياتها جميعا .

نبى أمى .. وقوم أميون .. وأرض مجدبة .. وحياة غليظة جافية .

ومع هذا فإنه من كل هذه « الأميات » مجتمعات ، تلد الحياة أكرم
مواليدها ، وتخرج فى الناس أطيب ثمراتها .. فتتفجر ينابيع الحكمة من فم
هذا البهى الأسمى ، وتقع فى عقول الناس وفى قلوبهم موقع الماء العذب فى
الارض القفر ، فإذا الناس غير الناس ، وإذا الحياة غير الحياة .. وإذا أعراب
البادية ، ورعاة الإبل شامة فى الناس ، وأساتذة فى العلم ، وساسة للأمم ،
وإذا هذا البلد القفر مطلع النور ، ومشرق الهدى ، ومهوى الأفضة ، وقبة
أنظار العالم ، وموضع اهتمامه ... من عدو وصديق .

ما معنى هذا التوافق ؟

ولأنه لمن غير الطبيعى أن تجتمع هذه « الأميات » كلها فى موطن واحد ،
وتلتقى كلها على غاية واحدة ، ثم يكون منها هذا الفتح المبين ، فى ميادين الخير
والفلاح كلها ... فى العلم ، وفى الخلق ، وفى السياسة ، وفى الاجتماع ، وفى كل
ما يسمو بالإنسان ويرفع قدره ، ويحفظ عليه وجوده الكريم فى الدنيا ،
 ويفتح له الطريق إلى رضوان الله فى الآخرة .

من غير الطبيعى أن يكون لهذه « الأميات » من الخير ، والسكال والسمو
فى اجتماعها ما لم يكن لأضدادها مجتمعة أو متفرقة ..

فما كان لداعية غير أمي ، بلغ ما بلغ في العلم والحكمة . . في أمة متحضرة
تزخر بالمدارس والجامعات ، وتفيض بالخيرات والثمرات - أن يحىء بمثل ما جاء
به النبي الأمي من علم وحكمة ، ولا أن تثمر دعوته هذا الثمر الطيب المبارك ،
الذي أخرجته الجزيرة العربية من بين صخورها ورمالها ، وأنضجته على سموها
وزمهرها !

هذا هو واقع الحياة التي يحياها الناس : فلا يسنوى الخصب والجذب ، ولا يتعادل
الحضر والبدو ، ولا يتوازن القاريء والكتاب والامي الذي لا يقرأ ولا يكتب ! .
ذلك إذا جرت الحياة في طريقها المرسوم .. ولكن حين يصطفى الله من يصطفى
من خلقه ، تنتصب لذلك أسباب خفية لا نعلمها ، فتتهيء لهذا المصطفى سبيل الخير ،
وتمهده طريق الفلاح ، من حيث لا يتوقع الناس ، ولا ينتظرون !

ولقد اصطفى الله « محمداً » لأعظم رسالة ، واختصه بأفضل دعوة ، فجعله
مبعوثه إلى الناس كافة ، بل إلى الثقلين من الإنس والجن ؛ وجعل رسالته خاتمة
الرسالات ، والحكمة الأخيرة بين السماء والأرض !

ولم تكن تلك النعمة السماوية التي اختص الله بها نبيه الكريم محجوبة عن
موطن هذا النبي وقومه ، فكان لهم من هذه النعمة ميراث القريب من قريبه ،
وحق الجار على جاره !

وعلى هذا ، فافئنا إذ نجد في « النبي » الأمي ما نجد من جلال النبوة وعظمة
النبي . . نجد كذلك عروفاً طيبة كريمة ممتدة من هذا الجلال وتلك العظمة إلى
هذه المواطن وأهلها ، فان رحمة الله واسعة ، وفضله عظيم (والله يختص برحمته
من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم) .

وسنرى كيف التقي النبي الأمي بقومه الأميين ، في تلك الصحراء القاحلة ،
فكان هذا اللقاء مقدوراً بقدر ، موقوتاً بميقات ، ليجمع بين أمية الرسول ،
وأمية المرسل إليهم ، وجذب الموطن وفقره ، وكان من هذا اللقاء الخير كله ،
والنور كله ، والهدى كله .. وذلك لا شك شاهد عدل من شواهد صدق الرسالة ،
وآية ناطقة من بينات آياتها . . !

هذا النبي الأُمي :

إنسان موطنه الصحراء ، ومرباه في اليتيم والفقر ، ونشأته على الأمية والبداوة ،
ومسرحه ومراحه بين الجبال وعلى الرمال !

هذا هو « محمد » بن عبد الله فيما كان يراه الناس ، وفيما كان يرى هو من نفسه
فبل أن يختاره الله لدينه ، ويصطفيه لرسالته !

فما كان « محمد » في مولده ، وفي نشأته ، وفي صباه ، وفي شبابه واكتفاله إلا
واحداً من آخاد قومه ، وإلا ذبته من نبت الصحراء في هذا البلد القفر ، وفي هذا
الموطن الصحراوي الجديد .

ولكن ما يكاد هذا الإنسان يبلغ الأربعين من عمره حتى يصبح حديثاً عالياً
في فهم الوجود كله ، ثم لا ينقطع هذا الحديث أبداً . . إلى اليوم وإلى ما بعد
اليوم . . فسيظل « محمد » حديثاً متصلاً في أوليائه وأعدائه جميعاً ، ما دامت
الحياة ، وما عاش الناس في الحياة ،

نعم . . قد كانت في حياة « محمد » قبل الأربعين شواهد ومخايل ترفع مقامه
في قومه ، وتعلي منزلته فيهم ، ونفرض احترامه عليهم . . ولكن لم يكن ذلك
بالقدر الذي يعزله عنهم ، ويقطع الصلة بينه وبينهم . .

فإن « محمداً » — على ما كان فيه من صفات كريمة بارزة ، وأخلاق رضية
عالية قبل بعثته — لم تأخذ هذه الأخلاق وتلك الصفات لو ما صارخاً في حياته ،
ولم يتخذ هو منها موقفاً حاداً في قومه . . فعاشت فيه هذه الصفات وتلك
الأخلاق كما يعيش اللؤلؤ الكريم في أعماق البحر ، إلى أن يلقاه القدر بمن
يكف عنه ، ويجليه . . هجة للتأطرين ، وعجباً معجباً للتوسمين !

ونعم . . كان « محمد » - قبل البعثة - حديثاً طيباً فواحاً بالحمد ، نفاحاً بالثناء ،
من كل من خالطه ، وانصل به من قرب أو بعد . . فلقد كان في خلقه السماح
الرضى ، وفي لسانه العف الطهور ، وفي سيرته الحمودة المستقيمة . . كان في كل
هذا المثل الذي يشمله أصحاب المثل الفاضلة ولايحة ففونه ، وكان القدوة التي
ينزع إليها أصحاب الهمم العالية ولا يستطيعونها . . . ومع ذلك فقد كان هذا

الحديث الطيب عن محمد ، يجرى على ألسنة الناس ، في هيئة ورفق ، ويدور في خواطرهم على ترفق ومهل ، فلم يجتمع له الناس يوماً اجتماع المتفرجين على أمر عجب ، أو - حدث غريب . . وإنما ظل محمد ، ياقى الناس ويلقونه ، دون أن يروا فيه إلا ما يرون من نسمة عطرة ، تشرح الصدور وتنعش النفوس ! وإلا ما يتوسم المتوسم من روض أنيق معجب ، في صحراء قاحلة !

النبا العظيم :

ولكن ما إن تلقى محمد ، رسالة السماء وأذن في الناس أنه رسول رب العالمين حتى وقع هذا الانقلاب الشامل ، الذى لم تسهد الحياة له مثيلاً ، ولم يعرف له الناس شبيهاً ، فيما حدث من أحداث !

وحين تلقى أهل مكة هذا النبا أول ما تلقوه وجماؤه ، وجدوا . . تسألهم في هذا شأن من طالع عليه أمر مدهل لم يكن فى حساباته ، فتبльд معه مشاعره ، وتحمد له أنفاسه ، ثم لا يلبث أن يضطرب كيانه ، وتعلوه رعدات ورعشات ، وكذلك كان أهل مكة . . فما أن زایلهم صدمة المفاجأة حتى اضطربوا وماجوا ، وركبتهم رعدة حمى خبيثة راعشة ، كان منها تلك الأصوات المجلجلة لتكسر العظام ، وتصادم الأسنان حتى لقد تجاوز صداها حدود مكة إلى من حولها من العشائر والقبائل !

وشيئاً شبيهاً تجمع من أبخرة هذه الحمى ما جعل مراحل الحقد والحسد تغلى فى الصدور ، وتز بين الأضلاع ، ثم لم تلب أن تصدعت تلك الصدور ، وأخذت تنفجر !

وبدأت أصوات الانفجار تسمع منقطعة . . ههنا وهناك . . من السباقيين إلى الثرى ، والمسارعين إلى داعى السفاهة والغنى . . ثم تتابع تلك الانفجارات وتمازجت ، حتى لكانها بركان عظيم فتح فوهته ، وجعل يرمى باللهب والحمم !

هدوء العاصفة :

وككل شيء . . له غاية ونهاية . . فقد انتهى هذا الغليان إلى غايته ، وبلغ مداه ، فبدأت العاصفة ، وسكن البركان !

فلقد حرس الله الدعوة السماوية أن تحترق بلهب هذا البركان وتتحول إلى رماد ، كما عصم نبيه أن ينتقم لنفسه من قومه ، فيدفع هذه النار الممتدة إليه من ألسنتهم وأيديهم ، فتأخذهم ، وتدمدم عليهم . . بل صبر وصابر ، واحتمل من الشدائد ما احتمل ، حتى سكبت ثورة البركان وبرد حممه !

وقد صنع الله للدعوة الإسلامية من هذه المحنة ما صنع من خير . . فلو أن هذه الشرور البادية الصارخة التي ألقت بها قریش في وجه هذا الی السکریم جرت على طبيعتها وامتدت إلى غايتها لكان حرياً بها أن تفسد ما بين النبي وقومه ، كما أفسدت مثل هذه الشرور بين كثير من الأنبياء وأقوامهم ، ولـكان نصيب هذه الرسالة السريمة النبويـة وكانت خاتمة هؤلاء القوم الهلاك ، كما ضاعت كثير من رسالات الأنبياء ، وكما هلك كثير من أقوامهم ؛ لما كان منهم عن عناد وإعنات . ولـإنه لمعجزة أخرى من معجزات الدعوة الإسلامية ، وآية من آياتها أن تثمر هذا التمر الطيب السکریم على فوهة هذا البركان ، وأن تمتد جذورها ، وتسمق فروعها في هذه الأرض المتحجرة الصلدة ، التي كان من شأنها ألا تـمسك ماء ، ولا تـخرج نباتاً . . والله سبحانه وتعالى يقول وهو أعـدق القائلين : ألم تر أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز ، فنـخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم ، وأنفسهم أفلا يبصرون ، ؟ (١) .

مولد النبي :

نحدث كثير من كتاب السيرة النبوية وروايتها عن عجائب كثيرة ، ومشاهد مثيرة ، صحبت مولد النبي ، ليجعل منها هؤلاء الكتاب وأولئك الرواة شواهد على تأكيد نبوه النبي ، وليقيموا معها دلائل على أنه مؤيد بالمعجزات من قبل أن يأتيه الوحي !

ولقد وقع في تفكير هؤلاء الذين تصدوا لكتابة سيره الرسول ، أو تحملوا روايتها — وقع في تفكيرهم أن من كمال النبوة وشرفها ألا يكون النبي محكوماً بضرورات الحياة الإنسانية ، وألا يجري عليه ما يجري على الناس في شأن هذه

الضرورات ، ومخالطته لها . . وإلا فما الفرق - حسب تقديرهم - بين النبى وغير النبى ؟

ولو استطاع تفكير هؤلاء أن يجد مخرجا يخرج به النبى عن أن يولد لأبوين كما يولد الناس ، وأن يجوع كما يجوع الناس ، ويظمأ كما يظمأ الناس ، ويألم كما يألمون ، ويفرح ويحزن كما يفرحون ويحزنون - لو استطاع تفكيرهم أن يجد مخرجا يخرج به النبى من هذه الضرورات وما إليها ، لما وقف عند شيء منها ، ولما جعل للنبى حالا من أحوالها .

وإذ لم يكن من المستطاع إنكار هذا الواقع الذى قامت الحياة شاهدة عليه ، مسجلة أن النبى قد حملت به أمه جيناً . وولده طفلاً ، ثم كان له رضاعة وغطاء ، وكان له صبي ، وشباب ، واكتحال ، وكان له فى كل هذه الأدوار نوم وبقظة ، وطعام وشراب ، وغدو ورواح . . إلى أن بلغ السكتاب أجله ، وجاءه رسول السماء ينذره أنه نبى الله ورسوله - نقول إنه إذ لم يسكن من المستطاع إنكار هذا الواقع الذى عاش فيه النبى وشهدت به الحياة ، فقد كان من المستطاع أن يدخل الداخلون على هذا الواقع بما يسهفهم به رأى من إضافة وحذف ، ومن تعديل وتبديل بما يرضى نفوسهم ، ويسعد مشاعرهم . .

وقد كان للخيال هنا دوره فى تلوين هذه المشاهد بلمسات فيها الخلق والمهمارة أحياناً ، كما يظهر عليها الغباء والبلادة فى كثير من الأحيان .

ولا بأس أن نقف هنا وقفة مع هذه الروايات والأخبار التى تتحدث عن العجائب والمفارقات التى تناقلها الرواة والمؤرخون عن مولد النبى ، وما قام بين يدى المولد أو سبقه منها . . ثم نعرض هذه الأخبار على الوثائق التاريخية المحققة ، من جهة ، وعلى طبيعة النبوة ومناحي جلالها وكالها من جهة أخرى . . فما استقام من تلك الروايات وهذه الأخبار على هذا العرض رضينا به وقبلناه ، وما لم يستقم على هذا العرض أعرضنا عنه ورفضناه .

على أننا نستطيع أن نسبق هذا العرض كله ، وأن نصدر حكماً قاطعاً فى هذه الروايات المحملة بالغرائب والعجائب من سيرة النبى قبل البعثة ، فنقول :

إن هذه المرويات ماصح منها وما لم يصح ، وما وقع وما لم يقع —
ليس لها كبير شأن في مقام النبوة . ، في أى جانب منها .

وسواء أضيفت هذه المقولات جميعها إلى النبى ، أو ذهب جميعها من
سيرته ، فإن « مؤشر » ميزانه في مقام العظمة والسمو والجلال لا يتحرك يمينه
أو يسره . بل ربما لو رفعت هذه المعجبات من حياة النبى لكان ذلك أرفع
لمنزلته ، وأكرم لذاته . . عند من يبحثون عن مواقع العظمة في العطاء . .
أما مقام الرسول الكريم في ذاته فقد جل عن أن يتأثر بشيء من هذا ، فقد
رفعه ربه ، وأعلا مقامه بما لا يخطر على قلب بشر . . فما منزلة فوق هذه المنزلة
التي يخاطبه الحق جل وعلا بها ، فيقول له سبحانه : (ولسوف يعطيك ربك
فترضى) . . فهذا العطاء الموعد من رب العالمين يعلو النبى فوق كل مقام ،
ويرتفع فوق كل منزلة .

وها نحن أولاء نقف وقفتنا تلك التي أشرنا إليها من قبل ، مع ما يروى
من معجزات النبى الكريم ، ويضاف إليه .

الباب السابع

الرسول .. ومعجزات الرسالة

١ - أصحاب الفيل

قبل مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قاد « أبرهة » (١) إلى مكة جيشاً جراراً يريد أن يهدم الكعبة ، إذ كان قد بنى له « بيعة » في « نجران » ، وأراد أن يحول إليها الثمرة العظيمة التي كانت للكعبة ، وأن يحمل الناس على الحج إلى بيعته ، فلما لم ير لبيعته شيئاً ولا شأناً ، إلى جانب ما كان للبيت الحرام ، لم يجد طريقاً إلى بلوغ غايته إلا هدم الكعبة ، وإزالة معالمها من الوجود ، فإنه إذا خلا مكانها من الأرض لا يلبث الزمن أن يعمل عمله في إخلاء مكانها من القلوب . وإذا فرغت قلوب الناس من متعلق ديني يتعلقون به التمسوا غيره ، وصار من الميسور الدخول إلى قلوبهم الفارغة بأى شيء يملأ هذا الفراغ ، ولو كان حجراً !!

ولما بلغ جيش « أبرهة » منارف مكة ، فزع أهلها فزعاً شديداً لما بلغهم من أنباء « أبرهة » ، وهو في طريقه إليهم ، وما فعل بمن وقفوا في طريقه ، وما حل بهم وبديارهم . ثم لما شاهدوه عياناً من أبهة « أبرهة » وكثرة عدد جيشه وعدده ، واتخاذ « الفيل » ، مركباً ، الأمر الذي لم تعرفه العرب من قبل هذا

وكان جيش أبرهة قد ساق ما صادفه في طريقه من ماشية قریش ، دون أن يقف أحد في وجهه ... وكان فيما حوى الجيش مثناً بعيد لعبد المطلب بن هاشم الجد النبي .. ثم إن أبرهة بعث رسلاً يقدمون عليه بسيد مكة ، وصاحب

(١) كان أبرهة حاكماً على اليمن من قبل الجاشي ، وكان على دين المصرية الذي كان يدين به الجاشي .

كلتها . فاءوه بعبد المطلب . . وكان نفي ، رائع الطاعة ، مهيأ . . فلما رآه وأبرهه ،
أكبره ، ولكن أبي عليه كبرياؤه أن يجلسه على كرسيه كما أبت عليه عظمة
عبد المطلب أن يجلسه دونه ، فنزل عن عرشه ، وجلس على البساط ، وأجلس
عبد المطلب إلى جانبه ! وكان فيما قال لعبد المطلب : لانه لا شأن لي بكم إذا أنتم
خلعتم بدي وبين الكعبة حتى أهدمها ، فإن لم تفعلوا ، فما أنت ذا وما ترى . . !
فأجابه عبد المطلب : « دونك البيت ولكن رد علينا ما أخذت من
ماشيتنا » . ! .

وعجب وأبرهه ، لعبد المطلب . . يسأله في شأن الماشية ، ويدع البيت الذي
يقوم عليه ديه . ! . وحيل إليه أن عبد المطلب إنما يقتدى الماشية بالبيت ،
فاهتزت منزلته عنده ، وصنر في نظره ، ثم قال لعبد المطلب : قد كنت أعجبني
حين رأيته ، ثم زهدت فيك حين كنتي ! أتكلمني في مثني بعير أصبتها لك ،
وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه . . لا تكلمني فيه ؟ ! فقال له
عبد المطلب : أأفارب الإبل ، وأن للبيت رباً سيمنعه ! فقال أبرهه : ما كان
ليمتنع مني ! قال عبد المطلب : أنت وذاك ! !

ثم إن عبد المطلب عاد إلى مكة فأخبر قريشاً بما كان بينه وبين أبرهه ،
وأشار على الناس أن يخرجوا من مكة ، وأن يتحزروا في شعف الجبال
والشعاب ، تخوفاً عليهم من معرة الحبش . . ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب
الكعبة ، وقام منه نفر من قريش ، يدعون الله ويستنصرونه على أبرهه وجنده ،
وقال عبد المطلب وهو أخذ بحلقة باب الكعبة :

لاهم إن العبدية	نزع رحله فامنع حلالك (١)
لا يمنعن صليبيهم	ومحالمهم غدواً محالك (٢)
جروا جموع جمعهم	والفيل كي يسبوا عيالك
همدوا حماك بكيدهم	جهلا ، وما رقبوا جلالك

(١) لا هم : أي يا الله ، والحلال : القوم المجتمعون ، والمراد بهم هنا أهل البيت الحرام .
(٢) الحال : من الحول والقوة ، وغدواً : يريد به غداً ، أي ما بعد اليوم .

ثم أرسل عبد المطلب حلقة الباب ، وانطلق هو ومن معه من قرين إلى شعف الجبال ، فحجزوا فيها . ينتظرون ما أبرهة فاعل بمكة إذا دخلها .

فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة ، وهياً فيله ، وعباً جديده ، وأمر بالتحرك إلى مكة ، فخرن الميل ، وأرسل الله عليهم طيراً ترميهم بحجارة من سجيل ، لا تمس أحداً إلا هلك .. وأصيب أبرهة في جسده ، وخرجوا به معهم ، يسقط أئمة آتمة ، حتى قدموا به صغماً وهو مثل فرخ الطائر ، فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه (١) .

هذه قصة الفيل ، كما يرويها أصحاب السير على اختلاف في التفاصيل فيما بينهم ، وقد كانت أحداث هذه القصة مادة خصبة ، ومرعى ومرعى للعواطف والخيالات .. وكان الميل ، والطير ، والحجارة ، ركازة قوية لمن أراد أن يسبح بخياله ، أو يروى ظمأ عاطفته .

فالنيل يحزن لأنه قد أسر إليه بعض العرب (٢) بكلمة حذره فيها من أن يشارك في هذا العمل الآثم ، ويزحف مع الزاحمين إلى هدم البيت ، فيعقل الميل هذا القول الذي أسرله به ، وتعجز كل المحارلات والحيل عن أن تخطو به خطوة تجاه البيت الحرام !

والطير نتخذ في قصص القصص صوراً شتى .. فتارة تكون طيراً بحرية مثل الخطاطيف والبلسان ، وتارة تكون طيراً برية مثل النسور والعقبان ، وتارات أخرى هي ذباب أو بعوض ..

وكذلك الحجارة ، تختلف أحجامها ، وصناعاتها ، وأفعالها .. فمن البدس أو الحص ، أو هي خمار أو بئنة وجراثيم أمراض .. ومن يدرى ؟ فقد يحس بعض مفسري القرآن في هذا العصر فيجعلها من بنات « الذرة » ومركباتها ! !

(١) انظر سيرة ابن هشام : الجزء الأول ص ٤٨ وما بعدها .

(٢) يقال إن أقبيل بن حبيب هو الذي أسر إلى الفيل بالأقرب البيت الحرام .
وتفيل هذا هو الذي جعله أبرهة دليلاً في الطريق إلى مكة على كره منه .

أما أصل القصة فثابت ثبوتاً لا شك فيه بشهادة القرآن الكريم ، حيث أوردها القرآن في سورة خاصة هي سورة الفيل ، فقال تعالى : « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ؟ ألم يجعل كيدهم في تضليل ؟ وأرسل عليهم طيراً أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف ما كول » (١) .

وأنت ترى أن القرآن قد أجمل القصة إجمالاً ، يبدو منه في وضوح المعنى الذي ضمت عليه القصة ، وهو أن الله قد امتن على أهل مكة ، وأكرمهم بكرامة البيت الحرام ، وحفظه من أن تمتد إليه يد معتدلة

ولم يلتفت القرآن إلى الفيل ، ولا إلى صاحبه ، ولا إلى الطير وما تحمل من مهلكات . . ولما الذي أبرزه القرآن هو تلك القوة القوية الضاربة التي جاءت إلى البيت الحرام في صورة مفزعة يريد أن تأتي عليه ، فردها الله بقوة قهرتها ، ودمدمت عليها . . !

ولعلك تقف من هذا المشهد الحربي موقف المعجب والمدعش حين ترى فيلة ضخماً لا تعتمد السيوف في جلودها ، ولا تعمل الحراب في أجسامها . . هذه الفيلة تلقاها طيور صغيرة أنبته بالعصافير فتصرعها ، وتصرع من عليها من أبطال ! .

كل هذا قد جمعه خمس آيات من القرآن الكريم . . هن آيات السورة الكريمة «سورة الفيل» .

ولعلك تسأل : ما شأن قصة الفيل في المعجزات التي تضاف إلى الرسول ؟ والجواب على هذا أن الله سبحانه وتعالى قد دفع عن البيت الحرام هذا السوء الذي كان يراد به ، ليظل هذا البيت قائماً يستقبل نبي الإسلام ، وليكون قبلة صلاة المسلمين ، ومنسكاً يؤدي عنده ركن من أركان الإسلام الخمسة ، وهو «الحج» ! .

فالمعركة إذ لم تكن لحساب قريش . ولا كان هذا الطير المحمل بالصواعق

تُجَدُّ من السماء لها ، وإنما كان ذلك لحساب الدين الجديد الذى تنفس صبحه بمولد النبي هذا الامام ، « عام الفيل » ، وما كان هذا الطير إلا طلائع لقوى السماء التى ستمد — فيما بعد — وصحبه فى هذا الصراع الذى سيقع وتمتد أيامه ، وتسمع مبادئه ، بين المسلمين وأعداء الإسلام .

إن هذا المدد السماوى من الطير الأبايل هو نجدة سماوية بلا شك ، وفيها دلالة واضحة على أنها تقايل فى جانب الحق ، وتذصر له . .
وطبيعى أن جانب الحق كان مع البيت الحرام الذى تهباً لاستقبال الإسلام ، وهو دين الله . الذى أراد أن يظهره على الدين كله . .

فهذه المعركة هى انتمصار للإسلام ، وإعداد له ، وليست انتصاراً لقريش ، ولا إمداداً من السماء لها . . إذ لو كان الأمر بين قريش وأبرهة . وكانت هناك أمداد من السماء لأحد الفريقين لكان ذلك لأبرهة ، لأنه يدين بدين سماوى هو « النصرانية » على حين كانت قريش على دين أو أديان فاسدة (١) .

ونخلص من هذا إلى أن « حادثة الفيل » وقد وقعت فى السنة التى ولد فيها النبي صلى الله عليه وسلم — قد كانت من غير شك آية من الآيات القائمة بين يدي النبوة ، وبشيراً من السماء يضع أول راية من رايات النصر للإسلام فى مركز الدعوة الإسلامية وفى مطلع الألف الذى بزغ منه نبى الإسلام .

ولهذا كان الخطاب فى سورة العنكبوت موجهاً إلى النبي فى مقام التذكير بنعمة الله عليه ، ورعايته للإسلام ، قبل أن يحمل الرسول عبء الدعوة ، ويتولى الدفاع عنها . . « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب العنكبوت ؟ » . .

ففى هذا الخطاب امتنان على الرسول بهذا الفضل الذى أسبغته الله على نبيه من قبل أن يكون له مع السماء شأن ، ومن قبل أن يحمل رسالة الله إلى الناس ، وفيه أيضاً مدد عظيم من الطمأنينة التى يجدها الرسول من ريح هذا الفصل السماوى الذى لا بد أن يمتد ويتصل ، ويصحب الرسول فى كل أدوار حياته ،

(١) انظر تفسير اس كثير الجزء الرابع « سورة الفيل » .

وهذا مما يند عزم الرسول ، وثبتت أقدامه في مواقب الضيق والعنت الذى كان يلقيه من قرىس حين يلتفت إلى الورا فبرى كيف كانت عناية الله وحمايته لبيته . . فكيف تكون إذن عنايته ورعايته لصاحب رسالته ؟

أما قرىس فقد كان من فضل الله عليها ببركة النبي ، وبجرمة البيت الحرام هذا الإيلاف الذى ألموه في رحلتى الشتاء والصيف . . إلى الشام ، صيفا ، وإلى اليمن شتاء ، يتجرون ، ويتبادلون المنافع بينهم وبين هذين الإقليمين ، آمدين مطمئنين في خفارة البيت الحرام ، لأنهم سدته والقائمون على شعثه ؛ وفي هذا يقول الله تعالى : « لإيلاف قرىس إيلافهم رحلة الشتاء والصيف ، فليعبدوا رب هذا البيت ، الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » .

ونخلص من هذا كله أيضا إلى القول بأن حادثة الفيل كانت إرهاصاً لبعثه النبي ، ولإذنا بأول عدام بين دعوة الإسلام والمترجمين بها ، والنعالين عنها . . يقول ابن قيم الجوزية : « وكان أمر الفيل مقدمة قدمها الله لنبيه وبيته ، وإلا فأصحاب الفيل كانوا فصارى أهل كتاب ، وكان دينهم خيراً من دين أهل مكة إذ ذاك . لأنهم كانوا عباد أوثان » (١) .

٢ — فداء الذبيح

تحدث كتب التاريخ عن واقعة لعبد المطلب جد النبي غير واقعة الفيل التي أشرنا إليها منذ قليل . . تلك هي خلاص ابنه عبد الله ، والد النبي من الذبح ، ليقيم قربانا في نذر نذره أبوه عبد المطلب . .

وللقصة حديث طويل يبدأ بحفر زمزم على يد عبد المطلب ، أمثالاً لما تفهتف به في منامه ثلاث ليال متواليه

وقد وقعت قرىس من عبد المطلب موقفاً معشعناً عندهما هم بحفر البئر وبهذه يحفره . وفي هذا الموقف شهر عبد المطلب بحاجته إلى الرجال من الأولاد

(١) زاد المعاد جزء أول ص ٣٢ ،

والأحفاد ، فنذر لئن أكل الله له عشرة ذكور حتى يراهم ليدينهم أحدهم .
فلما تكاملوا عشرة جمعهم ثم أخبرهم بنذره ، ودعاهم إلى الوفاء لله به .
فامتلأوا أمراً ، وتركوا إليه أن يختار من يشاء منهم ، فضرب القداح بينهم فوقع
الامر على عبد الله ، وكان - فيما يروى - أحب أولاد عبد المطلب إليه !
ولم يجد عبد المطلب بداً من أن يقود ابنه الحبيب إلى المذبح . . فلما هم
بذبحه قامت إليه قریش من أنديتها ، وقالوا : والله لا ندبجه أبداً حتى تعذر
فيه . . لئن فعلت هذا ، لا يزال الرجل يأتي بابنه حتى يذبحه ، فما بقى الناس
على هذا ؟

وتحرك أحداث القصة في اتجاهات كثيرة ، وعبد المطلب يدور معها في كل
اتجاه ، وينتهي المطاف بأن يفدى عبد المطلب ابنه بمئة من الإبل . . تبدأ بعشرة ،
ثم عشرين . ثم ثلاثين إلى مئة . . لأنه كان في كل مرة يضرب القداح بين عبد الله
وبن الإبل يخرج سهمه . فيزداد عدد الإبل عشرة ، وهكذا . حتى كانت المئة ،
نفرح السهم على الإبل . . وعد هذا العدد مقولاً عند الله ، وفيه رضى له عن
عبد الله . !

هذا هو ملخص القصة . . وقد رواها كثير من المؤرخين الثقة ! وعلى رأسهم
شيخهم « ابن إسحق » الذي قرن روايته لها بقوله : « فيما يزعمون ، والله أعلم » ،
فلم ينفها ، ولم يحققها ، بل جعلها مما يزعم أصحاب الأخبار ونقلتها .
وعن « ابن إسحق » أخذ « ابن هشام » في تاريخه « السيرة » (١) ؛ وكذلك
أثبتها « ابن سعد » في تاريخه : « الطبقات الكبرى » (٢) . .

ولم يرد في القرآن الكريم ما يشير إلى هذه الواقعة فيما امتن الله به على
نبيه . . ولم يكن قد ورد في الحديث عنه صلى الله عليه وسلم قوله : « أنا
ابن الذبيحين » . .

- (١) انظر الجزء الأول ص ١٤١ وما بعدها من كتاب السيرة لابن هشام ،
- (٢) انظر الجزء الأول القسم الأول ص ٥٣ من الطبقات لابن سعد .

والحديث ضعيف ، لم يوثقه رواة الحديث .

ويستند رواة الأخبار على هذا الحديث في واقعة عبد المطلب هذه مع ابنه عبد الله ، كما يستندون إليها من جهة أخرى على أن « إسماعيل — الجدة الأعلى للنبي — هو الذبيح لا أخوه « إسحق » !

وقد نازع كثير من العلماء في أن يكون « إسماعيل ، هو الذبيح الذي أراد أبوه « إبراهيم » أن يذبحه امتثالاً لأمر الله فيما أوحى إليه في منامه .

وقد ذكر القرآن هذه الرؤيا في قوله تعالى : « فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك ، فانظر ماذا ترى ؟ قال يا أبت أفعل ما تؤمر ، ستجدني إن شاء الله من الصابرين . فلما أسلما ؛ وتله للجبين ، ونادىناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا ، إنا كذلك نجزي المحسنين ، إن هذا هو البلاء المبين ؛ وفديناه بذبح عظيم (١) » .

نقول إن كثيراً من العلماء وخاصة المتعصبين على الإسلام من علماء أوروبا نازعوا في أن يكون إسماعيل هو الذبيح المفدى من السماء ، وإنما المفدى هو « إسحق » .

ومن عجب أن نجد رجلاً « كالجاحظ » يذهب إلى هذا الرأي ويقول به (٢) وهذا ما يدل على شدة تأثير الجاحظ بالثقافات الأجنبية من يونانية وفارسية ، كما يدل على كثرة مخالطة العلماء غير الإسلاميين من زعماري ويهودا

والحق أن إسماعيل عليه السلام هو الذبيح ، وليس أخاه إسحق كما يظن خطأ بعض ممثلة المسلمين ، وكما يقول زورا وبهتان المنحرفون من غير المسلمين .

ولا تجد حجة أبلغ ولا أقوى من تلك الحجج القاطعة التي قدمها الإمام « ابن تيمية » في تحقيق القول بأن إسماعيل . . هو الذبيح المفدى من السماء بذبح عظيم !

(١) سورة الصافات آية ١٠٢ ص ١٠٧

(٢) انظر البيان والتبيين للجاحظ ؛ جزء أول ص ٢٤٨ (طبعة السبوي)

ولا يستمد ابن تيمية حجه من نصوص الكتاب الكريم وحده، إذ الذين لا يدينون بالإسلام لا يأخذون أنفسهم بنصوص كتابه . . ولهذا يعمد ابن تيمية إلى الواقع التاريخي لإبراهيم عليه السلام وذريته، وللظروف التي عاش فيها هو مع زوجته — سارة وماجر — . ويقم على ذلك شواهد من التوراة نفسها . . يقول ابن تيمية رحمه الله ،

« هذا القول — أى القول بأن إسحق هو الذبيح — متلقى من أهل الكتاب مع أنه باطل بنص كتابهم ، فإن فيه : « إن الله أمر إبراهيم أن يذبح ابنه ، بكره ، . . ولا ينك أهل الكتاب مع المسلمين أن « إسماعيل ، هو بكر أولاده !

« والذى غر أصحاب هذا القول — أى القول بإسحق — : أن في التوراة التي بأيديهم : « ادع ابنك إسحق » . . وهذه زيادة من تحريفهم وكذبهم ، لأنها تناقض قوله : « ادع بكرك ووحيدك ،

« ولكن اليهود حسدت بنى إسماعيل على هذا الشرف ، وأحبوا أن يكون لهم ، وأن يسوقوه إليهم ، ويختاروه لأنفسهم دون العرب ، وأبى الله إلا أن يجعل هذا لأهله .

وكيف يسوغ أن يقال : إن الذبيح إسحق ، والله تعالى قم بشر أم إسحق به ، وبأنه يعقوب ؟ فقال تعالى عن الملائكة : « لمنهم قالوا لإبراهيم لما أتوه بالبشرى : « لا تخف ، إنما أرسلنا إلى قوم لوط ، وأمر أنه قائم ففضحكت ، فبشرناها بإسحق ، ومن وراء إسحق يعقوب ، (١) فحال أن يبشرها بأنه يكون لها ولد ثم يأمر بذبحه !

ولا ريب أن يعقوب عليه السلام داخل في البشارة ، فتناول البشارة إسحق ويعقوب في لفظ واحد ، وهذا ظاهر الكلام وسيافه . .

ويقال أيضاً : « إن الله سبحانه لما ذكر قصة إبراهيم وأبنه الذبيح في سورة الصافات قال . « فلما أتتهما وتلما لأبوين ، وفاديقاه أن يا إبراهيم فك فعله قس

الرؤيا ، إنا كذلك نجزي المحسنين ، إن هذا هو البلاء المبين ، وفديناه بذبح عظيم ، وتركنا عليه في الآخرين ، سلام على إبراهيم ، إنا كذلك نجزي المحسنين ، لأنه من عبادنا المؤمنين^(١) . ثم قال تعالى : « وبشرناه بإسحق نبيا من الصالحين^(٢) » . . فهذه بشارة من الله تعالى له ، شكراً على صبره على ما أمر به ، وهذا ظاهر جداً في أن المبشر به غير الأول . بل هو كالنص فيه .

« فإن قيل : فالبشارة الثانية وقعت على نبوته ، لما صبر الأب على ما أمر به وأسلم الولد لأمر الله ؛ جازاه الله على ذلك بأن أعطاه النبوة !

قيل : البشارة وقعت على المجموع : على ذاته ، ووجوده ، وأن يكون نبيا ، ولهذا نصب « نبيا » على الحال المقدر ، أي مقدرأ نبوته ، فلا يمكن إخراج البشارة أن تقع على الأصل ، ثم تخص بالحال الجارية مجرى الفضيلة . هذا محال من الكلام ، بل إذا وقعت البشارة على نبوته فوقوعها على وجوده أولى وأحرى

« وأيضاً : فلا ريب أن الذبيح كان بمكة ، ولذلك جعلت القرابين يوم النحر بها ، كما جعل السعي بين الصفا والمروة ورمى الجمار تذكيراً لشأن إسماعيل وأمه ، وإقامة لذكر الله . . ومعلوم أن إسماعيل وأمه هما اللذان كانا بمكة ، دون إسحق وأمه ، ولهذا اتصل مكان الذبيح وزمانه بالبيت الحرام الذي اشترك في بنائه إبراهيم وإسماعيل ، وكان النحر بمكة من تمام حج البيت الذي كان على يد إبراهيم وابنه إسماعيل زماناً ومكاناً ، ولو كان الذبيح بالشام كما يزعم أهل الكتاب ومن تلقى عنهم لسكانت القرابين والنحر بالشام ، لا بمكة .

أيضاً : فإن الله سبحانه وتعالى سمي الذبيح « حليماً » لأنه لا أحلم من أسلم نفسه للذبح طاعة لربه ، ولما ذكر إسحق سماً « علياً » فقال تعالى :

(١) سورة الصافات : ١٠٣ - ١١١

(٢) سورة الصافات : ١١٢

« وبشروه بفلام عليهما (١) » وهذا إسحق بلا ريب ، لأنه من امرأة إبراهيم ، وهي المباشرة به ، وأما اسماعيل فمن السرية !

« وأيضا : فإنهما — إبراهيم وامرأته — بشرا به — بإسحق — على الكبر والياس من الولد ، وهذا بخلاف إسماعيل ، فإنه ولد قبل ذلك .

« وأيضا : فإن الله سبحانه أجرى العادة البشرية أن يكون بكر الأولاد أحب إلى الوالدين ممن بعده ، وإبراهيم عليه السلام لما سأل ربه الولد ، ووهبه له تحلقت شعبة من قلبه بمحبته ، والله تعالى قد اتخذ خليليا ، والحلة مصعب يقتضى توحيد المحبوب بالمحبة . وألا يشارك بينه وبين غيره فيها . فلما أخذ الولد شعبة من قلب الوالد جاءت غيرة الحلة تنزعها من قلب الخليل ، فأمره بذبح المحبوب ، فلما أقدم على ذبحه — وكانت محبة الله أعظم عنده من محبة الولد — خلعت الحلة حينئذ من شوائب المناركة ، فلم يبق في الذبح مصلحة ، إذ كانت المصلحة إنما هي في العزم وتوطين النفس عليه .

ومعلوم أن هذا الامتحان والاختبار إنما يكون قد حصل عند أول مولود ولم يكن ليحصل في المولود الآخر دون الأول ، بل لم يحصل عند المولود الآخر من مزاحمة الحلة ما يقتضى الأمر بذبحه . وهذا في غاية الظهور

« وأيضا . فإن « سارة » امرأة الخليل صلى الله عليه وسلم غارت من « هاجر » وابنها أشد الغيرة ، فإنها — أى هاجر — كانت جارية عندما ولدت لإسماعيل ، وأحبه أبوه . واشتدت غيرة سارة ، فأمره الله سبحانه أن يبعد عنها هاجر وابنها ، ويسكنها في أرض ممسكة لتبرد عن « سارة » حرارة الغيرة ، وهذا من رحمته تعالى ورأفته — فكيف يأمره سبحانه بعد هذا أن يذبح ابنها ويدع ابن الجارية بحاله ! هذا مع رحمة الله لها ، وإبعاد الضر عنها ، وجبره لها ! فكيف يأمر بعد هذا بذبح ابنها دون ابن الجارية ، بل حكمته البالغة اقتضت أن يأمر بذبح ولد السرية ، لحيث يرق قلب الديدة عليها وعلى ولدها !

وتبديل قسوة الغيرة رحمة ! ويظهر لها بركة الجارية وولدها ، وأن الله لا يصيح
بيتا هذه وابنها منهم ، ويرى عباده جبره بعد الكسر ، ولطفه بعد الشدة . وأن
عاقبة صبر هاجر وابنها على البعد ، والوحدة والنزلة ، والتسليم إلى ذبح الرلد -
آلت إلى ما آلت إليه من جعل آثارها ومواطن أقدامها مناسك لعبادة
المؤمنين ، ومتعبدات لهم إلى يوم القيامة (١) .

وليس وراء هذا البيان شيء يقال في الكنف عن حقيقة الذبيح من ولدى
إبراهيم ، وأن إسماعيل هو الذبيح المفدى من السماء لإسحق !
فالآب الأعلى للنبي صلى الله عليه وسلم ذبيح من غير شك !
فهل والده الأدنى عبد الله ، ذبيح أيضا ؟

لا نستطيع أن نجيء على هذه الواقعة بشاهد من الواقع الحى كهذا الشاهد
الذى يشهد لواقعة إسماعيل . . فقد شهد لهذه الواقعة الكتب السماوية ، وإن
اختلف المؤمنون بهذه الكتب في تفسير محامل الألفاظ ومفاهيمها ، فاحتمل تبعا
لذلك القول بأن الذبيح هو إسماعيل أو إسحق . . ولكن القرآن يكاد يقول
صرامة بأنه ، إسماعيل ، كما أن الأضاحى التى يقدمها المسلمون في عيد الأضحية
هى شاهد متعمد على متابعة المسلمين أباهم إبراهيم في هذا الفداء الذى جعله الإسلام
مذسكا من مناسكه ، وقربة من قرباته .

هذا عن إسماعيل ، الآب الأعلى للنبي !

أما عن عبد الله ، آخر آبائه ؛ فإن الأمر في حقيقة ، الذبيح ، بالنسبة له
مختلف عنه في ، إسماعيل . . وذلك من وجوه :

منها أن أخبار ، عبد الله ، وعرضه على الذبح ليست إلا روايات نقلها
المؤرخون للسيرة نقلا لا بسنده رواة ثقة ، وإنما الذى نقله ابن إسحق عن هذه

(١) زاد المعاد الجزء الأول ص ٢٧ وما بعدها . . وقد نصنا هذا لرى إلى ابن تيمية
لأن تلميذه ابن القيم يقول هذا عن شيخه ، وواضح ان الشيخ والتلميذ قد اشتركا معاً في تحقيق
هذا الموضوع . . الشيخ بسكرته والتلميذ بقلبه وأسلوه .

الواقعة كان أشبه بتسجيل لشائعة تدور في الناس ، فصدر روايته تلك بما يفيد
النك ، فقال عند تسجيل هذه الحادثة : « فيما يزعمون » ! ! لجهلها مزعماً من المزاعم ،
« والزعم مطية الكذب ، كما يقولون !

فلا تقف هذه الواقعة لزاء واقعة « إسماعيل » التي ذكرت في السكتب المقدسة ،
واتخذت صورة عملية في حياة المسلمين منذ قام الإسلام !

وهنا أيضاً : أن واقعة ، إسماعيل ، لها دلالتها على تكريم إسماعيل وافتدائه
من السماء . . وأن هذه الواقعة جرت في طريق الطاعة لله ، والامتثال لأمره ،
من كل من الأب والابن — إبراهيم وإسماعيل — وأن الجزاء المعجل لهذه الطاعة
وذلك الامتثال كان في هذا الفداء السماوي الذي كشف به الله الضر عن الولد
والوالد معاً . . أما واقعة « عبد الله » — إن صححت — فإنها لم تجر في طريق ينبيء
عن أنها كانت امتحاناً من الله ، وبلاء لعبده من عباده . . فإن ما حدث لعبده المطلب —
على حسب ماجاء في الرواية — لم يكن إلا ثمناً لما أخذ . . فإنه قد تمنى على الله
عشرة أولاد ، وأنه إذا صحت أمهنته ، وتحققت ، قدم أحد أبنائه العشرة قرباناً لله !

فإذا كان في اعتبار أحد هؤلاء الدشرة ايسكون القربان المطلوب — إذا كان
في هذا الاختيار دليل على فضل الولد المختار ، واعتباره الطيب المؤهل ليعكون
قرباناً لله — فإن هذا الاختيار لم يكن بوحى سماوي ، ولا برؤيا صادقة وإنما
جاء عن عملية أشبه بعملية القمار ، وعلى يد كاهن اقترح بقداحة بين الأبناء العشرة
فوقع الاختيار على « عبد الله » ، وكذلك كان الشأن في عملية الفداء . . لم يكن
الفداء سماوياً ، ولا عن وحى من السماء ، ولا عن رؤيا صادقة ، وإنما كان عملية
ضرب بالقداح ، ولعب بها كما يلعب بالقمار !

وعلى هذا فإننا نستطيع أن نقول إن قصة « عبد الله » ، الذبيح — إن تكن
صحيحة — فإنها لا تدل على شيء تدخل به في باب المعجزات التي وقعت تكريماً
للنبي ، وإعلاناً بمطاع صبحه المشرق ! . . وأنها — إن صححت — فلا تتجاوز
أن تكون صدفة من الصدف التي تدفع عن الإنسان يد المغية وقد علمت به ، وكادت
تذنب أظفارها فيه .

والذى أراه فى هذه القصة أنها من الإصافات الكثيرة التى وضعها القصاصون فى السيرة النبوية ، اعتقاداً منهم أن ذلك مما يرفع فى قدر النبي ونبوته ، كما أشرنا إلى ذلك من قبل ، وكما سنسير إلى ذلك فيما بعد . .

٣ — ماذا فى جبين عبد الله ؟

ويتحدث الرواة والمؤرخون أيضاً عن فلقة من النور كانت تتألق فى جبين « عبد الله » ، والد النبي !

ولا يتحدث الرواة والمؤرخون عن القطعة النورانية المتلازمة فى جبين عبد الله — لا يتحدثون عنها حديثاً يكشف عن مشاهدات الناس لها ، ولا عن التفاتهم إليها ، واهتمامهم بها . كما لا يكشفون فى حديثهم هذا عن الزمن الذى صحبت فيه هذه الشامة النورانية صاحبها عبد الله . . أمى معه منذ مولده ؟ أم عند بلوغه مبلغ الرجال ؟ أم أنها ظهرت فى يوم ما ثم غربت كما تغرب الشمس ليومها ؟

والذى يفهم من مساق الرواية أن هذا « النور » كان كامناً فى كيان عبد الله ، ثم تحرك فظهر على جبينه ، والذى يفهم أيضاً أن هذا النور لم يكن ملحوظاً إلا عند تلك المرأة « الحشمية » ، التى دعت عبد الله إلى نفسها فأبى عليها ذلك . . وفورد هنا ما روى المؤرخون عن هذه الواقعة :

« فقد روى محمد بن سعد فى طبقاته . . قال : إن عبد الله بن عبد المطلب تزوج آمنة وهو ابن ثلاثين سنة ، وقيل بل كان يومئذ ابن خمس وعشرين سنة (١) .

« وعن محمد بن السائب الكلبي عن أبيه عن أبي النضال الحنعمي قال : لما تزوج عبد الله آمنة أقام عندها ثلاثة ، وكانت تلك السنة عندهم (٢) .

(١) الطبقات : جزء ١ ص ٥٨ .

(٢) نهاية الأرب جزء ١٦ ص ٥٧ .

وروى ابن هشام عن ابن إسحق قال : « ثم انصرف عبد المطلب آخذاً بيد ابنه عبد الله - بعد أن نجا من الذبح بما افتداه به من إبل - فمر - فيما يزعمون - على امرأة من بني أسد بن عبد العزى - وهى أخت ورقة بن نوفل - وهى عند الكعبة ، فقالت له حين نظرت إلى وجهه . أين تذهب يا عبد الله ؟ قال : مع أبى ؟ قالت : لك مثل الإبل التى نحررت عنك ؛ وقع على الآن !! قال : أنا مع أبى ، ولا أستطيع خلافه ، ولا فراقه !! »

« فخرج به عبد المطلب حتى أتى به وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب ابن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر ، وهو يومئذ سيد بني زهرة نسباً وشرفاً ، فزوجه أمنة بنت وهب ، وهى يومئذ أفضل امرأة فى قريش ، نسباً ، وموضعاً .. فزعموا أنه دخل عليها - حين أملكها (١) - مكانه ، فوقع عليها ، فحملت برسول الله صلى الله عليه وسلم . . ثم خرج من عندها فأتى المرأة التى عرضت عليه ما عرضت فقال لها : مالك لا تعرضين على اليوم ما كنت عرضت على بالأمس ؟ قالت له : فارقك النور الذى كان معك بالأمس ، فليس لى بك اليوم حاجة ! »

ويروى ابن إسحق لهذه الواقعة رواية أخرى ينقلها عنه ابن هشام أيضاً . . . هكذا :

« قال ابن إسحق : وحدثنى أبى - إسحق بن يسار - أنه حدث أن عبد الله لما دخل على امرأة كانت له مع أمنة بنت وهب ، وقد عمل فى طين له ، وبه آثار من الطين ، فدعاها إلى نفسه فأبطأت عليه لما رأت ما به من أثر الطين ! ، فخرج من عندها ، فتوضأ (١١ ؟) وغسل ما كان به من ذلك الطين ، ثم خرج حامداً إلى أمنة فزورها - أى بتلك المرأة - فدعته إلى نفسها فأبى عليها !! وعمد إلى أمنة فأصابها ، فحملت بمحمد صلى الله عليه وسلم ، ثم مر بامرأته تلك ، فقال

(١) أملكها - أى تزوجها - وملك أمرها .

لها هل لك؟ قالت: مررت بنى وبين عيذك غرة بيضاء: فمدعوتك فأبيت على ودخلت على آمنة فذهبت بها ١١

قال ابن إسحق: فزعموا أن امرأته تلك كانت تحدث أنه مر بها وبين عينيها غرة مثل غرة الفرس ١٠ (١) .

« وقتل ابن سعد في طبقاته عن الواقدي: أن هذه المرأة هي قتيلة بنت نوفل أخت ورقة بن نوفل . .

« قال الواقدي: كانت — أى هذه المرأة — تنظر وتهتاف (٢) ، فر بها عبد الله ، فدعته يستبضع منها أى يقع عليها ، ولزمت طرف ثوبه ، فأبى عليها وقال: حتى آتيك ، وخرج مسرعاً حتى دخل على آمنة ، فوقع عليها فحملت برسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) .

وقيل إن المرأة التي مر بها عبد الله هي امرأة من « خثعم » يقال لها فاطمة بنت مر وكانت من أجمل النساء ، وكانت متهودة من أهل تبالة قد قرأت الكتب (٤) .

وواضح من كل هذه الروايات ذلك التناقض والتهافت الذى يذهب بكل قيمة تاريخية لها . فقد اختلف الرواة فى المرأة التى دعت عبد الله إلى نفسها ، فهي تارة أخت ورقة بن نوفل ، وهي تارة أخرى امرأة من خثعم تدين باليهودية ، وتنظر فى كتب الأديان ! أو هي امرأة أخرى له إلى جانب امرأته « آمنة » !

وينظر شيخ المؤرخين « ابن إسحق » إلى هذه الواقعة نظرة باردة فآثره فيليبسها لباس « الزعم » ويلقى عليها ظلالاً من الشك فى كل طرف من أطرافها . . بما يقدم بين يدي كل خبر من أخباره عنها بقوله . زعموا ، وقالوا ، ويقال ١١ .

(١) السيرة لابن هشام : جزء أول ص ٤٧١ .

(٢) أى أنها كانت صاحبة نظر وفراصة ، ولها خبرة فى عيافة الطير وزجرها .

(٣) الطبقات لابن سعد جزء ١ ص ٥٩ «قسم أول» .

(٤) نهاية الأرب جزء ١٦ ص ٦٠ .

ثم إن التلفيق والصنعة يبدوان للعيان في أى رواية من هذه الروايات . .
وحسبنا أن نشير إلى ما جاء في بعض هذه الروايات من أن « عبد الله » ذهب
ليتوضأ ويزيل الطين الذى علق به ! فهل كان عبد الله مسلماً قبل أن يظهر نبى
الإسلام ؟ وقبل أن تظهر كلمة « الوضوء » في لسان العرب بهذا المعنى ؟ ثم من
أين تستدل المرأة أو المراتان من هذا الدور الذى يقال إنه كان على جبين عبد الله
— على أنه نور النبوة ، وأن من تتصل بعبد الله ، وتحمل منه سيتصل بها هذا
النور ، وستلد النبي المنتظر ؟

الواقعة من عومة بلا شك ، وهى من وضع القصاصين الذين كانوا يتخذون
من المساجد ندوات يجتمع إليهم فيها الناس ، ليدسمعوا منهم ما عندهم من أحداث
الإسلام الأولى ما يغذى مشاعرهم ، من هذا الزاد الطيب الذى لم يكن لهم حظ
شهوده ، والمشاركة فيه . فاستجاب القصاص لهذا الظماً الجديد ، فقدموا للظالمين
ما عندهم من ماء أو سراب !

ولم يكتف القصاص بالوقوف عند هذا الحد في شأن هذه الحادثة ، فنقلوها
إلى ميدان الزعر ، وأداروها على ألسنة الشعراء .. فقالوا : إن عبد الله حين
عرض عليه المرأة ما عرضت ، فأبى عليها ، وقال — فيما قال لها — شعراً جرى
على لسانه ، فإذا هو :

أما الحرام فالملات دونه والحل ، لا حل فأستبينه
فكيف بالأمر الذى تنوينه ؟

وكان لابد أن تقول المرأة شعراً ، أو يقال فيها شعر حتى تتم حبكة القصة !
وقد كان ، فزعم الرواة أن شباب قرى حينا بلغهم ما كان من أمر المرأة
وعرضها نفسها على عبد الله ، وتأبىه عليها — شنعوا عليها ، وأكثروا المقالة فيها
فقال تدفع عن نفسها ، وكان موقفها حبيبا تخيله الرواة أشبه بامرأة العزيز مع
الذئبة اللاتي جررن ألسنتهن بالحديث فيما كان بينها وبين فتاها « يوسف » عليه

السلام . فقالت هذه المرأة تسمع فتیان قرین ، وتدفع عن نفسها اللائمة
فما كانت تطالب من عبد الله . . .

لاني رأيت مخيلة عرضت فتلات بحنانم البئر^(١)
فلما أتتها نوراً يضيء له ماحوله كإضاءة الفجر^(٢)
ورأيت به شرفاً أبوء به ما كل قاذح زنده يورى
لله ما زهرية سلبت منك الذى سلبت وما تدرى^(٣)

ثم لا تمسك عند عدا القدر من الشعر ، بل ترسل أشعاراً أخرى ممزج فيها
بين الحكمة وضرب المثل^(٤) .

ولا حاجة بنا إلى القول بأن هذا الشعر مولد ، من صنع القصاص ، أو من
وحي قاصصهم ، فذلك من الموضوع بحيث لا يحتاج إلى من يشير إليه .

٤ — حلم آمنة

ويذكر الرواة عن آمنة ، أنها حين حملت بالنبى صلى الله عليه وسلم رأت
أحلاماً ورؤى عجيبة . كانت تحدث بها من معها في تخافت وحذر !

فمن ذلك ما يرويه ابن سعد في طبقاته رواية عن محمد بن عمرو بن واقد
الأسدي ، قال — أى ابن واقد — حدثني علي بن زيد بن عبد الله بن وهب
ابن زمة عن أبيه عن عمته قالت : كنا نسمع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم
لما حملت به آمنة بنت وهب كانت تقول : « ما شعرت أنى حملت به ، ولا وجدت
له ثقله كما يجحد النساء ، إلا أنى أنكرت رفع حياضتى ، وربما كانت ترفعنى
وتعود ، وأنا نائى وآت وأنا بين النائمة واليقظى ، فقال : هل شعرت أنك حملت ؟

(١) المخيلة بضم الميم السجاية التى يخال أنها ممطرة ، وعرضت لأحت وظهرت . والحنايم
جمع عظم ، والحنايم تمر مشددة أشبه بالحمص يصنع به الشعر ، والقطر : المطر .
(٢) لما أتتها : أبصرها .

(٣) زهرية : تقصد بها آمنة بنت وهب أم النبى ، لأنها من بنى زهرة .

(٤) انظر نهاية الأرب جزء ١٩ ص ٩١

فكأنى أقول ما أدرى ، فقال : إنك حملت بسيد هذه الأمة ونبيها ، وذلك يوم الاثنين (١١) قالت : فكان ذلك مما يقن عندي الحمل . ثم أمهلى — أى هذا الآتى — حتى إذا دنت ولادتي أتاني ذلك الآتى فقال : « قولى أعيذه بالواحد الصمد ، من شر كل حاسد ، قالت فكنت أقول ذلك » (١) .

ومنها ما روى ابن همام صاحب السيرة عن أبي إسحق ، قال : ورات حين حملت به أنه خرج منها نور رأت به قصور بصرى من أرض الشام . قد تواترت الأخبار الصحيحة بذلك (٢) .

ونقل شهاب الدين الدينورى فى كتابه نهاية الأرب قال : وحكى الشيخ الإمام أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي فى كتابه « الأعلام » ، عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : « كان من دلائل حمل آمنه برسول الله صلى الله عليه وسلم أن كل دابة نطقت تلك الليلة ، وقالت : حمل بمحمد ورب السكينة ! وهو إمام الدنيا ، وسراح أهلها ، ولم تبق كاهنة فى قريتين ، ولا فى قبيلة من قبائل العرب إلا حجت عن صاحبها ، وانزع علم السكينة منهم ، ولم يبق سرير لملك من ملوك الدنيا إلا أصبح منكوساً .

قال : وقال كعب (الأخبار) (٣) : أصبحت أصنام الدنيا كلها منكوسة منهومة فيها شياطينها .

قال : وقال ابن عباس رضى الله عنهما : وأصبح كل ملك أخرس لا ينطق يومه ذلك ، وفرت وحوش المشرق إلى وحوش المغرب بالبشارات . . وكذلك أهل البحار صار يبشر بعضهم ببعثه ، وله — أى للنبي — فى كل شهر من شهوره — أى شهور حمله — نداء فى الأرض ، ونداء فى السماء : أن أبشروا ، فقد آن لأبى القاسم أن يخرج إلى الأرض ، ميمونا مباركا

(١) الطبقات لابن سعد جزء ١ ص ٦٠ (القسم الأول)

(٢) السيرة لابن هشام جزء ١ ص ٦٢

(٣) كعب الأعمار هذا يهودى دخل فى الإسلام ليكنيه له ولأهله ، وليفسد على المسلمين دينهم كما فعل « بولس » وكان يهوديا فدخل فى النصرانية وأدخل فيها عقيدة الأب والابن وروح القدس ،

وفي السيرة الحلبية : قالت فاطمة بنت عبد الله أم عثمان بن العاصي ، وكانت شهدت ولادة النبي صلى الله عليه وسلم — قالت : دحين ومنعته أمه ، وذلك ليلاً . فما شيء أنظر إليه من البيت إلا نور ، وإنى لأنظر إلى النجوم تدور ، حتى لأقول لتقعن على .

وفي السيرة الحلبية أيضاً : عن أمينة قالت : لما ولدت محمداً — صلى الله عليه وسلم — ثم خرج من بطني نظرت إليه ، فإذا هو ساحد لله عز وجل ، رافع يديه إلى السماء كالمتضرع المبتهل ، ثم رأيت سحابة بيضاء قد أقبلت تنزل من السماء حتى عشيته ، فغيبته عن عيني برهة ، فسمعت قائلاً يقول : طوفوا بمحمد من نارق الأرض ومغارها ، وأدخلوه البحار كلها ليعرف جميع الخلائق كلها باسمه ، وصفته ، ويعرفوا بركته ، إنه حبيب لي ، لا يبقى شيء من الشرك إلا ذهب به . . . قالت : ثم انجلت عني في أسرع من طرفه عين ، فإذا أنا به مدرج في ثوب أبيض ، أشد بياضاً من اللبن ، وتحته حريرة خضراء ، قد قبض على ثلاثة منافيح من اللؤلؤ الرطب الأبيض ، وإذا قائل يقول : قد قبض محمد صلى الله عليه وسلم منافيح النصر ، ومنافيح الدنيا ، ومنافيح النبوة ، (١) .

وهذه الأخبار — ما صح منها وما لم يصح — لا تستند إلى مصادر تاريخية موثوق بها وإنما هي نقول متهافة ، ينسبها ناقلوها إلى شخصيات معروفة بالرواية والحفظ كابن عباس . ليكون هذا الاسم شامعاً لهذه الأخبار أن تقبل بما فيها من أسقام وعلل .

وليس بمذكور أن يكون شيء من هذه الأخبار قد وقع فعلاً . . مثل الذي قيل عن أممة لأنها حين حملت بوليدها أنها لم تشعر به . . فذلك جدير به أن يقع لها . لأنها تضم في كيانها الرحمة كلها ، الرحمة المرسلة للعالمين جميعاً ، فلا عجب أن يكون نصيبها من هذه الرحمة هذا اليسر الذي وجدته في حمله . وفي ولادته .

وليس بمنكور أيضاً ما يروى عن آمنة أنها ولدت « محمدا » حين ولدته ؛
« ولدته طبيباً فظيماً كما يولد السخل » .. فإن النبوة كلها طهر ونظافة مادية ونفسية
معاً . . ومحمد خاتم النبيين ، قد خصه الله سبحانه بالكالات كلها ، وأذهب عنه
الرجس والخبث ، ومجىء ميلاده على تلك الصفة هو بعض ما ينبغى أن يكون له
في مولده .

وكذلك من المتوقع كثيراً أن ترى آمنة رؤى وأحلاماً تملأ قلبها سعادة
ورضى بما في بطنها ، وقد احتوى الخير كله ، واشتمل عليه . . بل إنه لمن المحقق
أن تجد ريح النبوة يملأ عليها حياتها طمأنينة ورضى ، ويفيض عليها الروح
والراحة في يقظتها ونومها !

ذلك وكثير على سাকنته بعض ما ينبغى أن يعبق من طيب النبوة وأن يفوح
من عبير الأنبياء ، وهم أئمة في بطون أمهاتهم ، أو مواليد في مهد الطفولة . .
فهم أكمل خلق الله ، وأفضلهم ، وأولاهم عند الله بكل فضل وكال . .

وإذا كان هذا في أنبياء الله ورسله أجمعين ، فإنه في محمد صلى الله عليه وسلم
أتم وأكمل ، إذ كان خاتم النبيين ، وجامعة الحق الذي دعوا إليه ، والنور
الذي أرسلوا به !

ليس لأحد إذن أن يدفع هذه النفحات الطيبة التي يجدها أولئك الذين اتصلوا
بالأنبياء . . اتصال حياة كالأباء والأمهات ، أو اتصال مخالطة كالزوجات ،
أو اتصال مصاحبة كالأتباع !

أما الذي يفسد هذه الصورة الكريمة التي يتصورها أناس — وخاصة
المؤمنين — فهو هذه الأخبار التي يصطنعها الرواة ويخلقونها خلقاً مسوئلاً
مشوهاً ، قصد يبلغ أحياناً من التسامع وسوء الصنعة ما يقرر النفس ،
ويستحي العقل !

هنا عقول لا يقف موقفهم لهذا الخبر الذي يروى عن آمنة « أنها حين
حملت بالنبي رأت نوراً خرج منها فرأت به قصور بصرى بأرض الشام ، ! !

ولا نأل عن هذا النور ، ولا عن مدى قوته وامتداده . . ولكن السؤال الذى يرد هو : لماذا كان اتجاه النور إلى « بصرى » هذه ؟ ولم لم تسكن الرؤيا فى دائرة متكاملة على جميع الجهات ؟ وإذا كان وجهه النور هى الشمال إلى « بصرى » فلم لا ينكشف لها بيت المقدس وهو ثانى قبلى « محمد » ؛ وفيه المجد الأقصى ؟

كذلك يقف العقل موقف المتهم لذلك الخبر الذى يحدث عن وحوش الأرض وسباعها ، وأنه قد مشى بعضها إلى بعض بالشرى ، بأن آمنة قد حملت « بمحمد » . . ففى كان يرصد حركات الوحوش وحالاتها تلك الليلة التى حملت فيها آمنة بمحمد ؟ وهل يقع ذلك فى حيز الإمكان ؟ وإذا كان ممكناً فما دلالة فى هذا الوقت الذى لم يكن للنبي دعوة بعد ، وهل انتفعت الدعوة بهذه الحادثة العجيبة ؟ وهل اتخذها النبي حين حمل الرسالة — هل اتخذها آية على صدقها ، وجعلها معجزة من معجزاتها ؟ تم من ترجم لغة الحيوانات وعرف ما نطقت به ، إن كان لها فى هذه الليلة منطق ؟

إن هذه الأخبار المجافية للمنطق ، البعيدة عن التصور ، الفارغة من كل معنى طيب — هى فى الواقع شهادات زور ضد الإسلام ونبي الإسلام . . فإنها حين تلقى بهذا الركام من الزيف السخيف المنضوح على سيرة الرسول ، تفتح أبواباً واسعة يدخل منها مرضى القلوب ، وسفهاء الأحلام ، للنيل من مقام النبوة فى صفاتها الرفيعة ، وسيرتها المنطهرة . . إن هذه الأخبار الغثة الباردة حين يظالها المطالع لسيرة النبي ، يجد لها ريحاً ثقيلة ، تفسد عليه الجو الطيب الروحى . الذى كان حرياً به أن يجده فى إقامته مع الحق الثابت ، من سيرة النبي المبهوث هدى ورحمة للعالمين .

هـ - قصة الختان

ذكر كثير من مؤرخى السيرة روايات — إن اختلفت سنداً فقد اتفقت
متناً — أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولد مختوناً ، ، ومسره را ، (١) !

وقد وقف ابن قيم الجوزية من واقعة الختان ، هذه موقف المتشكك فى أمر
غير ذى خطر إذ لا يرى فيه دلالة ذات أثر فى سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ،
إن صح أو لم يصح !

يقول ابن القيم :

اختلف فيه — أى فى الختان — على ثلاثة أقوال :

أحدها أنه ولد — أى البهي — مختوناً مسروراً . . وروى فى ذلك
حديث لا يصح . . ذكره أبو الفرج بن الجوزى فى الموضوعات — أى فى
الاحاديث الموضوعية .

وليس فيه — أى فى الختان — حديث ثابت !

وليس هذا — أى الختان — من خواصه — أى من خواص النبي ! —
فإن كثيراً من الناس يولد مختوناً ..

، وحدثني صاحبنا أبو عبد الله محمد بن عثمان الخليلي المحدث ببית المقدس :
أنه ولد كذلك ، وأن أهله لم يختنوه !

، والناس يقولون لمن ولد كذلك ، ختمه القمر ! وهذا من خرافاتهم

القول الثانی : أنه ختم صلى الله عليه وسلم يوم شق قلبه الملائكة ، عند
ظهوره حليمة !

القول الثالث : أن جده عهد المطلب ختمه يوم سابعه . وصنع له مأذبه ،

وسماه محمدا .. ويروى في هذا حديث غريب . . عن عكرمة ، عن ابن عباس :
« أن عبد المطلب حقت النبي صلى الله عليه وسلم يوم سابعه ، وجعل له مأدبة ،
وسماه محمدا — فاليجبي بن أيوب : طلبت هذا الحديث فلم أجده عند أحد
من أهل الحديث من لقيته إلا عند أبي العري — الذي نقل عنه عكرمة ، الذي
يقال إنه رواه عن ابن عباس —

« وقد وقعت هذه المسألة - مسألة الختان - بين رجلين فاضلين : صنف
أحدهما مصنفاً في أنه ولد - أي النبي - مختوناً - وأجلب فيه الأحاديث التي
لا حظام لها ولا زمام ، وهو كمال الدين بن طلحة . . فنقضه عليه كمال الدين
ابن العديم ، وبين فيه أنه صلى الله عليه وسلم حقت على عادة العرب ، وكان عموم
هذه الأمة عند العرب مغنياً عن نقل معين فيها . . والله أعلم (١) .

وهكذا يقتضي ابن القيم في مسألة الختان ، وأنها كانت عادة عامة للعرب ،
وإذن فلا حاجة إلى نقل أحاديث تشهد لرسول الله بخصوصية فيها .

٦ - قصة شق الصدر !

وقصة شق صدر الرسول قصة مثيرة ، كانت مثار إعجاب لكثير من المسلمين ،
كما أنها كانت مصدر تهكم وسخرية من كثير من غير المسلمين !

وقد وقعت هذه الحادثة للنبي - كما يقول الرواة - بعد السنة الثانية من
عمره ، وهو لا يزال في حضانة حليلة السعدية . في بنى سعد بن بكر !

وقد روى عن حليلة السعدية خبر هذا الحادث . . قالت : « إني لفي بهم لما
خلف بيوتنا إذ أنا أنا أخوه - من الرضاعة ، وهو ابن حليلة - يشهد ، فقال
لوالديه : « ذاك أخ القرشي . قد أخذه ريتان عليهما ثياب بيض . فأجدهما
فمما ينطقه فمما يسوطانه (٢) » ، قالت : فخرجت أنا وأبوه نحوه ، فوجدناه قائماً

(١) زاد المعاد جزء ١ ص ٣٥

(٢) - بوطانه : أي يلقاه بأيديهما فيا بينهما

منتقماً وجهه ، فالتزمته ، والتزمه أبوه ، فقلنا له : مالك بابني ؟ قال : جاءني رجلان عليهما ثياب بيض ، فأضججاني وشقيا بطني ، فالتسسا شديداً لا أدرى ما هو ! قالت : فرجعا إلى خبائنا ، وقال لي أبوه : يا حليلة ، لقد خشيت أن يكون هذا الغلام قد أصيب ، فألحقه بأهله ، قبل أن يظهر ذلك به — قالت : فاحتملناه فقدمنا به على أمه . . فقالت : ما أقدمك به يا ظئر ؟ وقد كست خريصة عليه ، وعلى مكنته عندك ، قالت : فقلت نعم ! قد بلغ الله بابني ، وقصيت الذي علي ، وتخوفت الأحداث عليه ، فأدبته عليك كما نحبين ! قالت : ما هذا شأنك ، فأصدقيني خبرك ! قالت : فلم تدعني حتى أخبرتها ! قالت : أفتخوفت عليه الشيطان ؟ قلت : نعم ! قالت : كلا ، والله ما للشيطان عليه من سبيل . . وإن لابني لشأناً ! ! أفلا أخبرك خبره ؟ قلت بلى . . قالت : رأيت حين حملت به أنه خرج مني نور أصاء لي قصور بصرى من أرض الشام . . ثم حملت به ، فوالله ما رأيت من حمل قط كان أخف ولا أيسر منه ، ووضع حين ولدته ، وإنه لواضع يديه بالأرض ، رافع رأسه إلى السماء . . دعيه عندك ، وانطلق راشدة (١) . .

ويروى ابن هشام لهذه الحادثة طريقاً آخر من طرق الرواية . . يقول ابن هشام : قال ابن إسحق : وحدثني ثور بن يزيد عن بعض أهل العلم (١١) ولا أحسبه إلا عن خالد بن معدان الكلاعي أن نقرأ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالوا له : أخبرنا يا رسول الله عن نفسك ، قال : نعم . . أنا دعوة لإبراهيم (٢) ، وشرى عيسى (٣) ، ورأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نور أصاء لها قصور الشام ، واسترضعت في بني سعد بن بكر . . فبينما أنا مع أخ لي خلف يبرتنا نرعى بهما لنا إذ أتاني رجلان عليهما ثياب بيض

(١) السيرة لابن هشام : جزء ١ / ص ١٥٥ /

(٢) هي الدعوة التي ذكرها القرآن على لسان إبراهيم : « ربنا وابث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ، وينهاهم الكتاب والحكمة ويزكيهم » ، « إنك أنت العزيز الحكيم » (البقرة ١٢٩)

(٣) وهي الإسمري التي ذكرها القرآن الكريم في قوله تعالى على لسان عيسى « وبشرأ برسول يأتي من بعدى اسمه احمد » (المصف / ٦)

بطت من ذهب ، مملوءة نلحاً ، فأخذاني فلقاً صدرى ، واستخرجاً قلبي . فمقامه
فاستخرجاً منه علقمة سوداء فطرحاها ، ثم غسل قلبي وبطني بذلك الملح حتى
أنقياه . . ثم قال أحدهما لصاحبه : زنه بمئمة من أمته ، فوزني بهم فوزنتهم —
أى زدت عليهم — ثم قال : زنه بمئمة من أمته ، فوزني بهم فوزنتهم ،
ثم قال : بألف من أمته ، فوزني بهم فوزنتهم . . فقال : دعه ، فوالله لو وزنته
بأتمته لوزنها (١) .

وموقفنا من هذه القصة هو موقفنا من جميع القصص التي رويت عن حياة
النبي قبل البعثة . أى أننا لا ننظر إليها بحسابها من دلالات النبوة ، ومعجزات
النبي ، وإنما ننظر إليها جميعها على أنها — إن صحت — لم تكن لتزيد في قدر
النبوة ، ولا في عظمة النبي ، وأنها إن لم تصح لم تكن لتنقص شيئاً من قدر النبوة ،
ولا من عظمة النبي !

وقصة شق الصدر — هذه لم يقم عليها دليل قطعي من الكتاب أو السنة ،
والحديث المروى عن رسول الله لم يصبط سنده ، إذ أسنده ثور بن يزيد إلى بعض
أهل العلم (١١) ويقول ابن إسحق في بعض أهل العلم هؤلاء : لأحسبه لإخالة
ابن معدان السكلاعى . . ثم إن خالد بن معدان هذا يسند روايته إلى نفر من
أصحاب رسول الله ، ولا يحقق واحداً منهم .
فهذا الحديث مضطرب السند ، لا يؤخذ به .

ثم إن عملية شق الصدر إذا نظر إليها من جانبها العملى . . أعطى الأثر
الذى أريد لها أن تحققه في هذا الخبر ، وهو تنقية صدر رسول الله صلى الله عليه
وسلم من الوسواس ، باعتزاع تلك النقطة السوداء التي قيل إنها انتزعت من
قلبه حين شق ، وغسل ؟ وهل فعل ذلك بجميع الأنبياء حتى تخلى قلوبهم من
وساوس الشياطين ؟ فإنه لا شك أن أنبياء الله جميعاً قد عصموا من هذه
الوساوس . .

ولإذا كان لرسول الله فصل على الأنبياء — وهو كائن فعلا — أفتحتاج قدرة الله حين يفيض عنايته على عبد من عباده إلى هذه العمليات الجراحية في وصح النهار ، وعلى ملأ من الناس ، وإذا احتاج الأمر إلى عملية جراحية — وهو مالا يكون — أفلا يكون ذلك في حال لا ينعر بها أحد حتى الدي نفه . . كأن يكون ذلك في حال اليوم مثلا ١٩ ..

ولعل واضع هذه القصة قد استلهم موصياتها من قوله تعالى مخاطباً نبيه :
« ألم نشرح لك صدرك . » وسوغ له خياله أن يجعل هذا التشرح المعنوي للصدر شرحاً بدنياً ، تتولاه الملائكة بعملية جراحية كاملة ، كما يفعل الطبيب بمبضعه .

٧ -- إرهابات بين يدي النبوة

في النفس البشرية قوى استطلاعية متخفية ، لا يدري أحد من أمرها شيئاً ، فلا تخضع لاستدعاء الإنسان لها ولا تعطى حين يطلب إليها أن تعطى مما عندها ، وإنما هي في الإنسان ذات سلطان لا سلطان عليه . . تظهر حيث تشاء ، وتعطى كيف تشاء ! ومتى تشاء !

هذه القوة يجد كل إنسان بعض آثارها في حياته ، على اختلاف في هذه الآثار . . ، كثرة ، وقوة ، ووصوحا .

ولو رصد الإنسان — أي ، إنسان — معطيات هذه القوة الخفية فيه ، لوجد فيها أسراراً عجيبة . تحار لها العقول ، وتعجز عن الوقوع على تفسير صحيح لها !

فكم مرة يلقى في روع الإنسان أن أمراً ما قد وقع ، أو سيقع على صفة ما ، دون أن يكون هذا الأمر — في تلك الحالة — منظوراً له ، أو جارياً في تفكير . . ثم يقع على تلك الصورة التي استشعرها استشهارة !

وكم مرة ترسم لعيني الإنسان صورة شخص ما ، من غير أن يكون له مكان في خاطره ، أو مدار تفكيره . . ثم إذا بهذا الشخص يطلع عليه ، على غير انتظار ! !

وكم وكم من مثل هذه الرؤى اليقظ، ترتفع سورها . فيراها الإنسان رأى العين، أو يجد مسها في حفقات قلبه، أو ما يارب تفكيره !
ولهذه القوّة الاستطلاعية فترات تستيقظ فيها، كما أن لها فترات أخرى تخمد فيها جدوتها، ويفتر زاطها .

والأحداث التي تنتظر الإنسان في خاصة نفسه، أو تنتظره مع الناس في دائرة أوسع وأشمل — لهذه الأحداث أثرها في تحريك هذه القوّة، وفي إبعائها من مكانها !

فإذا كانت تلك الأحداث ذات طابع ثوري تنقلب به الأوضاع القائمة في الحياة، ويتحول به سبيل الأمور على غير الوجهة التي هي عليها — فإن ذلك مما يهيج هذه القوّة المتدسية في الناس، ويحرضها تحريضا قويا على أن تنبم بروفي هذه الأحداث، وتنقسم أرواحها، وتفتح خيالاتيها على مهاجها، فجدها، قبل أن تولد في الواقع الذي يعيش في الناس، وتعرف إليها قبل أن تقع عليها عين، أو تلمسها يد !

ولك أن تسمى هذه القوّة حاسة — غير الحواس الخمس المعروفة — حاسة خفية مهمتها أن تستقبل — أحيانا — مالا تستطيع الحواس المعروفة استقباله من أنباء وأحداث !

ففي المراسد — مثلا — أجهزة تنبء عن العاصفة قبل أن تحي، وعن الهزات الأرضية قبل أن تقع . . وإنما في هذه الأحوال، لا تخلق العاصفة، ولا تصنع الهزات، وإنما كل ما في الأمر أنها أدو حسا، وأسرع تأثيرا من تلك الأجهزة الكائنة في الإنسان . وعملها هنا أشبه بما يسمى السبق الصحفي في عمل الصحافة اليوم . . !

نقول إن الأحداث إذا كانت ذات طابع ثوري في الحياة هيبت هذه القوّة الاستطلاعية الكامنة في الإنسان، ودعتها إليها، فرأت مالا يرى الناس، وعرفت مالا يعرفون . ثم عادت فألقت إلى الناس بأنباء وأخبار، يعجبون لها، ويدهنون بها، ويقفون منها بين مصدق ومكذب . حتى تلتقي بحواسهم وتقع تحت مدركاتهم .

والنبوة أمر عظيم . وحدث عجب ، قلما تشهد الحياة مثلاله ، إلا حين يظهر نبي ، وتظهر في الحياة دلائل نبوته .

إن النبوة صلة مباشرة بين السماء والأرض ! فحين يظهر نبي يكون معناه أن السماء قد التقت بالأرض ، أو أن الأرض قد تلاقت مع السماء على يد إنسان من الناس . . إنسان يتناول من السماء بعض ما فيها من رحمة ونور ، ليأخذ الناس بحظهم من هذه الرحمة ، ومن هذا الدور !

ونبوة محمد ، آية الآيات في النبوات . . ولها من الآثار في الحياة بقدر ما تفرق في النبوات كلها . . لأنها ليست لشعب ، أو قبيلة أو بلدة ، وإنما ليست لجيل أو جيلين أو ثلاثة من أجيال الناس . . بل هي للإنسانية كلها ، وللأجيال جميعها . . منذ ظهور هذه النبوة إلى أن ينتهي دور الإنسانية على هذه الأرض ! فإذا آن أو ان هذه النبوة ، وأطل زمانها ، وحن مولدها - كان لها في كيان تلك القوى الاستطلاعية الكامنة في الناس دوى عظيم ، يكاد يحيل هذه القوى إلى كائنات حية ، تحدث عن استطلاعاتها بلسان قوى مبين !

وقد حدث هذا أو ما يقاربه حين بدأت الخيوط الأولى من أشعة الفجر تظهر في آفاق الجزيرة العربية مؤذنة بأن مطلع شمس النبوة سيحى بعد هذا الفجر الوليد !

فلقد استيقظت في الناس قوى روحية تنلس مواقع هذا النور ، وتهدى إليه ، واتقدت في صدور كثير منهم شرارة الإيمان ، فأوقدت في صدورهم جذوة مضطربة قلقة ، لم يستطيعوا معها صبرا على معتقداتهم الفاسدة التي وجدوا ريمها العفن ، حين طلعت عليهم ريح النبوة ، واستطابوا شميمها الزكي العطر !

وتسجل صحف التاريخ لهذه الفترة التي قامت بين يدي النبوة أنباء وأحداثا كثيرة مستفيضة . قد بلغت حدا من الكثرة والغرابة دعا بعض الناس إلى إنكارها وتسكيدتها جملة وتفصيلا ، كما دعا بعضا آخر إلى قبول بعضها ، والتوقف عند بعض ، وإنكار بعض !

والذي نراه في هذه الأخبار ، ونكاد نقطع به هو أن الأصول التي قامت عليها هذه الأخبار أصول صحيحة سليمة . . فإن ظهور النبي ؛ بل خاتم الأنبياء ،

لا يمكن أن يقع دون أن يقوم بين يدي موكبه من يعمل في الناس نبأه . ويفسح الطريق لهذا الموكب الجليل المريب .

أرأيت إلى الشمس ؟ أتراها تطلع في أفق من الآفاني دون أن تسبقها أصواء الصباح ، ودون أن تقوم بين يديها أنسام النحر لتروقط الأحياء لها ، وتهديهم لاستقبالها ، وتملاً عيونهم نوراً هادياً مترقفاً قبل أن يعمرهم سورها ، ويفشى أبصارهم شعاعها ؟

ثم أرأيت إلى صنيع الناس وتدبيرهم مع ملوكهم ورؤسائهم ؟ أتراهم يلقون هؤلاء الملوك والرؤساء فحاة وعلى غير انتظار ؟ أم تراهم يتخذون لذلك من الوسائل ما يوقظ الناس ويلفتهم إلى لقائهم قبل أن يطلعوها عليهم ، وتلتقي أعينهم بهم ؟

وما الشمس في جلالها وعظمتها ؟ وما الملوك والرؤساء في سلطانهم وهيبتهم ؟ لأنهم أرض والنبوه سماء ! ولأنهم رعية والنبوة راعية . ! ولأنهم جند والنبي قائد ! ولأنهم صغار والنبي قيم على هؤلاء الصغار ! !

فهذه الأخبار التي تروى عن الذين شاهدوا أنوار النبوة قبل أن تبرغ ، وشاموا مخايل النبي قبل أن يظهر - هذه الأخبار تستند - كما قلنا - إلى أصول صحيحة ، وتقوم على واقع لا شك فيه ... ولكن الذي يؤخذ على هذه الأخبار هو ما دخل عليها من إضافات ، وما تلبس بها من عواطف ومشاعر ، وما زحف عليها من مفتريات وأكاذيب ! ..

فلقد زين لسكثير من القصاص أن يجعلوا من هذه اللبحات الخاطفة ، ومن هذه الرؤى العابرة ، التي وجدها بعض ذوى النفوس الراحية ، والمنازع المتوفزة من ربح النبوة - د خماثر ، لخلق ملاحم ذات طول وعرض . كان لها أثر كبير في أن جرأت بعض السكدايين والمباققين ، وأعداء الإسلام ، أن يتزيدوا ، وأن يحتلقوا من الباطل صوراً شائمة كادت تفسد بهاء تلك الصور الجميلة ، التي وجدها أولئك الرواد الذين سبقوا إلى مطالعة أنوار النبوة ، قبل أن تبرع شمسها ، والتي سلم بعض ما نقل إلينا من أخبارها .

والأخبار التي بين أيدينا كثيرة — كما قلنا — ، وقد اجتمع فيها الصحيح إلى السقيم ، واختلط الحق بالباطل ! . غير أن التفرقة بين الصحيح والسقيم ، والفصل بين الحق والباطل أمر هين في هذه الأخبار ، فإن أدنى نظر يكشف الزائف منها ويفضحه ، إذ كان الكذب فيها يكاد — لسناعته وسوء تصويره — يذيع عن نفسه ، ويدل على من ألقى به في هذا الوجه الأسود المشوه في موكب النبوة ، الفياض بالنور ، والجلال ! ! .

عمور من الحق :

ونذكر هنا بعضاً من هذه الأخبار التي نطمئن إليها ، ونرى أنها كانت حديرة بأن تقع ، وإن لم تسكن قد رقت فعلاً ، لأنها أقرب شيء إلى النبوة ، وأمس نسباً بها :

١ — دين الحمس

في العام الذي ولد فيه النبي أو قبيله أو بعده بقليل ظهرت في قريش موجه من الأفكار الدينية ، ذات الطابع الحماسي ، المتحمة إلى فرص أعباء ثقيلة على النفس ، وحملها على الجانِب الوعر العنيف من الحياة . .

فلقد تنبه في قريش شعور قوى بالدين ، فأوقد في نفوسهم ذلك الحماس اتقوى للجباة الدينية في كياناتهم . . وخيل إليهم — إن حقاً وإن باطلاً — أن من كمال العقيدة الدينية وتمامها أن نسكّر فيها التكاليف ، وتتضاعف القيود ، وأن الإنسان بقدر ما يحمل من تكاليف ، وما يحتمل من قيود يكون حظّه من الدين ومكانه بين المتدينين ! .

وحديث الحمس ، كما يرويه ابن هشام ، في سيرته عن ابن إسحق هو :
قال ابن إسحق : « وقد كانت قريش — لا أدري قبل الفيل أو بعده — ابتدعت رأى الحمس . . رأياً رأوا رأوه ، فقالوا : « نحن بنو إبراهيم ، وأهل الحرمه ، وولاه البيت ، ووطان مكة ، فليس لأحد من العرب مثل حقنا ، ولا مثل منزلتنا ، ولا تعرف له العرب مثل ما تعرف لنا ،

هذه هي حبيبات القسية التي اجتمعت فريش لبحثها ، وإصدار حكم
يرتصونه فيها . .

فهم يعرفون لأنفسهم هذه المسكاة التي تترفوا بها ، واستحقوا من أجلها
الإجلال والتعظيم من العرب قاطبة .

لأنهم أبناء إبراهيم ، وولد إسماعيل .

وهذا النسب ، وإن شاركهم العرب فيه ليس كل ما لهم من شر . . . إذ هم
إلى هذا النسب ولادة البيت ، وفظان مكة التي شرفت بالبيت الحرام ، ورفعت
منزلتها فوق منازل القبائل العربية كلها ، فكابوا من أحل هذا موضع احترام
العرب قاطبة ، يرحلون رحلتى الشتاء والصيف . . إلى اليمن وإلى الشام في تجارتهم
آمنين ، لا يعرض أحد لهم بسوء . . حتى جاء الإسلام وهم على تلك الحال . .
وفي هذا يقول الله سبحانه وتعالى مذكراً قريشاً بهذه النعمة : « أولم يروا أنا
جعلنا حرمهم آمناً ، ويتخطف الناس من حولهم » ، ويقول سبحانه : « لإيلاف
قريش لإيلافهم رحلة الشتاء والصيف ، فليعبدوا رب هذا البيت ، الذي أطعمهم
من جوع ، وآمنهم من خوف . .

نقول : إن هذا الذى وقع فى نفس قريش من إحساسها بالميزات التى لها ،
والتي سلم العرب لهم بها — إن هذا كان داعية لهم أن يجتمعوا هذا الاجتماع
الكبير ، وأن يدبروا فيه وجوه النظر فيما ينبغي أن يكون عليهم إزاء هذا
الفضل الذى كان لهم .

وقد انتهى هذا المؤتمر إلى مقررات . . كان على قريش أن تلتزم بها ، وأن
تقوم على تنفيذها ، تنفيذاً صارماً لا هوادة فيه . .

وأهم هذه المقررات :

أولاً : ألا يعظموا شيئاً من الحل كما يعظمون الحرم . .

ثانيا : لا ينبغي لهم - وهم الخمس - أن يأنقطوا إلا قسط (١)
أو يسألوا (٢) السنن وهم حرم .

ثالثا . ألا يدخلوا بيتا من شعر ، وألا يستظلوا إذا استظلوا إلا في بيوت
الآدم (٣) ما كانوا حرما .

رابعا : لا ينبغي لأهل الحل أن يأكلوا من طعام جاءوا به معهم من الحل
إلى الحرم ، إذا جاءوا حاججا ، أو عمارا .

خامسا : لا ينبغي لأهل الحل إذا جاءوا حاجين أو عمارا أن يطوفوا
بالبيت إذا قدموا إلا في ثياب الخمس ، فإن لم يجدوا منها شيئا طافوا بالبيت
عراة . فإن تخرج منهم - أى من أهل الحرم - رجل أو امرأة من الطواف
عريانا فطاف في ثيابه - ألقاها إذا فرغ من طوافه ، ثم لم ينتفع بها ، ولم يمسه
هو أو أحد غيره أبدا . . وكانت العرب تسمى هذه الثياب : اللقي (٤) .

ويقول ابن إسحق : في رواية ابن هنيئام عنه : إن هذه المقررات لم يصدرها
المؤتمرون دفعة واحدة ، ولكنها جاءت تباعا ، واحدة إثر واحدة .. كلما أذنوا
العرب أمرا منها جاءوا بغيره ، وهكذا !

وليس يعني أن نقف عند هذه الملاحظة التي نبه إليها ابن إسحق . من أن
هذه المقررات لم تصدر مرة واحدة . . وإنما الذي يعنيها هو تلك المقررات
نفسها . وما حملت من دلائل وأمارات .

وأهم ما يلقانا من هذه الدلائل أن قريشا قد عزلت نفسها عزلا روحيا
عن القبائل العربية كلها . . فجعلوا البيت الحرام وحده هو مكان تقديسهم
واحترامهم . . أما ما عداه من الشعائر الأخرى التي كان يعظمها العرب جميعا
ومنها قريش فقد أحلوا أنفسهم منها .. فتركوا الوقوف على عرفة ، والإفاضة
منها ، وهم يعرفون حق المعرفة أنها من المناسك ، والحج ، ودين إبراهيم ، ويرون

(١) يأنقطوا : أى يأكلوا ، والإقسط شيء يتخذ من مخيض الغنم .

(٢) يسألوا السنن : يطبخونه . (٣) الآدم : الجلد المدبوغ

(٤) كتاب السيرة لابن هشام : الجزء الأول ص ١٨٩ وما بعدها .

لنائر الدرب أن يقننوا عليها وأن يفيضوا منها ، إلا أنهم قالوا : ونحن أهل الحرم ، فليس ينبغى لنا أن نخرج من الحرم ، ولا نعظم غيرها . . نحن الخمس ! ، (١)

وهذه العزلة الروحية لاشك أنها دليل يقظة ، وأمانة تذب لهذا الأمر العظيم ، الذى ستتكشف عنه الأيام بعد قليل ، والذى ستكون وجهته — أول ما تكون — الجانب الروحى فى الناس ، وأن فريشاً هى أول من تلتقى بهذا الأمر العظيم . . رضى السماء ، على لسان رجل من قريش . . هو محمد بن عبد الله عليه صلوات الله وسلامه !

٢ — رجال فى الطليعة

وهذه الدفعة من الخمس الروحى التى حملت فريشاً على أن تتخذ هذا الموقف — الذى أشرنا إليه — والذى انتهى بها إلى أن تفرض على نفسها وعلى الناس ما فرضت من مقررات — نقول إن هذه المرحلة من الحمار الروحى كان لها عند بعض ذوى العقول الناضجة ، والمناعر الحية أصداء بعيدة لم تقف بها عند هذه المقررات ، بل دفعت بها إلى آفاق أبعد مدى ، وأرحب ساحة من هذا الأفق الذى وقفت قريش عنده !

ويحدث ابن إسحق ، فيما يروى ابن هشام عنه ، فيقول : « اجتمعت قريش يوماً عند صنم من أصنامهم ، كانوا يعظمونه ، وينحرون له ، ويعكفون عنده ، ويدبرون به ، وكان ذلك عيداً لهم ، فى كل سنة ، يوماً . . فخلص منهم أربعة نفر نجياً ، ثم قال بعضهم لبعض : تصادقوا ، وليكنتم بعضكم على بعضاً قالوا أجل . . وهم : ورقة بن نوفل ، وعبيد الله بن جحش ، وعثمان بن الحريث ، وزيد بن عمرو بن نفيل . . »

« وقال بعضهم لبعض : « نملوا (٢) . . والله ما قومكم على شيء . . لله

(١) السيرة : جزء أول ص ١٨٩ ،

(٢) « نملوا » ،

أخطأوا دين أبيهم إبراهيم ١٠٠ ما حجر نظيف به ؟ لا يسمع ولا يبصر ،
ولا يضر ولا ينفع ؟٠٠ يا قوم : اتمسوا لأنفسكم .. فإنكم والله ما أنتم
على شيء ١١ .

فتفرقوا في البلدان يلتمسون الحيفية ، دين إبراهيم (١) .
ويقول ابن إسحق عن هؤلاء الأربعة : أما ورقة بن نوفل فاستحکم في
النصرانية واتبع الكتب من أهلها ، حتى علم علماً من أهل الكتاب .

وأما عبيد الله بن جحش فأقام على ما هو عليه من الالتباس ، حتى جاء الإسلام
فأسلم ، ثم هاجر مع المسلمين إلى الحبشة ، ومعه امرأته أم حبيبة بنت أبي سفيان (٢)
مسلمة ، فلما قدم الحبشة تنصر ، وفارق الإسلام حتى هلك نصرانياً !

وأما زيد بن عمر نميل فوقف ، فلم يدخل في يهودية ، ولا نصرانية ، وفارق
دين قومه واعتزل الأوثان ، والميثة والدم ، والدبائح التي تدج على الأوثان ،
ونهى عن قتل الموءودة ، وقال : اعبدوا رب إبراهيم وبأدى (٣) قومه بعيب
ما هم عليه .

قال ابن إسحق : « وحدثني همام بن عروة عن أبيه عن أمه أسماء بنت أبي
بكر رضى الله عنهما ، قال : لقد رأيت زيد بن عمرو بن نميل شيخاً كبيراً مسنداً
ظهره إلى الكعبة ، وهو يقول : يا معشر قريش ، والذي نفس زيد بن عمرو
بيده ما أصبح منكم أحد على دين إبراهيم غيري ! ثم يقول : اللهم ، لو أني أعلم
أى الوجوه أحب إليك عبدتك به ، ولكنى لا أعلم ، ثم يردد على
راحته ، (٤) .

(١) السيرة جزء ١ ص ٥٤ .

(٢) محبة هذه هي أم المؤمنين زوج النبي . وقد تزوجها بعد أن طلقت من زوجها عبيد الله
ابن جحش الذي تنصر في الحبشة ، وكان الجاشي ، هو الذي تولى من تزويجها للنبي ،
وأصدقها عنه .

(٣) يادى قومه : أهلهم وصرح لهم .

(٤) السيرة : جزء ١ ص ٢١٦ .

ثم لا يزال زيد بن نضيل هذا يتقلب في البلاد باحثاً عن الدين الذي يستريح
إليه حتى ينتهي به المطاف إلى الشام ، فيلتقي براهب ينصح له أن يلتمس الخنيفة ،
دين إبراهيم عند نبي سليمان في بلاده وأن زمانه قد أظلم ، فخرج من الشام سريعا
يريد مكة حتى إذا توسط بلاد الحنم عدوا عليه فقتلوه ، (١)

وأما عثمان بن الحويرث ، فقد تضاربت أخباره ، ولم يعرف المصير الذي
صار إليه .

ولا نظن أن هذا الأمر قد وفى عند أولئك الأربعة الذين حفظ التاريخ
ذكرهم . إذ لا بد أن يكون هناك كثير غيرهم قد وقع في نفوسهم ما وقع في نفوس
هؤلاء وأنهم التمسوا ما التمس هؤلاء . ولكن لم يقدر لهم أن يكون أمرهم في
سجل التاريخ ، وأن يكون حديثاً يروى ، وخبراً يحدث به .

وشاهدنا على هذا ؛ أولئك الذين سبقوا إلى الإسلام ، واستجابوا لأول
دعوة من الرسول دون توقف أو تردد . كأي بكر ، وعلى ، وعثمان ، والزبير بن
العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ، وطلحة بن عبيد
الله ، وزيد بن حارثة . . ، وأبو عبيدة بن الجراح ، وأبو مسلمة بن عبد
الأسد ، والأرقم بن أبي الأرقم وكثير غيرهم من السابقين الأولين (١) .
فهؤلاء السابقون إنما سبقوا بما وقع في نفوسهم قبل النبوة من إلهامات
ومشاعر بها .

٣ - الرهبان .. والكهان

وإذا كان في الناس من يسبق إلى موارد الروح ، ويتهدى إلى مواطنها ،
فإن أكثر الناس استعداداً في هذا المجال ، وأقدرهم عليه هم الرهبان والكهان . .
لذا كان الرهبان قد وضعوا أقدامهم على أول الطريق منذ سلكوا مسلك
الرهبنة ، فكانت الروح هي مطلبهم ، وكان الانقطاع عن الدنيا ، واعتزال

(١) السيرة : جزء أول ص ٢٦٢ ،

() انظر السيرة : جزء ١ ص ٢٣٧ .

مافيهما هو زادهم الذى يتزودون به لقطع مراحل هذا الطريق الطويل . . ولا شك أن هذه الرياضة الروحية التى تقوم عليها حياة الرهبان ذات أثر كبير فى صفاء النفس ، وشفافية الروح ، وتهيئتها لاستقبال الرؤى عن الأحداث ، والإحساس بها قبل أن تقع فى مواطن الحس عند الناس .

وكذلك الشأن فى أصحاب الكهانة ، فإنهم قد اتجهوا بأنفسهم إلى استكشاف ما وراء الحس ، ووجهوا قلوبهم وعقولهم إلى عالم الغيب ، لعلمهم يصيبون شيئاً منه . . وإذ لا غير مستبعد أن يلتقط بعضهم بين الحين والحين إشارة من هذا العالم ، تنبئ عن الأحداث قبل أن تصير فى واقع الناس ، بزمس . . قد يطول ، وقد يقصر ، بحسب ما عند المستطلع من استعداد للتلقي والاستقبال !

وعلى هذا فكل ما يروى من أخبار الرهبان والكهان من استطلاعات فى عالم الغيب ، وتنبؤات عن المستقبل هم من قبل السبق فى الرؤية بعين البصيرة للأمر قبل أن يقع فى متناول العين المبصرة ؟

وكذلك ما نقل الرواة والمؤرخون من أحاديث الرهبان والكهان عن مبعث الرسول إنما يضاف إلى هذا الحساب ، ويقدر بهذا التقدير .

ويرى « ابن إسحق » أن مصدر علم الرهبان والأخبار من اليهود والنصارى فى الإخبار بمبعث النبى — يرجع إلى ما عرفوا من كتبهم ، وما فيها من صفة النبى ، وأوصافه زمانه ، وما كان من عهد أنبيائهم إليهم فيه .

ولا مناهة بين هذا الذى يقول به ابن إسحق ، وما نراه من تنبيه الإحساس الروح عندهم وتهيئتهم للرؤى التى تسبق واقع الأمور والأحداث . ولا بأس من أن يكون هذا العلم الذى علمه الأخبار والرهبان من كتبهم عن مبعث النبى ، مجتمعة إلى تلك الرياضة الروحية . فيكون لهذا العلم أثره فى حمل النفس على التطلع والبحث فى ثقة ، وفى يقين من أنها تبحث عن شيء لا بد من أن تجده وتقع عليه ، وأنها إن أخطأته يوماً ، فذلك لأنها لا تملك القدرة على الوصول إليه ، لأنه غير موجود ، كما يكون لهذه الرياضة الروحية أثرها فى الإمساك بالنفس على النظر والتطلع ، دون أن يغلبها اليأس أو يستنفد طاقة خبرها القلبي ! !

قال « ابن إسحق » وكانت الأحبار من يهود ، والرهبان من النصارى
والسكمان من العرب قد تحدثوا بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل مبعضه ،
لما قرب من زمانه :

و أما الأحبار من اليهود ، والرهبان من النصارى ، فما وجدوا في كتبهم
من صفته ، وصفة زمانه ، وما كان من عهد أنبيائهم إليهم فيه ، وأما السكمان من
العرب فأنتهم به الشياطين من الجن ، فيما تسترق من السمع ، إذ كانت وهى
لا تحتجب عن ذلك بالقذف من الدحوم . وكان السكمان والسكاهنة لا يزال يقع
منهما ذكر بعض أموره — أى النبى — ، لاتفى العرب لذلك فيه بالا حتمى
بعثه الله تعالى ، ووقعت تلك الأمور التى كانوا يذكرون فعرفوها ١ ، (١)

من أحبار الأحبار والرهبان :

كان أهل المدينة — وهم الأنصار من الأوس والخزرج — أسبى العرب إلى
الإسلام . . فهم الدين بايعوا الرسول على الإيمان به ، وبما نزل عليه من الكتاب ،
كما بايعوه على نصره الدين الذى جاء به . . وكان ذلك فى بيعت العقبة — الأولى
والثانية — بمكة . . وهم الدين كانت إليهم هجرة الرسول ، ومن موطنهم — المدينة
— ارتفع لواء الإسلام ، وبسيوفهم وسيوف من هاجر إليهم من المسلمين انتصر
الإسلام وعز المسلمون ١

وهذا السبق إلى الإسلام الذى كان من أهل المدينة قد مهدت له أسباب ،
ودعت إليه أحوال وملايسات لما أراد الله لهذا الحى من العرب من خير ،
وعز وكرامة ، فى الدنيا والآخرة ١ .

أما هذه الأسباب وتلك الملايسات فهى ما كان عند اليهود بالمدينة من علم
بمبعب نبى عربى ، بشرت به التوراة ، وكشفت لهم صفته وصفة زمانه ، وكان
اليهود من أجل هذا العلم يندرون الأوس والخزرج — وهم الأنصار فيما بعد —
ينذرونهم بالنبى المبعوث الذى سيكونون له أتباعا وحواريين ، وأنهم فى جانب

هذا النبي سينالون عزا وقوة، تأخذ لهم من الاوس والخزرج بحقهم، وتبدل من ضعفهم قوة، ومن خذلانهم نصراً ..

قال ابن اسحق: وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن رجال من قومه - الاوس والخزرج - قالوا : بما دعانا إلى الإسلام مع رحمة الله وهدايه لما كنا نسمع من رجال يهود .. كنا أهل شرك . أصحاب أوثان ، وكانوا أهل كتاب ، عندهم علم ليس لنا . . وكانت لاتزال بيننا وبينهم شرور . .

و فإذا قلنا منهم بعض ما يكرهون ، قالوا لنا : إنه قارب زمان نبي يبعث الآن ، نقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فكننا كثيراً ما نسمع ذلك منهم ، فلما بعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم أجبتنا حين دعانا إلى الله تعالى ، وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به ، فبادرناهم إليه ، فأمننا به ، وكفروا هم به ، ففينا وفيهم نزل هؤلاء الآيات من البقرة : « ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم ، وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فآمنه الله على الكافرين » (١)

ويروى ابن هشام عن ابن اسحق خبراً آخر من أخبار اليهود ، وما كان عندهم من علم في شأن النبي العربي ..

يقول ابن اسحق : عن سلبية بن سلامة بن رقيش - وكان سلامة من أصحاب بدر - قال : كان لنا جار من يهود ، فخرج علينا يوماً من بيته ... فدكر القيامة ، والبعث ، والحساب ، والميزان ، والجنة - والنار . . قال ذلك لقوم أهل شرك ، أصحاب أوثان ، لا يرون أن بعثاً كائن بعد موت . . فقالوا له : ويحك يا فلان ! أوترى هذا كائناً .. أن الناس يبعثون بعد موتهم إلى دار فيها جنة ونار ، يحجزون فيها بأعمالهم ؟ قال : نعم ، والذي يحلف به ، لو ددت أن حظي من تلك النار أعظم تنور في الدار يحمونه ، ثم يدخلوني إياه ، فيطنونه على وأن أنجو من تلك النار غداً ! فقالوا له : ويحك يا فلان ! فما آية ذلك ؟ قال نبي مبعوث من نحو هذه البلاد ، وأشار بيده إلى مكة واليمن ، قالوا ومتى نراه ؟ قال - سلبية - فظنر إلى

وأنا من أحدهم سناً فقال : إن يستنفد هذا الغلام عمره يدركه ! قال : سلمة ، فوأنه ماذهب الليل والنهار حتى بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم ، وهو - أى اليهودى - حى بين أظهرنا ، فآمننا به ، وكفمر به ، بغياً وحسداً .. قال فقلها له : ويحك يا فلان !

ألمست الذى قلت لما فيه ماقلت ؟ قال : بلى ! « ولكن ليس به (١) » .

وتحدثت كتب السيرة عن كثير من أحبار الرهبان ، كانوا يرصدون مطلع النبوة فى الجزيرة العربية ، لما عندهم فى التوراة من أحباره ، وصفاته ، وصفاته زمانه ، والافق الذى يطلع منه .. قال تعالى : « الذين يتبعون الرسول النبي الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل ، يأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث ، ويتبع عنهم لأمرهم ، والأغلال التى كانت عليهم (٢) » .

وهذه الاخبار المروية عن اليهود فى بعثة النبي إنما تستند إلى هذا العلم ، يظهرها ما كان عند أحبار اليهود من استعداد نفسى وروحى لاستقبال أول أنسام النبوة . والتهدى إليها . . . ولكن ليس كل من يعرف الخير ينفع به .. فحين ظهر النبي ، ودعا الناس إلى ما أمره الله به أن يدعوهم إليه أضمرأ آذانهم ، وأعرضوا عنه ، . . بغياً وحسداً .. ولم يدخل فى الإسلام منهم إلا جماعة قليلة ، أراد الله لها الخير ، وذلل لها الطريق إليه .

ولنا هنا أن قللت إلى استيطان اليهود المدينة وتجهدهم حولها .. فما كانت بلاد العرب بالموطن الذى يعيش فيه غير أهله العرب ، ولا كان اليهود خاصة يستطيعون الحياة فى هذه البلاد القفر . وهم أبداً طلاب صيد ، لا يمسكهم شئ إلا إذا وجدوا منه ربحاً عاجلاً .. فإذا حمل اليهود على أن يحبوا هذه الحياة القاسية فى هذه البلد القفر ، غرباء مستضعفين ؟

(١) السيرة ج ١ ص ٢٠٢ ، نهاية الأرب ج ١٦ ص ١٤٣

(٢) سورة الأعراف آية ١٥٧

والرأى الذى نستريح إليه فى تعليل هذه الواقعة هو أن اليهود بما عدهم من علم من التوراة فى شأن البن العربى الذى بشرت به التوراة ، وذكرت أوصافه وأوصاف زمانه ومكانه — هذا العلم قد دعا كثيراً من اليهود إلى التطلع إلى البلاد العربية ، وترقب ظهور هذا النبى ، كما حمل هذا العلم كثيراً منهم إلى الهجرة إلى بلاد العرب ليكونوا فى استقبال النبى عند ظهوره . وكانت المدينة أول بلد يلقاه اليهودى فى وجهته إلى الجزيرة العربية من أرض الشام . وكان من الطبيعى أن تكون المدينة محط رحال هؤلاء اليهود الوافدين على الجزيرة ، انتظاراً لبعثة النبى . وكان أن ازداد عدد اليهود مع الزمن بالتوالد والتوافد حتى صار لهم فى المدينة مجتمع ، له آثاره ومكانته فى حياة المدينة . . الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . حتى جاء الإسلام فوقفوا منه هذا الموقف اللئيم البعيد ، فأذن الله لرسوله وللمؤمنين أن يحلوم عن هذا البلد الطيب ، وأن يطهروا مسهم مواطن الإسلام .

ج — من أخبار الكهان

والكهانة ضرب من الرجم بالغيب ، وادعاء بالكشف عن أحداث المستقبل وما يتوقع من أمور !

وقد عرف العرب الكهانة ، وحفظ التاريخ أسماء كثير من الكهان والكاهنات .

وكان للكهان والكاهنات مكانة مرموقة بين القبائل ، تنجى إليهم الناس من كل جهة ، يستفتونهم فى كثير من الشئون ، ويتدافرون إليهم ، للحكم بينهم فيما يختصمون فيه ، من نسب ، أو شرف ، أو غير ذلك من شئون الناس فى الحياة .

وقد لعب الكهان دوراً كبيراً فى حياة الأمة العربية ، وفى تحديد اتجاهات أفكارها فى الحياة .

ويغلب على الكهنة أن يكونوا من الزمنى وذوى العاهات ، الناجمة عن نقص فى الخلقة ، أو شذوذ فى الطبيعة . فان غرابة الخلق فى إنسان من الناس توقع

فى نفس من يراه أن هذا الخروج على الطبيعة فى تكوينه لابد أن يكون وراءه أسرار وعجائب ، تظهر أكثر ما تظهر فى الجانب الروحى منه ، وفى اقتداره على الاتصال بالملأ الأعلى ، والتلقى منه . . كما يفرض هذا الخلق العجيب صاسبه بأن يكون شيئاً فى الحياة ، وأن يحىء إلى الناس بما لم يحيئوا به ، إذ جاء هو إلى الحياة على غير الصورة البشرية التى جاءوا هم بها ! ونشهد نحن هذا فى جماعات «المجاذيب» وفى اعتقاد كثير من الناس فيهم . . فإن الذى يخلب عليهم هو هذا الشذوذ فى الخلقة . . من نقص ، وتنويه !

وقد كان للسكان دور كبير قبيل البعثة النبوية . . إذ كثر لغطهم ووسواسهم بهذا الأمر العظيم ، الذى سيطلع على الناس من قريب !

وكان السكبان يسندون عليهم هذا الذى يلقونه فى آذان الناس إلى الجن الذين هم أقدر من الناس على التقاط أنباء السماء ، وما تصدر إلى الناس من أحداث ! فكان لكل كاهن أو كاهنة ، رثى ، أو رفيق من الجن ، تتوفق يديه وبين صاحبه أواصر الصداقة على طول الصحبة ، وامتداد الأيام !

ويذكر القرآن ما كان للجن من استطلاعات للغيب ، ومحاولات فى استراق السمع . . فقال تعالى عن الجن واستراقهم السمع ، «وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع ، فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً ، وأنا لاندري أشراً أريد من فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً» (١) .

يقول ابن هشام : فلما تقارب أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحضر مبعثه حجت الشياطين عن السمع ، وحيل بينها وبين المقاعد التى كانت تقعد لاستراق السمع فيها ، فرموا بالنجوم ، فعرفت الجن أن ذلك لأمر حدث من أمر الله فى العباد ! (٢) .

وهذه المستمعات التى كان يسترقها الجن إنما ليوسوسوا بها فى صدور بعض

(١) سورة الجن آية ٩ ، ١٠ .

(٢) السيرجىء أول من ١٩٥ .

الناس ، وليجعلوا منهم متابعين يفتنون الناس بهم ، ويلبسون عليهم أمورهم ، بما يخلطون بين الحق والباطل من تلك الأنباء التي يلقون لها لهم بها .

عن ابن عباس عن نفر من الأنصار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهم : « ما كنتم تقولون في هذا النجم الذي يرمى به ؟ قالوا : يأنى الله .. كنا نقول حين رأيناها يرمى بها : مات ملك .. ملك ملك .. ولد مولود مات مولود ! » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليس ذلك كذلك .. ولكن الله تبارك وتعالى كان إذا قضى في خلقه أمراً سمعه حملة العرش ، فسبحوا ، فسبح من تحتهم ، فسيح لتسبيحهم من تحت ذلك .. فلا يزال التسبيح يهبط حتى ينتهى إلى السماء الدنيا فيسبحوا ، ثم يقول بعضهم لبعض : مم سبحتم ؟ فيقولون سبح من فوقنا فسبحنا لتسبيحهم ! فيقولون : ألا تسألون من فوقكم مم سبحوا ؟ فيقولون مثل ذلك ، حتى ينتهوا إلى حملة العرش ، فيقال لهم مم سبحتم ؟ فيقولون : قضى الله في خلقه كذا وكذا .. للأمر الذى كان .. فيهبط به الخبر من سماء إلى سماء حتى ينتهى إلى السماء الدنيا ، فيتحدثوا به ، فيسترقه الشياطين بالسمع ، على توهم واختلاف . ثم يأتوا به السكبان من أهل الأرض فيحدثوهم به . فيخطئون ويصييون ، فيتحدث به السكبان فيصييون بعضاً ويخطئون بعضاً .. ثم إن الله عز وجل حجب الشياطين بهذه الحوم التي يقدفون بها ، فانقطعت المكافاة اليوم .. فلا مكافاة (١) » .

ويقول ابن إسحق فيما يرويه عنه ابن هشام : « وأما السكبان من العرب فأتتهم به — أى بما تحدثوا به من بعثة النبي — الشياطين من الجن فيما تسترق من السمع ، إذ كانت وهى لا تحتجب عن ذلك بالقذف من النجوم .. وكان السكبان والكاهنة لا يزال يقع منهما ذكر بعض أمورهم — أى أمور النبي — لا تلقى العرب لذلك فيه بالا ، حتى بعثه الله تعالى ، ووقعت تلك الأمور التي كانوا يذكرون فعرفوها (١) » .

ويرى ابن خلدون أن انقطاع الكهانة ، كان موقوتاً في زمن النبوة ،
لأن ضوء النبوة أشبه بضوء الشمس يخفت فيه كل ضوء ! ثم لما انتهى زمن
النبوة لم يكن هناك ما يحول بين الكهانة وبين أن تظهر ، إذ غربت الشمس التي
كانت تلزمها أججها ! وأنه وإن كان قد بطل الاستراق الذي كانت تسترقه الجن
وتلقى به في صدور الكهان ، فإنه قد بقي للكهان ما في نفوسهم من استطلاعات
خاصة ليست لغيرهم من الناس ، وهم بهذه الاستطلاعات يلقون الناس ، ويلقون
لهم بما عندهم ، وبما ليس عندهم ، من مزاعم وأكاذيب .

يقول ابن خلدون : « وقد زعم بعض الناس أن الكهانة قد انقطعت منذ
زمن النبوة بما وقع من شأن رجم الشياطين بالشهب بين يدي البعثة ، وأن
ذلك كان لمنعهم من خبر السماء ، كما وقع في القرآن . . والكهان إنما يتعرفون
أخبار السماء من الشياطين ، فبطلت الكهانة من يومئذ !

« ولا يقوم من ذلك دليل . . لأن علوم الكهان كما تكون من الشياطين ،
تكون من نفوسهم أيضاً .

« فالآية إنما دلت على منع الشياطين من نوع واحد من أخبار السماء ،
وهو ما يتعلق بخبر البعثة ، ولم يمنعوا عما سوى ذلك .

« وأيضاً ، فإنما كان ذلك الانقطاع بين يدي النبوة فقط ، ولعلها عادت
بعد ذلك إلى ما كانت عليه ، وهذا هو الظاهر . . لأن هذه المدارك كلها تخمد
في زمن النبوة كما تخمد الكواكب والسرّج عند وجود الشمس ، لأن النبوة
هي النور الأعظم الذي يخفي معه كل نور .

« وقد زعم بعض الحكماء أنها إنما توجد بين يدي النبوة ثم تنقطع ، وهكذا
مع كل نبوة وقعت ! لأن وجود النبوة لا بد له من وضع فلسفي يقتضيه ، وفي
تمام ذلك الوضع تمام تلك النبوة التي دل عليها . ونقص ذلك الوضع عن التمام
يقتضى وجود طبيعة — مع ذلك النوع الذي يقتضيه — ناقصة ، وهو معنى
الكاهن . . فقبل أن يتم ذلك الوضع الكامل يقع الوضع الناقص ، ويقتضى

وحدود الكاهن ، إما واحداً أو متعدداً ، فإذا تم الوضع تم وجود البى بكاله ، وانقصت الأوضاع الدالة على مثل تلك الطبيعة ، فلا يوجد منها شيء بعد (١) .

ونظرة الحسكاه هذه التى يروىها ابن خلدون عنهم فى تعليل ظهور السكنة بين يدى النبوة وإضافة ذلك إلى أوضاع فلسفية هى على حسب ما كان مقررأ فى الفلسفة القديمة عن تحكم الأفلاك فى مسائر الأمور ، وقيام كل فلك على حال من أحوال الوجود !

ويمكن أن نجعل هذه المظرة فى وضع آخر غير مستند إلى هذا النظام الفلسفى . . وهو — كما قلنا من قبل — : أن الأحداث العظيمة . لا بد أن تقوم بين يديها شواهد ودلالات ، هى أشبه بالصورة الذى يحمله الفصح بين يديه ، مؤذناً بطلوع الشمس . . فهذه الرؤى ، والاستطلاعات التى تقع للناس بين يدى الأحداث العظيمة هى من هذا القبيل . . !

وفى القرآن ما يكشف عن شيء من هذا . . فقد ذكر القرآن عن فرعون مصر تلك الرؤيا التى رآها فى نومه ، وكانت تحمل فى طياتها تصويراً كاملاً لهذا الحدث العظيم الذى ستلده الأيام بعد بضع سنين ، والذى سيكون له أثره القوى فى حياة الشعب الذى يقوم هذا الملك على تدبير أموره .

« وقال الملك إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف . . . وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات . . يا أيها الملأ أفتوني فى رؤياى إن كنتم للرؤيا تعبرون ، قالوا أضغاث أحلام ، وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين » (٢) .

ولم تكن هذه الرؤيا أضغاث أحلام ، ولكنها كانت استطلاعاً صادقاً لما سيقع من أحداث . ولم يكن عند فرعون ، ولا عند كهنته وسحرة من يحسن قراءة هذا الكشف الذى استقبلته نفس فرعون من العالم العلوى ! وكان لا بد

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٩٧ .

(٢) سورة يوسف : ٤٣ ، ٤٤ .

من نفس مشرفة تكشف عن هذه الرموز ، وتقيم منها حروفاً ، وتبنى منها كلمات وجملاً واضحة مقروءة . . فكان يوسف عليه السلام هو الذى تولى هذا الأمر ، وأحسن القيام عليه . . وكانت قراءته لهذه الرموز هى ما ذكره القرآن الكريم عنه فى قوله تعالى : « قال تزرعون سبع سنين دأباً ، فما حصدتم فذروه فى سنبله . . إلا قليلاً مما تأكلون . . ثم يأتى من ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلاً مما تحصنون ، ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه ينفاث الناس ، وفيه يعمرون » (١) .

وأنت ترى أن حكمة يوسف وتدبيره لم تقف به عند تفسير هذه الرؤيا على وجهها الصحيح وحسب ، بل لأنه جاء بالتدبير الذى ينبغى أن يواجه به هذا الحدث الذى تمكشفت عنه الرؤيا . . فلم يقل يوسف للملك ومستشاريه من حوله : إنكم ستعيشون فى خصب ، وفى زرع وحماد سبع سنين ، ثم يأتى بعد ذلك سبع سنين من الجلب والفقار . بل قال هذا الذى ذكره القرآن عنه ، وفيه السياسة الحكيمة التى ينبغى أن يستقبل بها هذا الحدث العظيم . .

* * *

ونعود إلى الكهانة والكهان ، وما كان لها ولهم من حديث فى شأن البعثة ! لقد حفظ تاريخ السيرة كثيراً من أخبار الكهنة ، من رجال ونساء — عن النبى المبعوث ، وما يكون له من شأن فى الناس ، وفى أوضاع الحياة !

شق وسطيح :

وكان « شق وسطيح » أشهر كاهنين فى الجزيرة العربية قبيل مبعث النبى ، وإليهما كان المفزع فى كل أمر ذى خطر !

وقد أبى مؤرخو السيرة أن يكون « شق وسطيح » بمنزل عن هذا الحدث العظيم الذى استيقظ له الوجود كله ! فجعلوا لها مشاركة فى أحداث النبوة ، وأقوالاً مأثورة فيها !

ولا نستبعد أن يكون اتق وسطيح استطلاعات في موكب النبوة . .
ولسكن الذى نقف منه موقف النك والحذر هو تلك القمص المشيرة التى
يروىها الرواة عنهما فى هذا الامر، والتى يظهر فيها التلفيق والاصطناع ! وأقرب
شاهد على ذلك ما يروى عن ربيعة بن نصر ملك اليمن ، وما كان بينه وبين هذين
الكاهنين . . ! فقد حملت هذه القصة صوراً أشبه بالأساطير ، فى تناول الأحداث
وتدبير تحريكها وانطلاقها على مسرح الحياة !

قال محمد بن إسحق : كان ربيعة بن نصر ملك اليمن بين ملوك التبابعة . . فرأى
رؤيا هالكة ، وفظع بها ، فلم يدع كاهناً ولا ساحراً ، ولا عانفاً ، ولا منجماً من
أهل مملكته إلا جمعه إليه ، فقال لهم : إني قد رأيت رؤيا هالكة ، وفظعت بها . .
فأخبروني بها ، وتأويلها . . قالوا له : اقصصها علينا نخبرك بتأويلها ! قال : إني
إن أخبرتكم بها لم أطمئن إلى خبركم عن تأويلها ! فإنه لا يعرف تأويلها إلا من
عرفها قبل أن أخبره بها .

فقال له رجل منهم : فإن كان الملك يريد هذا ، فليبع إلى وسطيح وشق . .
فإنه ليس أحد أعلم منهما ، فإنهما يخبران به بما سأل .

فبعث إليهما ، فقدم عليه سطيح قبل شق ؛ فقال له : إني رأيت رؤيا هالكة
وفظعت بها ، فأخبرني بها . فإنك إن قصصتها أصبت تأويلها : قال : أفعل . .
قال الملك :

« رأيت حممة (١) . . خرجت من ظلمة . . فوقعت بأرض تهمة (٢) . .
فأكلت منها كل ذات جمجمة (٣) » فقال الملك ما أخطأت منها شيئاً يا سطيح ؛ فما
عندك فى تأويلها ؟ قال :

« أحلف ما بين الحرتين (٤) من حنن . . لتبهطن أرضكم الحبش ،

(١) قطعة نار .

(٢) أى أرض منخفضة .

(٣) يريد الرأس .

(٤) الحرة أرض فيها حجارة سود . . والبيت الحرام واقع بين حرتين . .

فليمملك ما بين أربين إلى جرش (١) .

فقال الملك : وأبيك يا سطيح .. إن هذا لنا لغائط موحع . . ففتى هر كائن ؟
أفى زمانى أم بعده ؟ قال : لا بل بعده بحين . . أكثر من ستين أو سبعين . .
يمضين من السنين ! ، قال : أفيدوم ذلك من ملكهم أم ينقطع ؟ قال : لا بل
ينقطع لبضع وسبع من السنين ، ثم يقتلون ويخرجون منها هاربين ، .

قال : ومن يلى ذلك من قتلهم ولما خرجهم ؟

قال : يليه إرم ذم يزن . يخرج عليهم من عدن ، فلا يترك منهم أحداً

بالين !

قال : أفيدوم ذلك من سلطانه أم ينقطع !

قال : بل يقطع ؟

قال : من يقطعه ؟

قال : نبى زكى ، يأتيه الوحى من قبل العلى !

قال : ومى هذا النبى ؟

قال : رجل من ولد غالب بن فهر بن مالك بن النضر ، يكون الملك فى قومه
إلى آخر الدهر .

قال : وهل للدهر من آخر ؟

قل : نعم ، يوم يجمع فيه الأواون والآخرون ، يسعد فيه المحسنون ،
ويشقى فيه المسيئون

قال : أحق ما تخبرنى ؟

قال : نعم ، والشفق والغسق ، والفاق إذا اتسق ، إن ما أنباتك به لحق !

ثم قدم عليه شق ! فقال له كقوله لسطيح ، وكتمه ما قال سطيح ، ليظهر
أيتفقان أم يختلفان ؟

قال شق : نعم . . رأيت حممة . . خرجت من ظله ، ف وقعت بين روض
وأكمة ، أكلت منها كل ذات نسمة . .

(١) أربين ، وجرش : الأولى بلد بالين ، والثانية محلاف بها .

فلما قال ذلك عرف أنهما قد اتفقا ، وأن قولها واحد ، فقال له الملك :
ما أخطأت يا سق منها شيئاً ... فما عندك في تأويلها ؟

فقال : أحلف بما بين الحرتين من لئسان لتبزلن أرضكم السودان ، فليعلمن
على كل طفلة (١) البنان ، وليملكن ما بين أبين إلى نجران !

فقال له الملك : وأبيك يا سق . إن هذا لما لغاظ موجه ! فتى هو كائن ،
أفي زمان أم بعده ؟ .

قال : لا بل بعده زمان .. ثم يستنقذكم منهم عظيم ذو شأن ، ويذيقكم
أشد الهوان ! .

قال : ومن هذا العظيم الشأن ؟

قال : ليس بدنى لا مدنى ... يخرج عليهم من بيت ذى وزن !

قال : أفيدوم سلطانه أم ينقطع !

قال : بل ينقطع برسول مرسل ، يأتي بالحق والعدل ، بين أهل الدين والفضل
يكون الملك في قومه إلى يوم الفصل !

قال : وما يوم الفصل ؟

قال : يوم تجزى فيه الولاة ... يدعى فيه من السماء بدعوات ... يسمع
فيها الأحياء والأموات .. ويجمع فيها الناس للبيقات ... يكون فيه لمن اثنى
الفوز الخيرات !

قال : أحق ما تقول ؟

قال : أى ورب السماء والأرض ، وما بينهما من رفع وخفض ، إن ما أنبأتك
به لحق ما فيه أمض (٢) .

(١) الطفلة : الناعمة الرخصة من النساء .

(٢) الأمض : الهلك والماتل .

قال ابن إسحق : فوقع في نفس ربيعة بن نصر ماقالا ، فجهز بنيه وأهل بيته إلى العراق بما يصلحهم ، وكتب إلى ملك من ملوك فارس يقال له سابور . فاسكنهم في الحيرة . فمن بقيّة ولد ربيعة بن نصر النعمان بن المنذر ، (١) .

هذا دور « شق وسطيح » ، في أخبار السيرة النبوية ! وهو دور كان لابد لهم أن يؤدوه إذا كان للكهنة مكان في أحداث السيرة النبوية وأخبارها .

ويروى « النويرى » في كتابه « نهاية الأرب » ، دورا آخر لكاهنة ، سببها بما كان من « شق وسطيح » .. يقول :

« يروى أن سفيان بن محاشع بن دارم احتمل ديات دماء كانت من قومه ، فخرج يستعين فيها ، فدفع إلى حى من تميم ، فإذا هم محتجون إلى كاهنة تقول :

« العزيز من والاه ، والدليل من خاله (٢) والموفور من ماله (٣) والموتور من عاداه » .

قال سفيان : من تذكرين .. لله أبوك ؟

فقالت : صاحب حل وحرم ، وهدى وعلم .. وبطن وحلم ، وحرب وسلم ، رأس رموس ، ورائض يسوس ، وماحى بوس (٤) ، وماهد وعوس (٥) ..

قال سفيان : من هو ؟ .. لله أبوك ؟

فالت : نبي مؤيد ، قد آن حين يوجد ، ودنا أوان يولد ، يبعث إلى الأحمر والأسود بكتاب لا يفند ، اسمه محمد »

قال سفيان : لله أبوك ! أعربى هو أم عجمى ؟

(١) السيرة : لابن هشام جزء أول ص ١٤ - نهاية الأرب ج ١٦ ص ١٥٤

(٢) أى تركه وتخلّى عنه .

(٣) أى مالاه ، واجتمع إليه .

(٤) أى نؤس .

(٥) أى مهد الصعاب .

قالت : أما والسماء ذات العنان ، والشجر ذات الأفنان . إنه لمن معد ابن
عدنان ، فقدك (١) ياسفيان .

فأمسك سفيان عن سؤالها . . ثم إن سفيان ولد له غلام فسماه محمداً ، لما
رجاه من أن يكون النبي الموصوف (٢) .

ويروى صاحب السيرة الحلبية خبراً بمجلس رسول الله صلى الله
عليه وسلم . قال :

وروى عن لبيب بن مالك النبي قال : حضرت عند رسول الله صلى الله
عليه وسلم ، فذكرت الكهانة ، فقلت : بأبي أنت وأمي يا رسول الله نحن
أول من عرف حراسة السماء وزجر الشياطين ، ومنعهم من استراق السمع عند
القدس بالنجوم . . وذلك أنا اجتمعنا إلى كاهن لما يقال له : خطر بن مالك ،
وكان شيخاً كبيراً ، قد أتت عليه مئة سنة وثمانون سنة ، وكان أعلم كهاننا ، فقلنا
له : يا خطر . . هل عندك علم من هذه النجوم التي يرى بها إنا قد فزعنا لها ،
ونخفنا سوء عاقبتها ؟

فقال : ائتوني بسحر (٣) ، أخبركم الخبر ، بخير أم ضرر ، وأمن أم حذر ؟
فأخبرنا عنه يومنا . فلما كان من غد في وجه السحر أتينا ، فإذا هو قائم
على قدميه ، شاخص إلى السماء بعينه . . فنأدبناه : يا خطر . . فأومأ لينا أن
أمسكوا ، فأمسكنا . . فانتفض نجم من السماء عظيم !

فصرخ الكاهن : أصابه إصابه (٤) ، خامره عتابه ، عاجله عذابه ، أحرقه
شهابه ، زايله جوابه . . ياويله ما حاله ، بلبله بلباله ، عاوده خباله ، تقطعت
سبلاله ، وغيرت أحواله . .

ثم أمسك طويلاً . . ثم قال :

(١) قدك : أي كفاك .

(٢) نهاية الأرب : جزء ١٦ ص ١٦١ .

(٣) أي وقت السحر ، وهو قبيل الفجر .

(٤) أي أصابه دأؤه الذي فيه رداه .

« يا معشر بنى قحطان ، أخبركم بالحق والبيان ، أقسمت بالكعبة ذات الأركان والبلد المؤتمن السدان (١) ، قد منع السمع عتاة الجان ، بثاقب بكف ذى السيلطان ، من أحل مبعوث عظيم الشأن ، يبعث بالتنزيل والقرآن ، وبالهدى وقال الفرقان ، تبطل به عبادة الأوثان .. »

قال : قلنا يا خطر ، إنك لتذكر أمراً عجباً ، فإذا ترى لقومك ؟ فقال :
أرى لقومى ما أرى لنفسى أن يتبعوا خير بنى الإنس
برهانه مثل شعاع الشمس يبعث من مكة دار الجنس
بمحكم التنزيل غير اللبس

قلنا : يا خطر ، ومم هو !

فقال : والحياة والعيش ، إنه لمن قرينى ، ما فى حكمه طيش ، ولا فى خلقه
هيش ، يكون فى جيش ، وأى جيش ، من آل قحطان وآل ريش (٢) .

قلنا : بين لنا : من أى قرينى هو ؟

قال : والبيت ذى الدعائم ، والركن والأحاثم (٣) ، وإنه لمن نجل هاشم من
معشر أكارم ، يبعث بالملاحم ، وقتل كل ظالم .

ثم قال : هذا هو البيان ، أخبرنى به رئيس الجان .

ثم قال : الله أكبر ، جاء الحق وظهر ، وانقطع عن الجن الخبر .

ثم سكبت فأغنى عليه ، فما أفاق إلا بعد ثلاث .. فقال : لا إله إلا الله ..

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لقد نطق عن مثل نبوة ، وإنه ليبعث
يوم القيامة أمة وحده .. والله أعلم (٤) »

(١) أى سدنة البيت الحرام ، جمع سادن .

(٢) آل ريش : قبيلة من الجن

(٣) الأحاثم : جمع الجمع لحوم ، وهى طيور مكة .

(٤) السيرة الحلبية ١ ص ٢٠٩ .

معجزات الرسول .. بعد البعثة

وإذا كانت حياة النبي صلى الله عليه وسلم قبل البعثة قد صحها هـ بل وسبقها ، هذا الدوى العظيم في قلوب الناس وفي عقولهم ، فتمخلق من هذا الدوى تلك الأنبياء التي جاءت تسبق مولده ، وتذيع في الناس البشائر بقرب مبعث النبي الأمي العربي !

وإذا كانت سيرة النبي قبل مبعثه جعلت لكثير من رواة الأخبار والقصص سبيلا إلى اصطناع الأخبار وتوليدها . وإلى الاستكثار بغير حساب من كل عجيبة وعجيب ، كما كان ذلك مدخلا لمبدأ لأصحاب الأهواء والضلالات يدخلون منه إلى سيره الرسول بمناركات الأخبار التي ينطبق ظاهرها بتمجيد الرسول ورفع منزلته ، بينما تخاوى في باطنها تشويه سيرته وتعكير مواردها الصافية ، وللقاء طلال كثيفة عليها من الشكوك !

نقول — إذا كان هذا في سيرة النبي قبل بعثته فماذا يكون في هذه السيرة العظيمة بعد أن حمل بين يديه الكتاب الكريم ، وجرت على لسانه كلمات السماء ؟ وماذا يكون في هذا النبي السيرة بعد أن يرى الناس رأى العين أنوار السماء تتصل بالأرض ، ويشهدون رسول السماء يندو ويروح بآيات الكتاب يلقيها إلى النبي على مرأى ومسمع منهم ، ماذا يكون في هذه السيرة والأمر على هذا الوجه ؟ ونحن هنا من أخبار السيرة بعد البعثة في موقف غير موقفنا من تلك التي تروى عما قبل البعثة ، وعما قبيل المولد !

فإذا كان من الممكن أن يسلم - عقلا - بأن تخلو سيرة الرسول إلى مبعثه من غير إشارات ودلالات تشير إلى النبوة ، وتحدث عنها ، وأن يمسى الناس ويصبحون فإذا هم بين يدي نبوة ، وفي مواجهة نبي فجاءة على غير انتظار - إذا كان من الممكن أن يسلم بهذا ، وهو مالا يمكن أن يسلم به أو يقبل بحال أبداً - فإن إمكان عدم التسليم بهذا في الفترة السابقة من حياة النبي فهل مبعثه يرتفع إلى درجة المستحيل أن تخلو سيرة النبي خلال فترة النبوة من آيات ومعجزات .

تشهد له بأنه ذلك الإنسان الذى اختاره الله واصطفاه . ورفع منزلته على منازل الناس جميعاً . . فى الدنيا والآخرة !

إن النبوة التى يحملها النبى فى كيانه هى طاقة عظيمة من نفحات السماء وبركاتها وهى حيث تكون لاتمضى دون أن تترك أثراً من آثار نفحاتها وبركاتها فى كل من يتصل أو مايتصل بها !

إن أى إنسان من الناس له امتياز فى علم أو فن لاتمضى حياته دون أن ترى الحياة أثراً من آثار علمه أو فنه . . وإلا فإذا يدل على أنه عالم أو فنان . ثم ماقيمة علمه ، وماجدوى فنه إن لم تنفتح أكامه ، وتطلع ثمراته ، وتصبح زاداً طيباً على مائدة العلوم والفنون !

فما بالك بالنبوة والنبى . وماظنك بهذا الثمر الذى يطلع من شجرة النبوة . إنه لثمر طيب موفور ، لن تعرفه الحياة إلا فى عهود النبوات ، ولن تجد ثماره إلا فى حياة الأنبياء !

فإذا كان الحديث فى نبوة النبى و محمد . فلك أن تجمع ما تفرق فى النبوات كلها من خير ، وماكان فى انبيى جميعاً من كمال ، ثم تضيف كل هذا الخير ، وكل هذا الكمال إلى محمد ، وإلى نبوة محمد ، ثم لا يدخل عليك ظن أنك قد بلغت به وبنبوته ما هو له من كمال ، وما فى نبوته من خير . . فإن كمال محمد فوق كل كمال ، وإن الخير الذى حملته نبوته أكثر وأعظم من كل خير .

○ ○ ○

لقد كان هناك إذن معطيات كثيرة متدفقة تفيض بها يد محمد كل حين بإذن ربها . . فحيث كان النبى كانت البركة ، وكان الخير ، وكان لأصحابه ما استطاعوا أن يحملوا من هذا الخير ، وماشاءوا أن يصيبوا من هذه البركة .

ونحن ننظر إلى ماوقع من معجزات النبى فى فترة النبوة على أنها أمور لاتعدو أن تكون فنة من نفحات النبوة ، وشذى طيباً من شذاها العطر ، وأنها ليست من باب المعجزات التى تجبى للتحدى وتعجز الناس عن الإتيان بمثلها ، وليهتروا للنبى بنبوته .

فأولاً : إن جميع هذه المعجزات التي ذكرها مؤرخو السيرة — ماصح منها وما لم يسمح — لم يقل واحد من هؤلاء المؤرخين عن أية معجزة منها أنها كانت موضع التحدى ، وإعلان الناس بها ، ومطالبتهم بالإتيان بمثلها ، أو الإذعان لها ؛ وذلك هو شأن معجزات الأنبياء ، وهو الشأن في معجزة النبي الخالدة ، التي قامت منذ قيامها على نحدى الإنس والجن أن يأتوا بمثلها .. وتلك هي القرآن ، معجزة الرسل ، ولا معجزة أخرى غيره ، وفي هذه المعجزة يقول الله تعالى : « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً (١) » .. ويقول سبحانه : « أم يقولون افتراه .. قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين .. (٢) » بل ذهب في النحدى إلى أن يكون بسورة واحدة ، فقال تعالى : « وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ، وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين .. فإن لم تفعلوا ، ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة ، أعدت للكافرين (٣) » .

وثانياً : لم يقع بين النبي وبين الكفار من قريش أو غيرهم حديث حول هذه المعجزات ، فلم يكن من البس إلتمات لهم لإبها ، ولم يكن من الكفار تكذيب لها أو امتراء فيها .. ولو أن هذه « المعجزات » كانت ذات طابع يراد به التحدى لذكرها القرآن ، أو ذكر بعضها . أو أشار إلى موقف من مواقف الكافرين حيالها ، أو حيال واحدة منها !!

ولكن الذي ذكره القرآن في هذا المقام هو القرآن الكريم وحده . ومادار حوله من تكذيب وتلبيس !

فإنه حين وقعت قريش ومن معها من المكابرين المعاندين — عاجزة أمام هذا التحدى عن أن تأتي بسورة أو بعض سورة ، ذهب بها الهناد ، وبلغ بها الكفر

(١) سورة الإسراء آية ٨٨ .

(٢) سورة هود آية ١٣ .

(٣) سورة البقرة آية ٢٣ ، ٢٤ .

أن تقول في القرآن أقوالاً متخاذة منها فتة ، تستر بها عصفها ، وتمسح بها العرق المتصطب من خزيم . . . وكان من حصيلة هذه الأقوال المسكرة ما ذكره القرآن عنهم في قوله تعالى : « وقال الذين كفروا إن هذا إلا فك افتراء ، وأعانه عليه قوم آخرون . . . فقد جاءوا طلياً وزوراً . » وقالوا أساطير الأولين ، اكتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً ، (١) . . . وفي قوله تعالى : « ما يعلمه بشر . » لسان الذي يلحدون إليه أعجمي ، وهذا لسان عربي مبين ، (٢) . ويقول سبحانه عن الوليد ابن المغيرة ، وقد استمع إلى رسول الله وهو يتلو عليه من آيات الكتاب ما ملأ قلبه عجباً ودهشاً ، وأبى عليه كبره وعناده أن يلقي إليه السلم وينقاد . . يقول سبحانه وتعالى : « إنه فكرك وقدر . . فقتل . . كيف قدر ! ثم قتل . . كيف قدر ! ثم نظر ، ثم عبس وبسر ، ثم أدبر واستكبر . . فقال إن هذا إلا سحر يؤثر . . إن هذا إلا قول البشّر ! » (٣) .

وقد رد القرآن مفترياتهم هذه في شأن القرآن ، وتخريصاتهم فيه . . فقال تعالى : « إنه لقرآن كريم . في كتاب مكنون ، لا يمسه إلا المطهرون ، تنزيل من رب العالمين . . » (٤) وقال سبحانه : « وما هو بقول شاعر . . قليلاً ما يؤمنون ، ولا بقول كاهن . . قليلاً ما تدكرون . . تنزيل من رب العالمين » (٥) وقال جل شأنه : « وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله » (٦) .

وهكذا تجيء آيات الكتاب تدافع عن معزة الرسول ، وتدفع الكافرين المتهملين بالكذب والبهتان . . ذلك على حين لم تكن في القرآن كله آية تكشف عن موقف من مواقف هؤلاء الكافرين لزاء خارقة أخرى ، مما حرى على يد الرسول من خوارق !

وعلى هذا ، فإن الذي نذكره من الأخبار التي تحدث عن هذه الخوارق إنما نذكره لعلنا نذكره من معجزات الرسول ، ولا أنه كان من مقصد الرسول أن يجعل منه معجزة ، يؤمن عليها الناس ، وإنما كل ما ذكر في هذا الباب ، إنما نذكره هنا

(١) سورة الفرقان آية ٥ . (٣) سورة النحل آية ١٣ .

(٢) سورة المدثر آية ١٨ - ٢٠ . (٤) سورة الواقعة ٧٧ - ٨٠ .

(٥) سورة الحاقة آية ٤١ ، ٤٣ . (٦) سورة يونس آية ٣٧ .

أولا نذكره هو من نفحات النبوة ، ومن سذاهها العطر الذى لا ينفصل عنها بحال .. وكما أن المسك ينم عن طيبه حيث كان ، فكذلك طيب النبوة ، وهو فوق كل طيب !

وما نحن أولا نذكر بعض ما روى من هذه الخوارق :

١ - نبع الماء :

الماء عزيز نادر فى صحراء العرب ، وكثيراً ما يمرض اساكفى الصحراء حالات يطلبون فيها الماء فلا يجدونه ، وكثيراً ما يهلك بعضهم عطشاً ، وخاصة إذا فقد الزاد فى السفر ! حيث يفرق المسافرون فى متاهات الصحراء !

فإذا التمس الناس الماء حين الحاجة الداعية لإليه ، وحين اليأس المستحكم منه كان لثورهم عليه ، ولأسعافهم به هزة رضى وحمد ، وكانت الجهة التى يجرى منها هذا الغائب العزيز بموضع الحب والإعزاز منهم !

والرسول الكريم حين يكون فى صحابته ، وحين تطرقهم حال من تلك الأحوال التى تشد فيها حاجتهم إلى الماء ، تتعلق آمالهم برسول الله ، وتفزع نفوسهم إليه ، كما يفزع الصغار إلى آبائهم عند الحاجة ، وحين الندة والبأس ؟ وقد أكرم الله نبيه ، وأكرم الناس به . . لجعله نوراً يهتدى به الضالون ، وحصى يفزع إليه الخائفون ، وغيثاً يغاث به الملهوفون !

عن ابن مسعود قال : « بينما نحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وليس معنا ماء ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اطلبوا من معه فضل ماء ، فأتى بماء فصبه فى إناء ، ثم وضع كفه فيه ، فجعل الماء ينبع من بين أصابع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، (١) .

وعن سالم بن أبي الجعد عن جابر رضى الله عنه قال : « عطش الناس يوم الحديبية ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم بن يديه ركوة (٢) ، فتوضأ منها ، وأقبل الناس نحوه ، وقالوا ليس عندنا ماء إلا ما فى ركوتك ، فوضع النبي صلى الله

(١) الشما جزء ١ ص ٢٤١ .

(٢) الركوة : إناء من جلد ، يشرب فيه الماء أشبه بالقربة .

عليه وسلم يده في الركوة فجعل الماء يتفجر من بين أصابعه كأمثال العيون .. قيل
كم كنتم : قال : لو كنا مائة ألف لكنافا .. كما نحن عشرة مائة (١)

ويقول القاضي عياض : « وما يشبه هذا من معجزاته ، تفجير الماء ببركته ،
وابتمائه بمسه ودعوته ، فيما روى مالك في الموطأ عن معاذ بن جبل ، في قصة
غزوة تبوك ، وأنهم وردوا العين وهي تبض بشيء من ماء مثل النراك ،
فغرفوا من العين بأيديهم حتى اجتمع في شيء ، ثم غسل رسول الله صلى الله
عليه وسلم فيه وجهه ويديه وأعادها فيها ، فحرت بماء كثير فاستقى الناس .. قال
في حديث ابن إسحق فأنخرق من الماء ماله حس كحس الصواعق .. ثم قال : - أى
الرسول - يوشك يا معاذ إن طالت بك حياة أن ترى ما هاتما قد ملئ جنانا ، (٢)

ولا نريد أن نذكر هنا كل ما نقل في هذا الباب ، فهو كثير . وحادثة واحدة
تكفي في الدلالة على ما للرسول عند الله من كرامة وفضل وإحسان ..

ووقع مثل هذه الآيات من الرسول أمر طبيعي — كما قلنا — لا يمكنه
عقل ، ولا يأباه عاقل .. وشواهد الحال كلها تشهد بوقوع هذه الآيات إذ
كانت على ما من الناس ، وفي مواجهة جموع غفيرة ، ليس فيها واحد في غفلة
عن الوقوف عليها ، والمشاركة فيها ، إذ كانت حاجته إل الماء ولهنه عليه هي
المسئولية على كيانها في تلك الحال ..

يقول القاضي عياض :

« ومثل هذا في هذه المواطن الخفلة ، والجموع الكثيرة لا تتطرق التهمة
إلى المحدث به ، لأنهم كانوا أسرع شيء إلى تكذيبه ، لما جبلت عليه النموس
من ذلك ، ولأنهم كانوا ممن لا يسكت على باطل .. فهو لاء قد رووا هذا ، وأشاعوه
ونسبوا حصنور الجاه الغفير له ، ولم ينكر أحد من الناس عليهم ما حدثوا به عنهم
أنهم فعلوه وشاهدوه ، فصار كتحديق جميعهم له » .

(١) الشفا جزء ١ ص ٢٤٢ .

(٢) الشفا جزء ١ ص ٢٤٣ .

(٣) الشفا جزء ١ ص ٢٤٣ .

يريد أن يقول إن المحدث يمثل هذه الأخبار التي شهدها أعداد كثيرة من الناس لا يمكن أن يقبل خبره إلا إذا كان صادقاً ، وإلا وجد في هذا العدد الكثير من يكذبه ويرد عليه خبره ، إلا كان منار كاله في الكذب ومواطنه عليه بسكوته عن تكذيبه ، وهذا لا يمكن أن يكون من جمع كثير بحال أبداً ، وإن صح أن يكون من آحاد الناس ، فليس يصح أن يكون من المئات والألوف منهم .

٣ — تكتير الطعام :

ونسأله الطعام في البادية شأن الماء .. قليل دائماً ، ومفقود أحياناً .. وكان للرسول مع صحابته مواقف يندر فيها الطعام أو يقل ، فتكون يد الرسول المباركة هي التي تمدهم بما يشبع ويفي !

عن سلمة بن الأكوع قال : « أصابت الناس مع النبي صلى الله عليه وسلم مخضرة في بعض مغازيه ، فدعا ببقية الأزواد (١) ، فجاء الرجل بالحشية (٢) ، من الطعام وفوق ذلك ، وأعلام الذي أتى بالصاع من التمر .. فجمعه على قطع .. قال سلمة فخرته - أي قدرته - كربة العنز (٣) ، ثم دعا الناس بأوعيتهم ، فما بقي في الجيش وعاء إلا ملؤه ، وبقي منه » (٤)

وعن علي رضي الله عنه قال : جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بنى عبدالمطلب وكانوا أربعين .. منهم قوم يأكلون الجذعة (٥) ، ويشربون الفرق (٦) ، فصنع لهم مداً من طعام ، فأكلوا حتى شبعوا ، وبقي كما هو ، ثم دعا بعس (٧) فشربوا حتى رويوا ، وبقي كأنه لم يشرب منه .

(١) جمع زاد وهو ما يتزود به المسافر .

(٢) الحشية : العرفه باليد .

(٣) أي في حجم العنز الراضة .

(٤) الشفا جزء ١ ص ٢٤٨ .

(٥) الجذعة الشاة بنت ستين ، ومن البقر بنت ثلاث ومن الإبل بنت خمس .

(٦) الفرق : مكيال يسع ستة عشر رطلاً . (٧) العس : القدح الكبير يشرب فيه ..

ويروى عن جابر رضى الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وسلم أظهم يوم الخندق .
ألف رجل من صاع شعير ، وعناق (١) وقال جابر : أقسم بالله لأكلوا حتى
تركوه وانحرفوا ..

وعن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم ، حين ابتنى بزينب أمره أن يدعوله
قوما سماهم ، وكل من لقيت .. حتى أتوا البيت والحجرة ، وقدم نورا (٢) فيه
قدر مد من تمر جعل حيساً (٣) ، فوضعه قدومه ، وخمس ثلاث أصابعه ، وجعل
القوم يتغذون ويخرجون ، وبقي الثور نحواً ، ما كان ، وكان القوم أحداً أو
أثنين وسبعين ..

والأخبار كثيرة هنا في هذا الباب ، وواحد منها له دلالة العدد الكثيرين .

نطاق الحيوان ، والنبات ، والجماد :

وإذا كان ينبع الماء وتكثير الطعام عند الحاجة إليهما ، وتعلق النفوس بهما في
ساعة العسرة ، وعند الشدة - ما يبرر صنع معزة لها بيد الله ، يتحقق بها أمل
أصحابه فيه - ونظرهم إليه ، فهل نجد لنطاق بعض الحيوان أو النبات أو الجماد بين
يدى الرسول حكمة ، كذلك التي نجدها في ينبع الماء وتكثير الطعام بين يديه .

لاشك أن فرقاً كبيراً بين الحالين ، وأما إذا استطعنا في الحالة الأولى أن
نخرج هذه الخوارق من باب المعجزات ، وأن نضيفها إلى ما عند الرسول من نفحات
وبركات ، حيث تسلم بها نفوس ، وتستمسك بها حياة كثير من الناس - فإننا
لا نستطيع أن نجد للحالة الثانية ، من نطاق الحيوان وما إليه ، وجملاً نتجه إليه إلا جملة
المعجزة ، التي تقوم شاهداً على صدق الرسول ، وصدق ما جاء به ، ودعا إليه !
ويمكن أن نعرض هنا بعض هذه الحالات ، ثم ننظر فيها من وجهها الإعجازي .
إن كان لها وجه تتجه به إلى الإعجاز ١٠ .

(١) العناق : الأنثى من أولاد القر .

(٢) الثور : إناء يشرب فيه .

(٣) الحيس : التمر يخلط بالسمن .

٣ — شجرة تسكلم :

عن ابن عمر قال : «كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر . فذنا منه أعرابي ، فقال : يا أعرابي .. أين تريد ؟ قال إلى أهلي ؟ قال هل لك إلى خير ، قال : وما هو ؟ قال : « تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله » . قال : من يشهد لك على ما تقول : قال : هذه النخلة السمرة (١) — وهي بساطيء الوادي — فأقبلت تحذ الأرص حتى قامت بين يديه صلى الله عليه وسلم ، فاستشهدا ثلاثاً ، فتهدت أنه كما قال .. ثم رجعت إلى مكانها »

وواضح أن هذه معجزة مستكملة كل ما للمعجزة من صفات . فهذا النبي الله يدعو إلى الإيمان بالله وبالرسول .. ويأبى المدعو أن يؤمن للرسول إلا إذا قدم بين يديه شاهداً يشهد له ، وهذا الشاهد كان ممكناً أن يكون في هذا الجمع الذي مع الرسول في سفره هذا ، من المؤمنين فسكلمهم يشهد أنه رسول الله .. ولكن الرجل يريد شاهداً لا يرد ؛ ولا تحوم حوله مظنة بمآلة أو متابعة عن غاية .. ولا يكون ذلك إلا ببرهان ساطع يعجز الناس عن الوقوف له ؛ وهو ما جرى على يد الرسل من معجزات .. فكان أن دعا الرسول تلك النخلة القائمة على ساطيء الوادي لتشهد أنه رسول الله ؛ فأجابت بسرعة ؛ ونطقت بلسان مبين : أنه رسول الله !

ولم يجد الأعرابي إلا أنه أمام نبي ؛ سخر الله له ما لم يسخر لأحد من الناس قآمن ؛ إيماناً ملأ قلبه طمأنينة ويقيناً !

إننا هنا أمام معجزة لا شك فيها ! معجزة وقفت أمام هذا التجدي ؛ عالية متشاختة .. تتساقط أمامها كل حيلة وحول للناس جميعاً ، أفراداً وجماعات ! ولكن لنا أن نسأل .. أتقوم معجزة من أجل إنسان فرد ! وأي إنسان هذا ، أعرابي من عرض الطريق .. قائمه في الصحراء .. التتمطله النبي التقاطاً عابراً !

فما كان هذا الأعرابي ملكاً يؤمن بإيمانه أمة من الأمم ! ولم يسكن زعيم قبيلة تتابعه قبيلته على إيمانه .. وإنما كان — كما قلنا — إنساناً من الناس .. فهل تقرم لأجل إنسان فرد من عامة الناس معجزة ؟

(١) السمرة : بسم الميم .. شجرة الطلح . وهو الموز ، أو الشجرة الضخمة .

والنظرة إلى هذا الأعرابي بهذا التقدير نظرة خاطئة من وجوه :
فأولاً : هو إنسان قبل كل شيء .. له وجوده . وله حياته التي تدعو
الرسالات السماوية إلى استنقاذها من الهلاك .. فهو من هذه الجهة يتساوى مع
أى ملك وأى زعيم .. ١

ثانياً : لا ننظر الرسالات السماوية إلى الناس نظرة عددية مادية .. تحمل لذوى
الغنى ، والجاه ، والسلطان . ما ليس للفقير ، الضعيف ، المهين بل إلى الناس في
شريعة السماء إنما يوزنون بميزان الروح ، وما فيه من استعداد لتلقى الخير
والانتفاع به .. ولقد عوتب النبي الكريم من ربه في شأن ابن أم مكتوم ، الأعمى ،
الفقير . وقد استكثر من الحديث مع الرسول في المنفعة في الدين ، والرسول في
مواجهة جماعة من زعماء العرب ، جاءوا يجادلونه ، وهو يطمع في أن يسلبوا
له ، ويستجيبوا لدعوته ، فأعطى ابن أم مكتوم ظهره ، وشغل عنه هؤلاء القوم ..
فكان هذا العتاب الرقيق الكريم : « عيسى وتولى ، أن جاءه الأعمى .. وما يدريك
لعله يزكى ، أو يذكر فتنبهه الذكرى . أما من استغنى فأنت له تصدى ! وما عليك
ألا يزكى ، وأما من جاءك يسعى ، وهو يخشى . فأنت عنه تلهى ! كلا .. إنها
تذكرة .. » (١)

فهذا الأعرابي قد يوزن بالآلاف من الناس في صفاء من روحه ، وفي تقبله
للخير ، وانتفاعه به ، وإن لم يكن في مرأى العين ذا وجاهة وسلطان !
وثالثاً : هذه المعجزة ، وإن تكن قد جاءت من أجل هذا الأعرابي ، فإنها
لأشك قد كان لها أثرها القوي فيمن شهدها من صحابة رسول الله ، فرادتهم
إيماناً على إيمانهم . وقيناً فوق يقينهم . . شأنها في هذا شأن المحزات
أو الخوارق التي جاءت لغير التحدى ، ولغير الدعوة إلى الإيمان . . في تكثير
الظهام ، ونبع الماء !

ورابعاً : لعلك تلاحظ في هذا الخبر المروى عن ابن عمر قوله : « فدنا منه
أعرابي » فإن دنو الأعرابي من النبي يستشف منه أن هذا الأعرابي قد استجاب

لداع خفي في كيانه ، يدعوهُ إلى مدانة النبي ليتشمم منه أرواح الخير ، كما يتشم طير الصحراء مواقع الماء ، وقد كشف الرسول ببصيرته المشرقة ما في كيان هذا الأعرابي من المشاعر التي تتمدى إلى الخير ، فدعاه إليه ، وأصاء له الطريق بتلك الهجزة الباهرة .

٤ — معجزة النبي للنبي :

والنبي إنسان قبل كل شيء . . . يعترض نفسه أحياناً ما يعترض النفوس البشرية ، من ضيق ، ومن ضعف !

وأعباء الرسالة أعباء ثقال ، لا يستقل بحملها غير الأنبياء ، ولا يجري بها إلى غايتها إلا أولو العزم منهم .

وقد حمل الرسول الكريم أعباء الرسالة العظمى ، وواجه بها الناس جميعاً ، وكانت جولاته الأولى مع أقرب الناس إليه وآثرهم عنده ، فكانوا أشد الناس عداوة له . وخلافاً عليه . . . !

ولهذا كانت أمداد السماء لا تنقطع عنه ، لتشد من عزمه ، وتثبت من أقدامه ، وتمسك به قوياً راسخاً أمام هذه العواصف المزلزلة العاتية .

فيذا تجمعت في نفسه سحب الأسى واليأس . . . هبت عليه نسمة رقيقة رفيقة من السماء ، تزيح هذه السحب ، وتكشف عن نفسه الهم ، والحزن ، واليأس . . . قال تعالى « فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل » (١) . . . فلا تذهب نفسك عليهم حسرات (٢) . . . « قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون ، فإنهم لا يكذبونك ، ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون (٣) . . . وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك (٤) . . . « ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً (٥) . . . « فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك ، أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز ، أو جاء معه ملك » .

- | | |
|-------------------------|-------------------------|
| (١) سورة الأحقاف آية ٣٥ | (٢) سورة فاطر آية ٨ |
| (٢) سورة الأنعام آية ٣٣ | (٤) سورة الفرقان آية ٢٢ |
| (٥) سورة الإسراء آية ٨٤ | (٦) سورة هود آية ١٢ |

وهكذا تنزل آيات الرحم على رسول الله ، فتسكب في نفسه من مشاعر السكينة والاطمئنان ، ما يحلى عنه غواشي القلق والضيق !

وبين الطمأنينة والقلق ، والسكينة والضيق يجد الرسول نفسه في حاجة إلى الكشف على سلامة النبوة في كيانه ، وعلى مدى فاعليتها عنده ، وهل كان لهذه الحالات العارضة التي عرضت لها ما يؤثر على مكانته كنبى يحمل رسالة السماء ، ويتولى قيادة الإنسانية إلى الله ، وهدايتها إلى الحق ، وإلى طريق مستقيم ، أم أنه لا يزال النبى المصطفى ، والرسول المجتنب ، وأن ما يذنه وبين السماء لن تقطعه هذه العوارض ، ولن تحجبه تلك القاطع الممزقة من السحب .

ويمد الرسول بصره ، ويتجه بقلبه إلى السماء يطلب لنفسه آية من ربه . يرى فيها دلائل نبوته ، وشواهد صلته بالسماء ، ويستوثق أنه على الحق المبين . وتجيء الآية ، واضحة بينة ، يراها الرسول رأى العين فتقر عينه ، ويطمئن قلبه ، وتبشيع في كيانه مشاعر النجاة والرضا .

عن على رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نظر إلى شجرة من وراء الوادى . . ثم قال : اللهم أرني آية لا أبالى من كذبى بعدها . . ثم دعا الشجرة فأنت حتى وقفت بين يديه . . ثم قال : ارجعى . . فرجعت ، ! وعن الحسن أنه صلى الله عليه وسلم شكك إلى ربه من قومه ، وأنهم يخوفونه ، وسأله آية يعلم بها ألا مخافة عليه ، فأوحى إليه ربه : أن أنت وادى - كذا ، فيه شجرة ، فادع غصناً منها يأتك ، ففعل ، فحاء الغصن يخط الأرض خطأ ، حتى انتصب بين يديه ، فخبسه ما شاء الله ، ثم قال له ارجعى كما جئت ، فرجع ، فقال : يارب . . علمت ألا مخافة على ، (١) .

إنك على الحق المبين

وليس بمستغرب أن تجيش في نفس النبى مثل هذه الخواطر ، وأن يستمد العون من السماء في تجليتها وكنفها . . وقد ذكر القرآن الكريم عن زكريا عليه

السلام ، وقد جاءه نداء الحق باستجابة دعائه ، حين طلب من ربه أن يهب له غلاماً — ذكر القرآن عن زكريا أنه طلب من ربه آية يستوثق بها من أن الصوت الذي سمعه هو صوت الله ، وأنه ليس قذفة شيطان ، أو هجسة خاطر متلف إلى الولد . . ولم تضن عليه السماء بما طلب ، فشاءته الآية كاشفة محمية . . استمع إلى قوله تعالى في هذا :

« هنالك دعا زكريا ربه . . قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء ، فنادته الملائكة ، وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى ، مصدقا بكلمة من الله ، وسيداً ، وحسوراً ، ونبيّاً من الصالحين . . قال : رب أنى يكون لى غلام ، وقد بلغنى الكبر ، وامرأتى عاقرة . . قال : كذلك! الله يفعل ما يشاء ! قال رب اجعل لى آية . . قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا واذكر ربك كثيراً ، وسبح بالعشى والإبكار (١) .

فكانت آية زكريا أن احتبس لسانه ثلاثة أيام لم يستطع النطق فيها بكلمة ! فكان هذا الاحتباس آية ، كما كان ضموماً وقرباناً لله ، ورزقاً ساقه الله إلى زكريا مع مساق من فضل البشرى بالولد على الكبر !!

فإذا طلب النبى الكريم آية لنفسه ، يستوثق بها لحال من أحواله — وخاصة إذا كان هذا الحال متصلاً بالدعوة وبالرسالة — فإن ذلك إن دل على شيء فإنما يدل على ما عند النبى من حرص على هذا الفضل الذى آتاه الله إياه وأكرمه به ، من أن يلم به شيء يفسده أو ينير من طبيعته ، أو يذهب به !

* * *

ولأتريد أن نعيد القول هنا فيما يدور فى هذه المعجزات من جدل ، حول وقوعها أو عدم وقوعها على الوجه الذى رويت به ، وعلى تلك الكثرة الكثيرة التى تكاد تجمل حياة النبى ، وأعماله كلها خوارق ومعجزات . وحسبنا فى هذا أن نقرر — كما قررنا من قبل أيضاً — أن النبى مشتمل على طاقات روحية

لا حدود لها ، وأن اتصاله بهذا الوجود ، واتصال الوجود به على غير ما ألف الناس وعرفوا !

فإذا تكلم الطير ، وسبح الحجر ، ومشى الشجر ، وشكا البعير ، وحن الجذع — بين يدي الرسول — فذلك مما لا ينكر أو يدفع . ونحن نرى كثير من الناس لهم قدرة روحية على قراءة الأفكار ، وعلى الإيماء والتأثير في أنفسهم . أو في غيرهم ، من غير أن يكون لهم صلة خاصة بالسماء كصلة الرسل والأنبياء ..

• • •

ونعود فنقرر مرة أخرى أن كل هذه المعجزات والخوارق التي رويت عن نبي الإسلام لم تكن — إن كانت — إلا شرارات من جذوة النبوة ، ولأشعاعات من شمسها المشرقة .. أما معجزة النبي الكبرى وآيته الخالدة فهي القرآن الكريم ، كما سنبين ذلك فيما بعد إن شاء الله .

بقيت لنا وقفة هنا مع معجزتين من تلك المعجزات ، ورد لها ذكر في القرآن دون غيرهما روى في سيرة الرسول من معجزات .. وهما انشقاق القمر ، والإسراء !

انشقاق القمر :

في القرآن سورة سميت « القمر » ، وقد بدئ بهذه الآيات : اقتربت الساعة وانشق القمر ، وإن يروا آية يعرضوا ، ويقولوا سحر مستمر ، وكذبوا واتبعوا أهواءهم .. وكل أمر مستقر .. ولقد جاءهم من الأنبياء ما فيه مزدجر حكمة بالغة ، فما تغنى النذر ، (١) .

ويكاد المفسرون يجمعون على أن انشقاق القمر الذي ذكر في الآية الأولى من هذه السورة قد وقع فعلا ، كحزة شاهدة على صدق النبي ، وهو في مكة ، قبل هجرته إلى المدينة .

يقول القاضي عياض في تفسير هذه الآية : وأخبر الله تعالى بوقوع انشقاق القمر .

بلفظ الماضي ، وإعراض الكفرة عن آياته - أى ما فى از- قافه من آيات- وأجمع المنفرون وأهل السنة على وقوعه ، (١) .

وروى البخارى عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فرقتين ، فرقة فوق الجبل ، وفرقة دونه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اشهدوا ، (٢) .

• وروى عن أنس قال : سأل أهل مكة النبى صلى الله عليه وسلم أن يرهم آية . فأراهم انشقاق القمر فرقتين ، حتى رأوا حراء بينهما ، (٣) .

وروى البخارى عن عبد الله بن مسعود - من رواية مسروق عنه - قال : انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت قريش هذا سحر ابن أبى كبشة - يقصدون النبى - فقالوا انظروا ما يأتيكم به السفار ، فإن سجدا لايستطيع أن يسحر الناس كلمهم . . قال لجاء السفار فقالوا ذلك .

وروى ابن جرير عن ابن عباس فى قوله تعالى : « اقتربت الساعة وانشق القمر ، وإن يروا آية يرضوا ويقولوا سحر مستمر » (١) قال : قد مضى ذلك ، كان قبل الهجرة ، انشق القمر حتى رأوا شقيه . .

ويعلق القاضى عياض على هذه الأحاديث المروية فى انشقاق القمر فيقول : وأكثر طرق هذه الأحاديث صحيحة . . والآية مصرحة . . ولا يلتفت إلى اعتراض مخذول بأن لو كان هذا لم يخف على أهل الأرض ، إذ هو شئ ظاهر للجميع !

ويدفع القاضى عياض هذا الاعتراض بقوله : لم ينقل إلينا عن أهل الأرض أنهم رصدوه تلك الليلة فلم يروه انشق ، ولو نقل إلينا عن لايحوز تماثلهم على الكذب أكثر منهم لما كانت علينا به حجة ، إذ ليس القمر فى حد واحد للجميع أهل

(١) الشفا ج ١ ص ٢٣٧ .

(٢) رواه البخارى ومسلم .

(٣) رواه مسلم .

(٤) سورة القمر آية ١ ، ٢ .

الأرض ، فقد يطلع على قوم قبل أن يطلع على الآخرين ، وقد يكون من قوم بضد ما هو من مقابلهم من أقطار الأرض ، أو يحول بين قوم وبينه سحاب أو جبال ، ولهذا نجد الكسوفات في بعض البلاد دون بعض ، وفي بعضها جزئية وفي بعضها كلية ، وفي بعضها لا يعرفها إلا المدعون لعلها .. ذلك تقدير العزيز العليم ..

ويستطرد فيقول : وآية القمر كانت ليلاً ، والعادة من الناس بالليل الهدوء والسكون ، وإخفاف الأبواب ، وقطع النصرف ، ولا يكاد يعرف من أمور السماء شيئاً إلا من رصد ذلك واعتبل به ، ولذلك ما يكون الكسوف القمري كثيراً في البلاد وأكثرهم لا يعلم به حتى يخبروا ، وكثيراً ما يحدث الثقات بهجائب يشاهدونها من أنوار ونجوم طوالع عظام تظهر في الأحيان بالليل في السماء ، ولا علم عند أحد منها ، (١) .

هذا ملخص ما قيل في تفسير الآية : « اقتربت الساعة ، وانشق القمر » ..

وقد رأينا أن القاضي عياض يؤكد لإجماع المفسرين وأهل السنة - أي رواية الحديث - على وقوع انشقاق القمر للنبي ، كعجزة دالة على نبوته ؟

ويتخذ القاضي عياض من الإخبار عن انشقاق القمر بلفظ الفعل الماضي « وانشق القمر » دليلاً على أن الانشقاق حدث فعلاً ، وأن الآية نزلت مخبرة عنه ..

ونحن لانرى في الإخبار عن انشقاق القمر بلفظ الماضي قريبة قاطعة على وقوعه ، فمما يدل الفعل الماضي على حدوث الفعل فعلاً ، ويخبر عن وقوعه ، في الماضي ، كذلك يعبر بالفعل الماضي عن الأمر الذي سيقع مستقبلاً ، وذلك لغرض بلاغي ، وهو أن هذا الفعل يحقق الوقوع لاحتماله ، وأن وقوعه في المستقبل أشبه بوقوعه في الماضي ، فإن لم يكن وقع ، فكأنه قد وقع ، لتحقيق وقوعه ..

والقرآن الكريم يستخدم هذا الأسلوب كثيراً في الأمور ذات الخطر التي

يقف كثير من الناس إزاءها موقف الشك والارتياب . . فلا يلتقاهم القرآن اللقاء الذى ينتظرونه فى شأن هذا الأمر الخطير ، ويجعل لقاءهم معه معلقاً بالمستقبل بل يجذبهم إليه جذباً قوياً ، فإذا هم فى مواجهة هذا الأمر وجهاً لوجه !

يقول سبحانه وتعالى فى شأن البعث : « ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات والأرض » . (١) ويقول سبحانه فى يوم القيامة : « وأشرقت الأرض بنور ربها ، ووضع الكتاب ، وجيء بالنبيين والشهداء ، وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون ، ووفيت كل نفس ما عملت » . (٢) . . وأكثر ما ورد فى القرآن من صور البعث والجزاء والحساب قد جاء فى صورة الماضى ، الذى وقع وعاش فى الداس ، وعاش الداس فيه !

وإذن فليس فى التعبير عن انشقاق القمر بالفعل الماضى دليل على أنه وقع ، بل ربما كان هذا التعبير بالماضى داعية إلى تأكيد وقوعه فى المستقبل ، وقياسه على كثير من الأفعال التى جاءت على تلك الصورة . . فإن انشقاق القمر حدث عظيم ، والناس فى تصور انشقاقه بين مؤمن ومكذب وشاك . . فكان التعبير عنه بالفعل الماضى أنسب شئ لتلك الحال ، بوضعه فى صورة الواقع المحقق !

ثم من ناحية أخرى نجد القرآن الكريم يحدث عن أحداث القيامة فيذكر صوراً عما يترى الوجود من تغيرات فى هذا اليوم العظيم . . « يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات » (٣) . . ففى هذا اليوم تتغير معالم الأشياء وتتحول أحوالها .

وقد ذكر القرآن الكريم فى هذا ، انشقاق السماء ، « إذا السماء انشقت ، وأذنت لربها وحقت » . (٤) . . كما تحدث عن خسوف القمر ، واجتماع الشمس والقمر فى فلك واحد . . « فإذا برق البصر ، وخسف القمر ، وجمع الشمس والقمر ، يقول الإنسان يومئذ أين المفر » (٥) كذلك تحدث عن انتشار الكواكب ،

(١) سورة الزمر آية ٦٨ .
(٢) سورة إبراهيم آية ٤٩ .
(٣) سورة الزمر آية ٨ .
(٤) سورة الانشقاق آية ١ ، ٢ .
(٥) سورة القيامة آية ٨-١٠ .

وتشقق السماء ، وتفجر البحار . . . إذا السماء انفطرت وإذا الكواكب انتثرت
وإذا البحار فجرت . . . (١)

كما يذكر ما يقع للشمس والنجوم ، والجبال ، . . . إذا الشمس كورت
وإذا النجوم انكدرت ، وإذا الجبال سيرت . . . (٢)

فانشقاق القمر ظاهرة من الظواهر التي تعترى الوجود يوم القيامة ، وكما
تتكور الشمس في هذا اليوم كذلك ينشق القمر ، وتتناثر النجوم ، وتسير الجبال
وتنفجر البحار !

وقد جاء انشقاق القمر في الآية السكريمة مصحوباً لاقترب الساعة : اقتربت
الساعة ، وانشق القمر . . . وهذه المصاحبة تقوى الرأي الذي نذهب إليه ، من
أن انشقاق القمر سيقع حين تقرب الساعة ، وأن اقترابها هذا سيؤذن بتعيرات
كثيره في مظاهر الوجود السماوى والأرضى ، كما جاء ذلك في كثير من آيات
الكتاب ، التي أشرنا إلى بعضها من قبل .

وقد تكون هذه الأحاديث المروية - إن صدقت - تفسيراً للآية السكريمة ،
في ظل كسوف وقع للقمر في عهد النبي ، وربما كان كسوفاً كلياً ، رأى فيه الناس
يوماً ظاهرة عجيبة ، فأضافها المؤمنون إلى معجزات الرسول ، وصورها كل
إنسان حسب إحساسه بها !

ومما يعضد هذا الاتجاه عندنا ما يروى عن ابن عباس ، في إحدى الروايات
عنه في هذا الأمر - أن القمر كسف على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
فقالوا : سحر القمر !

فلا بن عباس هنا - فيما روى عنه - قولان . . . قول بالانشقاق القمر ،
وقول بكسوفه .

والقول الأول يرويه ابن عتبة ، وابن أبي طلحة عن ابن عباس ، والقول
الثاني يرويه عنه عكرمة (٣) .

(١) سورة الانفطار آية ٣-١ . (٢) سورة التكهوير آية ١-٣ .

(٣) انظر تفسير ابن كثير - سورة القمر - الجزء الرابع .

(١٦) - النبی محمد ﷺ

وليس بمستبعد أن يكون القولان لابن عباس . وأن كسوف القمر
وانشقاقه بمعنى واحد !

فإذا كان القمر قد كسف على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم - وكسوف
القمر ظاهرة فلكية تحدث كثيراً ، وقل من الناس من لم يرها في عمره مرات
ذوات عدد — إذا كان ذلك قد حدث قبل هجرة الرسول ، وبعد نزول الآية ،
فإنه من الطبيعي أن يتخذ المؤمنون — إذ ذاك . من هذه الظاهرة آية
مؤيدة للرسول !

وأمر آخر . كسيف القمر على عهد الرسول بالمدينة يوم مات إبراهيم ،
فقال الناس . كسيف القمر لموت إبراهيم ، فدعا الرسول الناس إليه ثم خطبهم
فقال : « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله . لا يخسفان لموت أحد ، ولا لحياته ،
فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكر الله ، وإلى الصلاة » .

ولو ترك الرسول هذا الأمر يمتحن من غير أن ينبه له ، ويكشف عنه
لكان للناس فيه أقوال ومنقولات .

قصة الإسراء :

وفي القرآن الكريم سورة سميت « الإسراء » وفيها حديث هذه الرحلة
العجيبة ، التي دبرتها السماء لرسول الله ، بعده مبعثه ، وقبل هجرته إلى المدينة . .
وحدود الرحلة كما يذكر القرآن . من المسجد الحرام بمكة ، إلى المسجد
الأقصى بيت المقدس .

وزمانها لحظة من لحظات الليل كما يقول القرآن الكريم في الآية الأولى
من سورة الإسراء .

قال تعالى : « سبحانه الذي أسرى بعبده ليلاً . . من المسجد الحرام إلى المسجد
الأقصى الذي باركنا حوله . . لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير » (١) .

(١) سورة الإسراء آية ١ .

والآية صريحة في «الإسراء» ، وفي أنه كان فعلاً للبي الكريم .. وأنه واقعة حقيقية ، وليس رؤيا منامية ؛ وإلا لما كان لها ذكر خاص في سورة خاصة !

والذي يقف بحديث الإسراء عند هذا الذي نطقت به هذه الآية ، يجد أن تلك الإضافات الكثيرة ، والذبول الطويلة التي علقت بحديث الإسراء لاتستدعيها غاية الإسراء ، ولا يحتاج إليها السكال الذي ينبغي أن تكون عليه .

« فالإسراء » على ما تشهد به الآية لم يكن للإعجاز ، وإنما هو رحلة روحية إلى بيت المقدس ، مجمع الأنبياء ، وأول قبلة للإسلام .

ولا عجب أن تكون للرسول رحلة روحية كهذه الرحلة ، في تلك المرحلة الحرجة من مراحل الرسالة النبوية .

فقد كان الرسول إذ ذاك في وجه خصومة عنيفة ظالمة من قومه . . يدعوهم إلى الرشاد والخير فيلقونه بالكذب والبهت ، ويرمونه بالسوء والأذى . . وهو رحيم بهم ، حريص عليهم . . فتمتلئ نفسه حسرة وألماً . . إذ يراهم يتمزقون شعثاً ، وينتاعون أوصالاً . . !

وليس حال أدنى من هذه الحال للخروج من هذا الجو الثقيل الخافق ، إلى جو آخر فيه راحة للصدر ، واسترواح للنفس !

ولم أين المذهب لبي قائم على دعوة السماء ، موجه برسالتها ، لأنه لا مفر للبي - إن أراد أن يظل في سجل الأنبياء - من أن يثبت في موقعه ، لا يتحول عنه أبداً . . وإن هلك . . وقد قالها النبي الكريم لعنه أبي طالب ، « والله ياعم ، لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في يساري على أن ترك هذا الأمر ما تركته أو أهلك دونه ، .

ولكن الأحداث تزداد حدة ، والشر يشتد اشتعالاً . . وللنفس البشرية حدود للاحتمال ، وإن كانت نفس نبي ، وإن كان هذا النبي محمداً ، خاتم النبيين . وصفوة المرسلين . . لأنه - مهما يكن - بشر . . وللإنسانية حدود تنتهي إليها ، وتقف عندها ! !

لقد كان في النبيين من اشتد به الكرب في موقف الدعوة ، أو ضاقت نفسه .
عن الاحتمال أكثر مما احتمل ، فزاييل موقفه ، وكادت تسقط رسالته من يمينه ،
لولا أن تداركه لطف اللطيف ، ورحمة الرحيم .

ويقص القرآن الكريم عن يونس عليه السلام موقفاً مثل هذا الموقف . .
فيقول سبحانه وتعالى : « وإن يونس لمن المرسلين . إذ أتى إلى النملك المشحون ،
فساهم فكان من المدحضين ، فالتقمه الحوت ، وهو ملبس ، فلو لا أنه كان
من المسبحين للبت في بطنه إلى يوم يبعثون . . فنبداه بالعراء وهو سقيم ،
وأنبأنا عليه شجرة من يقطين ، وأرسلناه إلى مئة ألف أو يزيدون . فآمنوا ، (١)

وانظر إلى تدبير ربك مع هذا النبي . . يونس عليه السلام .

لقد تعجل الفرار من الميدان الذي أقامه الله فيه .

وتلك فعلة ما كان للنبي أى يفعلها لأول بادرة سوء تصل إليه من قومه .
وكان لابد من درس يتلقاه النبي ، لكي يتقوى على احتمال هذا الموقف ويصبر
على شدائده !

وكان هذا الدرس أن يخرج من ضيق إلى ضيق أشد وأقسى . . خرج من
جوف مدينته التي ترمى بالشر ، وتقذف بالسوء — إلى جوف الحوت الذي
سيبتحول فيه بعد بضع ساعات إلى طعام مضموم !

إن يكن يونس وجد ضيقاً في قومه ، فهناك ألوان من الضيق أشد وأقسى ،
وفي جوف الحوت وجد المثل المائل ، والتجربة الواقعة !

ثم تجيء رحمة الله ، فتجعل ليونس طريقاً في بطن الحوت . . إلى جوف
البحر . ثم إلى اليابسة !

وهنا يجد يونس كل شيء أرحب من جوف الحوت وأرحم . . وأن مدينته
التي فر منها هي رحمة واسعة بالنسبة لما كان فيه . فيعود إلى مدينته تلك ، وكأنها
وما ينتظره فيها من شدائد ومحن — كأنها جنة تبسط له كتفا يديها بالطيب

الموفور من الثرات ! وهناك تثبت أقدامه في موطن الدعوة ، فيمضى برسالته إلى غايتها . . ويستجيب له قومه . . مؤمنين بالله رب العالمين !

ونظرة أخرى في معطبات هذه القصة تطلعك على مدى ما عند الأنبياء من صبر واحتمال ، وما لديهم من قوة وعزم ، وما في كياناتهم من طاقات نفسية وروحية وجسدية ، ليكون من هذا الرصيد الكبير ما يقوم بأعباء الرسالة ، وسد مطالبها !

فهذا النبي الكريم « يونس » قد احتمل من قومه ما لا طاقة للإنسان - غير نبي - باحتماله . . ولكن الأمر كان يقتضيه أن يحمل أكثر مما حمل ، ولو كان من أصحاب العزم من الرسل الصمد في موقفه ، فأريدت له هذه التجربة لتشد من عزمه ، وتخرج به أكثر قوة واحتمالا .

وما كان لنبي أن يدخل في هذه التجربة ثم يخرج سليماً معافى كما كان ، بله أكثر مما كان . . فإن أى إنسان غير نبي لو وقع في هذه التجربة ، وقدر له أن يخرج من جوف الحوت ، وأن ينجو من البحر والموت فيه غرقاً ، ثم قدو له أن يضع قدميه على اليابسة ويحيث مع الناس - لو حدث هذا الإنسان من الناس لذلك بكثير من عقله ، وبكثير من ملكاته وطاقاته الروحية والنفسية ، ولعاش - إن عاش - في الناس ، إنساناً « مهزوز » الشخصية ، مضطرب السلوك ، مختلج الخطأ .

ولكن ها أنت ذا ترى تلك التجربة في نبي من أنبياء الله ، ثم تراه وقد عاد بعدها أقوى قوة ، وأثبت ثباتاً ، وأحكم سياسة وتديراً !
أفليس ذلك إلا لأن الأنبياء - وهم بشر - هم أيضاً في حال فوق أحوال البشر ؟ بل ! فالأنبياء ناس غير الناس ، وبشر فوق البشر !

ونعود إلى تجربة « الإسراء » في تلك الفترة التي أشرنا إليها من حياة محمد - صلوات الله وسلامه عليه .

ونحب هنا أن نبسط القول شيئاً ما في الحال التي كان عليها النبي قبيل

والإسراء ، فذلك مما يعين على إدراك بعض ما للإسراء من حكمة ، وماله من داعية في الوقت الذي وقع فيه .

فأولاً : كان عناد قريش ، ودفعها لدعوة الرسول ، قد بلغ غايته ، فاشتد البلاء على المسلمين الذين لم يستطيعوا الفرار من وجه هذا الطغيان وتسلط الأقوياء على الضعفاء ، حتى لقد مات بعضهم تحت سياط العذاب ، من ضرب مبرح ، وكى بالنار ، وشق بالحجارة الملتببة في الهجير . والرسول الكريم يرى هذا البلاء ينصب صباً على الرجال والنساء من أصحابه ، ويرى الموت يدنو منهم رويداً رويداً ، فلا يملك أكثر من الألم والأسى ، ولا يجد لأولئك المهذبين إلا أن يدعوهم إلى الصبر ، وأن يرغبهم في الاستشهاد ، لينالوا ما أعد الله للشهداء في سبيله من الفوز بمجنات النعيم ، فكان صلى الله عليه وسلم إذا مر بعمار بن ياسر وأبويه وهم يعذبون في وهج الشمس ، ولفج الهجير - يقول : « صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة » !

ونانياً : بعد أن امتنع رسول الله بقومه . من آل هاشم ، وآل عبد المطلب من أن تناله قريش بما أرادت أن تناله به من أذى ، ورأت أنها إن فعلت هذا كان ذلك هلاكاً لقريش ، وإفناء بعضها بعضاً ، وبعد أن فرغ كيدها ، وبطل تدبيرها في أن تلحق بالنبي ما أرادت به من سوء - اتجهت إلى أسلوب آخر يسوق الأذى إلى النبي ، وإلى آله الذين اجتمعوا على نصرته . حمية وتعصباً ، وإن لم يجتمعوا على دعوته عقيدة وإيماناً . وكان هذا الأسلوب هو تلك الدعوة الظالمة إلى مقاطعة آل عبد المطلب ، مقاطعة كاملة ، وحصارهم حصاراً اقتصادياً ، واجتماعياً ، فلا يتعامل أحد من قريش معهم في شيء أبداً . لا يزوجونهم ، ولا يتزوجون منهم ، ولا يأخذون منهم ، ولا يعطونهم .

وواجه بنو هاشم وبنو عبد المطلب هذه الحرب بشجاعة ، وصبر ، وأبوا أن يعطوا الدية في هذا الامتحان الذي تعرف فيه معادن الرجال . فجمع أبو طالب - عميد آل هاشم - أهله ، واتحاز بهم إلى شعب أبي طالب (١) - ليرى قريشاً

(١) شعب أبي طالب : هو عملة انحاز إليها بنو هاشم مدة الحصار فسمى بهذا الاسم -

أنه قادر على أن يلتقي معها على الأمر الذى أرادت ، وأنها إن أرادت اعتزاله واعتزال آله ، فليس هو بالحريص على أن يصل الحبل الذى قطعت . ١

وقد استمر هذا الحصار لآل عبد المطلب ، وآل هاشم نحو ثلاث سنين ، بلغ بهم الجهد غايته ، حتى سمع أصوات صديانهم — يتضاغون جوعاً — من وراء الشعب (١) .

وطبيعى أن النبى كان خلال هذه المحنة يحمل فى نفسه كل مآلى آل عبد المطلب وآل هاشم من جهد ومشقة . فكل ما كان يقع فى محيط أفرادهم ، فرداً فرداً ، وفى جماعاتهم ، أسرة أسرة ، كان يقع فى مشاعر النبى ، ويهيج خواطر الألم ، والإزعاج فى نفسه ، قبل أن يصل إليهم — أضعاف ما كانوا يجدون من ألم وإزعاج !! ذلك لأنه - وهو النبى - يألم لآلام الناس جميعاً ، ويود لو يحملها عنهم ، أو يرمى بها فى مكان سحيق . فكيف بما يقع فى نفسه من هذا ، للآلام التى فى أهله وذوى قرابته ، والقائمين على نصرته ؟ ثم هو من جهة أخرى يرى أن منازل بقومه من آلام وشدائد ، إنما كان بسببه هو . . وأن ذلك الذى احتملوه من أجله كان بدافع القرابة والدم ، ولم يكن بسبب العقيدة والدين ، ولو كان من أجل العقيدة لكان الأمر بعض الشيء ، ولكان على أصحاب العقيدة أن يؤدوا صريية الدفاع عن عقيدتهم ، لقاء الثواب العظيم الذى ينتظرهم . أما والمحتملون إنما احتملوا من أجل القرابة والدم ، فإذا ينتظرون من جزاء ؟ إنه لا شيء ! ، وإن يكن شيء فهو لإرضاء لنداء العصبية . ذلك النداء الذى لا يلبث أن تذهب أصدائه . بعد أن تذهب الحال التى تلبس بها !

إن الآلام النفسية والروحية بل والجسدية التى احتملها النبى خلال هذه المحنة التى عاش فيها أهله ، كانت أفسى مآلى النبى فى طريق دعوته من آلام . إنه حمل آلام آل بنى هاشم كلها ، وإن ذهب كل منهم بنصيبه منها . فمن أجله كانت هذه التجربة المأساوية ، وفى سبيل حمايته ، والدفاع عنه ، واجه بنو هاشم هذه القطيعة المرة ، واحتملوا عبء هذا الحصار المحكم الظالم . ثلاث سنين !

(١) زاد المعاد ج ٢ ص ١٢٢ .

وثالثاً : حين بلغ الأمر من الشدة والضيق مداه في نفس النبي ، وأصبح جو مكة ثقيلًا خانقاً — أراد أن يلتمس له متنفساً حول مكة ، لعله يجد أعواناً ، وأنصاراً يستمعون له ، ويستجيبون لدعوته ، فربما وجد فيما حول مكة نفوساً تمسك هذا الخير الذي بين يديه ، وتنفع به ، وتخرج منه ثمراً طيباً مباركاً .

كان لابد للرسول من أن يلتمس لنفسه ولدعوته مجالا آخر ، خارج مكة ، بعد أن لقي هو وأهله الأذنون ما لقوا من هذا البلاء الشديد .. وبما ضاعف من وقع هذه الآلام في نفس الرسول أن سقط الجناحان اللذان كانا يرفان عليه رحمة وحنانا . فما أن كادت تنتهي محنة الحصار ويفسد تدبير قريش ، وتنقض صحيفة التي أبرم فيها هذا العقد الذي عقدته بينها لمقاطعة آل هاشم بعد أن سلط الله عليها الأرضة ، فأكلتها جميعاً ، إلا ما ورد فيها من ذكر الله عز وجل — ما كادت تنتهي هذه المحنة حتى مات أبو طالب بعد خروجه بقومه من الشعب بستة أشهر . ثم لحقت به حديجة ، بعد موته بثلاثة أيام . . !

فانظر كيف ابتلى النبي الكريم هذا الابتلاء . في عمه ، وفي زوجته ؟ وكيف تفرغ يده من كل قوة مادية كانت تساعده في دعوته ، وتشد من أزره ؟ ومتى يكون ذلك ؟ إنه في أخرج مواقف الدعوة . . وبعد أن بلغ الأمر من الشدة مداه بين قريش وبين النبي !

لأنها عشر سنوات كاملة ، منذ أن تلقى الرسول الكريم أول إشارة من السماء ، إلى ذلك اليوم الذي فقد فيه الرسول زوجته ، وعمه ، كما فقد فيه الأمن والسلامة في مكة . مع قومه من قريش .. فقد روى عن جابر بن عبد الله قال : لبث رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين يتبع الناس في منازلهم في الموسم ، ومحنة وعكاظ^(١) ، ويقول : من يؤمنني ، ومن يؤويني ، ومن ينصرني حتى أبلغ رسالة ربي . . فله الجنة . . فلا يجد أحداً ينصره ويؤويه حتى إن الرجل ليرحل من

١٥٠. محنة وعكاظ : سوقان من أسواق العرب الموسمية .

مضر أو الين إلى ذى رحمه ، فيأتيه قومه فيقولون له : احذر غلام قريش ، لا يفتنك ، (١) .

إن ذلك كله من ألوان الشدائد والحن التي مرت بالرسول خلال تلك السنوات العشر كانت تربية وإعداداً للجولة التالية من الدعوة ، واستعداداً لاستقبال الطور الجديد من أطوارها . . . حيث ستشهد الأيام التالية أحداثاً ضخماً في حياة هذا الدين الجديد . . . سيلتقي الرسول الكريم بوجوه كثيرة من قبائل مختلفة ، وسيسمع أحاديث متباينة . . . وسيلتقي أجوبة مختلفة لما يلقي على الأسماع من آيات دعوته . . . وسيهجر النبي موطنه ويهاجر إلى موطن آخر ، وأقوام آخرين غير قومه ، وستدور معارك ، وتسيل دماء ، ويبتلى النبي في نفر كريم عزيز من أصحابه ، يسقطون في هذه المعارك . . . وسيقوم الرسول على توجيه مجتمع إسلامي ضخم ، بعد أن يحيمه نصر الله ، ويفتح مكة ، ويدخل الناس في دين الله أفواجا ١١ .

إن هذا البلاء العظيم الذي ابتلى به الرسول هو — كما قلنا — إعداد لما سيستقبل من تلك الأحداث الكبرى . . . وإن هذا البلاء أشبه بما تعمل المحاريط والقموس في شق الأرض وتقليب تربتها قبل أن يذُر فيها البذر . . . فذلك هو الذي يتيح لها الجو الصالح لأن تعطى خير ما فيها من عناصر الإنبات لما يلقي فيها من حب ١ .

نقول : في هذا الجو الثقيل الخانق الذي كان يضيق به صدر الرسول في مكة — خرج إلى الطائف يلتمس النصرة من ثقيف . والمنفعة بهم من قومه . . . وكان معه مولاة زيد بن حارثة . . .

ولما انتهى الرسول الكريم إلى الطائف، عمد إلى سادة ثقيف وأشرافهم، فدعاهم إلى الله ، وكلمهم بما جاءهم له . . . من نصرته ، والقيام معه على من خالفه من قومه . فلم ير منهم إلا إعراضاً ، وتكذيباً ، واستهزاءً . . . وكان فيما قال له قائلهم :

• والله لا أكليك أبدا ١١ لئن كنت رسولا من الله كما تقول لانت أعظم خطراً من أن أرد عليك السلام ١ ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي أن أكليك ١١، إنها سفسطة أحق ، وضلالة ظلوم جهول .

فقام رسول الله من عندهم ، وقد يئس من خيرهم . . وقال لهم : « إذ فعلتم ما فعلتم فاكتموا عني . . » وكره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبلغ ذلك قومه عنه فيذئروهم (١) ، ذلك عليه . . فلم يفعلوا ، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم ، فوقفوا له سمطين (٢) ، وجعلوا يرهونه بالحجارة حتى دمت قدماه . . وزيد ابن حارثة يقيه بنفسه ، حتى أصابه شجاج في رأسه . . ١٠

ترك الرسول الطائف على تلك الحال ، وقد امتلأت نفسه أسى فوق أسى ، وألماً فوق ألم ..

وإلى أين ؟ وهل هناك غير مكة ؟ إنه على أية حال لا يزال يمسك منها على شيء من الأمل والرجاء ، ولا يزال يطمح في خير من أهل أو صديق فيها .

وقبل أن يتخذ الرسول سبيله إلى مكة وجهه إلى السماء يناجي ربه ، ويطلب العون والمدد ١ نخفق قلبه بهذا الداء الدافئ العميق ، وتحركت شفاته بهذا الدعاء الندي ، المعقود بأنفاس الأمل والرجاء في مالك المملك ، ومن بيده ملكوت السموات والأرض . . يقول رسول الله مناجياً ربه :

• اللهم أشكو إليك ضعف قوتي ، وقلة حيلتي وهواني على الناس ...

• يا أرحم الراحمين . . أنت رب المستضعفين ، وأنت ربي .

• إلى من تكافى ؟ .. إلى بعيد يتجهمني ؟ أم إلى عدو ملكته أمري ؟ (٣)

• إن لم يكن بك غضب على فلا أبالي . ١

• غير أن عافيتك هي أوسع لي . ١

(١) يذئروهم عليه : أي يغريهم به ، ويحرضهم عليه .

(٢) أي في صفين .

(٣) يشير بالبعد إلى ثقيف ، وبالعدو إلى قريش .

« أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليها أمر الدنيا والآخرة أن يحل على غضبك ، أو أن ينزل بي سخطك .
« لك العتبى حتى ترضى . .

« ولا حول ولا قوة إلا بك » (١)

بهذه الكلمات المشحونة بالإيمان الوثيق بالله ، والمخلقة من أنفاس النبوة الطاهرة ، اتجه الرسول إلى ربه ، متضرعاً ، متوجعاً ، طالباً رضا ربه ورحمته ، فى صبر وحمد . . على السراء والضراء .

مدد غير منتظر :

وفى طريق الرسول من الطائف إلى مكة نزل منزلاً يمكن يسمى « نخلة » ، ثم قام من جوف الليل يصلى ، فصرف إليه نفر من الجن ، فاستمعوا قراءته ، ولم يشعر بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزل عليه قوله تعالى : « وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن ، فلما حضروه ، قالوا : أئصتوا ، فلما قضى ، ولوا إلى قومهم منذرين . . قالوا : يا قومنا ، إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه ، يهدى إلى الحق ، وإلى طريق مستقيم . . يا قومنا . أجيئوا داعى الله ، وآمنوا به ، يغفر لكم من ذنوبكم ، ويخرجكم من عذاب أليم ، ومن لا يحب داعى الله ، فليس به جز فى الأرض ، وليس له من دونه أولياء ، أولئك فى ضلال مبين » (٢) .

ولهلك تذكر من هذه الحادثة ما يقع فى نفس الرسول الكريم منها من أفس ، وما يشيع فى كنانة من رضى . . لأنه ليس وحده . . إن صوت السماء متصل به ، وإن جنوداً من جنود الله ، — لا يراهم — يحفون به ، ويستمعون له ، ويصدقون بما نزل عليه .

ومن هذا الذى يستمع إلى كلام الله ، ويستجيب لرسوله ؟ إنهم جماعة من

(١) زاد المعاد جزء ٢ ص ١٢٣ .

(٢) سورة الحديد : آيات ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ .

الجن .. الجن الذى يضرب به المثل فى الخروج على كل نظام ، والتأبى على كل نداء .. !

فكيف لا يكون لهذا القرآن فى نفس الناس ما له فى نفوس الجن ؟ وكيف يقبل الجن من إنسان ، ويؤمنون له ؟ على حين يأبى الناس الاستماع إليه ، والاستجابة لدعوته ؟ إن ذلك يكشف عن فساد فى طبيعة تلك النفوس الإنسية فساد خرج بها إلى أن تكون أكثر من الجن ضلالا وعناداً !

ثم لعلك تأتفت إلى ما امتثلت به نفس هؤلاء النفر من الجن من إيمان ، حتى لقد تحولوا إلى دعاة ، يبشرون فى قومهم بهذا الدين ، ويدعون له : « يا قومنا أجيئوا داعى الله ، وآمنوا به .. يفقر لكم من ذنوبكم ، ويخرجكم من عذاب أليم » ففي هذا الصنيع من أولئك النفر من الجن تحريض قوى لأولئك النفر الذين استجابوا للرسول من الناس ، أن يبشروا بدعوة الإسلام فى الناس ، ويدلوهم عليها ..

وفى هذا كله قدر كبير من التنفيس عن نفس الرسول ، والتطبيب لحاظه ، بعد هذه التجربة القاسية ، التى مرت به فى الطائف . !

وكان الرسول قد أقام بنخلة أياماً ، قبل أن يتخذ سبيله إلى مكة .

وربما كان هذا التوقف منه — صلوات الله وسلامه عليه — فى هذا المكان مراجعة لنفسه ، وتقليباً لوجوه الرأى فى اختيار الجهة التى يتجه إليها .. أهى مكة ؟ أم غيرها من بلاد العرب ومضارب خيامهم ؟ . إنا لا نجد تفسيراً لتوقف الرسول الكريم فى هذا المكان ، ومكثه فيه أياماً ؛ أقرب من هذا التفسير ، الذى يناسب ما كان فى نفس الرسول من ضيق بمكة وبأهلها .. لقد خرج منها مكرهاً ومهموماً ، والعودة إليها ستكون أنسكى وأشد من قبل أن يخرج منها .. ولكن بعد أن نزل عليه وحى السماء ، بما كان من أمر أولئك النفر من الجن ، انزاح عن نفسه كثير من الضيق والهم ، ووجد من إيمان الجن به ما يطمعه فى إيمان قریش .. فإنها مهما تكن ، ومهما يكن من التوائها وعنادها ليست أكثر

من الجن عناداً ، والتواءاً وأن هذا القرآن الذى لانت به قلوب الجن ، واستجابت له ، سيؤثر هذا الأثر ، وربما أكثر منه ، فى قلوب العتاة المكابرين .
من قريش ١١ قال تعالى :

و قل أوحى إلى أمة استمع فقر من الجن ، فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجياً ،
يهدى إلى الرشـد ، فآمنّا به ، ولن نشرك بربنا أحداً ، وأنه تعالى جد ربنا ،
ما اتخذ صاحبة ولا ولداً ، وأنه كان يقول سفيهاً على الله شططاً ، (١) .

وهنا ، يخرج الرسول من "نخلة" ميمما وجهه شطر مكة ، وقد زايـله كثير من
الآلم والهم . فأسرع الخطا إليها ، ليرى ماذا أحدثت الأيام فى قريش ، وفى موقفها
الظالم منه ؟ وهل كانت غيبته تلك الأيام المعدودة عن موطن الأحداث — هل
كان ذلك داعية للقوم أن يردوا ما عذب من أحلامهم ، وأن يستمعوا إلى صوت
العقل فيما يدعوهـم إليه رجل منهم ، لا يريد الملك ، ولا المال ولا الجاه ولا
السلطان . . وإنما يريد كشف ما فى عقولهم من ضلال ، وشفاء ما فى قلوبهم
من مرض . . لأنه يتعامل مع الجانب الروحى منهم . . يتعامل مع الروح والعقل
والنفس . . أما جانبهم المادى فلا شأن له به ، إلا فيما تقتضيه سلامة العقل ،
وترتضيه طهارة النفس ، ويدعو إليه صفاء الروح !

فهل ترى غيرت هذه الغيبة شيئاً من سير الأحداث التى تركها الرسول منذ
أيام ، وهى تغلى وتغور ؟ أما فى قريش من ناس يدخلون فى دين الله ويصرون
نبيه ؟ . يا لظلام العقول ، ويا لتسوية القلوب !

على أن الرسول الكريم ما كاد يبلغ مشارف مكة ، حتى تلوح له تلك الوجوه
المنكرة البشعة ، التى وقف أصحابها فى وجه الرسول ، وامتدت أيديهم وألسنتهم
بالسوء إليه ، وإلى أصحابه الذين اتبعوه .

وربما قلب الرسول تلك الوجوه وجهها ، لعله يلج فيها من يقوم إلى جانبه
بعض مقام عمه أبى طالب ، الذى مات منذ قليل ١١

وكان المطعم بن عدى هو الذى اختاره الرسول ليقوم منه هذا المقام .
« فأرسل رجلاً من خزاعة إلى « مطعم بن عدى » يقول له : أأدخل فى جوارك ؟ »

وقال : نعم .. ودعا بنيه وقومه ، فقال : البسوا السلاح ، وكونوا عند أركان البيت . فإني قد أجرت محمداً . فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة ، ومعه زيد بن حارثة ، حتى أفتى إلى المسجد الحرام ، فقام المطعم بن عدى على راحلته ، فنادى : يا معشر قريش . إني قد أجرت محمداً ، فلا يهجه أحد منكم (١) . . فانتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الركن ، فاستلمه ، وصلى ركعتين ، وانصرف إلى بيته ، ومطعم بن عدى وولده محدقون به بالسلاح ، حتى دخل بيته (٢) .
وكانت قريش على عهدهما الذى تركها الرسول عليه من عداوة غليظة ، وشر صراح .

لقد ظل الرسول الكريم عشر سنوات ، ينادى قومه ويرأوهم بآيات الكتاب وبالدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، فما ازدادوا على الأيام إلا عداوة له ونقمة عليه ، وتربصاً به !

ولقد خرج الرسول من مكة بعد أن ضاق بها — خرج إلى الطائف لعل هافياً من زروع وكروم قد ألقى فى نفوس أهلها نسمة رطبة ، تنعش الأرواح وتشرح الصدور . فتش لجبال الحق وجلاله ، وتستجيب له . . ولكن أهل الطائف كانوا أقسى قلوباً من قريش . وقد سجل التاريخ هذا اللقاء الذى لقوا رسول الله به . . فكان أسوأ صفحة سجلها التاريخ لنخوة العربى ومروءته .
وفقد الرسول الكريم مع هذا زوجه الوفى والسيدة خديجة ، وعمه أبا طالب ودرعه الحصينة .

ثم بعد هذا كله يعود الرسول إلى قرينى ، ويدخل عليها مكة ليبدأ دوراً عنيماً حاداً مع الصراع معها فى سبيل دعوته ، وتبليغ الرسالة التى بين يديه ؟؟

(١) يهجه : أى يبره ويضفه .

(٢) زاد المعاد جزء ٢ ص ١٢٤ .

ولا يجد الرسول حلال هذه المحن من عزاء إلا فيما ينزل عليه من آيات الكتاب ، وفيما يقص عليه القرآن من قصص الأنبياء مع أقوامهم ، وفيما يدعوهم الله إليه من الصبر والثبات على موقفه : « فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل » ، فتوكل على الله ، لأنك على الحق المبين .

فكانت آيات الكتاب هي روح الرسول وريحانه خلال هذا الصيق الذي نزل به . . وكان استماع الجن إليه واستجابتهم له اختباراً ناجحاً للكتاب الذي بين يديه ، وللقوة الروحية المستتملة عليها ، وذلك مما يبعث الأمل ، ويقوى الرجاء في استجابة القلوب القاسية له ، وتأثرها به .

ومع هذا كله ، فقد كان الرسول الكريم في حاجة إلى مزيد من المدد الروحي ، وإلى التزود بزيادة عتيد من الملائكة الأعلى ، حتى يقرى على مواصلة الجهاد والصمود في وجه المعادين ، والكافرين ، والمتربصين .

ولقد أبلى الرسول بلاءه في الأرض ، واستنفد كل ما يعطى أو يأخذ منها . ومن أهلها . فكان لابد من عالم آخر يتعامل معه ، ويتزود منه بزيادة روحية ، يشبع في كيانه قوى جديدة ، لاتنفد على كثرة ما ينفق منها في هذا النضال المتصل بينه وبين قومه ، حتى يحكم الله بينه وبينهم بالحق ، وحتى يدخل الناس في دين الله أفواجا .

وفي الإسراء إلى العالم العلوى . . يجد الرسول من آيات الله ، ومن دلائل قدرته وعجائب ملكوته ما تذوب في عباب محيطاته كل شرور العالم الأرضي وآلامه .

فلم يكن الإسراء في صميمه إلا رحلة روحية لرسول الله في عالم النور ، وإلا استدعاء له من مواطن الرحمة واللفظ . ولأنه هو الجزء الحسن للرسول على جهاده الصادق في سبيل الله ، وقيامه على أداء الرسالة التي أرسل بها ، واحتماله ما احتمل من أجلها .

وماذا يكون للرسول من حزاء في هذه الدنيا على ما لقي في سبيل الدعوة من عناء وإرهاق ؟ إن كل ما في الأرض لا يقوم ببعض هذا الجزء . . وإن

الرسول لزاهد في كل ما في الأرض ، وما عليها من مال وحطام .. فلم يكن إلا ما في السماء هو الذي يناسب حال الرسول ، ويليق به .

ثم إن الإسراء إلى العالم العلوى شهادة للرسول عند نفسه أنه في موضع الرضا والإحسان من ربه ، وأنه أدى واجبه على الوجه الأكمل في تبليغ رسالة ربه .. وأن هذا النجاح الضئيل الذي صادفته مهمته خلال عشر السنوات التي مضت عن بعثته — لم يكن عن تقصير أو تهاون منه ، وإنما هو ابتلاء لرسول الله ، وتمحيص لما في صدور الناس .. ليعين الله الخبيث من الطيب .

وقد ذكر القرآن الكريم حادثة الإسراء في آيتين من أول سورة الإسراء : فقد قال تعالى : سبحانه الذي أسرى بهيدته ليلاً .. من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا ، إنه هو السميع البصير . ، والذي تذكره الآيتان من أمر الإسراء أنه وقع ليلاً ، وأن حدوده كانت من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، وأن غايته كانت اطلاع الرسول على ما في ملكوت الله من آيات ، ولنريه من آياتنا .

يقول ابن إسحق : وكان في مسراه ، وما ذكر منه ، بلاء وتمحيص ، وأمر من أمر الله في قدرته وسلطانه ، فيه عبرة لأولى الألباب ، هدى ، ورحمة ، وثبات لمن آمن به وصدق ، وكان من أمر الله على يقين .. فأسرى به كيم شاء ، ليريه من آياته ما أراد ، حتى عاين ما عاين من أمره وسلطانه العظيم ، وقدرته التي يصنع بها ما يريد ، (١) .

وطلع الرسول على قریش بهذا الخبر ، وأنه قد أسرى به في ليلته تلك من مكة إلى بيت المقدس ، فبهتوه وكذبوه ، وأطلقوا ألسنتهم بالقول السيئ فيه ، وقال أكثرهم : هذا والله الأمر البين (٢) .. والله إن العير لتطرد شهراً من مكة إلى الشام مدبرة وشهراً مقبلة .. أفينذهب إلى ذلك محمد ، في ليلة واحدة ويعود

(١) السيرة لابن هشام جزء ٢ ص ٢ .

(٢) الأمر — بالكسر — العظيم الشنيع .. « لقد جئت شيئاً أمراً » .

إلى مكة ١٤ ، . ولم يقف الأمر عند كفار قريش بل تجاوزوه إلى ضعف الإيمان من أسلموا . فارتدوا عن الإسلام . وذهب الكفار إلى أبي بكر ليطلعوا على هذا النبأ المثير ، ولعلمهم يجدون عنده ما وجدوا عند ضعف الإيمان ، فقالوا له : هل لك يا أبا بكر في صاحبك ؟ يزعم أنه قد جاء هذه الليلة بيت المقدس . وصلى فيه . ورجع إلى مكة ؟ فقال لهم أبو بكر أنتم تكذبون عليه ! فقالوا : بلى . . ها هو ذاك في المسجد يحدث به الناس . فقال أبو بكر لئن كان قاله لقد صدق . فما يعجبكم من ذلك ؟ فوالله إنه ليخبرني أن الخبر ليآتيه من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار فأصدقه . . فهذا أبعد مما تعجبون منه ! (١) .

قال ابن سحوق : وأنزل الله تعالى فيمن ارتد عن إسلامه لذلك الحادث : وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس ، والسجرة الموعونة في القرآن ، وتخوفهم ، فما يزيدهم إلا طغياناً كبيراً ، (٢) .

والإسراء — كما قلنا — إنما كان شأننا خاصاً بالنبى ، ورحلة روحية تشرح صدره . وتبعش نفسه ، وتذهب بكتير مما ألم به من ضيق وحزن بموت زوجه وعمه ، وتقابل قريش عليه وعلى آله ، وبما لقي من أهل الطائف من لقاء بارد غث ورد سمج قبيح .

وفى مصموم هذا المعنى ينبغي أن نحدد نظارتنا إلى الإسراء . . فهو بهذا الاثنى ليس معجزة للتحدى ، تقف من الناس موقف التعجب لهم ، والتحدى بالإنيان بمائها . . وإنما هي لإخبار بأمر شهده الرسول وحده ، فإذا حدث به كان حديثه الصدق كله . . لا ينبغي لمن آمن بأنه نبي أن يكذبه في شيء مما يقول . . ولهذا كان جواب أبي بكر على من أراد أن يغريه بتكذيب النبى ذلك الجواب الحكيم : والله لئن كان قاله لقد صدق . . لأنه ليخبرني أن الخبر ليآتيه من السماء في ساعة من ليل أو نهار فأصدقه . . فهذا أبعد مما تعجبون منه ، . . لأنه أمين السماء . . لا يكذب أبداً . هذا مبدأ . . يجب أن يسلم به كل من يدخل في هذا

(١) زاد المعاد جزء ٢ ، والسيرة لابن هشام جزء ٢ ص ٤ .

(٢) سورة الإسراء آية ١٠ .

(١٧) — النبى محمد (

الدين ، ويؤمن بالله وبر-وله . . قال تعالى : « وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا » (١) .

ولا على المسلم أن يرد أو يقبل كل ما روى عن الإسراء من أحاديث ، وما ذكر من قصص ، وحسبه أن يؤمن بأن الإسراء برسول الله من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى أمر لاشك فيه ، كما نص على ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى « سبحانه الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله . . لنريه من آياتنا . . إنه هو السميع البصير » .

هذا ما يجب على المسلم الإيمان به من حديث الإسراء . . أما ما وراء ذلك مما اتصل بالإسراء ، وكان منار جدل وخلاف ، كالخلاف حول الإسراء : أكان بالروح أو الجسد ؟ وكالخلافاً في مواطن الإسراء : وهل انتهى عند بيت المقدس أم أن الرسول قد صعد في رفقة جبريل إلى السموات السبع ، ثم انتهى إلى سدرة المنتهى ؟ كل ذلك إن صحح على وجهيه ، أو على وجه واحد منه ، فإنه لا يزيد من قدر الإسراء : ولا ينقص من قيمته . . فالإسراء كما قلنا رحلة روحية للرسول وقد تطول هذه الرحلة أو تقصر ، فليست العبرة في طولها أو قصرها ، وإنما في الآيات الكبرى التى رآها الرسول من آيات ربه . . وقد يطوى الوجود كله في لحظة واحدة للرسول فيرى فيه ما شاء أن يرى ، وقد تطول الرحلة وتمتد ، دون أن يتبدل ما شهد في تلك اللحظة الواحدة .

ومع هذا ، فإن آيتى الإسراء تحدّدان مبدأ الإسراء ومنتهاه . . « من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى » . . ولا تذكران شيئاً عن « المعراج » ، إلى السموات العلا . .

والذى يقرأ القمص التى صورت فيها « رحلة المعراج » يشم منها ريح الصنعة والتلفيق ، وتبرز في أثنائها انعكاسات عجيبة ، لما يدور في بعض العقول ، من تصورات خاطئة ليكامل النبوة وجلالها . .

فمثلاً زواج رسول الله صلى الله عليه وسلم من زينب بنت جحش . مطلقة متبناه زيد بن حارثة . هذا الزواج كان لحكمة عالية - أرادتها السماء لإبطال التبني .

(١) - ورة الحشر آية ٧ .

محافظة على الأنساب . فقد كان التبنى شائعاً عند العرب . . يلحق الابن بغير أبيه ، من يريد إلحاقه به ، فيأخذ في الحياة حكم الابن الحقيقي . . وقد كان زيد بن حارثة مثنى للنبي ، وكان يدعى زيد بن محمد ، فأراد الله إبطال هذه العادة بتسريع سماوى فقال تعالى : « ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه ، وما جعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن أمهاتكم ، وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم ، والله يقول الحق ، وهو يهدي السبيل ، ادعوهم لأبائهم ، هو أقمسط عند الله . فان لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدين ومواليكم » (٢) .

وقد أراد الله سبحانه أن يرى المسلمين تجربة عملية لإبطال هذا التبنى ، فأمر بيه أن يتزوج مطلقة متبناه زيد . . فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكمها لكي لا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً ، (٣) . ولعلك تلح فى قوله تعالى : « فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكمها . . » أن التزويج كان عن أمر الله سبحانه وتعالى إلى نبيه صلى الله عليه وسلم وهذا ما يدل عليه الفعل « زوجناكمها » .

هذه هى واقعة زواج الرسول من « زيب بنت جحش » . مطلقة متبناه زيد بن حارثة . . وقد كان هذا الزواج مثار غم ولمز من المشركين ، والمنافقين ، ودعاة فتنة لمن كان فى قلبه مرض ، ممن دخلوا فى الإسلام .

وقد انتهز واسع قصة المعراج المجام الفسيح للأحداث فى هذا العالم الروحاني ، الذى لا حدود له فجعل لزيد بن حارثة ولزوجته مكاناً هناك ، يقال إن الاسماء هى التى دبرت أمر هذا الزواج والطلاق . . وحسب أنه فى هذا يدفع باطل المشركين والمنافقين الذى تسجوه من هذه الواقعة .

يقول واضع — أو وضعوا — قصة المعراج ، فيما يروى عن رسول الله : « ثم دخل بي — أى بالرسول — إلى الجنة فرأيت فيها جارية لعساء ، فسألتها لمن أنت ؟ وقد أعجبني حين رأيتهما . فقالت لزيد بن حارثة ، فبشر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة (٢) ١ » .

(١) سورة الأحزاب : ٥ ، ٤ . (٢) سورة الأحزاب آية ٣٧ .

(٣) السيرة لابن هشام جرد ٢ ص ١٥ .

أهذا قول يقبله العقل ويطمئن إليه القلب في مسرى رسول الله إلى الملائ الأعلى ؟ وهل لمثل هذا كانت رحلته صلى الله عليه وسلم إلى عالم النور والحق ؟ وهل خات الجنة من مظاهر الجمال والجلال فيقف الرسول عند تلك الجارية اللعساء ويسألها هذا السؤال : لمن أنت ؟ كأنما يريد لها لنفسه ؟ وهل خات الجنة من الحور العين . أشكالا ، وألوانا ، حتى يقف ويظل الوقوف عند هذه الجارية اللعساء ؟ .

لقد كانت لحظات الرسول خلال الأسراء مشحونة بالأحداث الباهرة المذهلة، التي تعبر الأنفاس فلا تدع مجالاً لمثل هذه التوافه من الأمور.

ثم إن كان لقصة زيد وزواجه بزينب صدى في مستقبل الأيام ، فهل يقنعنى ذلك أن يكون بحيث يبشر به ، وتصب له الأعلام قبل أن يقع ببضع سنين ؟
لأن ذلك من إماء الفهم الخاطيء للحكمة من زواج الرسول المكرم بزينب بنت جحش طيبة متبناه زيد بن حارثة — أولاً ، ثم للفهم الخاطيء تانياً للحكمة من الإسراء برسول الله ، تلك الحكمة التي صرح بها القرآن المكرم في قوله تعالى :
« لريه من آياتنا » . . . وبعيد أن تكون رؤية الرسول لهذه الفتاة للعساء في عرصات الجنة آية أبداً . .

هذا، ويرى بعض أهل العلم أن الإسراء كان بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى دون عروج إلى السماء كما قلنا، وبعض أهل العلم أيضاً يرى أن الإسراء كان بالروح لا بالجسد وأنه كان رؤيا منامية. ورؤيا الأنبياء حق تنزل منزلة الوحي، وقد جعلها إبراهيم عليه السلام وحياً أوحى به الله سبحانه وتعالى إليه في ذبح ابنه إسماعيل: «قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى؟ قال يا أبت افعل ما تؤمر.. ستجدني إن شاء الله من الصابرين.. فلما أسلما وتله للجبين، ونادياه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نختبر المحسنين،^(١). وهل كان الوحي بحمل إبراهيم على أكثر من هذا؟ لقد قدم ابنه للذبح بيده، واستجاب الابن لدعوة أبيه، لأنه يعلم كما يعلم أبوه أن هذا أمر من الله. وأن الرؤيا تنزل منزلة الوحي عند الأنبياء.

(١) سورة الصافات آية ١٠٥ .

وحدث ابن إسحق قال : حدثني بعض آل أبي بكر أن عائشة رضي الله عنها كانت تقول : « ما فقدت جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن أسرى بروحه » (١) .

وقال ابن إسحق : « حدثني يعقوب بن عتبة بن المنيرة بن الأحنس أن معاوية ابن أبي سفيان كان إذا سئل عن مسرى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « كانت رؤيا من الله تعالى ، صادقة .. » فلم ينكر ذلك من قوله ، لقول الحسن إن هذه الآية أنزلت في ذلك ، وهي قول الله تعالى : « وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس » ، ولقول الله تعالى في الخبر عن إبراهيم إذ قال لابنه : « يا بني : إنني أرى في المنام أني أذبحك » ، فمضى ذلك ، فعرفت أن الوحي من الله يأتي الأنبياء أيقاظاً ونياماً .. ثم يقول ابن إسحق : والله أعلم أي ذلك كان قد جاءه ، وعان فيه ما عان من أمر الله ، على أي حاله كان ، نائماً أو يقظان ، كل ذلك حق ، وصدق » (٢) .

وقد فصل القاضي عياض في كتابه « الشفا » مذاهب القول في الإسراء ، والمعراج .. وهل كان مع الإسراء معراج . وهل كان الإسراء بالروح أو بالروح والجسد . قال : « اختلف السلف والعلماء : هل كان إسراؤه بروحه أو جسده على ثلاث مقالات . فذهبت طائفة إلى أنه إسراء بالروح ، وأنه رؤيا منام . مع اتفاقهم أن رؤيا الأنبياء حق ، ووحي ، وإلى هذا ذهب معاوية ، وحكي عن الحسن ، والمشهور عنه خلافة ، وإليه أشار محمد بن إسحق ، وحدثهم قوله تعالى : « وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس » وما حكوه عن عائشة رضي الله عنها : « ما فقدت جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم » (٣) .

(١) السيرة لابن هشام جزء ٢ ص ٥ .

(٢) السيرة لابن هشام جزء ٢ ص ٦ .

(٣) الذي يروى عن عائشة أنها كانت تقول ما فقدت جسد رسول الله ، ولكن أسرى بروحه ، وهذا هو الذي يمكن أن يستقيم عليه القول ، لأن الإسراء كان قبل الهجرة بهو ثلاث سنوات ، والرسول لم يدخل بعائشة إلا بعد الهجرة . فكيف تحدث بأنها ما فقدت جسد رسول الله ؟ وإنما يصح أن تروى خبراً من أخبار الإسراء ، سمعته ممن يحدث به ، أو سمعته من النبي صلى الله عليه وسلم .

وقوله — أى قول النبي فيما يروى عنه في حديث الإسراء — «بنا أنا نائم في المسجد الحرام ..» وذكر القصة ، ثم قال في آخرها : فاستيقظت وأنا في المسجد الحرام .

وذهب معظم السلف ، والمسلمين ، إلى أنه إسراء بالجسد ، وفي الیقظة ، وهذا هو الحق ، وهو قول ابن عباس ، وجابر ، وأنس ، وحذيفة ، وعمر ، وأبي هريرة ، ومالك بن صعصعة ، وأبي حية البدرى ، وابن مسعود ، والضحاك ، وسعيد بن جبیر ، وقتادة ، وابن المسيب ، وابن شهاب ، وابن زيد ، والحسن ، وإبراهيم ، ومسروق ، ومجاهد ، وعكرمة ، وابن جريج .. وهو دليل قول عائشة .. وهو قول الطبري ، وابن حنبل ، وجماعة عظيمة من المسلمين ، وهو قول أكثر المتأخرين من الفقهاء والمحدثين ، والمتكلمين والمفسرين .

وقالت طائفة : كان الإسراء بالجسد يقظة إلى بيت المقدس ، وإلى السماء بالروح ، واحتجوا بقوله تعالى : «سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، فجعل إلى المسجد الأقصى غاية الإسراء الذى وقع التعجب فيه بعظيم القدرة ، والتمدح بتشريف النبي محمد صلى الله عليه وسلم به ، وإظهار الكرامة له بالإسراء إليه .. قال هؤلاء . ولو كان الإسراء بجسده إلى زائد على المسجد الأقصى لذكره ، فيكون أبلغ في المدح .

وبعد أن ينتهي القاصي عياض من عرض هذه الآراء ؛ يعرض رأيه هو ، فيرجح -إفب القول بأن الإسراء كان بالروح والجسد معاً .. يقول :

« والحق من هذا ، والصحيح إن شاء الله أنه إسراء بالجسد والروح في القصة كلها — أن الإسراء والمعراج — وعليه تدل الآية ، وصحيح الأخبار والاعتبار ، ولا يدل عن الظاهر والحقيقة إلى التأويل إلا عند الاستحالة ، وليس في الإسراء بجسده ، وحال يقظته استحالة ، إذ لو كان مناماً لقال : بروح عبده ، ولم يقل بعبده ، وقوله تعالى : «ما زاغ البصر وما طغى» (١) ولو كان مناماً لما كانت فيه آية ولا معجزة ، ولا استبعده الكفار ، ولا كذبوه فيه . ولا ارتد به ضعفاء من

أسلم ، وأفقتوا به ، إذ مثل هذا من المنامات لا يسكر .. بل لم يكن ذلك —
أى الإنكار — منهم — إلا وقد علموا أن خبره إنما كان عن جسمه ، وحال
يقظته ا « (١) » .

ونعود بعد هذا فقول إن الخلاف فى الإسراء بالجسد أو الروح خلاف
لا يؤثر فى حقيقة الإسراء ، وما نال الرسول فيه من أمداد ، وما رأى من آيات ..
وأن قدرة الله لا تقيد بتلك القيود التى تقتضيها الضرورات البدنية .. وخير
من هذا الخلاف الذى يذهب بعظمة الإسراء ، ويمزق حجب الجلال الذى يحف
به ، ويعبث بالستر الملقى عليه من عالم الروح — خير من هذا أن ندع الرسول
الكريم فى موكب جلاله وعظمته ، تحف به ألطاف ربه ، وتحده رعايته
إلى حيث يسبح فى أنوار الحق ، ويطعم بروحه من طيبات الملائ الأعلى .

أما أن نحسد العالم العلوى ، ونحيله إلى أشياء من عالم التراب الذى نعيش فيه
فذلك مما يهون من خطر الإسراء ويبخس من قدره .. فإن الذى يطالع قصة
الإسراء على تلك الصورة المجسدة التى صورت بها ، تموت فى نفسه كثير من تلك
المشاعر الروحية ، التى كان حقيقة أن تأثيرها فيه حادثة الإسراء لو ذهب من طريقها
هذا الركام الكثير من العوائق والسدود . ولا تنخدع بتلك الأصابع الساذجة
التي يلمطخ بها الفصاح ووجه الحقائق المادية ليجعلوا لها من تلك الأصابع وجهاً
تدخل به إلى العالم العلوى .. فإن هذا المسكياج ، المفضوح يجعلها مسخنة أكثر
منها حقيقة .. فالبراق الذى يهب للرسول ليمتطيه إلى العالم العلوى ليس إلا أنا
ركب عاينه جناحان من ريش أفصار لعبة من لعب الأطفال التى يؤلفونها من
حطام بعض لعبهم التى انتهى دورها معهم .. ثم هذا الحجر الذى يند إلى الأنياء
دوابهم عند بيت المقدس ، والحلقات المغروسة فى ذلك الحجر لتمسك المهود
واللحم .. إنها جميعها لتمسك بالمعانى الكريمة الطيبة التى كان ينبغي أن يجدها المرء
فى نفسه من حادثة الإسراء لو انزاح هذا الحجر من طريقها ، وانزاحت معه
الدواب ، واللحم ، والمقاود ، والسروج وغيرها ، مما يكون فى مرابط الحيوان !

وعلى أى فإن الإسراء على أية صورة وقع ، لم يكن فيه ما يخرج الرسول عن
بشريته . ويباعد ما بينه وبين الإنسان الذى يعيش فيه . . فقد عاد الرسول بعد
الإسراء لم ينكر الناس من ظاهره شيئاً . حتى أعداؤه أنفسهم لم يروا عليه أماراة
من أمارات هذه الرحلة المباركة . . فإن خيرها كله كان مخبوءاً فى كيانه ومنطويًا
فى صدره ، وساريًا فى روحه . . لأنه شأن من شأن الله مع نبيه ، وزاد روحى
زوده به ، تكريمًا له ، وترويحاً عن كيانه المحمىء المكدر .

✽ ✽ ✽

ونف عند هذا القدر من عرضنا لمعجزات الرسول ، وما دخل عليها من
إضافات ، ومرفعات . . بيد المتنطعين من المسلمين ، والمتعصبين من غير المسلمين .
ولكن قبل أن نرسلها من أيدينا نعود فنقرر مرة أخرى أن هذه المعجزات
— ما صح منها وما لم يصح — ليست هى المعجزة التى أودعتها السماء يد النبى ،
والتي بها كتب الله لرسالته الشمول والخلود .

وإن يكن فى حياة النبى من خوارق — ولابد من أن يكون — فإن هذه
الخوارق تسكريم له ، وفضل من الله على نبيه . ونفحة من نفحات الجوة ، وشذى
من شذاها العطر . . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم . .
ولدى الكريم من هذا الفضل ما لم يكن للبشر غيره . . والله سبحانه وتعالى
يقول له . « وكان فضل الله عليك عظيما » .

أما المعجزة الكبرى التى وضعها الله بين يدى الرسول . فهى تلك المعجزة
الباقية الخالدة ، أبد الدهر . . هى القرآن الكريم .

الباب الثامن

الرسول .. والمعجزة الكبرى

« لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ
لَرَأَيْنَاهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ..
وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ..
لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ » .

القرآن هو معجزة النبي .. المعجزة التي قامت عليها دعوته ، واستقامت بها
حجته ، وانتمت لإلهها شريعته !
فالقرآن — من بين الكتب السماوية — ليس كتاب شريعة وحسب ،
ولمّا هو كتاب شريعة ، ودلائل نبوة ! وليس كذلك الكتب السماوية الأخرى
حيث جاءت الكتب والمصحف يحملها أنبياء الله ورسله في يده ، بينما يحملون
في اليد الأخرى معجزات مادية تدل على صدقهم ، وتشهد لبرّتهم !
فالديانة الموسوية .. كتابها السماوي هو التوراة ، وهو دستور شريعته .
ولمّا جانب هذا الكتاب قامت معجزات تشهد له كما تشهد للرسول الذي حمله ..
فكانت عصى موسى ، وأفعاله الخارقة ، وكانت يده التي يدخلها في جيبه فتخرج
بعضاء من غير سوء !

والديانة المسيحية .. كتابها السماوي الإنجيل .. وهو — مع التوراة —
دستور هذه الديانة ، ولمّا جانبه قامت معجزات السيد المسيح ، لتشهد له ،
وللكتاب الذي جاء به . فكانت معجزاته التي طمع بها على الناس ليمصدقوا به ،
وبرسالته .. من إحياء الموتي ، وإبراء الكمّة والبصر ، وإنزال مائدة من
السماء وغير ذلك من المعجزات التي وضعها الله بين يدي السيد المسيح !

وقد جاءت الرسالة الإسلامية في أسلوب آخر غير هذا الأسلوب . . جاءت بكتاب يشرح شريعة كاملة ، تتناول كل ما يمس حياة الإنسان الروحية والعقلية ، والمادية ، في جانبها ، الدنيوي والآخرى — دون أن يحيل إلى كتاب آخر ، أو يشد أتباعه إلى شريعة أخرى — ثم جعل في كيان هذا الكتاب الدلائل الناطقة بصدقه ، والشواهد القائمة على أنه من عند الله ، وأن الرسول الذي جاء به ، هو رسول الله !

ومجيء القرآن على تلك الصورة الفريدة العجيبة ، قد جعل له سلطاناً على العقول والقلوب ، بما أودع فيه من صور الإعجاز التي يشهد بها المتأمل به — قارئاً أو مستمعاً — في كل آية من آياته ، من غير أن يكون في زمن نبوة ، أو في حضرة نبي !

وقد استمعت الجن إلى القرآن فملكت آياته قلوبهم ، واستولت روائعه على عقولهم ، فوقفوا منه موقف العجب والدهش . ثم الإذعان لسلطانه ، والإيمان بدعوته ، التي يدعو إليها .

قال تعالى : « وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن ، فلما حضروه قالوا أنصتوا : فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين ، قالوا : يا قومنا : إنما سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى ، مصدقاً لما بين يديه . يهدي إلى الحق ، وإلى طريق مستقيم » (١) وقال جل شأنه : « قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن ، فقالوا إنما سمعنا قرآناً عجيباً ، يهدي إلى الرشd ، فآمنّا به ، ولن نشرك بربنا أحداً » (٢)

إن الجن تعجب من هذا القرآن ، وتجد فيه ما لا تجد فيما تسمع من حكم الحكماء ، وأشعار الشعراء ، وفلاسفة الفلاسفة ، وقصص القصاص ، وسجع السكبان ، وترانيم الأحبار والرهبان .

فهذه شهادة تجيء بإعجاز القرآن من أمة الجن التي من شأنها أن تستعلى على

(١) سورة الأحقاف آية ٢٩ ، ٣٠ .

(٢) سورة الجن آية ١ — ٢

كل شيء في عالم الإنسان ، وتستصغر شأنه . . فإن الجلى تملك من القوى ما لا يملك
الناس ، وتأتى من الأعمال ما يعجز عنه البشر . ولهذا ينسب إليها كل عمل رائع ،
ويوصف بها كل ذى حيلة وحول من الناس ، وقد سخر الله الجن لسلطان عليه
السلام لتخرج له من الأعمال ما يعجز الناس عنه . . يعملون له ما يشاء من
محاريب ، وتمائيل وجنات كالجواب . وقدور راسيات ،^(١)

ولما للقرآن من هذا الشأن وتلك المنزلة ، وهذا الامتياز على الكلام ؛ فقد
أضفى عليه سبحانه ونعالى من الصفات ما يشهر بأنه ذات لها حياتها ، وكالاتها ،
ولها فاعليتها في الحياة ، وتمسكها في الوجود .

« يس . . والقرآن الحكيم » . . ولأنه في أم الكتاب لدينا لعلى حكيم ،^(٢)
فقد وصف القرآن بالحكمة . . وهي صفة والذات العاقلة المدبرة ، المتصرفة .
كذلك وصف بالعزة في قوله تعالى : « ولأنه لكتاب عزيز ، لا يأتيه الباطل
من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد »^(٣)

والعزة صفة للعاقل الذى ترفعه صفاته إلى حيث لا يناهه هون ، ولا يلحقه ضعف ،
ووصف كذلك بالمجادة في قوله تعالى : « ق . . والقرآن المجيد » . . والمجادة
مقام من مقامات القوة والمنعة ، من يلحقها فقد حانقه الحزى والضعف .

وليس هذا بالكثير على كلام ، هو من كلام رب العالمين . . نزل به الروح
الأمين على رسوله الكريم . . « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً
متصدعاً من خشية الله »^(٤) .

ومن أجل هذا كان للقرآن هذا السلطان الأسر على النفوس . . فما استمع
إليه مستمع حتى وجد له من الرهبة والجلال ما لا يحصى شيئاً منه لأروع آيات
البيان ، من صور الكلام

جاء عتبة بن ربيعة إلى رسول الله ، موفداً إليه من قريش ، يدعوه إلى
ما أرادت قريش أن تدعوه إليه ، من ترك هذا الدين الذى فرق به بين قومه ،

(١) سورة سبأ: آية ١٥ . (٢) سورة الزخرف : آية ٤٣ .
(٣) سورة فصلت : ٤١ — ٤٢ . (٤) سورة الحشر: آية ٢١ .

وأثار دواعى العداوة بين الصديق والصديق ، والتريب والقريب ، وعرض عليه ماعرض من صور الإغراء للتخلل عن دعوته . وكان فيما عرض له ، أن تلتزم له قريش كل من حذق فى معالجة الصرع والجنون من الكهنة والعرافين ، إذا كان مابه مس من الجن ، أو عارض من الجنون . وأن يجعلوا له مايشاء من المال إن كان ذلك غايته من هذه الدعوة التى يدعوا إليها ، أو يجعلوه ملكا عليهم إن كان يبغي الملك والمطان .

فقال له الوليد فيما قال : يابن أخى : إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد ملكا ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذى يأتىك رثياً تراه ، لا تستطيع رده عن نفسك ، طلبنا لك الطب ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نرتك منه . !

فلما فرغ عتبة ورسول الله يسمع قال : أقدم فرغت أبا الوليد ؟ قال : نعم . قال : فاستمع منى ؟ قال : أفعل ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بسم الله الرحمن الرحيم . . حم تنزيل من الرحمن الرحيم ، كتاب فصلت آياته ؛ قرآناً عربياً لقوم يعلمون ، بشيراً ونذيراً ، فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون (١) » ، ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها عليه ، فلما سمعها عتبة أنصت لها ، وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يستمع منه . ثم انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السجدة فسجد . ثم قال : قد سمعت أبا الوليد ما سمعت ، فأنت وذاك !

فقام عتبة إلى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله ، لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به ! ! فلما جلس إليهم قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟ قال ورأى أنى سمعت قولاً ، والله ما سمعت مثله قط ؛ والله ما هو بالشعر ؛ ولا بالسحر ولا بالكهانة . . يامعشر قريش : أطيعونى واجعلوها بى ، واخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت نبأ عظيم . فإن تصبه

العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فلكم ملسكم وعزه عزكم ،
وكنتم أسعد الناس به ، فقالوا : سحرك يا أبا الوليد بلسانه ! ، فقال هذا رأي فيه
فاصنعوا ما بدا لكم. (١) .

والرسول الكريم يصف القرآن بصفات تكشف عن الخير الكثير المخبوء
فيه ، وتبين عن الزاد الطيب المشتغل عليه .

يقول النبي صلوات الله وسلامه عليه : « إنه ستكون فتن كقطع الليل .. قيل
فما المجاة منها يا رسول الله ؟ قال : كتاب الله تبارك وتعالى .. فيه نبأ من قبلكم ،
وخبر ما بعدكم .. وحكم ما بينكم . وهو فصل ليس بالهزل .. من تركه تحبباً
قسمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله .. وهو حبل الله المتين . ونوره
المبين ، والذكر الحكيم ، والصراط المستقيم . هو الذي لا تزيف به الأهواء
ولا تنجب معه الآراء . ولا يشبع منه العلماء ، ولا يملأه الأقباء ، من علم علمه
سبق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن اعتصم به فقد هدى إلى
صراط مستقيم ، (٢) .

وقال صارات الله وسلامه عليه : « من أراد علم الأولين والآخرين فليثق
بالقرآن » .

من أجل هذا الذي ضم عليه القرآن من جلال ورواء ، مع ما فيه من العلم
والحكمة — فقد وقف القرآن تناحاً عالياً عن أن يطاوله قول ، أو يدانيه بيان ..
خرست الألسنة أن تذكرك مسالكه ، وأن تبلغ مراميها .. وعرف أصحاب اللسان
والفصاحة مكانهم من الاستخزاء والعجز إذا بدا لهم أن يحاكوه ، أو يجروا على
سننه ، فأمسكوا ما جرى على ألسنتهم من كلام أرادوا أن يحروه في ميدان القرآن ،
يقول ابن عطية في مقدمة تفسيره المسمى « الجامع المحرر » : « ويظهر لك قصور
البشر مطاولة القرآن — أن الفصيح منهم يضع خطبة أو قصيدة متفرغ فيها جملة

(١) السيرة لابن هشام جزء ١ ص ٢١٣ .

(٢) صحيح مسلم

ثم لا يزال ينقحها حولاً كاملاً ، ثم تعطى لأحد نظيره ، فيأخذها بقريحة خاصة ، فيبدل فيها وينقح ، ثم لا تزال كذلك فيها مواضع للنظر والبدل .

وكتاب الله لو نزع منه لفظة ثم أدير لسان العرب في أن يوجد أحسن منها لم يوجد » (١)

سمع أعرابي قارئاً يقرأ ... : « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله » ، ثم جعل فاصلة الآية . « والله غفور رحيم » فقال الأعرابي : ما هذا ؟ فقبل له قرآن ، فقال ما هذا بقرآن . فتنبه القارئ ، فصاح فاصلة الآية بقوله تعالى : « والله عزيز حكيم » فقال الأعرابي : عز ، لحكم ، فقطع !!

فأجاز القرآن في ذاته حقيقة مقررة لم ينازع فيها أحد من أولياء الدعوة الإسلامية أو خصومها ، فقد وقف متجدياً كل ذى لسان منذ نزل إلى اليوم أن يأتي بآية أو سورة من مثله ، فلم يكن في الناس من وقف في وجه هذا التحدى ول يكون أبد الدهر .

يقول الجاحظ : إن « محمداً » صلى الله عليه وسلم مخصوص بعلامة لها في العقل مرقع كمرقع فلق البحر من العين ، وذلك قوله لقريش خاصة وللعرب عامة ، مع ما فيها من الشعراء ، والخطباء ، والبلغاء ، والدهاء ، والحلماء ، وأصحاب الرأي والمكيدة والتحارب والنظر في العاقبة — إن عارضتموني بسورة واحدة فقد كذبت في دعواي وصدقت في تكديبي .

« ولا يجوز أن يكون مثل العرب في كثرة عددهم واختلاف علمهم ، والكلام كلامهم ، وهو سيد عملهم ، فقد فاض بيمانهم ، وجاشت به صدورهم ، وغالبتهم قوتهم عليه عند أنفسهم حتى قالوا في الحيات والعقارب والذئاب ، والكلاب ، والخنافس ، والجعلان ، والخمير ، والحمام ، وكل مادب ودرج ، ولاح لعين وخطر على قلب ولهم بعد أصناف النظم وضروب التأليف كالقصيدة والرجز والمزدوج

(١) مقدمتان في علوم القرآن . . نشرها أثر جفري سنة ١٩٥٤ م ٢٧٩ .

والمجانس ، والأسجاع ، والمشور.. وبعد ، نفذ هاجوه من كل جانب ، وهاجى أصحابه شعراءهم ونازعوا أحلامهم وحاجوه فى المواقف وحاصوه فى المواسم وبادروه العداوة ، وناصبوه الحرب ، فقتل منهم وقتلوا منه ، وهم أنبت الناس حقداً ، وأبدهم مطلباً ، وأذكروهم لخير أو لشر ، وأهجم بالعجز ، وأمدحهم بالقرة - ثم لا يعارضه معارض . ولم يتكف ذلك خليب ولا شاعر ! ؟

ومحال فى التعارف ، ومستكر فى التصديق ، أن يكون الكلام أحمر عندهم ، وأيسر ممونة عليهم ، وهو أبلع فى تكذيبه ، وأنقض لقوله ، وأجدر أن يعرف ذلك أصحابه فيجتموا على ترك استعماله ، والاستغناء به ، وهم يبدلون معجمهم وأموالهم ويخرجون من ديارهم ، فى إطفاء أمره ، وفى توهين ماجام به - ولا يقولون بل ولا يقول واحد من جماعتهم : لم تقتلون أنفسكم وتستعملون أموالكم وتخرجون من دياركم ؟ والحيلة فى أمره يسيرة والمأخذ فى أمره قريب ؟ ليؤلف واحد من شعرائكم وخطباءكم كلاماً فى نظم كلامه كأقصر سورة يتخذ لكم بها ، وكأصغر آية دعاكم إلى معارضتها . ، (١)

ويقول الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده :

« فالإسلام فى هذه الدعوة ، والمطالبة بالله ووحدايته لا يعتمد على شيء سوى الدليل العقلى ، والفكر الإنسانى الذى يحرى على نظام نظرى ، وهو ما نسميه النظام الطبيعى .

« فلا يدهنك بخارق العادة ، ولا يغشى بصرك بأطوار غير معتادة ، ولا يتخذش لسانك بمقارعة سماوية ، ولا يقطع حركة فكرك بمسيحة إلهية (٢) .

ويقول أيضاً :

« ذلك الخارق المتواتر المعول عليه فى الاستدلال لتحصيل اليقين هو القرآن وحده ، والدليل على أنه معجزة خارقة للعادة ، تدل على أن موحيه هو الله وحده ،

(١) رسائل الجاحظ ص ١٤٣ .

(٢) الإسلام والديمرانية ص ٥٥ .

وليس من اختراع البشر. هو أنه جاء على لسان أمي لم يتعلم الكتابة ، ولم يمارس العلوم ، وقد نزل على وتيرة واحدة ، هاديا للضال ، مقوما للمعوج ، كافلا بظام عام لحياة من يهتدى به من الأمم . . وهذا الخارق قد دعا الناس إلى النظر فيه بعقولهم ، وطولبوا بأن يأتوا في نظرهم على آخر ما تنتهي إليه قوتهم ، فإن وجدوا طريقا لإبطال إعجازه أو كونه لا يصلح دليلا على الداعي فلهيهم أن يأتوا به . . قال تعالى : « وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله .

مء جزء القرآن جامعة من القول والعلم ، وكل منهما بما يتناولوه العقل بالفهم فهي معجزة عرضت على العقل . . وأطلقت له حق النظر في أنحاءها ، ونشر ما انطوى في أثنائها . . فهي معجزة أعجزت كل طوق أن يأتي بمثلها ، ولكنها دعت كل قدرة أن تتناول ما تناء منها . أما معجزة موت حي بلا سبب معروف للموت ، أو حياة ميت ، أو إخراج شيطان من جسم ، أو شفاء علة من بدن ، فهي ما ينقطع عنه العقل ، ويحمد لديه الفهم ، وإنما أتى بها الله على يد رسله لإسكات أقوام غابهم الوهم ، ولم يضئ عقولهم نور العلم . . وهكذا يقيم الله بذرته الآيات للأمم على حسب الاستعدادات ، (١) .

• • •

لا يعرف التاريخ البشري كتاباً لقي من العناية والاهتمام ما لقي القرآن الكريم من عناية أتباعه ، واهتمامهم به ، والعناية بهم إليه .

نقول ذلك . . وبين أيدينا الحجة القاطعة في هذا العدد المديد من المؤلفات التي خلصت لخدمة القرآن . وقامت لاستكشاف أسرارهِ ، واجتناء ثمرات هديه .

ومن أجل هذا كانت تلك الألوف المؤلفات من كتب التفسير التي ضمت عليها المكتبة العربية ، والتي ذهب أضعافها في ثمانية الفتن والأحداث التي مرت بالمسلمين . وإذا كانت كتب التفاسير هي الطريق المباشر الذي سلكه المفسرون لخدمة القرآن ، فإن هناك طرقاً أخرى سلكها السالكون لخدمة كتاب الله ، وهي لا تقل أثراً في خدمته عن هذا الطريق .

فهنالك العلوم الكثيرة التي عني بها المسلمون دراسة وتأليفاً .. بعضها عربي صميم ، وبعضها أخذه العرب عن غيرهم من الأمم ، فعلوم القراءات ، والفقه ، والنحو ، واللغة ، والأدب ، والمنطق ، والفلسفة ، والطب ، والرياضة ، والفلك .. وكثير غيرها إنما اتجه إليها المسلمون أول ما اتجهوا لخدمة القرآن ، وتمهيد الطرق لفهمه ، وتمهية الأجواء للدلالة على إعازه ..

فكانت علوم اللغة مثلاً لصيانة مادته .. وكان علم النحو لحفظ إعرابه ، والأدب لتذوق أساليبه ، كما كان المنطق والفلسفة للرد على خصومه .. وهكذا .

ومن عجب أن يكون هذا كله من عمل الأفراد ، ومن وحى ضمائرهم ، دون أن تقوم عليه دولة ، أو تجمع له جماعة .. ولهذا كان ذلك الاختلاف المتشعب في كل علم ، وفي كل فن من فنون العربية وعلومها .. إذ كان كل فن ، وكل علم قد اشترك فيه أفراد الأمة — أعني علماءها — فرداً فرداً ، كل فرد له رأيه ، وله فهمه ، ما وسعه الرأي والفهم .

فالمسألة الواحدة يلقاها المفكرون جميعاً ، كل برأيه ، يتناولها حسب استعداده ، واجتهاده .

ومن هنا كان الاختلاف الذي لا يكاد يحصر ، والذي لا نجد له شبيهاً عند أمة من الأمم ، أو في لغة من اللغات .

وحسبنا أن نشير إلى الفقه وما في أحكامه من آراء ، والنحو وما في مسائله من خلاف .

وقد كان لهذا الخلاف في الرأي آثاره المحمودة ، وآثاره السيئة معاً ..

فمن آثاره المحمودة أنه يرى في أي مسألة ، وفي أي حكم آفاقاً من النظر وأنماطاً من الفهم ، يستطيع الواقف على هذه الآراء المتخالفة أن يرى الأمر من جميع جوانبه ، وأن يلقاه من كل وجه من وجوهه .

فإنه في مجال هذا الآراء المتخالفة ، والمقولات المتباينة . يتعري الشيء من لقائف الغموض ، ويتبدى لعين النظائر من غير حجاب .

وهذا المحمود ذاته هو المذموم أيضاً ، فكثيراً ما يشير هذا التناقض للنسكرة بلبلة في الفكر ، واضطراباً في الرأي ، تذهب بالمرء فيه المذاهب ، فتتركبه الحيرة حين تتصادم أمامه الحجج ، فلا يدري ما يأخذ وما يدع ، وما يعمل منها أو يهمل .

وعلى أي فإن كثرة الآراء حول موضوع من الموضوعات إنما هو تمحيص لله آخر الأمر ، ولا يلبث أن يتهدى الناس — مع الزمن — إلى الرأي الراجح فيه ، والوجه السليم منه .

فلا ننزع إذن لكثرة الخلافات التي دارت حول المسائل الإسلامية - وهي في النروع لافي الأصول — ولا ننظر إليها إلا على أنها أضواء كاشفة ، وشعاعات مضيئة إن زاعت بها بعض الأبصار ، فإنه يهتدى بها معظم الأبصار .

° ° °

ونعود إلى حديثنا عن القرآن . . فنقول :

لقد بلغت عناية المسلمين بالقرآن أن عدوا حروفه ، حرفاً حرفاً ، وكلماته كلمة كلمة ، وآياته آية آية . . بل وأكثر من هذا .. لأنهم ردوا حروفه إلى حروف المجمع كلها ، وحصروا حظ كل حرف منه .

عناية لا نظن أنها وجدت لأي أمر اتصل بحياة الناس ؛ أفراداً أو جماعات .. ولم تسكن هذه العناية بالقرآن إلا من وحي الإيمان به ، وبأنه من عند الله ، وأن كلماته من كلام الله .

فلم تكن نظرة المسلمين إلى القرآن نظرتهم إلى كتاب سماوي يحمل إلى الناس شريعة ، ويقيم لهم ديناً ، وإنما هو فوق ذلك كلام الله الأزلي الأبدي .. ففي كل كلمة أسرار ، وفي كل حرف سر وبركة .

وقد سمح القرآن بأن يفتدى هذا الشعور عند المسلمين ، وأن يمالأ أيديهم من أسرارهِ وعجائبهِ ، وأن يصدقهم القول بأنه من عند الله ، وأنه كما يقول الله تعالى

« لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بشئ هذا القرآن لا يأتون بشئ ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً » (١) .

وهذا التحدى للجن والإنس على مدى الأزمان هو الذى يقطع كل جدل بأن القرآن هو كلام الله ، وأنه معجزة الرسول الخالدة ، وأن هذه المعجزة قائمة ، وأن هذا التحدى قائم لا تنقضى الأيام ، مهما ولدت الحياة من ذكاء وعبقرية ، ومهما جاء فى الأجيال من أذكىاء وعباقرة .

* * *

والظاهرة الواضحة فى التحدى بالقرآن أنها لون فريد فى التحدى . . فما عرف الناس قولاً لقاتل مهما بلغت بلاغته ، وعلت فصاحته ، أن يتحدى الناس جميعاً أن يقولوا مثل قوله . .

إن موازين الكلام لا تخضع لقاعدة محددة ، ولا تنزل عند شرط معين . . وإنما هى موازين تخضع — فى قدر كبير منها — إلى المزاج ، وإلى العاطفة والوجدان . . إلى جانب العقل ومنازع التفكير .

إن فن القول واحد من الفنون الجميلة كالموسيقى ، والسمت ، والرسم . . تتفاوت أنظار الناس فيها ، وتختلف معاييرهم لها . .

ومن هنا لم يحفظ التاريخ الإنسانى حكماً قاطعاً على عمل فنان أو جانب من عمله؛ أنه نهاية القمة ، التى لا يلقى لها مرتقى ، أو لا يحاوها أحد .

وغاية ما يمكن أن يقال لإزاء عبقریات الفنون وروائىها أنها أعمال خالدة ، أو أنها فريدة من فرائد الفنون .

نخذ مثلاً لذلك الشعر الجاهلى . .

لم يستطع النقاد على كثرة محاولتهم وطول نظرهم فيه ، أن ينعوا شعر شاعر فى المنزلة المنفردة وحدها بالمسكان الأول . . وغاية ما بلغوه فى هذا أن عدوا جماعة من كبار الشعراء ، ورفقوهم إلى المسكان الأول جميعاً ، وأفسحوا لكل واحد طريقاً يدخل منه إلى هذا المسكان . . أمرؤ القيس إذا ركب ، وزهير إذا رغب ،

والنابغة إذا رهب ، والأعشى إذا طرب (١) . . إلى آخر هذه الأحكام التي كانوا يحكمون بها على عمل شاعر من أولئك الشعراء الكبار .
وأكثر من هذا ، فإنهم في ديوان الشعر العربي عامة لم يتفقوا على البيت الأول أو القصيدة الأولى في هذا الشعر .

وهذا الذي نقوله في الشعر العربي نقوله أيضاً في الشعر الأوربي . . فهذا « شكسبير » قد غاش زمناً في منزلة الرجل الإلهي ، ثم لم يلبث الزمن أن أضاف أدبه إلى المتحف الذي يضم كنوز التراث الإنساني .
إن شعر « شكسبير » وإن كان آية الآيات في روعة البداية ، وعمق الفكرة ، ورصانة الأسلوب . . فإنه قد مضى زمنه . . وأصبح من مخلفات القرون ، وآثار الأولين . . لا يلائم روح العصر ، ولا يجري مع أسلوب التعبير الذي يتفق مع أذواق الناس . . إنه أشبه بالخلي التي كان يلبسها ملوك العصور الوسطى . . رائعة ، معجبة بألوانها ، وأصباغها . . إلا أنها لا تلبس في هذا العصر إلا في حفلات السكر ، وعلى مسارح التمثيل في الروايات التاريخية .

* * *

وإذا كان القرآن بهذه المنزلة في قلوب المسلمين ، وإذا كان ذلك هو إيمانهم به ، وتقديرهم له ، واجتماعهم عليه ، فإن أعداء الإسلام وقفوا من القرآن موقف المستخف به ، العائب له ، المشكك في منبعه الذي فاض منه ، وفي الوحي الذي نزل به ، وفي الرسول الذي دعا الناس إليه !

وسنرى كيف كان كيد أعداء الإسلام لكتاب الإسلام ، ولنبي الإسلام . وكيف كانت رمياتهم الطائشة تكاد تصيب المقاتل من رمايتها .

ويلوح هنا سؤال : إذا كان القرآن على تلك الصفة الذي تجعل له ذلك السلطان القاهر على النفوس ؟ وإذا كان يحمل في كيانه دلائل إعجازه . فما الحاجة إلى النبي ؟ وإذا كان هناك ما يدعو إلى نبي يقدمه للناس ، فإن مهمة النبي

(١) أي أن كل شاعر من هؤلاء كان مبرزاً في فن من فنون الشعر ، فأمرؤ القيس في الصيد ووصف الخيل ، والنابغة في الاعتذار ، والأعشى في وصف الخمر ، وزهير في المدح .

لا تعدو أن يعرض القرآن عرضاً ، ثم يدعه يحدث عن نفسه ، ويشهد لإعجازه .
والذن تكون مهمة الرسول هينة محددة ، ويكون دوره في الرسالة الإسلامية
دوراً ثانوياً ، يستطيع كل إنسان أن يؤديه من غير أن يكون مزوداً بقوى خاصة
في كيانه الروحي ، والنفسي ، والعقلي ، والحسدي . . فما تأويل هذا ؟

ونقول :

أولاً : لابد من رسول يبلغ دعوة الله ، وينقل كلماته إلى الناس . . وهذا
ما ينبغي أن يسلم به باديء ذي بدء ، فإن كلمات الله إنما تحمل إلى الناس بواسطة
رسل يتخيرهم الله لهذه المهمة العظيمة . . فكان « محمد » هو الرسول المتخير لتلقي
القرآن وتبليغه .

وثانياً : كون القرآن يحمل في كيانه دلائل صدقه وإعجازه لا يخفف العبء
الملقى على كاهل النبي ، ولا ييسر مهمته في تبليغ دعوته ، بل إن ذلك الموقف ذاته
يدعو إلى أن يكون النبي الذي يحمل هذه الرسالة مزوداً بصفات . . أقوى وأعظم
من تلك الصفات التي زود بها إخوانه من الأنبياء . . فيكون هو في ذاته معجزة
يتأدى منها إلى الناس شواهد تشهد له ، وتنبئ عن صلته بالسماء ، بما يحمل في
كيانه من أمارات السمور ، والعظمة ، والنبل ، التي لا ترى على صورتها الكاملة في
أحد غيره .

إن دلائل الإعجاز في القرآن مع أنها تنتظم القرآن كله ، وتجري في كل آية
من آياته . . لا تكفي وحدها في حسن استقبال الناس لها ، وفي صدق فظرتهم
إليها ، ووزنها بميزان الحق والإنصاف . . فإن الضلال والعتاد الذي يستولى على
كثير من النفوس يعمى على الناس سبيل الهداية ، ويضيف عليهم حقائق الأشياء ،
فإذا الخير في أعينهم هو الشر الصراح ، وإذا النعمة المسافة إليهم نقمة وبلاء .
وشواهد التاريخ أكثر من أن يرصدها عد .

فلقد جاء موسى إلى فرعون بالمعجزات المحسوسة القاهرة : فألقى عصاه فإذا
هي ثعبان مبين ، ونزع يده . فإذا هي يبرق للناظرين ، (١) . فكان ذلك في نظر

فرعون سحر ساحر، وشعوذة مشعوذ .. وقال فرعون : « إن هذا لساحر عليم ، يريد أن يخرجكم من أرضكم . فإذا تأمرون ؟ قالوا أرجه وأخاه ، وابعث في المدائن حاشرين ، يأثوك بكل سحار عليم » (١) .

واجتمع السحرة ليطلوا سحر « موسى » .. واجتمع الناس ليسموا هذا الامر .. وقيل للناس : هل أنتم مجتمعون ؟ لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين ، (٢) .

« فلما جاء السحرة قالوا لفرعون : أئن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين ، قال نعم وإنكم إذن لمن المقربين » (٣) .

« قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون .. فألقوا حبالهم وعصيهم ، وقالوا بعزة فرعون .. إما لنحن الغالبون .. فألقى موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون » (٤) .

« فوق الحق ، وبطل ما كانوا يعملون ، فغلبوا هنالك ، وانقلبوا ضاغرين ، وألقى السحرة ساجدين ، قالوا آمنا برب العالمين .. رب موسى وهرون » (٥) .
 إن أهل الدراية والخبرة هم الذين عرفوا فرق ما بين الحق ، والسحر ..
 وتكشفت لهم المعجزة فأمنوا .. أما فرعون فقد ظل سادراً في ضلاله حتى بعد أن خذله من اعتز بهم واستنصر .. فقال « ما منتم له قبل أن آذن لكم ؟ لأنه لسكيرم الذي عليكم السحر .. فسوف تعلمون » (٥) .

ثم ، كم من آية جاء بها موسى إلى بني إسرائيل فما تكاد تغرب شمس يومها يزحف ظلام الكفر والضلال على قلوبهم .. ويتاج الأمر إلى معجزة جديدة ، ثم لا تلبث أن تفرق في طوفان الظلام . وهكذا تتباعد الآيات ، وتترى المعجزات واحدة إثر أخرى ، والظلام يزداد كثافاً ، والقلوب تزداد صلادة وقسوة !

(١) سورة الشعراء: آية ٣٤، ٣٧ .

(٢) سورة الشعراء: آية ٣٩-٤٠ .

(٣) سورة الشعراء آية ٤٠، ٤١ .

(٤) - سورة الأعراف: آية ١١٨ - ١٢٢ .

(٥) سورة الشعراء: آية ٤٩ .

وعيسى عليه السلام يرى الناس معجزات القاهرة باهرة : يحيى الموتى، ويرى
العلل التي لا يعرف الطب لها دواء ، وينزل مائدة من السماء . . فما تفعل كل هذه
المعجزات في قلوب القوم شيئاً ، ولا تزيدهم إلا إصراراً على ما هم فيه من
كفر وضلال !

فإذا كان هذا هو شأن الناس مع المعجزات المحسوسة التي تقع بين أيديهم ،
وتحت أسماعهم وأبصارهم ، فإن ذلك يكون أسد وأقوى ، في وجه المعجزات التي
يسدل عليها من وحى الكلمات ودلول الألفاظ ، في القرآن الكريم ؟

إن الإعجاز القرآني يخاطب العقل ، ويناجي الوجدان ، على حين أن الإعجاز
في معجزات الرسل إنما يجابه الحواس ، ويصادم ناموس الطبيعة القائم في الناس ،
فيحدث في الحياة زلزلة عنيفة ، تنبه الغافلين ، وتوقظ الياسم .

لهذا كان الإعجاز القرآني في حاجة ملزمة إلى قوة تظاهره، وتفتح له القلوب،
وتوجه إليه العقول ، وتقيم له في الحياة مكاناً راسخاً ، وتحمل له في الناس
قديماً ثابتاً .

وهذه القوة التي يحتاج الإعجاز القرآني إلى مظاهرتها ينبغي أن تكون هي
ذاتها معجزة ، تتكشف في كيانه آيات القرآن ، وتجلي في أفعالها وتصرفاتها
أضوائه وأنواره . . وذلك ما كان عليه الرسول الكريم ، الذي حمل إلى الناس
معجزته الخالدة . . « القرآن » ، فكان هو صلوات الله وسلامه عليه عنوان هذا
الكتاب الكريم . قرأ فيه الناس — قبل أن يقرأوا آيات الكتاب — آيات
محكمة معجزة . . من الخلق العالی ، ومن الأدب الرفيع . . فكان كما يقول عن نفسه :
« أدبني ربّي فأحسن تأديبي ، . . وكما وصفه القرآن بهذا الشاء العظيم من رب
العالمين : « وإنك لعلی خلق عظیم » (١) . . وكما تقول السيدة عائشة في كتابها الجامعة
لصفاته : « كان خلقه القرآن » .

فليس في إعجاز القرآن على تلك الصفة التي اشتمل عليها في كيانه ما يخفف

(١) - ورة القلم آية ٤ .

من مهمة الرسول الكريم في أداء رسالته ، وفي تحلية حقيقتها للناس . . بل إن الرسالة التي تحيء على تلك الصورة ، فتحمل الإعجاز بين طياتها ، وفي تناسل حروفها وكلماتها في حاجة أشد الحاجة إلى مبلغ يتخير لها من الصفوة الكرام في الرسل .
ليستطيع — كما قلنا — أن يفتح لها القلوب ويوجه إليها العقول ، ويهيء لها مكاناً آمناً مستقراً في الحياة ، لتظل كهذا أبد الدهر مصدر إشعاع للبشرى ، ومنار هدى للسالكين . .

ولو لم يكن من وراء القرآن تلك الشخصية العظيمة التي وقفت تلقى به على الأسماع آية آية ، وسورة سورة ، خلال ثلاث وعشرين سنة — لظل القرآن — إن يكن قدر له وجود على غير تلك الصورة — لظل كنزاً مخبوءاً ، لا يعرف للناس ما يضم من خير ، وما يحوى من رحمة وهدى !

إن الذي يقرأ القرآن غير متمثل تلك الذات الكريمة التي حملته إلى الناس ، وأذنت به فيهم ، ليفقد كثيراً من ذلك الحلال والجمال الذي كان جديراً أن يجده لؤفه قرأه متمثلاً صاحب الرسالة . . يتلقاه من السماء ، ويحرك به لسانه قرآناً عربياً يقوم يؤمنون !

إن أنفاس الرسول الكريم لتسرى في آيات الكتاب آية آية . . وإن شميم سيرته الطيب ليفوح في ثنايا كلمات الكتاب الكريم وحروفه .

ومن هنا ندرك العبء الثقيل الذي حمله الرسول الكريم في تبليغ الرسالة ، وحملها إلى مواطن الإقناع والإيمان من الناس . . فإنهم يطالبون النبي بمعجزات محسوسة تصدق دعواه ، وهو لا يملك معجزة غير هذا الكلام الذي يوحى إليه :
« أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ، إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون » (١) .

ومن هنا أيضاً ندرك ثقل هذه المهمة ، التي يقوم بها الرسول وليس بين يديه معجزة محسوسة . . يغشى بها الأبصار ، ويخرق بها الأسماع ، ويذهل بها العقول .

إن كل ما بين يديه هو هذا الكلام الذى يوحى لإياه . وهو معجزات تملأ الوجود ، لو وجدت عقولا سليمة وقلوباً واعية . . وهيئات أن تجد تلك العقول ، وهذه القلوب فى ظلام الجاهلية ، وفى عصبية قريش وكبريائها .

ومن أجل هذا دعا الله نبيه أن يحمل عبء هذه الجهاد ، وأن يصبر له . . فإن العبء الذى ألقى عليه عبء لا يستقل بحمله غير أولى العزم من الرسل . . « فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل » (١) . . « وإنا نسلك عليك قسولا ثقيلا » (٢) . . « فلا تطع الكافرين وجاهدكم به جهادا كبيرا » (٣) .

عن أنى هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ما من نبي إلا وقد أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر . . وإنما كان الذى أوتيته وحياً أوحى الله لى . . فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة » .

يقول القاضى عياض : « معنى هذا عند المحققين بقاء معجزته ، ما بقيت الدنيا . . وسائر معجزات الأنبياء ذهبت للحين ، ولم يشاهدها إلا الحاضر لها ، ومعجزات القرآن يقف عليها — الناس — قرناً بعد قرن عياناً ، لا خبراً ، لى يوم القيامة » (٤) .

ومعنى هذا أيضاً أن معجزات الرسل معجزات تحمل فى كيانها قوة قاهرة ، يخضع لها الناس بمجرد ظهورها فيهم . . فإن أية ظاهرة خارقة من ظواهر الطبيعة يجتمع لها الناس ، ويقولون فيها ما يقولون ، ثم يجتمعون عليها ويستجيبون لها . . فما أكثر ما تجرف العجائب والغرائب — حتى الزائف منها — أفئدة كثير من الناس ، وتستهوئ، قلوبهم . .

ونحن نشهد فى الحياة ما بفعل مرة المنهوذين بألباب الناس ، بما يبدون لهم من ضروب الخوارق الزائفة التى تعتمد على الخداع والنضليل . فكيف بالمعجزات السماوية التى تطلع على الناس على غير مألوف الحياة كما لو تطلع الشمس فى منتصف الليل ، ووسط ظلامه الخالك ؟ .

(١) سورة الأحقاف: آية ٣٥ . (٢) سورة المزمل: آية ٥ .
(٣) سورة الأحقاف: آية ٥٢ . (٤) الشفا فى التعريف بحقوق المصطفى ص ١٣٥ .

فتلك هى معجزات الرسل ، يؤمن الناس على مثلها ، ولو لم تقع على يد رسول
يتحدى الناس بها . .

أما معجزة « محمد » فهي وحى أوحى الله إليه . . تدرك المعجزة فيه عن
طريق العقل . . والعقل يصحب الناس جميعاً ، على اختلاف أزمانهم وأوطانهم .
إن معجزات الأنبياء أمام مشاهديها وحدهم ، وليس لغيرهم حظ منها ،
أو نصيب فيها . .

أما معجزة « محمد » فهي تجاه العقل الإنسانى كله . . لكل إنسان نصيبه فيها ،
وحظه منها . .

« إن معجزة الأنبياء الذين سبقوا « محمداً » كانت فى الواقع معجزات وقتية ،
وبالتالى معرضة للنسيان السريع . بينما تستطيع أن تسمى معجزة الآيات القرآنية
المعجزة الخالدة . . وذلك أن تأثيرها دائم ، ومنعولها مستمر ، ومن اليسير
على المؤمن — بل وغير المؤمن — أن يرى فى كل زمان ومكان — أن يرى
هذه المعجزة بمجرد تلاوة كتاب الله .

وفى هذه المعجزة نجد التعليل الدافى للانتشار الهائل الذى أحرزته الإسلام .
ذلك الانتشار — الذى لا يدرك سببه الأوربيون ، لأنهم يحملون القرآن ،
أو لأنهم لا يعرفونه إلا من خلال ترجمات لا تنبض بالحياة ، فضلاً عن أنها
غير دقيقة (١) .

ويقول ابن خلدون : « فاعلم أن أعظم المعجزات ، وأشرفها ، وأوضحها
دلالة — القرآن الكريم المنزل على نبيينا محمد صلى الله عليه وسلم ، فإن الخوارق
فى الغالب تقع مغايرة الوحى الذى يتلقاه النبى ، ويأتى بالمعجزة ناهدة بصدقه ،
والقرآن هو بنفسه الوحى المدعى ، وهو الخارق المعجز . . فشاهده فى عينه ،
ولا يفتقر إلى دليل مغاير له ، كسائر المعجزات مع الوحى . . فهو أوضح دلالة ،
لاتحاد الدليل والمدلول فيه . . وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم : « ما من

(١) محمد رسول الله . . ترجمة الدكتور عبد الحليم محمود .

نبي من الأنبياء إلا وأوتى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحى إلى ، فأنا أرحون أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة . . .
يشير إلى أن المعجز متى كان بهذه المثابة في الوصوح وقوة الدلالة ، وهو كونها نفس الوحي — كان الصدق لها أكثر ، لوضوحها فكثير المصدق والمؤمن ، وهو التابع والامة ، (١) .

ويمكن أن نحصر مقولات أولئك المدعين على القرآن تلك الادعاءات الباطلة في أمور . . منها :

أولاً — أسلوب القرآن :

فقد وقف الغربيون من أساليب القرآن مواقف متناقضة ، فبينا يرفعه بعضهم إلى منزلة الإعجاز التي أودعها الله فيه ، إذا يزحزحه بعضهم عن تلك المنزلة ، ويرميه بالغموض ، وبالتكرار ، وبما شاء خياله المريض أن يصوره من صور الزرارية والتجريح !

بل إن الكاتب الواحد ليقع في هذا التناقض في مقرراته التي ينتهي إليها في أية نظرة ينظرها إلى القرآن . . فإذا قال قولاً لم يثبت عليه ، وجاء في أعقابه بتدريعات وتعليقات ، تقف منه موقف الخلاف والمناظرة .

وأغلب ما يقع من ذلك التناقض عند أصحاب الآراء المحررة من الهوى والتعصب إنما هو نتيجة عدم الفهم لطبيعة الوحي ، وللأسلوب الذي نزل به القرآن .

وقد قلنا من قبل إن علماء الغرب عامة يعتقدون أن القرآن من « نوح ومحمد » وأنه إذا كانت بينه وبين السماء صلة فهي صلة غامضة يتلقى منها إشارات مبهمه يحولها إلى أفكار ، ثم يترجمها في ألفاظ وعبارات هي « القرآن » .

وإلى هذا الجهل بطبيعة الوحي ، وبصلة محمد بالسماء جهل آخر بمعرفة اللغة العربية ، وبتذوق أساليب الجمال فيها . والاهتداء إلى مواطن الحسن منها . . .
قلو أن هؤلاء الباحثين في القرآن من أولئك العلماء حظا من الحس الفني بأساليب البيان لوقاهم ذلك شر هذه المزالق التي كثر فيها عثراتهم وسقطاتهم في القرآن ،
فقالوا تلك المقولات الهزيلة الباطلة .

محمد والقرآن عند غير المسلمين :

أشرنا من قبل إلى أن الذين عرضوا للبحث في العقيدة الإسلامية من غير المسلمين كانوا من أمرهم على غير بينة . . . سواء منهم من جاء إلى تلك الدراسة بقلب مريض ، يحمل للإسلام الحقد والعداوة ، أو من جاء إليها باسم العلم ، وتحت راية البحث عن الحقيقة .

ذلك أن هؤلاء جميعاً ينسبون القرآن إلى «محمد» ، ويجعلونه من صنعه ، وتدبيره . . . وأهداهم طريقاً في هذا الشأن — وهم فقر قليل — من يرى أن محمداً كان يتلقى أمر السماء في صورة إشارات ورموز أشبه بالخواطر التي يجدها الإنسان عند شأن مع الشئون التي يهتم لها ويعنيه أمرها . . . ثم يتولى «محمد» صياغة هذه الإشارات أو الخواطر ، في قولب لفظية هي ما عرف باسم القرآن .

ونقول : إننا قد أشرنا إلى هذا من قبل ، وكشفنا عن الدوافع التي تولدت عنها هذه الأباطيل — سواء أكانت متعمدة أم غير متعمدة — ونريد أن نقف هنا وقفة خاصة مع أولئك الباحثين الذين نرى أنهم طلبوا وجه الحق في هذا الأمر ، فأخطأهم التوفيق للوصول إليه . أما تلك المنتريات المتعمدة فإنها تحمل في كيانها معاول هدمها ، التي ينسكرها آخرها أولها ، وينقض لاحقها سابقتها . . .

واستمع في هذا إلى قول عالم بحسبه من أصحاب الآراء الحرة ، ونراه من طلاب الحقيقة فيما يمرض له من دراسة وبحث في الشريعة الإسلامية . . .
هذا العالم هو «جرونيباوم» مؤلف كتاب «حضارة الإسلام» . . .

وهو على ما به من هذه الصفات التي نراها فيه ، وعلى ما بذل من جهد في التحقيق والتمحيص — لم يستطع أن يحفظ توازنه وهو يعبر الطريق إلى الحقيقة التي كان ينادي بالوصول إليها — حسب رأينا — في شأن القرآن .

استمع إليه في حديثه عن أسلوب القرآن . . يقول :

« لقي أسلوب القرآن من الغربيين نقداً إجماعياً شديداً ، وشاركهم في ذلك بعض المسلمين ، !

هذه حقيقة يقررها « جرونيباوم » في شأن حملات النقد التي لقيها القرآن من الغربيين عامة ، ولا شيء في هذا ، فذلك أمر معروف سلفاً . . أما مشاركة بعض المسلمين في هذه الحملات فلا يمكن أن تكون . . ولا ندفع هذا بمستند تاريخي ، وإنما مستندنا في دفعه هو أن المسلم الذي يستحق هذه الصفة لا يمكن أن يكون مسلماً وفي قلبه شيء من الارتياب أو الشك في أن القرآن كله كلام الله . . وهيئات أن يعقل أن إنساناً يؤمن بالله ثم يطعن في كلامه !

ثم يقول « جرونيباوم » :

« وقد يكون لبعض هذا النقد ما يبرره .

« على أن غلو الغرب عامة في هذا النقد إلى حد إنكار ما للقرآن من فضائل لغوية ، وإسناد التكرار وغيره إليه ، ليس من الإنصاف ولا التقدير الحسن في شيء . .

إذن ما هو الإنصاف وما هو التقدير الحسن عند « جرونيباوم » ، إذا كان يأخذ على قومه عدم إنصافهم للقرآن وسوء تقديرهم له ؟ .

لنستمع إلى رأيه في هذا . . يقول :

« فالكتاب على ما هو عليه اليوم بين أيدينا ليس هو الكتاب كما أبلغنا إياه محمدًا . .

بالخيبة الأمل . أهذا هو الإنصاف ، أهذا هو التقدير الحسن ؟ .

واستمع إلى ما هو أدهى وأمر ! . . يقول :

« بل الواقع أن كتاباً بأكمله لم يوح إليه قط .

« بل كانت توحى إليه رؤى قصيرة ، ووصايا ، وأمثال ، وقصص ذات

هغزى ، أو أحاديث في أصول العقيدة ! ، (١)

ما مصدر هذه الرؤى ؟ وما طبيعتها ؟ أهى منزلة من السماء أم هى أنخزة
تفيض من خواطر ومحمد ، وتندرب من مسارب تفكيره ؟ أهى رسالة سماوية
يحملها ملك كريم ، إلى نبي كريم أم هى همسات جن ووسوسة شيطان يلقى بها
في قلب كاهن ، أو سمع ساحر ؟

لا تعدوا المسألة أحد هذين الأمرين : نبي ، أم مشعوذ ...

فإن كان نبياً فالصلة التى تكون بينه وبين السماء لا تكون صلة رؤى وأحلام ،
ولأنما هى صلة واعية مدركة ، تلمس الحقائق ، وتملاها يديها .

وإن كان مشعوذاً ، فهذا شأن آخر !

ثم يقول :

« ولعله — أى النبي — كان ينوى أن يجمع شذيت أجزائه المتعددة — أى
أجزاء الرؤى التى صورها محمد قرآناً — وأن يجمدها — إن صح هذا القول —
حتى تتخذ صورة القوانين الدينية ، وإن لم يكن فى الإمكان إثبات ذلك » .

ولعل هذا القول هو أشنع قول وأنكره فى شأن القرآن .

أترك محمد ، حقاً هذه الدنيا ، وأخلى مكانه منها قبل أن يتم رسالته التى
فدبته السماء لها ؟ أهذا عمل يليق برسالة دينوية بعث بها مبعوث من دولة أو سلطان ؟
أيمكن من حسن الرأى والسياسة أن يكون هذا المبعوث قائماً بين يدى من
بعث إليه يؤدى ما أرسل به ثم يعزل قبل أن يتم رسالته ؟ وإذا جاءت ظروف
قاهرة اقتضت عزله ، ألا يكون هناك من يقف موقفه ويكمل ما بدأ به ؟ ذلك
أقل ما ينبغى أن يحدث لسد هذا الخلل ، الذى لا يمكن أن يقع إلا تحت ظرف
قاهر لا يستطيع الناس دفعه ! .

فهل يتصور أن تعجز السماء عن أن تصعن لرسولها المبلغ عنها أن يقوم على أداء الرسالة إلى غايتها ؟ أين تدرة الله إذن ؟ وأين الحكمة المرادة من رسالته ؟ لا ، لا . إن ذلك القول لا يستقيم مع منطوق ، ولا يجري مع تفكير سليم أبداً .

أما ورائق التاريخ الوثيقة المحررة ، فإنها تشهد بأن رسول الله قد بلغ الرسالة على وجهها الأكمل ، وأنه ظل قائماً عليها يتلوها آية آية حتى فرع منها في ثلاث وعشرين سنة . .

لقد كان من تدبير السماء أن تمد للرسول أسباب البقاء في مقام التبليغ ، وأن تلقى إليه بين وقت ووقت بجانب منها . فكان كل يوم — خلال الثلاث والعشرين سنة — يتوقع رسالة جديدة من السماء يضيفها إلى رسالته . . حتى إذا بلغ الكتاب أجله ، وتمت كلمة الله آذنت السماء للنبي بذلك ، وأعلنته بانتهاء مهمته . . فجاءه الروح الأمين جبريل عليه السلام يوحى إليه قول الله تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الإسلام ديناً » . . فكانت هذه الآية من أواخر ما نزل من القرآن ، وفهم كثير من المسلمين عند نزولها أنها تنهى إليهم رسول الله .

هذا ما نزل به القرآن صريحاً في هذا الشأن . . وهو وثيقة لا تقبل شكاً ، ولا جدلاً باتفاق المسلمين ، وغير المسلمين .

أما ما وردت به الأخبار الصحيحة ، فهو أكثر من أن يحصى أو يحصر ، وجميعها تجتمع على أن القرآن قد تم على هذه الصورة التي بين دفتي المصحف قبل أن يترك الرسول هذه الدنيا ، وأنه كان محفوظاً حفوظاً موثقاً في كثير من الصدور ، كما كان مجموعاً كاملاً عند كثير من الصحابة .

وثابت من الأخبار الصحيحة أن جبريل كان يراجع النبي ويدارسه القرآن حرة في شهر رمضان ، وفي السنة التي توفي فيها الرسول قرأه عليه مرتين لا مرة واحدة . فكان ذلك إشارة وداع بين جبريل ، وبين النبي .

أما ما صنعة « أبو بكر » في شأن القرآن ، فلا يمدو أن يكون ثقلاً له من الصدور التي حفظته بعد أن استشهد عدد كبير من الحفاظ في حروب الردة ، وفي حرب « اليمامة » بالذات ، مع مسيلة الكذاب !

إن الذي فعله أبو بكر هنا هو أن يكتب القرآن في صحف حتى يظل بمأمن من خطر النسيان عند من حفظوه ووعوه في صدورهم ، أو من خوف افتقاد حفاظه بالموت في مواطن الجهاد .

فكأن من الحزم أن يقع هذا العمل ، وأن يكون بين يدي خليفة رسول الله وثيقة كاملة من كتاب الله

أما ما كان مكتوباً من قرآن بصورة كاملة ، أو غير كاملة عند الصحابة ، فلم يكن على الصورة المطلوبة لحفظه وصيانه . . . إذا كان الذين أخذوا أنفسهم بكتابة القرآن إنما فعلوا ذلك لغاية أخرى غير التي قصد إليها أبو بكر ، وهي أن يستأنسوا لما حفظوا بما كانوا يكتبون ، وليكون ذلك المكتوب مرجعاً خاصاً لهم عند النسيان أو النك في آية أو كلمة ، أو حرف ! .

وفضلاً عن ذلك . فإن هذا المكتوب كله كان في رقاع مختلفة الأشكال والأحجام والأنواع . . . فكانت صحف القرآن عند جامعيه أنماطاً غريبة من كل ما كان يكتب فيه ذلك الحين . . . فبعض الصحف من العظام . وبعضها من سعف النخيل ، وبعضها من قطع الجلد ، وبعضها من الفخار أو الخزف . . . إلى عديد مما كان يصلحه الكتاب ويهيئونه للكتابة من أية مادة تصلح للخط عليها . .

وفضلاً عن ذلك أيضاً ، فإن المداد الذي كان يكتب به كان في اختلاف صورته وألوانه على صورة أشد مما كان عليه اختلاف الصحف والرقاع .

إن الذين أخذوا أنفسهم بكتابة القرآن لم يكن بين أيديهم شيء من وسائل الكتابة في صورة مهيأة لأداء هذه المهمة ، يجدها السكاتب حاضرة بين يديه في كل حال ، وإنما كانت تنزل آيات السكاتب على رسول الله . فيتلوها على أصحابه فيحفظونها . ثم يبادون إلى كتابتها بما يقع لأيديهم من رقاع أو مداد .

فهى على صورتها تلك لا تصلح أن تكون مستنداً قريب المأخذ سهل التناول، واضح المعلم يمكن الرجوع إليه بعد فترة من الزمن .

أما الصور التى كتب القرآن فى عهد أبى بكر فقد كانت أقرب إلى السجل من أية صورة كتب بها إلى ذلك الحين ..

فلقد اجتمعت الدولة لهذا العمل ، وحدثت له ما عدها من إمكانيات مادية وإنسانية . ليجيء على الصورة التى تحقق الصور المنسودة ، وهى تسجيل القرآن فى سجل من صحف خفيفة الخمل ، مصقولة ، منسقة أشبه بمائرى فى تلك المخطوطات التى سجلت فى القرن الأول أو الثانى .

أما ما صنعه « عثمان » رضى الله عنه فقد كان غايته جمع المسلمين على قراءة واحدة بعد أن كثرت اختلافات القراء مما عده المسلمون أمراً خطيراً ، قد تهتمق جذوره وتمتد ، فتصل إلى القرآن فى أصوله ذاتها .

فأراد « عثمان » أن يضع حداً لهذا الخلاف ، وأن يجمع المسلمين على قراءة واحدة هى قراءة زيد بن ثابت ..

وليس الخلاف الذى اهتم له « عثمان » وفزع منه خلافاً فى ترتيب الآيات فى السور ، ولا فى زيادة آيات ونقصها .. فقد كان القرآن مرتب الآيات والسور على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يقع خلاف فى وضع آية مكان آية ، ولا زياده أو نقص فى آيات أية سورة ، وإنما كان الخلاف فى النطق ببعض الكلمات من إمالة أو لإشمام أو إدغام ، أو فى صورة الكلمة التى لا يخرج الاختلاف فيها عن معناها ، وذلك على ما نراه فى القراءات المعروفة التى يقرأ بها القراء اليوم .

عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : مررت بهشام بن حكيم بن حزام وهو يقرأ الفرقان - أى سورة الفرقان - فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم واستمعت قراءته ، فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة ، لم يقرئها رسول (١٩٠ - السبى محمد)

الله صلى الله عليه وسلم ، فكذبت أساوره (١) في الصلاة ، فانتظرت حتى سلم ، فلما سلم ، لبسته بردائه ، فقلت : من أقرأك هذه السورة التي أسمعك تقرؤها ؟ قال : أقرأنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت له : كذبت ، فوالله إن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو أقرأني هذه السورة التي تقرؤها . . قال : فانطلقت أقوده إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : يا رسول الله . . لاني سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها ، وأنت أقرأني سورة الفرقان ! قال : فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أرسله يا عمر . . اقرأ يا هشام . . فقرأ عليه القراءة التي سمعت ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : هكذا أنزلت . . ثم قال : اقرأ يا عمر . . فقرأت القراءة التي أقرأني رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : هكذا أنزلت . . ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم : إن القرآن أنزل على سبعة أحرف فأقرأ منه ما تيسر (٢) .

وعن أبي بن كعب قال : اختلفت أنا ورجل من أصحابي في آية ، فترافعنا فيها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : اقرأ يا أبي ، فقرأت ، ثم قال للآخر ، اقرأ ، فقرأ فقال : كلا كما يحسن بحمل ، فقلت : ما كلانا محسن بحمل (٣) ؟ قال : فدفع رسول الله صلى الله عليه وسلم في صدري ، وقال : أي أبي إن القرآن أنزل على . . فقلت : على أعلى حرف أم حرفين ؟ فقلت : بل على حرفين . . ثم قيل لي : أعلى حرفين أم أربعة أحرف ؟ فقلت : بل على أربعة ، فلم يزل بي حتى انتهى إلى سبعة أحرف . كلها كاف شاف ، ما لم تختتم آية رحمة بآية عذاب ، أو آية عذاب بآية رحمة . . وإذا كانت « عزيز حكيم » فقلت « سميع عليم » ، فإن الله « سميع عليم » (١) .

(١) ساوره : أخذ برأسه ، أو وثب عليه .

(٢) مقدمتان في : علوم القرآن ص ٢٠٧ ، والرسالة للأمام الشافعي ص ٢٧٣ .

(٣) « ما » هنا استفهامية وليست نافية .

(٤) مقدمتان في علوم القرآن ص ٢٠٨ .

والاختلاف في القراءات يقع على وجوه منها :

أولاً : الاختلاف في إعراب الكلمة أو حركات بنائها ، لا يزالها عن صورتها في الكتابة ، ولا يميز معناها نحو قوله تعالى : «هن أطهر لكم» (١) .
«هن أطهر لكم» .. وقوله : «وهل يجازي إلا السكور» (٢) ، و «هل يجازي إلا السكور» .. وقوله : «يأمرون الناس بالبخل» (٣) و «بالبخل»

ثانياً : الاختلاف في إعراب الكلمة وحركات بنائها ، بما يغير معناها ، ولا يزالها عن صورتها ، نحو قوله تعالى : «ربنا باعد بين سفارنا» (٤) و «ربنا باعد بين أسفارنا» وقوله : «وإدكن بعد أمة» (٥) و «بعد أمة»

ثالثاً : أن يكون الاختلاف في حرف الكلمة دون إعرابها بما يغير معناها ، ولا يزال صورتها ، ونحو قوله تعالى : «واظفر إلى العظام كيف ننشرها» (٦) .
وننشرها ..

رابعاً : أن يكون الاختلاف في الكلمة بما يغير صورتها في الكتابة ، ولا يغير معناها ، كقوله تعالى : «إن كانت إلا صيحة واحدة» (٧) و «صيحة واحدة» و «كالهن المنفوش» (٨) و «كالصوف»

خامساً : أن يقع الاختلاف بالتقديم والتأخير ، نحو قوله تعالى : «وجاءت مسكرة» (٩) و «جاءت مسكرة الحق بالموت» .

سادساً : أن يكون الاختلاف بما يزال صورة الكلمة ومعناها ، كقوله تعالى : «وطاح منضرد» و «طلع» (١٠) .

سابعاً : أن يكون الاختلاف بالزيادة والنقصان ... كقوله تعالى :

- | | |
|------------------------|--------------------------|
| (١) سورة هود : ٧٨ . | (٢) سورة النساء : ٢٧ . |
| (٣) سورة البقرة : ٣٧ . | (٤) سورة سبأ : ١٩ . |
| (٥) سورة يوسف : ٤٥ . | (٦) سورة البقرة : ٢٥٩ . |
| (٧) سورة يس : ٢٩ . | (٨) سورة القارة : ٥٥ . |
| (٩) سورة ق : ١٩ . | (١٠) سورة الواقعة : ٢٩ . |

« وما عملت أيديهم » « وما عملته » (١) .. وقوله : « فان الله هو الغنى الحميد » (٢) و « فان الله الغنى الحميد » .

ففي هذا المجال كان يقع الخلاف بين القراء والدارسين لكلام الله .. فبين هذا الخلاف بينهم جدلاً ، ويبحث فيهم شيئاً من العاق والشك .. فعمل عثمان رضى الله عنه بمشورة أصحابه رسول الله عليهم ، وأمر بجمع الناس على قراءة واحدة من تلك القراءات .

عن مصعب بن سعد قال : لما كثر اختلاف الناس في القرآن قالوا : قراءة بن مسعود ، وقراءة أبي ، وقراءة سالم مولى أبي حذيفة (٣) ١ فجمع — عثمان — أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فقال : لئن رأيت أن أكتب مصاحف على حرف — أى قراءة — زيد بن ثابت ، ثم أبعث بها إلى الأمصار .. قالوا : نعم ما رأيت .. قال : فأى الناس أعرب ؟ قالوا سعيد بن العاص .. قال : فأى الناس أكتب . قالوا زيد بن ثابت .. كاتب الوحى فليمل سعيد . وليكتب زيد بن ثابت .. قال : ثم كتب مصاحف ، فبعث بها إلى الأمصار .. قال : فرأيت أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم يقولون : أحسن والله عثمان .

وكان عثمان بعد أن كتب القرآن على قراءة زيد بن ثابت أمر بتحريق المصاحف التي ليست مع هذه القراءة .. فكثير من بعض الناس القول فى عثمان رضى الله عنه بأنه حرق المصاحف ، ١ .

يقول صاحب مقدمة كتاب المبانى : « وأما المصاحف التي أمر — أى عثمان — بتحريقها ، فإنها — والله أعلم — كانت على هذا النظم أيضاً — أى النظم الذى عليه مصحف عثمان — إلا أنها كانت مختلفة الحروف على حسب ما كان النبى صلى الله عليه وسلم سوغ لهم القراءة بالوجوه إذا اتفقت فى المعنى ، وإن اختلفت

(١) سورة يس : ٣٥

(٢) سورة الحديد : ٢٤ .

(٣) أى أن كل جماعة تركز قراءة من هذه القراءات وتفضت لها .

اللفظ ، ثم بان لنا بانفاقهم على هذا الوجه الواحد أن الإباحة التي كانت في قراءة القرآن من اختلاف اللفظ بالكلمة إذ اتفق المعنى قد نسح ، وأنه لا تجوز القراءة بما يخالف هذا المصحف المتفق عليه ، (١) .

هذا ما كان من عمل الخليفةين أبي بكر وعثمان في كتابة المصحف ، لم يجاوز عملهما ما كان من شأنه صيانة القرآن وحفظه كما تركه رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم . . لم يزيدوا فيه حرفا ، أو ينقصوا منه كلمة !
ولكن العلماء الغرب رأيا آخر في هذا . .

فإن « جرونيباوم » الذي نقف إزاء آرائه هنا يقول في صدد هذا العمل الذي كان من الخليفةين أبي بكر وعثمان :

« ومن الأمور التي لا سبيل إلى معرفتها بما تبقى لدينا من معلومات — استبانة الأسباب التي دعت الأئمة القراء بإشارة الخليفة « عثمان » إلى تنظيم ما خلفه الرسول من الوحي . . »

ثم يقول : « والراجح أنه — أى القرآن — لم يفقد أو ينسى منه إلا جزء يسير جدا (؟ ؟) في ١١٤ سورة بالضبط تختلف في طولها اختلافا بهيدا . . »

« كذلك ليس في الإمكان في كل حالة من الحالات تقديم تفسير مرض عن السبب الذي من أجله ضمت هذه الفقرة إلى تلك لتكون سورة واحدة . . أو لماذا قرر الكتاب أن يضعوا السور الطويلة أولا ، وقصار السور أخيراً ، وإن كانت الأخيرة تحتوى في معظم الحالات على المواد القديمة ! » (٢)

هذا هو رأى « جرونيباوم » في حقيقة القرآن ، وقد تولى السلف الرد على مثل هذا الافتراء . .

يقول صاحب كتاب مقدمة المباني :

« ولئن ساغ لاحد أن يشك في أن هذا القرآن بجميع سورته وآياته هو الذي قرأه محمد صلى الله عليه وسلم على أصحابه رضى الله عنهم ، وتحدى العرب أن يأتوا بمثله فلم يجيبوه إلى ذلك . . وهو الذي تلقى المهاجرون والأنصار

(١) مقدمتان في علوم القرآن ص ٤٤ . (٢) حضارة الإسلام ص ١٠٩ .

وتلاوته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلوه من بعدهم ، وهلم جرا .
إلى أن اتصل بنا — ليسوغن له أن يشك في أن محمداً قد كان بمكة ، يدعى النبوة ،
ثم هاجر إلى المدينة ، وأنه قد كان بينه وبين المشركين وقعة بدر ، ووقعة أحد ،
وسائر الوقائع ، ثم توفي بالمدينة ، وهو المدفون بها ١١

وإذا كان من أظهر الشك فيما ذكرناه مكابراً لنفسه ، إذ لا يمكن الشك في
ذلك لمن خالط الناس فسمع أخبارهم ، كذلك لا يمكن في أن هذا القرآن هو
الذي قرأه محمد صلى الله عليه وسلم على الناس — شك ألبتة ١

ثم يقول :

« ولو قد اقتصرنا في دحر الملحد وقذعه على هذا القدر ، لقد كان ذلك
كافياً ، غير أنا يجب أن نذب عن هذا الخبر ، إذ قد يمكن أن يقع فيه ريب .
وإن لم يمكن ذلك فيما قلناه من أن القرآن هو ما بلغه محمد صلى الله عليه وسلم
عن ربه تبارك وتعالى .

« فأقول : إن القرآن كان مجموعاً على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، وأنه
ما نزلت آية إلا وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم من يكتب له أن يضعها
في موضع كذا من سورة كذا . . ومن المعلوم الذي لا خفاء به أن النبي صلى الله
عليه وسلم كان يوم أصحابه في الصلوات الخمس ، لا يخل بذلك في سفر ،
ولاحضر ، فقرأ في الركعتين من كل صلاة بسورة مع فاتحة الكتاب . . ويسمعهم
ذلك في النداء والعش . . فإذا كان يسمعهم — ليت شعري — إن كانت آيات
القرآن متفرقة ، ولم تنظم السور حتى أنها نظمت في أيام أبي بكر ، وأيام عثمان ؟
فإذا كان يقرع العرب حيث يقول الله تعالى : « فأتوا بعشر سور مثله مفتريات » (١) ؟
وذلك مما نزل بمكة . ثم قال تعالى : « فأتوا بسورة من مثله » ونزل ذلك
بالمدينة ؟ . . ولو كان ذلك على ما خيلوا لم يسكن العباس بن عبد المطلب يهدر (٢)
يوم حنين حيث انهزم القوم ، فيقول : يا أصحاب سورة البقرة ، وسورة

(١) سورة هود آية ١٣ .

(٢) في الأصل يهرب ، وهو خطأ ، أو تصحيف .

آل عمران . . هذا رسول الله . . يستدعيهم بذلك إليه !

« ومن مـاهير ما نقلت الرواة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعبد الله بن عمرو بن العاص : « اقرأ القرآن في كذا ليلة . . » يدعوهُ إلى التيسير . . وهو — أى عبده — يقول : إني أطيق أكثر من ذلك . . إلى أن قال له : « اقرأ القرآن في ثلاث ليال » . . .

« وعن ابن مسعود قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اقرأ على » فقلت : أعليك أقرأ ، وعليك أنزل ؟ فقال لى : « أحب أن أسمعهُ من غيرى » قال : فافتتحت سورة النساء فلما بلغت : « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد ، وجئنا بك على هؤلاء شهيدا » قال : فرأيت عيذه تذر فان ، فقال لى : حسبك . » (١)

ثم يعرض صاحب المبانى للحديث الذى يروى عن زيد بن ثابت فى جمع القرآن أيام أبى بكر . . فيقول :

« الوجه فى ذلك عندنا أن القرآن قد كان بحملته معلوما على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

« وكانت السور معدودة ، لا يريب فيها أحد منهم ، غير أنهم لم يكونوا قد جمعوها بين الدفتين ، ولم يلزموا القراءة توالى سورها ، فكان الواحد منهم يقرأ سورة البقرة ، ثم يقرأ سورة النساء أو الأعراف ، أو نحو ذلك ، من غير ولاء (٢) للسور . . .

« وذلك أن الواحد منهم لما حفظ سورة أنزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم أو كتبها ، ثم خرج فى سرية ، فنزل فى وقت تعيينه سور ، فإنه كان إذا رجع فأخذ فى حفظ ما ينزل بعد رجوعه وكتابته ، ويتبع ما فاتهُ على حسب ما يتسهل له ، فيقع فيما كتبته تقديم وتأخير على هذا الوجه (٣) ،

(١) مقدمتان فى علوم القرآن ص ٢٧ .

(٢) أى من غير ترتيب مخصوص للسور .

(٣) أى أن هذا التقديم والتأخير يقع فى السور لا فى الآيات .

« وقد كان منهم من يعتمد على حفظه فلا يكتب ، على ما كان من عادة العرب في حفظها أنسابها ، وأشعار شعرائها من غير كتابة .

« ومنهم من كان يكتبها في مواضع مختلفة من قرطاس ، أو عسيب ، أو لخاف — على ما يروى في الحديث — ثقة منهم بما كانوا يعهدونه من حد المسلمين في حفظ القرآن ، وشدة تهمدهم له . . » (١)

ثم يتظنى « جرونيباوم » سبباً من عندهم يراه الباعث على ترتيب السور . فيقول : « فقد يكون تشابه الموضوعات في حين ، ويكون تماثل الفواصل في آخر هو السبب الذي دعا إلى الجمع بين آيات كانت في الأصل مستقلة بعضها من بعض » (٢)

وأنت ترى ما في هذا القول من جرأة على الحق ، واعتداء على حرمة التاريخ . إذ ضرب هذا العالم بالمستندات التاريخية الثابتة الموثقة التي بين يديه ، والتي تحدث عما كان من عمل لأبي بكر وعثمان في جمع القرآن — ضرب بهذه المستندات عرض الحائط وراح يصطاد من عالم الخيال تلك الآراء المضطربة المشوهة التي لا تقوم على أصل ، ولا تستند إلى دليل . .

فالقرآن — كما قلنا — قد تم نزوله ، وجمعه وترتيبه قبل أن يزايل الرسول الكريم مكانه من الدنيا ، وأن آلافاً عدة من صدور المسلمين كانت تحفظه كله كما نراه اليوم بين دفتي المصحف .

وبحسبنا ما قلنا في هذا من قبل لدفع هذا الضباب عن أضواء القرآن الكريم . . وبحسب هذا القول الذي يقوله « جرونيباوم » — بحسبه من التفاهات والسقوط من عيني صاحبه أن يجيء عقب هذا القول فيقول :

« ومهما يكن من شيء ، فلا علينا إذا افترضنا أن محمداً لم يقصد ألبة أن يجعل التوجيهات السياسية ، والمواد التشريعية ، وأساطير (كذا) الكتاب المقدس ، والمحاجة للكفار بجمعة كلها في فصل واحد ، أبعاد محدودة تحديداً دقيقاً ، لا سبيل إلى نقضه » (٣) . .

(٣) حضارة الاسلام ص ١٠٩ .

(١) مقدمتان في علوم القرآن ص ٣٢ .

(٣) المصدر السابق — نفس الصفحة .

إذن « فمحمد » هو الذى رتب القرآن وأخرجه على هذه الصورة الى عرفها المسلمون ! فإن لم يكن « محمد » هو الذى عمل هذا ، فقد عمله أصحابه . . وإن لم يكن قد عمله أصحابه فقد عمله هو ١١ .

كل شيء جائز هنا عند الكتّاب إلا أمراً واحداً لا يدخله فى حسابه ، ولا يجعله فرضاً بين هذه الفروض ، وهو أن يكون القرآن من عند الله ، وأن يكون ترتيبه وجمعه بتوقيف من الله ! ولو أنه كان يضع فى حسابه هذا الفرض لوجد فى قول الله تعالى لنبيه الكريم : « لا تحرك به لسانك لتعجل به ، إنا علينا جمعه وقرآنه ، فإذا قرأناه ، فاتبع قرآنه ، ثم إن علينا بيانه » (١) — لوجد فى هذه الآيات عاصماً يعصمه من الانزلاق فى هذا الخطأ المبين . . فالنبي لا يحرك لسانه إلا بإذن من الله ، وإلا بعد أن يستمع إلى ما يلقي إليه من وحى ، . وأن الله هو الذى يتولى جمع القرآن . وأن محمداً متبع يتبع ما يتلقاه من السماء . . بل وأكث من هذا ، فإن كلام الرسول ذاته الذى يبين به الشريعة هو من عند الله أيضاً . وإن لم يكن من القرآن المقروء ، فالله هو الذى يتولى بيان القرآن وشرحه على لسان النبي . . « ثم إن علينا بيانه » . . فالنبي يستمد أقواله من أمداد السماء : وما ينطق عن الهوى ، (٢) .

ثم يعود « جرونيان » بعد هذا مباشرة فينسب ترتيب القرآن إلى الصحابة . يقول : « وربط جامعو القرآن عدداً من قصص الأنبياء بعضه مع بعض ، فتولد عن ذلك فى بعض الأحيان شيء من الرتابة المملة (كذا) لم يكن النبي مسئولاً عنه بحال ! ! فى القرآن رتابة مملة .

لأن الذين جمعوا القرآن ربطوا قصص الأنبياء بعضه مع بعض !

وهى تهمة لا يخفف منها ، بل ربما يزيد من سُناعتها - القول بأن النبي لم يكن مسئولاً عنه بحال .

(١) سورة القيامة آية ١٦ - ١٩ .

(٢) . سورة النجم آية ٣ .

ومفهوم هذا القول أن المسلمين قد عبثوا بالقرآن بعد النبي وجمعه جمعاً
مخللاً ، ملاً . . ومفهوم هذا المفهوم أيضاً أن القرآن الذي مع المسلمين ليس هو
القرآن على الصورة التي كانت مع النبي .

والنبي غير مسئول عن هذا الذي حدث في القرآن من هدم وتخريب !
ولو كان هذا السكاتب ينبت على وجه واحد ويقف عند رأى لكان في
ذلك ما يضيق مجال الأحذ والرد معه . . ولكنه يراوغ ، ويتقلب من رأى إلى
رأى . . وها هو ذا يعود للمرة الثالثة أو الرابعة مناقضاً لرأيه في مسألة واحدة .
يقول وكأنه يبرر لهذه الرتابة التي جاءت — كما يقول في القرآن — وكأنه
يراهها ضرورية في الرسالة التي كان يقوم بها النبي . . يقول :
« وكذلك أيضاً يجب ألا يغرب عن البال أن « محمداً ، إنما كان ينبغي أن
يعلم وأن يصلح . .

« والواعظ والمعلم مجبران بحكم عملهما في ذاته إلى التكرار ، بل إلى التكرار
بنفس الالفاظ تقريباً . .

« ونحن الذين لانقرأ القرآن من أجل إصلاح أمرنا ، ولا ابتغاء التهذيب
الخالق لنفوسنا تساورنا آمال خاطئة حين ننظر في كثير من فقرات الكتاب !
« فإن كثيراً من الآيات لم يكن قصد النبي من نقله إلى الناس هو الاستتارة
الذهنية ، بل توطيد مبادئ جديدة للتقوى والأخلاق (١) . . »

ثم يأخذ لهذا الرأي سنداً من مقولات بعض علماء الإسلام في معرض
الاستدلال على حكمة التكرار في القرآن . . فيقول :

« هذا أحد كتاب المسلمين في القرن العاشر (٢) يقول : « ولأن الإنسان
قد يقرأ بعض القرآن ، ويحفظ شيئاً منه دون شيء — فلم يخل الله عز وجل كل
موضع منه من ترغيب أو ترهيب ، وادكار واعتبار ، تفضلاً منه على عباده ،

(١) حضارة الإسلام ص ١٠٩ .

(٢) هو أبو بكر الصولي المتوفى سنة ٩٤٦ .

واستدعاء إطاعتهم ، ونهياً عن عصيانهم . فوقع الشكرار لذلك^(١) .

ويعقب « جرونيباوم » على هذا بقوله :

« والواقع أن ما يبدو لنا من مأخذ في طريقة العرض يكون له معنى مخالف لذلك تماماً — أى لتلك التى تبدو أنها مأخذ — حين يوضع القرآن موضعه الحق من التاريخ الأدبي للعرب . .

« ذلك أن الشر العربى لم يكن يستخدم قبل عصر النبى إلا فى تسجيل الذكريات القبلية المتصلة بالوقائع الحربية ، أو ما عدناها من حوادث البادية ، ثم صوغ الأمثال الموجزة ، وقواعد التشريع . . ويلوح أن الشر المسجوع كان قاصراً على المأثور من أقوال السكبان . . أما الشعر الذى كان قد تطور تطوراً كبيراً فى العبارة والصياغة الفنية فإنه تماشى الموضوعات الدينية ، ولم يكن هناك أسلوب معتمد يمكن أن تقدم فيه المباحثات الكلامية أو التشريعية . . ولا سوابق أو شواهد للشعر تتعاقب يشمون الآخرة .

ثم يقول :

« لم يستعمل محمد ، ألبتة فى القرآن شيئاً من أوزان الشعر التقليدية ، بل راح يفك لإسار الشر المسجوع ، ويقوم اعوجاجه . ويملاً تضاعيفه حتى أصبح مركباً ذلولاً لرؤاء العجيبة (كذا) عن عذاب اليوم الآخر . . كما أنه دخل قسراً على نثر مستعص غير فاضح طريقة التعبير بعبارة جلية محدودة ، عن مبادئ تجريدية ، أو شرائط قضائية ونظرات سياسية . .

ثم يقول :

« ولكن محمد » هو الذى وجد الصيغة العربية للتعبير عما صار أخص خبراته الشخصية ! ولن يستطيع إدراك المدى الكامل لما بلغه من نجاح فى إدخال هذه الموضوعات الجديدة فى ذلك الأدب العربى المقيد بالأوضاع والتقاليد

(١) من أدب الكاتب للصوى . . طبعة القاهرة سنة ١٣٤١ هـ .

لأبملاحظة إنخفاف الأجيال التالية في مواصلة الحديث في تلك الموضوعات
الشعرية السابقة - موضوعات الجنة والنار واليوم الآخر والحساب وتضمينها
حتى أسرارهم (١)

لقد طأطأ وقوفاً في هذه المسألة - مسألة أسلوب القرآن وما جاء فيه من
تكرار ، وما قيل في جمعه وترتيبه - ولكن لم يكن بد من هذه الوقفة الطويلة
إذ كان الرجل الذي تخبرناه ليكون مثلاً للناقد العالم الحر من كتاب الغرب ، لم يستطع
أن يستقيم على الحياد ، وأن يتحرر من موروثات العصبية . . بل حشد ذكاه
كله للدراغة والمخائلة . . يلوح لك بقولة الحق ، فيخيل إليك أن الرجل رجل
عدل وإنصاف ، فإذا أنت لم تنظن إلى هذه الخدعة وقعت في مزلق من تلك
المزلق الكثيرة التي يلقي بها فيما لوح لك به حق . .

لأنه بهذا الأسلوب المموه بمهارة وحذق يستطيع أن يخدع كثيراً من يلقاهم
بالحقائق ملففة في لفائف رقيقة من الزور والبهتان ، فيختلط عليهم الأمر ،
وتضطرب في قلوبهم أمواج الشك . .

إن في كلام الرجل كثيراً من الحق ، كما أن فيه كثيراً من الباطل . .

وأعجب ما في هذا أن يحىء الرجل بالحقيقة واضحة ، ثم يحىء كذلك بالباطل
صريحاً واصحاً في الأمر الواحد ، ويجمع بينهما في صور شتى . . وهذا أبعد في
السكيد ، وأمعن في التضليل ؛ من يحىء بالحق متلبساً بالباطل ، أو بالباطل متستراً
في الحق !

ولعل أصدق ما قاله الرجل هنا في قوله في تفسير التكرار الذي جاء في
القرآن . . حين يقول :

« والواعظ والمعلم مجبران بحكم عملهما في ذاته إلى التكرار ، بل التكرار
بنفس الألفاظ تقريباً . . »

وذلك لاشك وجه من وجوه الحكمة في تكرار ما تكرر من عبارات

(١) حضارة الإسلام لجرونيانوم ص ١٠٨ وما بعدها .

ومعاًن فى القرآن .. كما هو الحال فى سورة الرحمن ، وفى سورة المرسلات ، كما هو الحال أيضاً فى قصص الأنبياء ..

واسكن هذا التكرار ليس من عمل محمد ، وإنما هو من تدبير الله فى إنزال القرآن ، وفيه هذه المواقف التى تتكرر فيها الألفاظ والمعانى ، حيث تقتضىها دواعى الحال ، فى الأمور ذات الصفة المهمة الخطيرة ، أو فى الحالات التى تزدهم فيها النفس بالحواطر المزعجة ، فيرسل لىها العزاء ، والسلوان ، حالاً بعد حال ..

وقد كان من عادة النبي عليه الصلاة والسلام أن يعيد الكلمة أو الجملة ثلاث مرات .. وذلك فى المواقف التى تقتضى العناية والاهتمام ..

عن أنس رضى الله عنه : أن النبي صلى الله عليه وسلم إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثاً حتى يفهم .. وإذا أتى على قوم سلم عليهم ثلاثاً حتى يفهم (١) .

وعن السيدة عائشة رضى الله عنها : «أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحدث حديثاً لو عدّه العاد أحصاه ، .

ونكتفى بهذا القدر فى مواجهة هذا الباطل الذى يقول به علماء الغرب فى أسلوب القرآن ، وفى تكراره وفى جمعه وترتيبه .

التشريع فى القرآن :

والأمر الثانى الذى يقف منه الغربيون موقف التهجم والتطاول على القرآن هو الأحكام التى جاء بها ، والشريعة التى دعا لىها ، وأقام دعوة الإسلام عليها . والمفتريات هنا كثيرة متشعبة ..

تجىء أحياناً على طريقة المقايسة إلى الشريعة الموسوية أو العيسوية . وتجىء تارة بالمناظرة مع الأنظمة والشرائع المادية التى يعبدت فيها الناس . وتلتقى جميعها عند القول بأن الإسلام — سواء كان ديناً سماوياً أم وضعياً —

(١) زاد المعاد فى هدى خير العاد - جزء ٢ ص ٦٥ .

(٢) الشفا للقاضى عياض جزء ١ ص ١٠٨ .

فإنه إنما وضع لحياة البادية ، وجاء مقيداً على أحوالها وظروفها ، وأنه إذا خرج إلى محيط غير هذا المحيط ، وإذا جاوز هذه الأحوال والظروف اصطدم بظروف وأحوال لا يستطيع مواحمتها ، ولا الحياة فيها .

إن الشريعة الإسلامية — عن هؤلاء الغربيين — شريعة بدائية ، لا تستقيم أبداً مع الحياة المتحضرة ، ولا تتجاوز مع حاجات الناس في تلك الحياة !

وغاية القائلين بهذا القول أن يحصروا الإسلام في دائرة ضيقة من الزمان والمكان .. فهو لا يصلح إلا للجماعات البدوية ، ولا يعيش إلا في البيئات المتخلطة التي لم تنطع عليها شمس الحضارة الحديثة ، ولم تنفذ إليها شعاعاتها .

وهذه إنما يرون أن يضعوا « متاربس » من الوهم والخداع أمام زحف الإسلام ، وأن يكسروا من حدة انطلاقه في مشارق الأرض ومغاربها ، على رغم ما يلقي من مقاومة المبشرين ومحاربه بكل سلاح ، واضطهاد الداخلين فيه ، وحرمانهم من حقوقهم الاجتماعية والسياسية ..

ثم هم من جهة أخرى يحاولون أن يضعوا حواجز نفسية بين الإسلام وبين المؤمنين به ، بما يخيّلون انضعاف العقول ، ولتغريين بالمدنية الغربية والمأخوذين ببريقها — أنهم إنما يحرقون عقولهم ، ويرخصون مواهبهم ، وينزلون من شخصياتهم إذ يلبسون هذا الزي البدوي ، ويعيشون فيه ، على حين يعبد الناس في عصر الذرة ، ويستعدون لغزو الفضاء وسكنى المكواكب !

وقد كان لهذه المفتريات سلطان على كثير من أصحاب الشخصيات « الممهوزة » التي لم تنهأ لها المعرفة الصحيحة بالإسلام ، ولم يتح لها حظ من الإيمان القائم على العلم والمعرفة ، فكان من السهل الميسور أن تغزو هذه الأفكار الخبيثة تلك القلوب التي عاش فيها الإسلام من غير أن يثير فيها عاطفة ، أو يحرك شعوراً .

وشتان بين هذه الدعوى التي يدعيها الغربيون وأشباع الغربيين على الإسلام وبين حقيقة الإسلام والغايات الكبرى التي جاء لتحقيقها في هذه الحياة !

لقد ساء الإسلام لهداية الإنسانية كلها ، وإفئادة مجتمعاتها جميعاً ، على مدى الأزمان ، وفي مختلف المواطن !

والقرآن الكريم يجعل بين آياته الكريمة مبسّمون دعوته تلك ، ويؤذن في الناس بها . . وفي موضع آخر من هذا الكتاب تحدثنا عن الإنسانية الإسلام ، ودعوته الشاملة لكل من يدخل في معنى الإنسانية من بني آدم . . فما جاء الإسلام إلى العرب وحدهم ، وما قصر خطابه عليهم ، بل لأنه لم يوجه إلى العرب خطاباً أبداً ، وإنما جاءت أوامره ونواهيته كلها متجهة إلى الناس جميعاً : « يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوماً لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً » (١) . . « يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم ، فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها ، وقوله : « يا أيها الناس إن وعد الله حق ، فلا تفرغوا الحياة الدنيا ، ولا يفرغكم بالله الغرور . . إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً وما تدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير » (٢) . . « يا بني آدم لا يفتنكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة . . » (٣) .

قلنا هذا ، وقلنا إن الإسلام هنا جاء على غير ما جاءت الديانتين الموسوية والديسوية ، حيث كان متوجه شريعتهما إلى بني إسرائيل وحدهم دون الناس . . كما قلنا إن الذين آمنوا بهاتين الديانتين من غير بني إسرائيل إنما هم يتعاطون طعاماً لا يصلح لهم ، ولا يصلحون له . . إذ كانت هاتان الشريعتان لشعب له ظروف خاصة ، وأحوال متصلة به . . !

ونقول هنا إن الإسلام في دعوته العامة التي حملتها أوامره ونواهيته ، كانت في القرآن . لم يكن مجرد دعوة تهيب بالناس جميعاً ليوسع دائرة اختصاصه ، وليمد في قطر دائرته ، وإنما كان إلى جانب هذه الدعوة يحمل كل أسباب الحياة

(١) سورة لقمان آية ٣٣ . (٢) سورة يونس آية ١٠٨ .
(٣) سورة لقمان آية ٣١ . (٤) سورة الأعراف آية ٢٧ .

المادية والروحية لكل من تبلغ أسماعهم دعوة الإسلام ، في أى مكان ، وفي أى زمان .

والجدل في مجال عرض المبادئ الإنسانية التي جاء بها الإسلام ، ومقايستها إلى الشرائع السماوية أو الوضعية قد تشتمل فيه معارك الكلام ، ويحدثم الصراع ، فتغرق الحقيقة في دخان هذا الصراع ، وتضيع معالمها في غبار هذا العراك ..

فلانتهجه هنا إلى عرض حقائق الإسلام ، ولانستعرض مقولات الخصوم فيها ، وما تحمل من بهتان وزور .. فذلك - كما قلنا - قد لاينهي النزاع باتتصار حاسم لاي عن الفريقين المتنازعين .

ولنما الذي تقدمه شاهداً يشهد للإسلام بسلامة مبادئه ، واستقامتها مع طبيعة الحياة ، وتقلب المجتمعات البشرية فيها ، وتنقلب معها جيلاً بعد جيل — الذي تقدمه شاهداً لهذا هو التطبيق العملي للإسلام ومبادئه ، وما كان لهذه المبادئ من آثار في الحياة الإنسانية : المادية والروحية على السواء .

جاء الإسلام إلى الحياة ، فتخير أجذب بقعة فيها .. ونزل بين جماعات ضائعة ضالة في غياهب الصحراء ، وفي بطون أوديتها وجبالها .. قد ركبتهم طباع تنضح بالشر ، وترمى به كل من يتصل بها من قريب أو بعيد .. فلا يلقى لإنسان إنساناً بمودة ، ولا يمد إليه يداً مودعة مسالمة ، وإنما هو البغى والعدوان ، وهو الصراع بالخالب والأنياب لتتجلى المعركة عن قاتل أو مقتول .. « فمن لم يكن ذمياً أكلته الذئاب » ، ومن لم يكن قاتلاً فهو المقتول .

لقد تخير الإسلام هذا الموطن بالذات لبدأ منه رحلته الطويلة مع الحياة .

هذا أول شاهد يشهد للإسلام بأنه جاء من جهة عليا .. حكيمة مدبرة .. وأنه وضع أقدامه على أول الطريق الصحيح لإصلاح الحياة ، وعمرانها .. حين بدأ بالجذب والفقر منها ، فأخرج منه جنات تفيض بالخير والشر .

إن الغيث لا يعرف فضله ، ولا تشهد آثاره إلا في موطن الفقر والجذب ..

حين تستقبله هذه المواطن فتجيب به ، وتتحرك في أحضانها أجنة النبات ثم تنشق عنها ، فإذا هي زروع ناضرة ، وأزاهير متفتحة ، وثمرات دانية القطوف مختلفة الطعوم ..

وليس كهذه النهضة شهادة تنطق بفصل الغيث ، وتحدث عن آثاره : فانظر إلى آثار رحمة الله .. كيف يحيى الأرض بعد موتها ، (١) . وترى الأرض هامة ، فإذا أنزلنا عليها الماء اعتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، (٢) وهكذا جاء الإسلام محيى الغيث إلى هذه المواطن المجدة المقفرة ، فاهتزت به وربت . وأنبتت من كل زوج بهيج !

ولا يستطيع مكابر - مهالج به العناد - أن ينكر آثار هذه الرحمة الشاملة التي أخصب بها كل حديب ، وعمر بها كل خراب في أنحاء الجزيرة العربية ؛ منذ دخل الإسلام في قلوب القوم ، وعمرت تلاوة القرآن دورهم وساجدهم .^١ فهذه الأمة التي جمعها الإسلام من أشلاء ممزقة ، وأقام بنيانها من أنقاض مهالكة .. هذه الأمة التي أتم الإسلام إعدادها في ثلاث وعشرين سنة — هي مدة الدعوة الإسلامية — هذه الأمة قد واجهت أكبر قوتين كانتا تقسمان العالم بينهما .. واجهتهما ولم تسكن قد تمرست بالحروب العامة الشاملة ، ولم تكن تعرف من فنون الحرب ما تعرف أمة الفرس وأمة الروم — ومع هذا فقد هزمت الدولتين العظيمتين معاً .

فوضعت يدها على دولة الفرس كلها ، واستولت على بلاد الشام ومصر من دولة الرومان .. كل هذا في بضع سنوات من وفاة النبي !

وقد يبدو لحاسد أو مجادل أن يقف من هذا الإعجاز الرائع لقوة الإيمان التي كان بها هذا الفتح فيقول : إن هذه الفتوح الإسلامية لم تكن عن فعل الإيمان ، ولا من وحى الإسلام .. وإنما هي قوة مخربة مدمرة من قوى الشر .. انطلقت من قلب الصحراء كما يطلق الإعصار العاتي فيدمر كل شيء ! وفي التاريخ فعاليات

(٢) سورة الحج آية ٥ .

() سورة الروم آية ٥٠ .

(م ٢٠ — المي محمد)

لمثل هذا .. فلقد اجتاحت التتار دولة الإسلام في وقت أقل مما احتاحت فيه ميوش المسلمين دولتي الفرس والروم !!

وهذا القول ، وإن يكن في ظاهره ما يصل ويخدع ، إلا أنه مع قليل من النظر تتمتع فيه أوجه الخلاف الابدید بين الأمرين ، فلا يبدو بينها وجه يلتقيان فيه .

فأولاً : لم تكن قوة الإسلام الزاحفة حملة عسكرية تحمل إلى الناس الموت والحراب ، والدمار ، شأن الحملات العسكرية الملبأة بروح البقرة ، وحب السيطرة والغلب .

ولمنا كانت قوة الإسلام الزاحفة شعبة منيئة ، تحاول أن تخترق بشعاعاتها سحب الظلام المتكاثف على قلوب الناس وعقولهم ..

كانت قوة الإسلام الزاحفة بعثة إنقاذ ، تحمل إلى الإنسانية الضالة أطواق النجاة ، ملقاة بنفسها في مواطن الموت في سبيل الحق والخير الذي تجمله بين يديها ، ليأخذ الناس بحظهم من هذا الحق والخير !

كانت قوة الإسلام الزاحفة لا ترفع سيفاً في وجه من يقول كلمة التوحيد ، وينضم إلى موكب السور ! إنه حينئذ يصبح واحداً من تلك الجماعة ، له مالها ! وعليه ما عليها .

فهل كان شيء من هذا في حملة التتار ، أو غيرها من حملات الفتح والغزو ؟
لا ينبغي على هذا ، فقد تولى التاريخ الإجابة الواضحة المسببة !

وثانياً : كانت قوة الإسلام الزاحفة تعمل للبناء ، لا الهدم .. وكانت يدها البانية قوية ، حكيمة ، عادلة ، خيرة .. تبنى الحق والخير .. وتقيم ما تبنى على دعائم متينة من العدل والإحسان .. ومن أجل ذلك فقد رسخ ما بذت ، وزاد مع الأيام قوة ، وارتقاء .. حتى أن الكسرات التي كانت تصلب هذا البناء بين حين وآخر لم تكن لتقوص البناء ، أو تضيق معالمه . وإنما هي صدوع وشروخ لا تلبث يد الإسلام أن ترأب الصدع ، وتسد الثلمة !

وهذه حضارة الإسلام التي عرف الغرب آثارها وأقام حضارتها الحاضرة

على أضواء مشاعلها — هذه الحضارة لا تزال قائمة في بطون الكتب ، وفي معالم الحياة التي يقوم عليها اليوم مجتمع يضم أربع مئة مليون مسلم !

أفهدا كان شأن التتار ، ودولة التتار ؟

إن دولة التتار لم تقم إلا في ظل الإسلام ، فقد أعلن قائدها إسلامه — إن صدقا وإن كذبا — ليضمن لدولته الباشئة — حياة تحت راية الإسلام . . ومع هذا ، فقد ذاب التتار في الدولة الإسلامية ، كما ذاب غيرهم من الأمم والنسب التي ضمها الإسلام إليه وصبغها بصبغته .

فالتول بأن القوة العربية التي عبأها الإسلام لتكون طليعة بعوك النور — القول بأنها كانت ظاهرة من ظواهر الطبيعة العاتية قول لا يستقيم مع الواقع ، ولا يستند إلى شيء من مرويات التاريخ ؛ حتى الضعيف المكذوب منها .

قلنا إن أول النواهد على أن الرسالة الإسلامية رسالة سماوية تستند إلى قوة عليا لا حدود لقوتها — أنه تخير لدعوته هذا المكان الحديد المقفر ، الذي لم يشهد يوما من الأيام أمهة سلطان ، ولا سطوة دولة ، كما عرف اليونان ، والرومان ، والفرس ، وكما عرف الفراعنة ، بل والتابعة بالين .

من هذا المكان المقفر الحديد كانت نقطة انطلاق الإسلام ، ومركز دعوته . فإن الطبيب — كما يقول السيد المسيح — لا يزور إلا المرضى .

ومن جهة أخرى . . فإن قيام الدعوة الإسلامية في هذا الموطن كان خير مكان يصلح لتربية إنسانية تستقيم مع مبادئ الإسلام ، وتستجيب مشاعرها للغداء الطيب الذي يحمله إلى الناس .

والأمة العربية — على ما كان بها من فقر ، وما في حياتها من مخلفات الفقر والحاجة كانت لا تزال في صميمها سليمة فقية من العوارض والآفات التي أصابت الشعوب التي تمرست بالمردية وعاشت فيها زمناً ، ثم خذلتها الحياة ، وتركها أشبه بالهشيم .

ومن هنا كان أثر الإسلام في الأمة العربية قويا واضحاً ، منجزاً . . كالفيض
يصبب أرضاً بكرًا ، لم يمتص مادتها الغذائية نبات أو شجر .

وهذا ما يمكن أن يفسر به قوة الجماعة الإسلامية الأولى ، مع قلة عددها ،
وشح مواردها ، وهذا ما يفسر أيضا ظهور هذا العدد الكبير من عظماء الإنسانية ،
ممثلًا في صحابة رسول الله ، وما أظهره من عظمة في فنون السياسة ، والحرب
وفى تنظيم الدول ، وبناء الشعوب . إلى ما اشتملت عليه نفوسهم العالية من ترفع
عن ماديات الحياة ، واستعلاء على مطالب الجسد والنفس الأمارة بالسوء .

ولا نذكر الأسماء ، ولا نعرب الأسمال . . فكل صحابة رسول الله مثل
لهذا ، وكل أعمالهم شواهد له .

فالذين يحاولون أن يصوروا الشريعة الإسلامية بأنها شريعة متخلفة ، لا تصاح
إلا في الحياة البدائية ، ولا يعيش عليها إلا من يسكنون الغابات والكهوف —
هؤلاء الذين يضعون شريعة الإسلام في هذا الوضع هم — كما قلنا — ليسوا
أعداء الإسلام وحسب ، بل هم أعداء الحياة نفسها ، أعداء الإنسانية كلها . .
إذ يحاولون أن يجلبوا عن الناس هذا الخير الذي نزلت به آيات الكتاب الكريم ،
ليكون رحمة للناس ، وشفاء من تلك الأدواء التي تغتال ما بينهم من أواخر
الآخرة ، وصلات المودة والرحمة ، وتوقد بينهم العداوة والبغضاء التي تشعل
نيران هذه الحروب المدمرة . والتي تبيت الناس دائما على ذعر وفزع .

إن شريعة الإسلام هي التي جعلت من تلك الجماعة المبددة الضائعة في رمال
الصحراء أمة تظال بأجنحتها أمتا ، وشعوبا . . تنشر فيها العدل ، والأمن ، وتقيم
في ربوعها مدنية مزهرة ، وحضارة قائمة على أصول راسخة من العلم والفن .

يقول « ول ديورانت » في كتابه قصة الحضارة :

لم يكن لبلاد العرب بوصفها وحدة سياسية وجود قبل عصر النبي إلا في مسميات
اليونان غير الدقيقة ، فقد كانوا يسمون جميع الساكنين في شبه الجزيرة باسم :
« السر كنيوى ، ويلوح أنه هو نفسه مشتق من لفظ « الشرقيين » العربى .

وكانت قلة سبل الاتصال وصعوبتها مما اضطر أهل البلاد إلى أن يعملوا على الاكتفاء بأنفسهم عن غيرهم ، كما أنهما كانتا سبباً في نمو روح العزلة فيهم .
و فالعربي لم يكن يشعر بواجب أو ولاء لآية جماعة أكبر من القبيلة ، وكانت قوة ولاءه تتناسب عكسياً مع سعة الجماعة التي يدين لها بالولاء (١) .

ذلك هو الوصف الدقيق للحالة التي كانت عليها الحياة الفردية أو الجماعية للعرب في صحراء الجزيرة . لم يكن العرب أمة من الأمم ، وإنما كانوا جماعات متناثرة ، هنا وهناك ، يكوفون وحدات . . كل وحدة تسمى قبيلة ، وتلك هي الوحدة الكبرى ، أو الأمة التي ينتمى إليها العربي ، ويدين لها بالولاء .
أما ما وراء هذه الوحدة القبلية فلم يكن بموضع تفكير عند أحد منهم .

فكان من معجزات الإسلام أن أقام من هذه الجماعات المشتتة المتناثرة ، مجتمعاً متماسكاً متجانساً . . يشد بعضه بعضاً ، فكان كالجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحنى والسهر .

وهذا ما تشير إليه الآية الكريمة في قوله تعالى : « واذكروا نعمة الله عليكم ، إذ كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم ، فأصبحتم بنعمته إخواناً ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها » (٢) .

ولا يذكر التاريخ مجتمعاً إنسانياً جمعت بين أفرادها روح الإخاء ، والمودة ، والإيثار مثل المجتمع الإسلامي الذي أقامه الرسول ، وورثه خلفاؤه الراشدون من بعده .

فقد كان هذا المجتمع أشبه بأسرة تجمع بين أبوين عطوفين ، وأبناء بررة كرام ، لا يلقى أحد أحداً إلا بالمودة ، ولا يبذئ أحد مع أحد إلا على حب وسلام .
فإذا تحدثت المجتمعات الراقية اليوم عن التكافل الاجتماعي ، وعن التقارب بين الطبقات فيها ، فإنها لتستخرى إذا نظرت إلى ما حققه المجتمع الإسلامي من

(١) قصة الحضارة جزء ٢ مجلد ٤ ص ١٠

(٢) سورة آل عمران آية ١٠٣

هذا التكافل والتعارف على صورة كاملة ، لا يقوم عليها سلطان غير سلطان الضمير ، ولا يزعمها وازع غير وازع الدين .

يقول « ول ديورانت » المؤرخ العالم الفيلسوف :

« ولسنا نجد في التاريخ كله مسلحاً فرض على الأغنياء من الضرائب »
ما فرض عليهم « محمد » لإعانة الفقراء .

« وكان يحض كل موص بأن يخصص من ماله جزءاً للفقراء .

« وإذا مات رجل ولم يترك وصية فرض على ورثته أن يخصصوا بعض ما يرثون لأعمال الخير » (١) .

وليس الذى فرضه الإسلام من بر بالفقراء والمساكين هو ضريبة بالمعنى المفهوم فى العرف الاقتصادى اليوم ، وإنما هو زكاة . . والزكاة معناها : النماء والزيادة ، والطهارة ، والطيب . . فيقال : زكا العلام يزكو زكاة ، إذا نما وتب . . وراثحة زكية أى طيبة . .

فالزكاة التى يؤديها المسلم عن ماله فيها زكاة لهذا المال أى نماء له ، وفيها طهر وطيب لصاحب المال المزكى . . وهذا ما نجده فى الآية الكريمة : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم ، وتزكهم بها » (٢) . والآية الكريمة :
« الذى يؤتى ماله يتزكى » (٣) .

وشتان بين من يبذل المال فى سبيل الفقراء والمحتاجين وملء مشاعره أنه يعقد صفقة رابحة ، ينال بها نماء ماله ، وطهاره نفسه ، ومرضاة ربه ، وبين من « يدفع » الضرائب وليس فى نفسه أى معنى من تلك المعانى الطيبة الكريمة . . !
وإذا تحدثت المدينة الحديثة عن فضلها فى تخليص رقاب الأرقاء ، وفى القضاء على الرق ، فلتذكر أولاً صنع الإسلام فى تحرير الرقيق ، وما حملت

(١) قصة الحضارة جزء ٢ مجلد ٤ ص ٥٩ .

(٢) سورة التوبة آية ١٠٣ .

(٣) سورة الليل آية ١٨ .

تعاليمه من مساواة مطلقة بين الناس ، لا يتفاضلون إلا بالعمل الطيب ، فلا حساب للأحساب ، والأنساب ، والألوان ، والدماء ، في موازين الإنسانية ومنازل الناس في المجتمع الإنساني . .

لتذكر المدنية الحديثة هذا ، ولتذكر معه أن مجتمعاتها وإن تخلصت من الرق على الصورة التي كانت معروفة من قبل ، وهي تملك الإنسان وعده سلعة تباع وتشترى — فإن هناك صوراً كثيرة للرق لا تزال قائمة يمثلها الاستعمار الذي لم يتخلص منه بعض الجماعات الإنسانية إلى الآن ، كما تمثله التفرقة العنصرية بين زنوج أمريكا والأمريكيين ، وبين السود في أفريقيا وبين الأوروبيين . . كما يمثلها المحتكرون وأصحاب رؤوس الأموال في أوروبا وأمريكا .

لتذكر المدنية الحديثة هذا كله ، ولتقف وقفة لإجلال وإكبار وخشوع أمام عظمة الإسلام ، وسمو المعاني الإنسانية التي غذى بها مشاعر أتباعه ، ليعاملوا بها فيما بينهم . . وفيما بينهم وبين الناس جميعاً .

سأل رجل النبي صلى الله عليه وسلم : « كم أعفو عن الخادم ؟ » . فصمت النبي الكريم ثم قال : أعف عنه كل يوم سبعين مرة . .

وليس حصر عملية العفو في هذا العدد بواقفة به عدد هذا الحد ، بل غاية ألا تسكون له نهاية . . وأن يتعمل العفو حالاً بعد حال .

وعن ابن المنكدر أن رجلاً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب عبداً له ، فجعل العبد يقول : أسألك بوجه الله ، فلم يعنه ، فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم صياح العبد ، فانطلق إليه ، فلما رأى الرجل رسول الله ، أمسك يده فقال رسول الله : سألك بوجه الله فلم تعنه ، فلما رأيته أمسكت يدك ؟ فقال الرجل : هو حر أوجه الله يا رسول الله . فقال له النبي : لو لم تفعل لسنفت وجهك النار . .

ولم يكن هذا مجرد مبادئ وتعاليم يلقيها الرسول في آذان أصحابه ، وإنما كان

صلوات الله وسلامه عليه القدوة الطيبة والأسوة الحسنة في كل ما يأمر به أو ينهى عنه .

عن أنس — خادم الرسول — قال : « خدمت الرسول عشر سنوات ، فما قال لشيء عمله : لم عمله ؟ ولا لشيء تركه لم تركه ، ؟ » .

فلست منزلة الخادم عند من يخدمه أو العامل عند صاحب العمل بالمنزلة التي دون من يخدمه أو يعمل معه ، وإنما الأمر بينهما قائم على التعاون لدفع عجلة الحياة . . هذا هو وضع العامل عند صاحب العمل في الإسلام .

يقول النبي الكريم : « إخوانكم خولكم . . استعينوا بهم على ما غلبكم ، وأعينوهم على ما غلبهم ، ١ » .

فأى نظام من أنظمة العمل ، وأى قانون من قوانين المال يرتفع إلى هذا المستوى الرائع الكريم الذي رفع به الإسلام منزلة العمل ، ومكانة العامل جميعاً ؟ .

وأى عقد من عقود العمل يضمن للعامل هذا الحق الأدنى عند صاحب العمل ، ويقمه عليه ، ويؤديه له ، في صورة عبادة وقرين إلى الله ؟ .

« إخوانكم خولكم » .

الأخوة هي الأساس الذي يقوم عليه عقد العمل ، بين العامل وصاحب العمل .

الأخوة أولاً وقبل كل شيء .

أخوة مقررة ، متبادلة بين الطرفين . .

أخوة قائمة مقررة قبل أن تكون بينهما صلة تعامل أو عمل .

أخوة إنسانية . . يلتقيان أو يفرقان دون أن ينقطع بينهما هذا الرباط الوثيق الذي جمعهما الله فيه .

وهذا هو السر في تقديم كلمة « إخوانكم » على كلمة « خولكم » في الحديث الشريف .

وفى قول الرسول الكريم : « استعينوا بهم على ما غلبكم ، وأعينوهم على ما غلبهم » تنبيه قوى إلى تسخير العمل والعامل معاً ، وأن من كرامة الإنسان أن يعمل ما وسعته قدرته وكفايته ، فإذا لم يكن فى استطاعه الوفاء بالعمل ، فلا عليه أن يستعين بمن يحد منه العون .

فأين من هذا الإحساس اليقظ بكرامة العمل وقيمه — هذه المشاعر المربصة التى يعيدش فيها كثير من الأغبياء الذين يحسبون الترفع عن العمل ، وفراغ اليد ، والعقل والقلب منه — مدرجاً إلى العظمة ، ومرقى إلى مقام السيادة ؟ .

إن الإسلام يدعو كل ذى طاقة جسدية أو عقلية أن يوجه طاقته تلك إلى العمل المنتج المفيد ، وأن يضم جهده إلى جهد غيره ليضاعف الثمرة ويضمها .

وليس فى الإسلام ولا فى المسلمين من يقعه الترفع والتعالى عن أن يكون عاملاً مع العالمين ١٠٠ والرسول الكريم يقول: «ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده ، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده ، . . . وكان نبي الإسلام أكل مثل وأروع شاهد لهذه الدعوة المباركة . . . كان يخفض نعله ، ويرقع ثوبه ، ويحلب شاته ، ويقم بيته ١٠٠

* * *

هذا جانب من التشريع الاسلامى ، وأثره فى الحياة . . فهل تنقض الحياة المعاصرة شيئاً من هذا ؟ وهل تعلو الحياة فى أعلى مستوياتها على هذا المستوى الذى ارتفعت إليه الحياة فى ظل الاسلام . وعلى أيدي المسلمين فى العصر الذى عملت فيه مبادئ الاسلام عملها ، وأخرجت ثمراتها ؟ .

إن الدين يحاولون أن يشوهوا مبادئ الإسلام ، ويشوشوا عليها ليرتكبون لائماً غليظاً فى حق الحق ذاته ، وفى الجناية على كثير من الناس قد يصرفهم هذا الضلال عن الوقوف على مبادئ الاسلام والانتفاع بها .

وما يضاعف من هذا الإثم ويزيده شناعه أن يكون فى هؤلاء الطاعنين على شريعة الاسلام من ينهج نهجها ، ويسير عليها . ويلتفع بمقرراتها فى منازع حياتها ، وفى أسلوب معيشتها ، ثم يلقى الناس بلمان مة ملط عليها ، متسكراً لها !

صياغة أحكام الشريعة :

وقد يحاوز الناقدون من علماء العرب مفاهيم الشريعة الإسلامية إلى نقد الصياغة المقننة لهذه المفاهيم ، وذلك ليلقوا في روع من يقرأ لهم أن أسلوب القرآن ومعانيه ، وحيالاته كلها مستمدة من الحياة العربية ، مستلهمة من روحها . ملتقطة من لسانها . . وأن الشريعة التي جاء بها القرآن ليست إلا تهديدا ، وتنظيما لما عرف العرب في جاهليتهم من أخلاقيات تدور معهم في مدارات الحياة إلى يحيونها ويتقبلون فيها .

فمن ذلك ما يقوله مؤلف حضارة الإسلام « جرونيباوم » في أسلوب القرآن وصياغته لأحكام الشريعة . . يقول :

« وانه ليعبر — أى القرآن — في بعض الأحيان على طريقة الشعراء .

ويضرب لهذا مثلا ، فيقول :

« فالوحي يعترف بالتأثر بقوله : « ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب »^(١) ولكنه لكي يزين للناس روح الصلح والوفاق في تسوية المنازعات الدموية يضيف إلى تلك قوله : « لعلكم تتقون » .

« وفي مكان آخر يستعين الوحي في هذا الصدد بقصة قابيل وقتله أخاه هابيل ويتخذ هذا المفزى الخلقى ... والبي معارض للقصاص ، وإن رغب في إجازته في ظروف معينة ، غير أنه لم يخرج أفكاره في صيغ قانونية ودقيقة : وجزاء سيئة سيئة مثلها ، فمن عفا وأصلح فأجره على الله ، إنه لا يحب الظالمين ، ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل ، إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ، ويبغون في الأرض بغير الحق ، أولئك لهم عذاب أليم ، ولمن صبر وغفر إن ذلك من عزم الأمور^(٢) » .

والإسلام ، أو بمعنى آخر القرآن ليس ككتاب قانوني جنائي أو مدني ، وليس

(١) سورة البقرة آية ١٧٩ .

(٢) حضارة الإسلام ص ١١٦ والآيات من سورة الشورى ٤٠ — ٤٣ .

لائحة إجراءات ، كل همه تحديد الجرائم ، ووصفها الوصف الكاشف لها ،
ورصد العقوبة المنسدة أو المخففة لكل جريمة .

ليس القرآن على تلك الصفة التي ينظر إليه من حلالها العريون ، ويحصر
نظرتهم إليه فيها ، وإنما هو قبل كل هذا كتاب تربية وتعليم ، كتاب بناء للأخلاق ،
وتقويم للسلوك ، وليست غايته ضبط المجرم متلبسا بجريمه ، وإنما مقصده الأسمى
تقويم المجرمين وصددهم عن السبيل المعوجة والمنحرفة بما يلقي في قلوبهم من هداية ،
وما يشيع في ضمائرهم من يقظة وصحو !

ذلك هو مقصد الإسلام الأول فيما يشرع من شرائع ، وفيما يرصد من عقاب
ثم يحىء بعد هذا دور التكميل للجرائم التي تقع ، ووزنها بميزان مستقيم عادل ،
ليحسب لها الجزاء المستقيم العادل !

ويقول : « جرونيوم » أيضاً في هذا الصدد :

« كان لعرب الجاهلية محصول لنوى غير قليل من المصطلحات الأخلاقية ،
ولكنهم لا يكادون يملكون أبسط مبادئ القانون المدني أو الجنائي .. »
ونسلم بهذا ..

ولكنه يتخذ من القول ذريعة ليقول :

« حتى إذا استن (محمد)^(٢) شريعة مجتمعة أراد أن يتجاوز البت في الحالات
الفردية ، وأن يصوغ قواعد عامة .. لما على أساس العرف القديم ، أو على وفق
ماركب فيه من إحساس بالعدالة مرهف ، شديد الامتياز .

والشواهد الأدبية الوحيدة التي كان يستطيع أن يسير على هديها لم تكن سوى
عموميات مجملة كالتى ترد أحياناً في الشعر ، كما كانت إلى حد ما قواعد لا تجيء
مباشرة وصريحة ، بل ملخصة وضمنية ، وذلك عندما يمدح الشاعر بعض النابهين
من الأفراد ، أو يذمهم .. لتمسكه بفضيلة من الفضائل ، أو تجافيه عنها .

(١) وليس « محمد » هو الذى يستن المريعة الإسلامية ، ولكن هكذا يريد العريون .

فإذا أحبطت إحدى القبائل مسعى لرجل أجبي عنها في طلب الثأر ، وأبت أن تتخلى عن ابن من أبنائها كان قد تورط في نزاع دموى ، راح (زهير) يمدحها بقوله :

كرام ، فلا ذو الوتر يدرك وتره لديمهم ، ولا الجارم الجاني عليهم بمسلم

وفهم يصور قواعد السلوك الصائب بمنتهى الوضوح ، ولكن بغير الطريقة التي ترضى المشرع . . . ثم إن أدب الحكمة كان يزود الناس بمدخرات أخاذه من الحكم الخلقية الماثورة .

والبغى يصرع أهله والظلم مرتعه ونعيم

ولكن الغي لم يكن ليجد أى مرجع فينهل منه عندما تقتضى عليه الظروف بتعريف الظلم ، أو تعين الطريقة التي ينبغي أن يتبعها القانون في المنازعات المدنية (١) .

والمغالطات هنا واضحة مفضوحة ..

فإذا كان القرآن قد سلك الترغيب في مكارم الأخلاق مسلك الإثارة الوجدانية فليس معنى ذلك أنه يطرق النفوس كما يطرقها الشعر وما يحمل من صور المدح أو الذم لخلق من الأخلاق ، أو عمل من الأعمال .

وفرق كبير بين صنيع الإسلام في هذا ، وبين ما يتضمن الشعر من فصاح وحكم . . . فإن القرآن تشريع ملزم . . . يتبع العمل السيء بالجزاء السيء في العاجل والآجل معاً . . . وليس كذلك ما يجيء في الشعر مما يمدح أو يذم من أخلاق ، فإنه لا إلزام فيه ولا متوجه به إلى جهة عليا تملك من الناس ما لا يملكون هم من أنفسهم . . . وتجاوز الخير بالخير أضعافاً مضاعفة ، وتجزى بالسيئة على قدرها أو تعفو عن مفترقها !

* * *

هذا ، وقد اختلفت نظرات بعض الناظرين في سيرة الرسول من المسلمين ، وغير المسلمين ، فلم يستطيعوا أن يروه بشراً رسولاً .. يعطى للبشرية فيه حقها ، كما يعطى النبوة منه حقها ..

فلقد رأى كثير من غير المسلمين أن تأنس النبي بالحياة البشرية لا يلائم النبوة ، ولا يوائم الرسالة السماوية التي اختير لها .. فهم يكادون يقولون : إن النبي ينبغي أن يحيا حياة الملائكة .. لا يأكل ، ولا يشرب ، ولا ينام ، ولا يتزوج وقد سبقوا إلى هذا القول بما قاله كفار قريش عن النبي فيما حكاه القرآن عنهم : « وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ؟ » (١) .

وكثير من المسلمين قد دخل عليهم من هذه المقولات ما عمى عليهم الرؤية الصحيحة . للبشرية القائمة في كيان النبي فحاولوا أن يصفوا حساب البشرية من كيان النبي ، وأن يروا النبي ما كنا لا نبشراً رسولاً ..

ولعل أكثر ما لُجج به غير المسلمين من سيرة الرسول ، وحاولوا أن ينالوا من مقام النبوة هو زواج النبي ، وما اجتمع في بيت النبوة من زوجات ..

فلقد كان هذا الجانب من حياة الرسول أقرب شيء يمد إليه أعداء الإسلام أيديهم .. ويبسطوا فيه ألسنتهم كلما أرادوا أن يهاجموا الإسلام في شخص فيه الكريم .

ولهذا فإننا سنقف عند هذه المسألة وقفة نلقى فيها هذه المفتريات ، ونكتف عن زيفها ، ونقول قولة الواقع عنها ، وكلمة الحق فيها .

الباب التاسع

بشرية الرسول

ونعود بعد هذه الوقفة التي وقفناها مع سيرة الرسول ، وما وعى التاريخ منها ، وما ألقى إليها القصاص والمؤرخون من إضافات ، وما أدخل عليها الوضع ، وأصحاب البدع والأهواء من ألوان الباطل الزيف ، ليلبسوا الحق بالباطل ، وليشوهوا معالم هذه السيرة الوضيئة المشرقة .

نعود بعد هذا لننظر في موقف الرسول نفسه من جلال النبوة وروعها ، وما كان يأخذ الناس من هذا الجلال وتلك الروعة !

وليس في مقدور أى إنسان مهما يكن إدراكه لبشرية النبي وتيقنه منها ، أن يحبس في نفسه تلك العواطف التي تجيش أمام هذا الجلال المهيب الذي لا يرى في هذا الوجود إلا في ظلال النبوة ، وفي رحابها العنى الطهور !

وحسبك أن تذكر هنا ما يروى عن موقف عمر بن الخطاب حين صدك سمعه بقولة من يقول : إن النبي قد مات وكان قد سبق ذلك توعدك وشكاة من الرسول ، حالت بينه وبين إمامة المسلمين للصلاة ، فأقام أبا بكر مقامه فيها !

لقد أنكر عمر — كما يقول المؤرخون — هذا القول ، وردده على قائله في صرامة وعنف .. بل يقال : إنه سل سيفه ، وتوعد من يقول هذه القولة بأن يعلوه بسيفه ! ، بل ويقال أيضاً : إن عمر قال : إن رسول الله لم يمت ، وإنما ذهب لميقات ربه ، كما ذهب موسى ، وسيعود ليقطع السنة قوم كذبوا وضلوا !

وسواء أكانت هذه الروايات صحيحة في جملتها أم غير صحيحة ، فإن فيها دلالة على هذا الشعور المذهل الذي طغى على المسلمين حين نعى إليهم النبي

الكريم ١٠٠ حتى ليبلغ مهم هذا أن يسكروا على الموت أن يتخطى حدوده وينال من الرسول ما ينال من الناس !

ولاشك أن المسلمين كانت ألسنتهم في هذا الوقت رطبة ندية بآيات القرآن الكريم التي تحدث عن الرسول ، وعن عراض البثيرة التي تعرض له ، ومنها عارض الموت الذي لا مفر منه .

فلم يقف القرآن في أن يقرر للرسول نصيبه من هذا العارض الذي ينال كل نفس في قوله : « كل نفس ذائقة الموت » ، وفي قوله تعالى : « كل من عليها فان » ! لم يقف القرآن عند هذا ، بل أفرد للرسول قولاً خاصاً ، ينص في صراحة على أن الرسول ميت لا محالة ، كما يموت الناس جميعاً . . فقال تعالى : « إنك ميت وإنهم ميتون » وقال سبحانه : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل . . أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم » (١) .

نقول : إن أي مسلم — بل إن أي إنسان — يقف من النبي موقف المتأمل في ذاته ، والمطالع لأحواله وتصرفاته ، والراصد لحركاته وسكناته ، والمستقبل لنفحاته وبركاته — لا يستطيع أن يحبس ما يحدث في نفسه من عواطف الإجلال الذي يبلغ مبلغاً لا نهاية له ، حتى ليكاد ينسى أنه أمام بشر يعيئ على الأرجح ، ويحيا في دنيا الناس !

وقد كان الرسول صلوات الله وسلامه عليه يعلم ما له في قلوب أصحابه والمخاطلين له من أثر قوى صاغط على عقولهم وقلوبهم . . لأنهم يرون لإنساناً سماوياً يعيش معهم ، ويحيا حياتهم ثم إذا هو متصل بالسماء ، يتلقى كلام رب العالمين ، من رسول رب العالمين « جبريل » . . وإذا آيات القرآن تنشق من فم الرسول ، فتعمر المجلس نوراً علوياً ، وينتشي بها المؤمنون نشوة تكاد تطير بها الأرواح طيراناً من الأجساد إلى عالم النور !

يعلم الرسول ، بل ويرى تلك الآثار القوية التي يجدها المسلمون من شعاعات النبوة وأعضائها . . فيجمل جاهداً على أن يمسك بالمسلمين أن يذهب بهم الحال

إلى أن يقولوا فيه ما قال أتباع المسيح في المسيح . من أنه ، الله أو ، ابن الله . ١٠

فما ترك الرسول الكريم حالا موانية من أحوال أصحابه ، يكشف لهم فيه عن الجانب البشري منه إلا طلع عليهم به . ولفتهم إليه ، وأمسك بعقوهم أن تضل ، وبمشاعرهم أن تضطرب ، وعادهم إلى ما يدعهم إليه دينهم من أفراد الله وحده بالعبودية ، وإنزال المخلوقين جميعاً إلى مقام الاتقياد للخالق والعصاغر أمام جلاله وعظمته ! لا فرق في هذا بين نبي وغير نبي . بل إن النبي هو أكثر الناس معرفة بهذه الحقيقة ، وأشدهم تنبهاً لها ، وقياماً عليها .

شواهد من أحوال الرسول :

ولو أراد إنسان أن يقف من سيرة الرسول الكريم على شواهد هذه الحال التي يكشف فيها لأصحابه عن بشريته ، وعبوديته ، وخضوعه لضرورات الحياة الإنسانية ، وتلبسه بها - لو أراد إنسان أن يجد لهذا شواهد من حياة الرسول لما كان له أن يتخير حالا دون حال ، أو يقف عند شأن دون شأن ، بل إن سيرة الرسول كلها ، وأحواله كلها ، وشؤونها جميعاً شواهد عدول على أن الرسول كان إلى جانب قيامه بأمر الدعوة وتبليغ الرسالة قائماً كذلك بتحديد مهالم شخصية في نفوس أصحابه . ووضعها في إطار بشري خالص ، ليس فيه من امتياز على غيره إلا ما فضل الله به عليه باختياره لتلك الرسالة السماوية واصطفائه لها ، وإلباسه اللباس النفس والروح والجسدي الملائم لها ، دون أن يخرج ذلك كله عن أن يكون إنساناً من الناس ، يأكل الطعام ، ويمشي في الأسواق . ١٠

القرآن وشخصية الرسول :

ولم تدع الشريعة الإسلامية تقرير بشرية الرسول وتوكيدها إلى الرسول وحده ، وإلى ما يقول عن نفسه من أنه إنسان قبل أن يكون رسولا ، وأنه يحكم هذه الطبيعة يعيش في مجال الإنسانية . ويتحرك في محيطها . لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعا إلا ما شاء الله !

لم تدع السريعة الإسلامية للرسول وحده أن يكسب لاصحابه عن هذه الحقيقة، بل جعل ذلك أياً من السماء، مستطورياً في كتابها المنزل على النبي . . حتى لا تترك سبيلاً لتأول أن يتأول فيما يقول الرسول الكريم عن نفسه . . كأن يحسب هذا القول على سبيل التواضع من الرسول لربه ، والتخاضع في مقام العبودية لخالقه . . وهو في واقع الأمر حق لا مزية فيه ، وإن حمل معه ما حمل من الولاء والخضوع والتخاضع لله رب العالمين !

من أجل هذا تكررت في آيات الكتاب الصور التي تحدد شخصية الرسول، وتضعها في الإطار البشري ، الذي لا يسمح لاتباعه أن يخرجوه من هذا الإطار، وإن بلغ ما بلغ من جلال ، وكمال .

يقول الله سبحانه وتعالى لنبيه الكريم : « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي ، » (١) ، فالآية توحه إلى الرسول أولاً ، ليعلم من نفسه أنه بشر ، وهو عالم فعلاً ، ولكن ليسكون ذلك تقريراً ، وتوكيداً لهذا العلم ، وتنتجها ثانياً إلى من يعينهم أمر النبي من المؤمنين وغير المؤمنين ، ليعلموا أن هذا الإنسان المتكلم بالسماء المحلى بالسكالات ، ليس إلا بشراً من البشر ، وإنساناً من الناس . .

ويقول سبحانه وتعالى لنبيه أيضاً : « قل سبحان ربي . هل كنت إلا بشراً رسولاً ؟ » (٢) . وهذا القول الذي أمر الله نبيه أن يقوله إنما هو رد لما كانت تريد قريش منه ، ودفع لهذا الفهم الخاطئ لطبيعة النبي ، إذ حسبوا أن النبي إله قائم في الأرض يتصرف في الوجود كيف يشاء ، فجاءوا يطالبون النبي بما حكاه القرآن عنهم « وقالوا لنؤمن لك حتى تدع لنا من الأرض ينبوعاً ، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً ، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً ، أو يكون لك بيت من زهر ، أو ترى في السماء . . » وإن فزمن لرفيك حتى تنزل طلياً كتاباً فترؤيه . . قل سبحان ربي . . هل كنت إلا بشراً رسولاً ؟ » ، إنه بشر . .

(٢) سورة الأعراف آية ٩٢

(١) سورة النكهة آية ١٩٠

وكونه رسولا لا يخرج من البشرية ؛ ولا يطوع له أن يأتي بغير ما يرسل به ؛
ويوحى إليه ١ .

ولا يقف القرآن عند حد القول الصريح ببشرية الرسول ، بل يذهب إلى
أبعد من هذا فيقرر أن للرسول كل خصائص البشرية ، ومخلقاتها . إنه كسائر
الناس ، لا يعلم الغيب ، ولا يملك لنفسه ضراً ولا نفعا ، وأنه لا يهدي من
أحب ، ولا يملك الشفاعة إلا بإذن ربه ، وأنه يحزن . ويألم . ويضيق صدره .
وتقر عينه .

وهذه هي طبيعة الحياة البشرية ، وللرسول نصيبه منها .
يقول الله تعالى : « قل لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعا إلا ما شاء الله ، ولو
كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير ، وما حسنى السوء . . . » إن أما إلا نذير
وبشير لفوم يؤمنون ، (١) . . . ويقول سبحانه : « إنك لاتهدي من أحببت ،
ولكن الله يهدي من يشاء » (٢) . . . ويقول سبحانه : « ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق
بما يمكرون » (٣) . . . ويقول عز من قائل : « واصبر نفسك مع الذين يدعون
ربهم بالغداة والعشي يريدون رحمة ، ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ،
ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا ؛ وانبع هواه وكان أمره فرطاً » (٤) . . .
وهذه كلها منازع بشرية ، تهيج لها نفس الرسول ، كما تهيج نفوس الناس ،
فيدعوه الله سبحانه إلى تجنبها ، والحذر منها ١ .

أما دور الرسول في مجال التطبيق العملي لتقرير بشريته بين أتباعه فهو كما قلنا
دور ممتد من أول بعثته إلى أن الحق بالرفيق الأعلى . . . وشواهد تنظيم حياة
الرسول كلها في هذه المرحلة العظيمة من حياته .

ولعرض هنا بعض مواقف الرسول الكريم في هذا الشأن :

١ - جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم في بعض شأنه ، فلما دأب له ليتحدث إليه

(١) - سورة القصص آية ٦٥

(١) سورة الأعراف آية ١٨٨

(٤) - سورة السجدة آية ٢٨

(٣) سورة البقرة آية ١٢٧

اضطرب كيانه ؛ وتلثم لسانه ؛ لما أخذه من هبة الرسول وجلاله . . تلك الهيبة وذلك الجلال اللذين لم يبعثهما في نفس الاعرابي ما تبعث في النفوس أبهة الملك وصوله السلطان بما يحشد لها من حرس ؛ وحجاب ، وبما يقوم فيها من ألوان الترف ؛ وعجائب التحف ونواديرها — وإنما مبعث تلك الهيبة وذلك الجلال هو ما تشع به ذات الرسول الكريم من عظمة نفسية ، وصفاء روحى . . تسرى منها إلى من حوله موجات من النور العلوى . يحد لها الناس مساً أشبه بمس الكهرباء !

ويعود إلى ذلك الاعرابي ، فجدده بين يدي الرسول ، وقد علاه البهر ، وبلله العرق . . وإذا الرسول الكريم يبعث إليه نسمة ندية عطرة ، تشيع في كيانه الطمأنينة والسكينة ، ويسقيه من رحيق كتابه الطيبة ما ينهش روحه ، ويمسك أوصاله . فيقول له رسول الله ﷺ : هون عليك . . فإنني لست بمملك . إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد ! . .

إنه إنسان من الناس ، ولد لأبوين كما يولد كل إنسان . . ثم هو — وإن كان ندياً — لم يبتعد عن الجماعة الإنسانية بما يتخذ الملوكة والباطرة من أقمعة الآبهة والسلطان التي تعزلهم عن المجتمع الإنساني . . إنه ابن امرأة تأكل القديد .

٢ — وأخرج أبو داود في سننه عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم طاف بالبيت . ثم أتى السقاية ، فقال : اسقوني . فقال له ابن عباس ألا نخوض له سويفاً ؟ . فإن هذا يتناول منه الناس ! فقال صلوات الله وسلامه عليه : اسقوني مما يسرب الناس . ! .

وكيف يعزل المكي الناس ، ويعزل الحياة التي يحيونها وهو الطبيب الذي يعالج أدواءهم ، ويطبب علمهم ؟ وهل يعزل الطبيب مرضاه ؟ وهل يرضى الألب أن يكون في خير لا يصيب منه أبناؤه خطأ كحظة ؟

وهل الذين في ريب من رسول الله ؛ ومن رسالته أن يفتنوا عنه هذه الأحرار منه ليروا ماذا كان يطالب بدعوى النبوة والرسالة إن لم يكن نبياً أصلاً ؟

وما المآرب التي قصد إليها ، وما النايات التي حققها ؟ أين المال الذي جمع ؟ وأين التاج الذي وضع على رأسه ، وأين متع الحياة التي تحف به ؟ وهل يدخل لإنسان في مثل هذه التجربة ، ويدعى مثل هذه الدعوى ، ويحتمل فيها ألوان العسر والأذى ، ثم إذا استجاب الدائر لدعوته ، وداروا حول مشيئته ، وساقوا إليه منافع النصر — فنفض يديه من كل هذا ، وعاش على الكفاف من كل شيء . . ؟ في المطعم ، والملبس ، والمسكن . . ؟ فكانت حجراته التي يأوى إليها حجارة مرصوفة . . سقفها من الجريد . . لا تزيد على أى كوخ أو خيمة . . وكان أكثر طعامه خبز الشعير ، وإدامه الخل . . لا يشبع منهما . . وقد كانت السيدة عائشة رضى الله عنها تقول : « إن كنا آل محمد لنمكث شهراً ما نسترق قد ناراً ، إن هو إلا التمر والماء . » (١) . . وعنها رضى الله عنها قالت : « ما شبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام تباعاً من خبز حتى مضى لسبيله . » ١

وعنها رضى الله عنها قالت : « ولقد مات — أى النبي — وما عندي شيء يأكله ذى كبد إلا شطر شعير في رفلى . »

وعن ابن عباس قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبيت هو وأهله الليالي المتتابعة طاوياً لا يجدون عشاء . » ١

وعن أنس رضى الله عنه قال : « ما أكل رسول الله صلى الله عليه وسلم على خوان ولا فى سكرجه (٢) ، ولا خبز له مرقى ، ولا رأى ساة سميطاً (٣) قط . »

فهذا طعامه صلى الله عليه وسلم بعد أن فتح الله له تلك العثوحات التي شملت الجزيرة العربية كلها . طعام غليظ خشن ، وهو مع غلظه وحشوته قليل لا يشبع .

ولإذا جلس صلى الله عليه وسلم للأكل جلس مستوفزاً على الأرض ،

(١) الشفا جزه ص ١٩ هـ

(٢) السكرجة : الصفحة التي يوضع فيها الطعام هـ

(٣) الساة : السميط التي تشوى بالمار ،

لا ينسب له خوان ، ولا يتكبر على أريكته أو يحوها . وكان يقول : « إنما أنا عبد ، آكل كما يأكل العبد ، وأجلس كما يجلس العبد » (١) .

وأما فرشته الذى ينام عليه فمكان آدم أحشوه ليف ، وعن حفصة رضى الله عنها قالت : كان فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم مسجاً (٢) ، نثنيه نسيئين ، فينام عليه . فثنياه له ليلة بأربع ، فلما أصبح قال : ما فرشتكم إلى الليلة ؟ فذكرنا ذلك له ، فقال : ردوه بحاله ، فإن وطأته منعته الليلة صلاتي » !

لأنه نبي صاحب دعوة ، وليس طالب ملك ! ولا صاحب دنيا ... فلقد سيقته إليه الدنيا بحدافيرها ، وترادفت عليه ، فتوحها ، إلى أن توفي صلى الله عليه وسلم ودفعه مرهونة عند يهودى في نفقة عياله .. وكان يدعو ويقول : « اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً » .

٣ — قالت أم العلاء الأنصارية :

لما قدم المهاجرون المدينة .. اقترعت الأنصار على سكنائهم ، فصار لنا عثمان ابن مظعون في السكنى ! فرض .. ثم توفي .. فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل .. فقلت : رحمة الله عليك أبا السائب .. فشهادتي أن قد أكرمك الله ! قال النبي صلى الله عليه وسلم : وما يدريك أن الله قد أكرمه ؟ قالت : لا — والله لا أدري ! فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أما هو فقد أتاه اليقين من ربه ، وإني لأرجو له الخير .. والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي ، ولا بكم ! (٣)

ولله صلوات الله وسلامه عليه — وإن يكن نبياً — بشر ، مقيد بقيود البشرية .. لا يعلم الغيب ، ولا يدري ما يفعل به ولا يغيره .. فذلك مما استأثر الله سبحانه وتعالى به .. « ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء » (٤) .

٤ — عن عمر رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا تنظروني كما أطرت النصارى ابن مريم .. إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله » .

(٢) المسح : السكساء من الشعر .

(٤) سورة البقرة آية ٢٥٥

(١) الشفا جزء ١ ص ٦٦ .

(٣) النبوات لابن تيمية ص ٩

وعن أنس رضى الله عنه : إن كانت الأمة من إمام أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فتنتطلق به حيث شاءت ، حتى تقتضى حاجتها .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : دخلت السوق مع النبي صلى الله عليه وسلم ، فاشتري سراويل ، وقال للوزان زن ، وأرجح . فوثب إلى يد النبي صلى الله عليه وسلم يقبلها ، فجذب النبي يده وقال : هذا تفعله الأعاجم بملوكها ، ولست به لك .. إنما أنا رجل منكم .. ثم أخذ السراويل ، فذهبت لأحملها ، فقال : صاحب الشيء أحق بشيئيه أن يحمله . (١)

أفيبقى بعد هذه التربية القولية والعملية من رسول الله لأصحابه ولاتباعه ما يدع في نفوسهم إثارة من شك في بشرية النبي ؟ وأنه عبد الله ، ورسول الله ؟ كلا ، ثم كلا .

ما شهدت به الأعداء :

ولسكرة ما كان في حياة الرسول من صور التواضع ، ومن المواقف الكاشفة عن طبيعته البشرية — لم يستطع الدارسون لسيرته . من غير المسلمين — أن يخفوا هذه الحقيقة ، على رغم ما لديهم من استعداد طبيعي للبحث عن مواطن الضعف في تلك السيرة الطيبة ، والتوصل إلى ذلك بأوجه الأسباب ! هذا إذا كان الباحث طالب حقيقة ، وقليل من هؤلاء من وقف موقف الحياد والإنصاف من سيرة النبي . أما من كان من أولئك الباحثين من فحسب نفسه للنيل من رسول الإسلام فإنه يتعمى عن الحقائق ، ويقف متسترا في طلال الذكوك والريب التي يسوقها مساق اللمز والنمز !

نقول إن المؤرخين من غير المسلمين — منصفين أو مغرضين — لم يستطيعوا أن يخفوا ما كان في سيرة النبي . من مواقفه التي كشف بها عن بشريته ، وعمل على إزاحة التعصبات التي كانت ترتفع لأنظار أصحابه ، مما تفيض به مشاعرهم من

عواطف الإجلال والنعظيم الممزوجين بالولاء الخس ، والحب الخالص لذات
الرسول وصفاته !

١ - فهذا العالم الفيلسوف الإنجليزي ، ول ديورانت ، يقول : « ومع اصطلاح
الدين بهذه النشئون كلها - أى القسام بأمر الدعوة وتنظيم شؤون الحرب والسلام في
المجتمع الإسلامى - فقد كان حجم التواضع إلى درجة تحببه إلى النفوس ، وكثيراً
ما كان يعترف أن ثمة أموراً لا يعرفها ، ويحتاج على الذين يظنونه أكثر من
إنسان يجرى عليه ما جرى على الناس جميعاً . من موت ، ووقوع في الخطأ .. ولم
يدع في يوم من الأيام أنه قادر على معرفة القرب أو الإنيان بالمعجزات . » (١) .
هذه قوله رجل على غير دين الإسلام ، لا يحمل عاطفة تعطفه على هذا الدين ،
وإن يكن في نفسه شيء فهو أن يجله المفاخر والعثرات !

فلقد عز عليه أن تفلت منه هذه الحقيقة ، وأن تغلبه شواهد التاريخ الصادقة عن
أن يفلت هو منها - عز عليه هذا ، فألقى على تلك الحقيقة التي قررها مرغماً
أنفاساً من صدره المريض ، يتصاعد منها دخان خبيث يخلط بين الحق والباطل ،
ويجمع بين العسل والسم . فيقول بعد هذا القول الذي أرغمه الواقع التاريخي على
قوله - يقول : لسكنه - أى النبي - على هذا لم يكن يستسكف أن يستعين
بالوحي في الأغراض البشرية والشخصية كما حدث حين نزل الوحي مؤيداً
زواجه من زوجة زيد متبناه » (٢) .

وعجيب من مثل هذا العالم الفيلسوف أن يسمح لعقله بهذا العبث بالمطلق
والخروج على المثل القائل : « إذا كنت كذوباً فممكن ذكورك » !
لأنه يعترف بأن « محمدآ » نبي . .

هل يتفق ووظيفة النبي أن يكذب على الله ؟ وأن يصطنع وحياً يوحيه إلى
نفسه ، ثم ينسبه إلى الله ، ليعتمد به حاجة من حاجات نفسه ، وينسج به هوى
من أهوائه ؟

(١) قصة الحضارة الجزء الثاني من المجلد الرابع ص ٤٣ .

(٢) قصة الحضارة الجزء الثاني من المجلد الرابع ص ٤٣ .

أمن يفعل هذا يكون نبياً حقاً .. ؟ وهل يكون رسول السماء خائفاً لرسالة السماء ؟ إن هذا اتهام لله — سبحانه — إذ لم يكن الرجل الذى اختاره لحمل رسالته إلى الناس بالرجل الأمين الصالح لأداء هذه المهمة .. وسوء اختيار الرسول يلقى اللائمة كلها على من أرسله !

هذا ما يجرى عليه منطق الناس فى الحياة — فهل يصح أن يكون من كمال الإنسان حسن اختياره لمن يؤدى عنه أمراً من الأمور، ثم لا يكون هذا السكال لله فى اختياره لأنبيائه ورسله ؟

إن القول بأن أنبياء الله ورسله يقولون على الله ... فيه تجديد على الله وكفر به ! وأهون من هذا أن يشتم النبى بأفه غير نبى . فهذه تهمة ، وإن كانت شنيعة ، إلا أنها دون تلك التهمة التى تقر النبى فى مكانه من النبوة ، ثم ترميه بالكذب على الله ، والافتراء على ما أرسل به : « ومن أظلم مما افتترى على الله كذباً .. أو قال أوحى إلى ولم يوح إليه شيء » (١) .

إن المنطق الذى يقبل^٣ مثل هذا القول فى شأن الانبياء ، منطق مقابو ، يتأذى منه العقل ويتقرز منه ...

٢ — وهناك عالم فيلسوف آخر كان له فى هذا الجانب من حياة الرسول نظرة أشمل وأعمق من نظرة المؤرخ العالم « ول ديورانت » .. كما كانت نظراته تلك أبعد من الهوى ، وأقرب إلى الحق من نظرة صاحبه ! إنه جوستاف جرونيباوم مؤلف كتاب « حضارة الإسلام » .. فقد وقف وقفة طويلة عند تلك القصص الكثيرة التى أدخلها القصاص ، ورواة الأخبار على سيرة الرسول ، وكشف عن تلك الدوافع التى تسجت من أجلها تلك القصص ..

فهو يعترف أولاً بأن حياة الرجل العظيم تنطوى على شرارة إلهية ، تجعل لصاحبها شأنًا فى نظر أصحابه ، ومكانًا من قلوبهم .. وأن الأعمال العظيمة التى

تجربى على يديه تطابق في الداس أعمة الخيال ليدسحوا منها عمروبا من القصص التي لايمسكها منطق ، ولايحكمها عقل ..

يقول « جرونيباوم » : « إن انتلواء حياه الرجل العظيم على قدر من الشرارة الإلهية أقوى بأساً مما لدى إخوانه الضعفاء لآية حافاة بالمعانى للعالم كافة ا

» ذلك أن رسالته تؤذن ببده مرحلة جديدة في قصة هذا العالم .

« ولا شك أن القوى التي ينك إساها ستكون رهن لإشارته ، وستكون أهم أدوار مقامه في هذه الأرض موضع الترحاب أو المحاكاة من العالم الذي كان مجرد ظهوره فيه ذا أثر في حظه ومجراه ا

» وإن القلوب الساذجة الغفل لتروح تنسج الخوارق وشياً تحيط به حياة الرجل المزله العظيم ، غافلة عن أن هذه الخوارق تعض من شأن الناصر الإنسانى الذى يحرزه بطلمبا (١) .

وطبعاً أن « جرونيباوم » يتخذ من مدلول كلمة « العظيم » مرقى يرقى به إلى الحديث عن العظمة السكامة في النبى ... فهو إنما يناقش هنا قضية المعجزات التى تنسب إلى نبى الإسلام .

واللفتة الذكية البارة من « جرونيباوم » هنا هى إشارته إلى غفلة أولئك الذين يرون أن عظمة النبى إنما تتجلى في كثرة الخوارق والمعجزات التى كانت بين يديه — وهم في الواقع إنما ينتقصون من كفاح النبى ، ويقطعون الطريق على هذا الكفاح الإنسانى أن يتلبس بالحياة ويلتقى بأحداثها ، وينتصر عليها ... لأنه حينئذ انتصار يفوح من عرق الجهد النخصى ، وهو جهد يحسب له ، وينسب إليه .. أما الخوارق والمعجزات ، فلا يملك الرسول من أمرها شيئاً . وإنما هى أمانة تلقاها من السماء وأداها للناس ١١ .

ثم ينتقل « جرونيباوم » إلى موقف النبي من تلك الموجات التقديسية التي كانت تتدافع في عقول أصحابه وقلوبهم .. فيقول :

« حرص محمد مدة رسالته على أن يؤكد للناس أنه بشر . ذو طبيعة إنسانية ، وأنه بفضل من الله ، لا يستحقه ، ولا يعرف له سبباً اختير رسولا له تعالى . . »

« وفيما عدا هذه الخصوصية — خصوصية اختياره للرسالة — ليس ثمة شيء يفرق بينه وبين إخوانه من البشر . »

« وإن علمه بالغيب لمحدود بما يريد الله أن يعلمه لإياه . »

« فكل ما لم يرشده إليه الوحي فأمر قد يضل فيه السبيل . »

« وليس له بعمل المعجزات يدان . »

« وكلما لجأ أعداؤه في تحديهم لإياه بأن يثبت أقواله بإحدى المعجزات أب ذلك ، غير عاين بسخرية الساخرين ، وخيبة أمل المتشككين . . ذلك أن رسالته نفسها هي آيته ، وأمارته ! »

« وقالوا لولا أنزل عليه آية من ربه ؟ قل إنما الآيات عند الله ، وإنما أنا نذير مبين ، أو لم يكفهم أنا نزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ؟ إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون » (١) ... »

ثم يعقب « جرونيباوم » على هذا بقوله :

« على أن حصة محمد « لم تجده نفها » . فهما أنكر لم يكن إنكاره ليقنع العرب أنه بشر مثلهم ، تعوزه البصيرة الخارقة التي تنفذ حجب الغيب وآفاق المستقبل . »

« ولم يكذبته على وفاته طويل زمن حتى ثار الخيال الشعبي متغلبا على نصوص الوحي نفسها ، ومغضيا على الاحتجاجات الفاترة التي أبداها ذوو الضمير الحى من الفقهاء — وراح يقص من جديد سيرة النبي ، واضعاً لإياه في صورة الساحر القوى II »

« ولقد رانت عليهم تلك الرغبة الساذجة ، تعظيم البطل برفعه فوق درجة الإنسانية إلى أقصى حد مستطاع ، وظاهرهما على ذلك التقليد الهريش الذى يؤكّد من أهميته الشخصية الفذة ، بما ينسب إليها من تعاون العالم الروحى كله وإياها... »

ثم يعرض المؤلف صوراً من القصص التى يرى أنها أضيفت إلى السيرة النبوية لترفع من شأن النبى — كما توهم واضعوها .

وهنا يكشف عن العناصر الخرافية التى دخلت فى تاريخ السيرة وأضيفت إليها . فيقول : « وثم أقامهم عن معجزات زرداشقية ، وهيلينستية ، وبوذية ، تنسب بمنتهى الحرية إلى شخص الرسول ! »

ثم يقول : « وإن اللفة على تمجيد رسول الله ، وإخراجه عن طن طبيعة البشر لأمر كانت تحركه فى مدارج معينة تلك النزعة المعنوية فى الناس عامة ، بل فى نفس محمد نفسه (٩٩) فى إظهاره فى صورة النبى المطابق لسمة الأنبياء كافة ! »

« فكل ما أثبتت به دعاوى الرسل يعاد قوله فى «محمد» !! فليس يكتفى أن تسبى له أعماله ورسالاته ، بل لابد من تسويغ الإيمان برسالاته ، وذلك على الأقل بإظهاره فى قوة الأنبياء الآخرين المرهوبين . »

ثم يقول : « لأنه من المحتمل أن هذه الأساطير كانت مقصورة فى بادئ الأمر على غير المتعلمين ، وأن القصاص المحترفين كان المسئول الأول عن صوغها ونشرها . ولكن بعد فترة وجيزة شرح جملة الفقهاء بحججهم الدلائل النبوية هذه بجملة منظم ! »

« كان الفقهاء بين دافعين قويين . فإن الخيال الشعري كان يصر على اعتبار رسول الله نبياً صاحب معجزات .. ثم إن إجماع المؤمنين على المطالبة بالاعتراف بالعناصر الإعجازية فى حياة «محمد» كان كافياً فى حد ذاته لمل الفقهاء على الاستجابة لهم .. »

« إلا أن التحدى الميحي الذى كان يطالب المسلمين بتقديم الشواهد الخارقة على نبوة «محمد» اضطر هؤلاء الفقهاء إلى استجابة سريعة ! »

وقد استمر ضجيج المجادلين المسيحيين عريقاً لا تهدأ له مفاخرة حتى بعد أن أسرف المسلمون في الاستجابة لتلك المطالب المسيحية (١) .

وهذا الكلام كلاه رجل منصف إلى حد ما ، فقد كشف عن طبيعة هذا القصص الخرافى الذى دخل به القصاص والوضاع على سيرة الرسول ، كما كشف عن تلك الدوافع التى اندفعت منها هذه القصص فى صورها الخيالية المبهلة !

على أن « جرونيدياوم » لم يرض لنفسه أن تسخو بهذه الحقيقة ، وأن تقول كلمة الحق ، ولو كانت مرة . . فرمى تلك الرمية الخبيثة الماكرة خلال كلمات مشرقة يدعمها الحق ، ويزينها المنطق حتى لتكاد هذه الرمية تمر دون أن يتنبه لها أحد . . .

فيقول فيما نقلنا عنه آنفاً : « وإن اللهقة على تمجيد رسول الله وإخراجه عن طبيعة البشر لأمر كانت نحركه فى مدارج معينة تلك النزعة المطوية فى الناس عامة بل فى نفس محمد ، نفسه ، فى إظهاره فى صورة النبي المطابق لسنة الأنبياء كافة ! !

« بل فى نفس محمد نفسه ، ! .

كذب مفضوح بشهادة أهله . فقد قرر المؤلف من قبل أن النبي كان حريصاً أشد الحرص « على أن يؤكد للناس مدة رسالته أنه بشر . . ذو طبيعة إنسانية . . وأنه بفضل من الله لا يستحقه ، ولا يعرف له سبباً اختير رسولاً لله تعالى . وكما لى أعداؤه تحديهم لإياه فى أن يثبت أقواله بإحدى المعجزات أبى ذلك ، غير عابىء بسخرية الساخرين . . ولا خيية أهل المقتشكسين) . . هذا ما يقرره المؤلف ، فهل يتفق مع هذا القول أن يقول : إن فى نفس محمد ، نزعة تنزع به إلى تمجيد نفسه . وإخراجه عن طبيعة البشر ؟

أهذا من ذاك ؟ كلا . فشتان بين الحق والباطل . وبين الرأى والهوى .

وما نحسب المؤلف كان على غير معرفة كاملة بسيرة الرسول حتى نجد له

العذر لهذا الخلط الممّين . . فالعلم الذى بين يدي الرجل من تلك السيرة الكريمة قد أتاح له أن يبني آراء سديدة ، وأن يصدر أحكاماً عادلة . . ولكن الذى أتى منه هذا الكاتب أنه لم ينظر إلى الرسول على أنه مبعوث السماء ، وترجمان الملائ الأعلى ، وإنما نظر إليه فى حدود الإنسان الذى لا صلة له بالسماء ، وأن فى هذا الإنسان جانباً من جوانب العظمة التى تبرز فى كثير من الناس على اختلاف الأمم والأزمان .

ولو نظر هذا العالم الكبير إلى « محمد » على أنه نبي . لما رمى هذه الرمية الطائفة ، التى لا تستند إلى شيء من الواقع الذى يعلمه علم اليقين من سيرة الرسول والذى لم يستطع أن يخفيه ، فقرر فى أول هذا الحديث أن « محمداً » قد حرص مدة رسالته على أن يؤكد للناس أنه بشر . . ذو طبيعة إنسانية ، وأنه ينزل من الله لا يستحقه ، ولا يعرف له سبب اختيار رسولاً له تعالى . . فكيف يتفق أول هذا الحديث مع آخره ؟ لأنه لم يضح حقاً قديماً على الإسلام ، وعلى رسول الإسلام لم يستطع هذا العالم الكبير أن يحبس فى صدره فتملت منه عن قصد أو غير قصد .

إن أعظم العظمة فى « محمد » أنه بشر ، وأنه فى ثوب البشرية هذا استطاع أن يعلو على الضعف الإنسانى ، وأن يقهر ظلام الطين الذى خلق الإنسان منه ، وأن يحيل هذا الظلام نوراً متتبعاً لضىء الوجود ، ويكشف للناس الطريق إلى السماء . . إلى عالم الحق ، إلى الله رب العالمين .

إن بشرية « محمد » وما بلغ بها الله من كمال وجلال لشهادة قائمة بين الناس ، تخدمهم أطيب الحديث وأصدقها عن الكمال والجلال المودع فى الإنسانية ، والمنطوى فى كيانها ، وإن الطريق لمفتوح أمام الإنسان إلى التحليل فى آفاق الكمال إلى الملائكة . على قدر ما يبذل من جهد للاستعلاء على نزعاته وأهوائه . . وأنه بقدر ما يمد يده إلى السماء ، ويقدر ما يفتح قلبه لأنوار الحق فيها ، يكون ارتفاعه وعلوه من عالم التراب .

الباب العاشر

المرأة في حياة النبي

اتخذ أعداء الإسلام من تعدد زوجات النبي ، ومن تعدد الزواج في الإسلام مطعنا على هذا الدين ، واعتباره شريعة تركي مطالب الجسد البهيمية . ولا تنفى بالجانب الروحي والنفسي في الإنسان !

ويصور أعداء الإسلام الشريعة الإسلامية من خلال هذه النظرة إلى تعدد الزواج فيه — بأنه دين جماعة من الأعراب الثائمين في الصحراء ، المحرومين من طبيبات الحياة ، فكان من تدبير هذه الشريعة — لكي تحذبهم إليها ، وتقريهم بقبولها — أن استجابت لأحلامهم التي كانت تطرق خواطرهم في اليقظة وتظهر على مسرح حياتهم في النوم ، فجعلت من مقرراتها تأويل هذه الأحلام بإطلاق سراح هذه الخواطر ، وإرخاء العنان لها لترعى حيث تشاء ، مما يندى شهوات الجسد ، وينبع جوعتها !

فهناك النساء . . مثني وثلاث ورباع . . للمسلم أن يتزوج أربعاً ، فأربعاً يخلى فريقاً ، ويمسك فريقاً . . إلى غير حد محدود !

وهناك ألوان الطعام ، والمشتريات التي تمد المعدة بأوقود الذي يحيل هذا الطعام إلى طاقات تستهلك في معركة الحياة مع المرأة !!

فإذا لم يجد المسلم بين يديه هذه المتع الجسدية كما تصورها له أحلامه وخواطره في هذه الدنيا ، أحلامه الإسلام إلى وجود آخر يجد فيه تلك المتع على صورة أتم وأوفى ، يعيش جنات الخلد في الحياة الآخرة ، يعيش النعيم المقيم فيها ، ويعيش الحور الولدان لمن يريد ، وهناك الأنهار من لم يتغير طعمه ، ومن غسل مصفى ، ومن خمر لذة للتبارين !

هذا هو المفهوم الذي يحاول أعداء الشريعة الإسلامية أن يظهروها به ويعرضوها في الناس على صورته .

وهم يتخذون من نبي الإسلام ، والقائم على شريعته غرضاً منصوباً لسبامهم الطائشة .. حين يعرضون من سيرة الرسول هذا العدد الكثير من النساء اللاتي تزوج بهن ، ويعدون تجاوز النبي عن العدد الذي أباحت الشريعة للمسلم ، وبإمساكه تسع نساء أو عشراً معاً ، في حين أنه لا يجوز للمسلم أن يمسك أكثر من أربع - يعدون هذا التجاوز مبالاة من السماء له ، إن كان ذلك يتدبير من السماء ، أو إشاراً لفته ، وترضياً لها إن كانت شريعته من عمله ! ويقول أصحاب هذا القول : إن النبي جعل قانون شريعته بحيث يخضع لمطالبه ، ويستجيب لحاجته في هذا الباب .. !

فتراهم يقولون مثلاً :

« إن النبي حين يرى هذا العدد الكثير من النساء في حوزته ، ويرى أبصار المسلمين ، وغير المسلمين تتجه إليهن - حين يرى ذلك يحجى بقرآن يحرم على المسلمين أن يدخلوا بيته : « يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ، ولكن إذا دعيتم فادخلوا ، فإذا طعمتم فانتشروا ، ولا مستأنسين لحديث .. إن ذلكم كان يؤذي النبي ، فيستحي منكم والله لا يستحي من الحق ، وإذا سألتهم عن متاعاً فاسألوه من وراء حجاب .. ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن ، وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ، ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً ، إن ذلكم كان عند الله عظيماً ، (١) » .

ثم من جهة أخرى يقرأ على نسائه قرآنا يفرض عليهن فيه الحجاب : « يا نساء النبي لستن كأحد من النساء ، إن اتقين فلا تخضعن بالقول ، فيطمع الذي في قلبه مرض ، وقلن قولا معروفاً ، وقرن في بيوتكن ولا تهرجن تبرج الظاهلية الأولى : (١) » .

ثم من جهة ثالثة يزل قرآنا يبيح لنفسه ما لا يباح لغيره نبي ثم على شريعته ،

(٢) سورة الأحزاب : ٤٢ - ٤٣ .

(١) سورة الأحزاب : ٥٣ .

« يا أيها النبي إنا أحللتنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن ، وما ملكت يمينك
مما آفاه الله عليك . وبنات عمك ، وبنات عماتك ، وبنات خالك ، وبنات
خالاتك اللاتي هاجرن معك ، وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي ، إن أراد
النبي أن يستنكحها ، خالصة ، لك من دون المؤمنين ، قد علمنا ما فرضنا عليهم
في أزواجهم ، وما ملكت أيمانهم — لكيلا يكون عليك حرج وكان الله غفورا
رحيما ، ترجى من نشاء منهى ، وتؤوى إليك من نشاء ، ومن ابتغيت من عزلت
فلا جناح عليك ، ذلك أدنى أن تقر أعينهن ، ولا يحزن ، ويرضين بما آتيتهن
كلهن ، والله يعلم ما في قلوبكم ، وكان الله عليا حكيما » (١)

كل هذا ، الذي يستنزه به محمد من قرآن ، أويجىء به من عنده ، إنما ليبلغ
به حاجة نفسه من النساء ، وليشبع شهوته منهن !

هذا هو نبي الإسلام في تصور المستشرقين له ، وفي نظر من نظر إلى الإسلام
من الغربيين بوجه عام ..

لأنهم لا يرون حياة النبي إلا في جوده الحريم ، ولا تقع أبصارهم من سيرته
إلا على هذا الأفق ، لا يبرحه أبداً . ولا يتحول عنه إلى غاية من غايات الحياة .
أما الرسالة وأعباؤها . وأما الدفاع عن المجتمع الإسلامي وحمايته .
وأما سياسة الحرب والسلم لهذا المجتمع . فذلك كله من وراء ظهر « محمد » ومن
نافلة الحياة عنده .. هذا ما يقول به غير المسلمين ممن يرصدون حركات الإسلام
ويربسون الدوائر به !

أما مقطع الحق في هذه الآراء ، فلا نحب أن نفرده فيه بالحكم لها أو عليها
كما لا نحب أن نقول فيها قولاً قبل أن نضع لمزاعمها الحقائق التاريخية النابتة ،
وقبل أن نشهد واقع الحياة على مصامين هذه الآراء ، وما فيها من عناصر التجاوب
مع الطبيعة البشرية ، وتفاعلها مع الزمن ،

الرجل والمرأة :

الصلة بين الرجل والمرأة أمر طبيعي ، تدعو إليه الحياة . وتنادى به غريزة بقاء النوع . تلك الغريزة التي تملأ كيان كل حي ، وتحمله على أن يستجيب لها . وينتهى إلى الغاية التي ترمى إليها ..

وأى خلل في هذه الغريزة يكون من أثره خمودها ، أو القضاء عليها — هو خروج على الطبيعة ، وانحراف عن الوضع السليم للكائن الحي فيها ..

فليس مما يعيب إنساناً من الناس أن يكون على الصحة والسلامة ، وأن تكون غرائزه الحيوية ، أو الحيوانية عاملة ، تؤدي وظائفها على الوجه الذي يحفظ وجوده في ذاته ، وفي نوعه جميعاً .

أيعيب الإنسان أن يأكل ويشرب لأن الحيوان يأكل ويشرب ؟

أيعيب الإنسان أن ينام لأن الحيوان ينام ؟

أيعيب الرجل أن يتصل بالمرأة لأن الحيوان متصل ذكره بإنثاه ؟

كلا .. فإن بقاء الناس في الحياة مرتبط بما يحفظ هذه الحياة التي هي جسد يتمتذى ، ويتناسل ، كما تمتذى وتتناسل الكائنات الحية جميعاً ..

نعم .. إن الإنسان يفارق الحيوان في أن له وراء هذه الحياة الحيوانية حيوات أخرى عقالية ، وروحية ، ونفسية !

ولا بقاء ، أو بمعنى آخر لاجود للحياة العقلية والروحية والنفسية لإنسان من الناس إلا في إطار هذه الحياة الحيوانية . التي من مستلزمات وجودها وبقائها الغذاء والتناسل !

وقد يقول المتفلسف أو الروحانيون .. إن الإنسان لكي يكون إنساناً ينبغي أن يوهى الصلة بينه وبين الحياة الحيوانية ، بمعنى أن يحتزىء من الحياة الحيوانية بالقدر الذي يحفظ حياته وحسب ، وألا يتجاوز ذلك بحال أبداً ، فإن أى وقود (م ٢٢ — البى محمد)

بذبه الإنسان جسده . ويبنى به شهواته هو تبخير الجانب كبير من حيوانه العقلية والروحية والنفسية ، وهو تبديد لتلك الحيوارات ، وإضعاف لها ..

وفي هذا القول حق ، ولكن من الحق أيضاً أن نقول إن التحيف على حاجة الجسد ومطالبه ، والمصادمة العنيفة لعرائزه ورغباته ، هو في الجانب المقابل للإفراط في الشهوات ، وتخمة الجسد بإشباعها .. كلا الأمرين غير محمود .. وخير الأمور أوسطها .. فلا الإفراط محمود النتائج ، ولا التفريط مأمون العواقب !

ولهذا كان من شريعة الإسلام القصد في كل شيء .. ومنه القصد في مطالب الحسد وحاجاته .. « وكلوا واشربوا . ولا تسرفوا .. » لأنه لا يجب المسرفين . وقد ذم الله الكافرين الذين لا يحيون إلا لأجسادهم ، ولا يتفكرون في خلق السموات والأرض . ولا يرجون حياة وراء هذه الحياة .. كل همهم أن تنال أيديهم ما يقدر عليهم من حياتهم الدنيا ، والذين كفروا ، يتمتعون ، ويأكلون كما تأكل الأنعام ، والنار مشوى لهم .. كما كان من تدبير الإسلام أنه حرم الرهبانية ، فقال نبي الإسلام : « لا رهبانية في الإسلام .. » !

النبي البشر :

ونبي الإسلام بشر ، لم يقل هو أو لم يقل عنه أتباعه ، أو لم يتحدث القرآن الذي نزل عليه - لأنه غير بشر . بل إنه يأكل الطعام ، ويعش في الأسواق ، وكونه رسول الله ، ومصطفاه لرسالته لم يخرج به ذلك عن طبيعة البشر ، ولم ينخله من ضرورات الحياة البشرية .. فهو يجوع ، ويظمأ ، ويشبع ، ويروى ، ويتزوج ، ويام ، ويبقى ، ويحزن ، ويسر ، ويتألم ، ويشكو .. ويبول ، ويتغوط .. إلى غير ذلك مما هو من شأن الناس ، في هذه الحياة !

ولإذن فزواج النبي شأنه شأن كل مطلب من مطالب الحياة ، وضرورتها عند الناس ، فليس بدعاً لإذن أن يتزوج ، وأن تكون له زوج وولد !

فالزواج في الإسلام — كما هو في الحياة — شريعة من شرائع هذا الدين ،

وسنة من سنه ، كما هو سنة من سنن الحياة ، وشريعة من شرائعها . لا يعدل عنه إلا جائر ، ولا يزهد فيه إلا معتل سقيم !

يقول النبي الكريم : النكاح سقئ ، فمن رغب عن سقئ ، فليس مني ، !

وهنا اعتراض لا بد منه ؛ وهو أن الذين أرادوا أن ينالوا من فبى الإسلام وأن يشوشوا على شريعته لم يقفوا عند زواجه مجرد الزواج ، وإنما كانت وقفهم وتطاولهم عند هذا العدد الكثير من الزوجات اللأى تزوج بهن الرسول ، من نيبات وأبكارا ، ومن أجاس وألوان .

فإذا العدد الكثير من الزوجات المختلفات سنأ ، ولونأ ، وجنسأ ، ماذا كانت غاية النبي منه إلا المتعة ، وإلا الإسراف الشديد فى هذه المتعة ؟ وطاهر الأمر يعطى لهذا القول شيئأ من المنطق الذى يقيمه على تلك الصورة ، ويلبسه لباس القبول والتسليم .

إنسان يضم إلى بيته أنثى عشرة زوجة ، فيهن غير واحدة من ذوات الجمال والشباب . ماذا وراء ذلك إلا انتمتع بهن ، ووصل حياته بحياتهن ؟ وماذا يقال عن مثل هذا الإنسان إلا أنه مزواج مغلم ، وأنه زير نساء ، وأسير شهوة ؟

وماذا يبنى لإنسان من متحه آخر فى الحياة ، يسكون له فيه شأن ومكان بعد أن صرف وقته كله . وجهده كله فى عالم الحريم . ودنيا النساء ؟

وهذا الظاهر الذى يضع على أفواه الواقعين فى سيرة النبي هذه المقولات الزائفة — يخفى وراءه الحقيقة التى تهوم وراء هذا الظاهر شائخة ، مشرقة ، واضحة ، حتى ليسكون هذا الظاهر بمنزلة الظل الواقع تحت قدمى الإنسان فى رابعة النهار .

الحقيقة ، والظل :

والذى يعنى عن هذه الحقيقة ، وينتج عينيه على الظل المرتسم منها ، لا يمسك من الحق بشئ ، ولا يستدل على الحقيقة بدليل . . .

وكيف تقول عن إنسان إنه إنسان من صفته كذا ، وكذا ، وأنت لا تنظر

منه إلا إلى ظله الملقى على الأرض ؟ وكيف تأخذ من هذا الظل صفاته التي تحدد شخصيته ، وتحدث عن ملاحظه ؟ إن موقف الذين نظروا في سيرة الرسول من غير المسلمين لم يكن أعدل من هذا الموقف الذي يقفه من ظل لإنسان من يريد أن يتعرف على صفات هذا الإنسان . . وهم من أجل هذا لم يروا محمدًا النبي ، وهم ينظرون في سيرته ، وإنما رأوا سوادًا حسيوه سواد إنسان !

وهم من أجل هذا أيضاً راحوا يلتقون على هذا السواد أحكاماً مختلفة مضطربة ، ليس فيها من الحق شيء ، وليس فيها من واقع أمره كثير أو قليل !

ومن عجب أن يشمل كثير من المسلمين بهذه النظرات الخاطئة ، وأن يحرفهم الخناس فيبادروا إلى خوض المعركة في هذا المستوى المنحدر في منحنى الضلالت ، ومتاهات الخداع !

فزواح النبي بأكثر من امرأة وقد ذهب به أعداء الإسلام هذا المذهب من التشنيع والتضليل ، ولم يحتسبوا فيه إلى عقل ، أو ضمير . بل استجابوا لنوازع الكراهية والحقد — هذا الزواح وإن يكن ذهب به أعداء الإسلام — هذا المذهب . فإننا نحن المسلمين . وأعفى أولئك الذين تصدوا للرد على هؤلاء الطاعنين — لم نحسن الرد على هذا التشنيع . ولم نقل ما ينبغي أن يقال من حق في هذا الأمر . . إذ لم ننظر إليه في واقعه مجرداً عن هذا التصوير الخاطئ الذي صورته الخعوم به ، ولم نخرجه عن هذا الإطار المصطنع الذي احتجزوه فيه ، فاندفعنا وراء هذه التصورات الخاطئة ، وعيننا بالرد عليها بما يشبه أسلوب المخالفة في قضايا المنطق . . فإذا قال الخصم هذا ليل ، قلنا هذا نهار . وإذا قال هذا الشيء أسود ، قلنا إنه أبيض . . نقول ذلك مجرداً أن القائل بهذا معروف لنا مقدماً بأنه لا يقول في الإسلام وفي نبي الإسلام إلا مقولات الحقائق وأضدادها ، وهذا الإحساس المتسلط على المسلمين من جهة غير المسلمين يجعل الذين ينتصبون منا للرد على مقولات أعداء الإسلام لا يكلفون أنفسهم أدنى جهد في هذا . وإنما حسبهم أن يأتوا بقلب الصورة التي جاء بها الخصم . لتكون هي صورة الحق عندنا ، الذي نرضى عنه ، ونسعد به .

وقد عرفنا في مواقف كثيرة من قبل أن حرموا الإسلام لا يذهبون هذا المذهب الساذج في الحرم على حقائق الإسلام . . لأنهم لا يقبلونها هكنا على هذا الوجه المكشوف ، بل لأنهم يحرصون الواقع الإسلامى في صورته التي يعرفها المسلمون ولا ينكرونها ، ثم يسلمون على هذه الصورة — في حرص وحذر — سحياً رقيقة مأكرة لا تكاد ترى ، تحمل في طياتها ألواناً ممتعة ، تتكافئ شيئاً فشيئاً حتى تلمس معالم الحقيقة دون أن يتنبه لذلك أحد ، إلا بعد أن يقضى الأمر وتفوح رائحة الكذب والافتراء !

وفي موقفنا نحن المسلمين من زواج البهي لم يكن لنذهب إلى أبعد من هذا المذهب الذي أشرنا إليه وهو أن نلقى الخصم بنقد ما يقول به . . وكفى ! !

ومثل هذا الأسلوب لا يفهم الخصم ، ولا يفهم الحقيقة . . لأنه لا يقوم إلا على أكثر من التماس الادعاءات التي يلقي بها إلى الخصم في مقابل ادعاءاته . . سواء أكان ذلك مما يقتضيه الواقع ، ويتطلبه الحال ، أم كان مما حكت وتكلمنا . .

وفي هذه القضية بالذات وقع أكثر علمائنا في هذا ، وتورطوا فيه . .

فإذا قال أعداء الإسلام : إن « محمداً » قد ركبته شهوة طاغية فخر المرأة فراح يتزوج الواحدة بعد الأخرى حتى بلغ نساؤه اثنتي عشرة زوجة — كان ردنا على هذا في كثير من الأحيان لا يتجاوز النظر إلى زوجات النبي ، ووصفهم جميعاً — عدا واحدة أو اثنتين موضع المحاللات على المعاش ، اللأئي لا يصلحن للرجال ، وإن صالحت منهن واحدة أو أكثر فقد كانت والنبي عنها في شغل ساعل بالدعوة واللقاء الأعباء الثقيل ، ومواجهة الأحداث المبهولة التي جاءت من قبل أعداء دعوته ، ثم باشتغاله بالدفاع عن المجتمع الإسلامى وملاقة أعدائه في ميادين القتال ، ثم في القيام على تربية المسلمين ، وشرح مبادئ الشريعة لهم . . وهكذا . .

وهذا دفاع حق ، ومقبول بلاشك . . ولكنك إن أَرْضِ الحقيقة ، ورصى عنه المسلمون فإنه لن يجد مقنعاً عند غير المسلمين . . بل وعند بعض المسلمين !

فلقد غفل هؤلاء المحامون عن حياة النبي قبل البعثة . وقبل أن يحمل هذا العبء الثقيل ، الذى نذبه السماء له ، وشغلته به !
فإذا كانت حياة النبي قبل البعثة ، وقبل حمل أعباء الدعوة . . فى عهد الصبا والشباب حيث يشتد سلطان الشهوة ويبلغ غايته فى الاستبداد والتحكم فى كيان الإنسان ؟؟

لا بد أن يكون ، لمحمد ، شبابيه ، وفتاه ، وما تدعو إليه دواعى الشباب والفتاه ! كان سليم البدن ، معافى من كل داء ، فكان من السلامة والصحة والقوة بحيث لا يرى إلا على أتم صورة للشباب العربى الممتلئ قوة وصحة ، فى هذه البيئة التى لا يحيا فيها إلا الأقوياء الأصحاء !

وسيرة النبي الكريم تحدث عن قوته وبطولته التى ظل يحتفظاً بها بعد أن قارب الستين من عمره ، وبعد أن مر بهذه الأحداث ، واحتمل ما احتمل من أعباء . . فكان يشهد الحرب ، ويخوض غمارها ، فى ثبات وقوة وعزم . . وقد كان موقفه يوم واحد ، حين هزم المسلمون ، وفى حنين يوم انكشف عنه أصحابه مما أثار عجب أعدائه قبل أصدقائه الذين بلوا شجاعته عن قرب ، وخبروه عن تحربه . . .

يقول على بن أبى طالب : « كننا إذا حمى البأس واحمرت الحدق اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم » . .

فإذا عن شباب النبى ، وهو ما هو هذا الشباب من القوة والفتاه ؟

إن من ينكر أن « محمداً ، كان فى كيانه من الرغبة فى المرأة ما فى كيان أقوى شاب فى بيئته إنما ينكر حقيقتين معاً . حقيقة تاريخية ، سجلتها مواقف النبى فى الحرب . . وحقيقة شرعية هى سلامة البدن ، وصحة الجسد ، وكمال بنسائه لأنبياء الله ورسله . . وقد شهد الواقع لأنبياء الله جميعاً بهذه القوة الجسدية ، إلى جانب قواهم الروحية والنفسية .

وقد تحدث القرآن عن قوة موسى . . « قالت ياأبت استأجره ، إن خير من استأجرت القوى الأمين ، (١) » .

وعن قوة يوسف : « قال اجعلنى على خزائن الارص .. إني خفيط علم » (١).
وعن قوة داود « وقتل داود جالوت » . وكان حالوت هذا فارس الفرسان
ونزال الأبطال في عصره .

وهم . إن « محمدآ » كان له من القوة الجسدية رصيد كبير إلى جانب هذا
الرصيد العظيم من القوة الروحية والنفسية .

وهو بهذه القوة الروحية والنفسية استطاع أن يحفظ توازنه ، وأن يعلب
دواعي القوة الجسدية ، وأن يحمي شبابيه من أن تستبد به شهوة ، أو تغلبه
نزوة . . وهذا هو فارق ما بين السكال والنقص ، وفعل ما بين الإلهان
والحيوان : توازن القوى الجسدية والروحية ، وتماثل بين مطالب الجسد
وأشواق الروح

فالنبى إذ ن على ما به من قوة جسدية ، وعلى ما فيه من رغبة قوية للبرأة ، كان له
من قوته الروحية ما يستطيع به أن يملك زمام أمره ، ويتحكم في هذه الرغبة ،
وينفق من هذه القوة بالحساب الذى لا يمحور على شىء من حياته الروحية ،
ولا يوهن من هذه الصلة الوثيقة التى بينه وبين الملائ الأعلى !

وشواهد السيرة النبوية قائمة تحدث بلسان صدق مبين عن هذه القوة الروحية
التي كان يسبطنها النبى على قونه القوية المنبهرمة من الحسد نحو المرأة !

إن هذه القوة الجسدية ، والرغبة القائمة فيها للبرأة عند النبى — شأن كل
قوة جسدية عند أى إنسان — هذه القوة وما فيها من رغبة للبرأة لو أنها كانت
في كيان إنسان آخر غير النبى لجعلت حياته كلها منامرات في مراتع الشهوة ،
ولما تركت له لحظة يفرغ فيها لشيء آخر وراء هذا السحر المضطرم ، ولما كان له
في حياته حال غير هذه الحال !

ولكن « محمدآ » بما أراد الله به من كرامة ، وما أفاض عليه من فضل قد أعطاه
حظه كاملا من هذه القوة ، كما أعطاه حظوظه كاملة من قوى النفس والروح ،

فُجرت قوته الجسدية في هذا المستوى العالى الذى كانت تجرى فيه قواه الروحية والنفسية ، بعيدة عن الرجس والدنس ، مبرأة من كل شائبة ، نقية من كل سوء ! لم يتزوج ، محمد ، إلا في الخامسة والعشرين من عمره .. ومع هذا فما أخذت عليه في فترة شبابه تلك الفترة الحرجة ، التى يحتل فيها توازن كثير من الأسباب — ما أخذت عليه ميالة هوى ، ولا نظرة سوء ، وما كان منه غدوة أو روحة إلى مراتع اللهو ، ومواطن السمر التى كان يفضاها شباب قريش ، حيث يلهون ، ويسمرون . .

لقد سلطت قريش كل ماتملك من قوى لتقع على سقطة أو زلة لمحمد ، فتأخذها بها ، وتفضحه على المألأ بأنه جاء بشريعة تحرم الزنا ، وتحرم الخمر ، وهو الذى كان من شأنه كيت وكيت ، ومن أمره مع فلانة وفلانة كذا وكذا . . لم تجد قريش شبهة من الشبه في هذا المجال ، تقيم منها حجة لإسقاط دعوته ، وكان هذا الصنيع أقرب شيء وأيسره لينهى ما بينها وبين محمد ، من خصام ، لو أنها وجدت سبيلا إليه .

وهذه الحقيقة السافرة عن نقاء صفحة « محمد » قبل النبوة قد حملت غير المسلمين على أن يعترفوا بها ، لأنها أكبر من أن تنسك ، وأعرف من أن تخفى . . يقول « ول ديورانت » :

ولم يتعاط « محمد » الخمر التى حرمها هو على غيره ، (١) .

لم يكن ما عرف عن « محمد » من عفة وطهارة قبل البعثة ناجماً عن ضعف ، أو خمود في رغبته للبرأة ، وطلبه لها ، وإنما كانت تلك العفة وهذه الطهارة عن نفس نقية ، وروح طاهرة ، تأبى الخبث ، وتأذى منه ، وتضيق به ! قال ، أبو العباس المبرد :

قسم كسرى أيامه ، فقال : يصلح يوم الريح للنوم ، ويوم الغيم للصيد ، ويوم المطر للشرب واللهو ، ويوم الشمس للحوائج . . !

قال ابن خالوية تعليقا على هذا ما كان أعرفهم بسياسة دنياهم : ويعلمون
ظاهراً من الحياة الدنيا ، وهم عن الآخرة هم غافلون ، ١

و ولكن نبينا صلى الله عليه وسلم جزأ يرمه ثلاثة أجزاء : جزء الله ،
و جزء أهله ، و جزءاً لنفسه . ثم جزأ أجزاءه - أى الجزء الذى لنفسه -
بينه وبين الناس . فكان يستعين الخاصة على العامة ، ويقول : أبلغوا حاجة من
لا يستطيع إبلاغى ، فإنه من أبلغ حاجة من لا يستطيع إبلاغها أمته الله يوم
الفرع الأكبر ، (١) .

هذه هى العظمة فى أرفع منازلها ، وأكمل أحوالها . إنه يملأ بشخصيته
الحياة كلها ، ويأخذها من جميع أطرافها . يتحكم فى كل شيء ، ولا يتحكم فيه
أى شيء !!

تقول السيدة عائشة رضى الله عنها :

« كان النبي صلى الله عليه وسلم يقبل ، ويباشر وهو صائم ، ولكنه أملككم
لإربه ، .. (صحيح مسلم جزء ٣ / ص ١٣٥) (٢) .

هذا ، وقد طلق النبي نساءه جميعاً شهراً كاملاً . فكيف كان صبره على هذا
الاتصال بينه وبين المرأة ؟

ولقد كان يطوف على نسائه جميعاً فى ليلة واحدة . فكيف هجرهن هذا الهجر
الطويل وقدر عليه ؟

إنه كما قلنا - قوة النفس ، وسمو الروح ، اللذان يتحكمان فى شهوة الجسد ،
ولا يتحكم فيهما شهوته !

وإنه لمن الخطأ الفاحش أن يقول الدافعون لهذه التهمة الملققة : إن النبي

(١) الشفاء الجزء الأول ص ١٠٦

(٢) الإرب الرعة ، والشهوة ، والمباشرة : الملامسة ، والمداعبة : مما يكون بين
الرجل والمرأة قبل اتصالهما .

صلى الله عليه وسلم كان قليل الرغبة في المراه ، أو أنه فذل في كيمانه الشهوة الداعية إلیا .

إن ذلك نقص في الرجولة ، وليس كالا كما يفهمه - خطأ - بعض من يطلب مزيداً من العصمة للنبي ، أو يسوق كالا إليه على تلك الصفة . . . والبي في هذا الذي كان عليه من قوة رغبته في المرأة ، وشدة طامه لها ، مع قدرته على هجرها ، وإمساك نفسه عنها - أكل كالا ، وأسمى عصمة . من كل كال ، ومن كل عصمة .

يقول القاضي عياض :

، النكاح دليل الجمال ، وصحة الذكورية .

و فإن قلت : كيف يكون النكاح وكثرته من الفضائل ، وهذا يحيى بن زكريا عليه السلام قد أنفى الله تعالى عليه أنه كان دحسورا ، ؟ فكيف ، يفنى الله عليه بالعجز لما تعدده فضيلة ؟ . وهذا عيسى ابن مريم عليه السلام تبتل من النساء ، ولو كان كما قررته لنكح ؟ ؟

ويجب القاضى عياض على هذا الاعتراض . . فيقول :

« فاعلم أن ثناء الله تعالى على يحيى بأنه « حصور » ، ليس كما قال بعضهم لأنه كان هيوأ^(١) ، أو لا ذكر له ، بل لقد أنكر هذا بعض حذاق المفسرين ، وتماد العلماء ، وقال هذه بقية وعيب ، ولا يليق بالأنبياء عليهم السلام ، وإنما معناه أنه معصوم من الذنوب ، أى لا يأتيها ، كأنه حصر عنها ، وقيل مانعاً نفسه من الشهوات ، وقبل ليست له شهوة في النساء .

وقد بان لك من هذا أن عدم القدرة على النكاح نقص ، وإنما الفضل في كونها موجودة ثم قبحها ، إما بمجاهدة النفس ، كعيسى عليه السلام ، أو بكفاية من الله كيحيى عليه السلام ..

(۱) اُی یھیپ لقاء النساء ، والاتصال ہیں ۔

ثم هي - أى القدرة على المكاح - فى حق من أفدر عليها ، وملكها ، وقام بالواجب فيها ، ولم تشغله عن ربه - درجة عليا . وهى درجة نبينا صلى الله عليه وسلم ، الذى لم تشغله كثرته - أى كثرة النساء - عن عبادته ربه ، بل زاده ذلك عبادة لتحسينهن ، وقيامه بمقوقهن ، واكتسابه لهن ، وهدايته لهن ، (١) .

على أن الذى يريد أن يفهم الوضع الصحيح لحال النبى مع المرأة يجب ألا يقصر نظره على هذا الجانب من الحياة الإنسانية ، ويفعل الجوانب الأخرى التى تتجه إليها نزعات الإنسان ، ورغباته اتجاهاً قوياً لا يقل عن الاتجاه إلى المرأة ، والرغبة فيها !

فهنالك إلى جانب المرأة شهوات أخرى تستبد بالإنسان ، وتغلى مراحلها فى كيانها .. كشهوة المال ، والجاه ، والسلطان ، وكشهوة الطعام ، واللباس ، وصور كثيرة من حياة الترف والزينة التى يقتتل من أجلها الناس ..

و زين للناس حب الشهوات من النساء ، والبئين ، والقناطير المقنطرة من الذهب ، والفضة ، والحليل المسومة ، والأنعام ، والحرت .. ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المسآب ، (٢) .

ففى هذه الشهوات يتقلب الناس ، إليها يتسابقون ، وعليها يتزاحمون .. وليست واحدة منها بمغنية عن الأخرى .. بل إن بعضها ليفرى ببعض ، حتى لكأنها كائن واحد ، وهى منه بمنزلة الأعضاء فلا يكمل وجوده إلا بها ، ولا تؤدى هى وظيفتها إلا معه !

ونخذ أى مطلب من هذه المطالب ، نجده لا يمكن أن يستكمل وجوده ، ويستوفى حقيقته إلا إذا رفدته هذه المطالب الأخرى وغذته ، كما يردها هو ويفذيها .
مطلب المرأة مثلاً .

هل يكفى أن يحمد الرجل الذى ركبته الشهوة إلى النساء - امرأة أو أكثر وهو جائع فارغ الجيب والبطن ؟ .

(١) الشفا للقاصى عياض جره ٩ ص ٦٨

(٢) سورة آل عمران : آية ١٤

لأنه لابد له من أن يتغذى الغذاء اللذيذ ، ولابد أن يوفر لجمده الراحة ، وأن يتاح له فرص الاستجمام من عناء ما بذل في لقائه بالمرأة ، كي يجد القدرة على الاستجابة لداعى شهوته إليها .

ثم لابد لمثل هذا الإنسان أن يطلب المال ، ويلج في طلبه ، ويتهاكك على جمعه ، كي يجد حاجته من النساء ، وكي يجدن في جواره من تنوع الحياة ما يرغبن في السكن إليه ، والرغبة فيه ، وهل يسكنى المرأة أن تجد رجلاً يضمها إلى نساائه . ويمنعها حظها منه . ثم لا تطعم بمد هذا الطعام الشهى . ولا تحيا الحياة التى تجد فيها مطالبها المادية موفورة ، قريبة من يدها ؟

ثم لابد له أيضاً من أن يطلب الجاه والسلطان فإن هذا مما يهيء له حياة تقدره على أن ينال كثيراً مما يطلب ، وتدنى منه كثيراً مما يشتهى !

قلنا : إن الذى يريد أن يفهم الوضع الصحيح لحال البى — مع المرأة يجب ألا يقصر نظره على حاله مع المرأة ورغبته فيها ، بل ينبغى أن تمتد نظرته إلى المطالب الأخرى التى لها سلطانها على النفوس ، والتى لا تقل الرغبة فيها عن الرغبة فى المرأة ، والتى لا يمكن إشباع الرغبة فى المرأة إلا بها .

قلنا هذا — ونقول للذين قالوا فى نبي الإسلام من استكثاره من النساء . وإفراطه فى الحياة معهن ..

نقول لهؤلاء — انظروا هذا الجو الذى كان يحيط بالحياة الزوجية التى كان يحياها أزواج النبي معه ؟

أكانت هذه الحياة ، حياة ترف ، ومتع ، ولذات جسدية ؟ وهل من أحل هذه الحياة أحسن النبي ، وحرصن على السكن إليه ، والحياة فى ظله ؟

لقد شهدت الدنيا كلها أن الحياة المادية فى بيت النبوة كانت حياة كفاف ، بل وجوع يكاد يكون متصلاً . . .

فالنبي كان يلقي أهله فيسأل هل من طعام ؟ وكان أكثر ما يكون الجواب : لا طعام ! فيحمد الله ، ويطوى نهاده صائماً . . . هكذا كان أغلب أيامه . . .

تقول السيدة عائشة رضى الله عنها : « ما تبع النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام تباعاً من خبز ، حتى مضى لسبيله » .

وتقول : « لقد مات النبي صلى الله عليه وسلم وما في بيته شيء يأكله ذو كبد ، إلا شطر شعير في رق لي » .

أما فراشه فهو كما تقول السيدة عائشة : « كان فراشه الذى ينام عليه صلى الله عليه وسلم أدماً ، حشوه ليف » .

أما البيت الذى يضم نساءه فهو « خوخات ، أشبه بالأكواخ التى يتخذها رعاة البدو فى الصحراء للوقاية من الحر أو البرد لعدة أيام » .

يقول « ول ديورانت » :

« كانت المساكن التى أقام عليها — النبي — واحداً بعد واحد كلها من اللبن لا يزيد اتساعها على اثنتى عشرة أو أربع عشرة قدماً ، ولا يزيد ارتفاعها على ثمان أقدام ، سقفها من جريد ، وأبوابها ستائر من شعر المعز أو وبر الجمل » (١) .

هذا هو ما أمسك به رسول الله من الحياة الدنيا ، وما ضم إليه من حظائها ، ولو شاء أن يأكل فى صحاف من ذهب ، وأن يتخذ له قصر أشبه بقصر كسرى ، يسوق إليه ألوان الحياة ومفاتيحها — لو شاء ذلك لكان حاضراً عتيداً عنده ، بعد أن استجابت الجزيرة العربية كلها لدعوته ، وآمنت برسالاته ، وجعلت كل حياتها رهن كلمته وإشارته !

ولكنه رسول السماء ، ما جاء بتلك الرسالة العلوية لتكون لحسابه ، وإنما هى لحساب الإنسانية كلها ، ولم يطلب بجهاده فى سبيلها ما عند الناس ، وما فى دنيا الناس ، وإنما طلب بها ما عند الله من رحمة ورضوان !

ونساء النبي شاركنه هذه الحياة ، ووجدن فى جواره من أنوار النبوة ، وجلالها ما أسعدهن ، وأنساهن شظف العيش ، وخسونة الحياة . . فلقد كان

الغذاء الروحي الذي وجدته في ظلال النبوة زاداً طيباً ، ملاً حياناً راحة ورضى !

ومع هذا ، فقد شعر الرسول الكريم بأن الحرمان الذي يعيش فيه نساؤه ربما كان مفروضاً عليهن بحكم الطاعة للرسول ، والولاء له . . فهن كسلمات مفروض عليهن أن ينزلن عند حكم الآية الكريمة : « النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم » . . والنبي الكريم يريد أن يمنحن حق المرأة في اختيار حياتها التي ترصاها . . وأن يكن منه زوجات وزوجاً ، لاسلمات وفيياً . .

وقبل أن يقول النبي كلمته في هذا الذي دار في خاطره ، وقبل أن يلقى نساءه ليخبرهن بين الحياة معه ، واحتمال العيس على تلك الصورة التي يعشنها ، وبين أن يطلق سراحهن — قبل أن يفعل النبي هذا جاءت كلمة السماء لتقول عنه ما كان يريد أن يقول هو . .

« يا أيها النبي قل لأزواجك . . إن كنتم تردن الحياة الدنيا ، وزينتها ، فتعالين أمتعنن وأسرحن سراحاً جميلاً . . وإن كنتم تردن الله ، ورسوله ، والدار الآخرة ، فإن الله أعد للحسنات منكن أجراً عظيماً ، (١) .

فهاتان الآيتان تسجلان في غير لبس : أي حياة كان يحياها النبي في نسائه ، وأي حياة كان يحياها نساؤه معه ؟

إنها حياة لا يراد بها الحياة الدنيا وزينتها . . فإن كن تردن الحياة الدنيا وزينتها فإنهن أن يجدن عند النبي ، وهو صلوات الله وسلامه عليه لا يحول بينهن وبين هذه الحياة الدنيا ، وما فيها من زينة إن أردنها ، بل سيخلى بينهن وبين ما يردن ، بعد أن يتمتعن متعة المطلقات . .

هاتان الآيتان وثيقتان تاريخيتان ، ليس بين وثائق التاريخ كلها ما يدان بهما صحة

وثبوتاً .. إنهما في صدور الألوف والملايين من البشر وعلى أفواههم وألسنتهم منذ عهد النبوة إلى اليوم ، محموطتين أو ثقب الحفظ من أى تعديل أو تحريف ! ليست الحياة الدنيا وزينتها من مطالب النبى ، ولا من مطالب من يسكن إليه من زوج وولد !

هذا ، ما أذاعه القرآن على أسماع الناس ، وأعلنه فيهم على لسان النبى الكريم . ورأوا واقعه رأى العين فى حياة النبى ، وحياة زوجته معه .. ! فهل يعقل عاقل أن يكون النبى على غير ما نطق به القرآن فى هذا الشأن ؟ وهل يعقل عاقل أن يحيا النبى حياة منعمة رافهة ، ثم يحىء القرآن لينفى عن هذه الحياة ما فيها من نعيم ورفه ؟

ماذا يقول أعداء النبى إذ ذاك من يهود وغير يهود ؟ بل ماذا يقول المسلمون أنفسهم من الصحابة وغير الصحابة . . ماذا يقولون عن النبى ، وعن القرآن ؟ ولو أن هذا القرآن لم ينزل كله على النبى ، ولو أن هاتين الآيتين لم يسكن لهما شأن خاص ، وملايسات ذات دوى وقت نزولهما — لكان هما مكان للتأويل المنحرف ، والتخريج المريض .. ولكن القرآن نزل كله على محمد ، وهاتين الآيتين فاضت عنهما أحاديث وأخبار فى سيرة النبى . وفى سيرة زوجته ، وفى سيرة آباء زوجته . كأتى بكر وعمر .

وبعد ..

فنعود ونقرر مرة أخرى إنه لا يضير النبى أن يكون آخذاً بحظ الرجل من المرأة ، فذلك - كما قلنا - من ضرورات الحياة البشرية ، ودعوة من دعواتها . والعجز عنها إنما ينشأ عن خلل فى تكوين الجسد وسلامته !

لا يضير على النبى إذن أن يكون على ما كان عليه من سلامة الجسد ومسحة الاعضاء ، وقوة البذية ، ثم يسكن له إلى المرأة داع ، وله فيها رغبة .. لأنه لإنسان ونبى معاً .. ومن السكال أن يعطى الإنسانية فيه حقها ، وأن يؤدى للنبوة حقوقها !

ولسكن ينبغى ألا يفهم هذا على أن زواج النبي من كل هذا العدد من نسائه كان لإشباع حاجته من المرأة وقضاء رغبته فيها ..

فكثير من زوجات النبي كان زواجه من غير هذا ..

كان زواجه لبعثتهن تطبيقاً لحاظهن ، أو عزاء لهن ، أو رحمة بهن ..

فإنه مع ما فى كيان النبي من قوة بادية ، وحيوية ظاهرة ، لم يكن مصرف هذه القوة وتلك الحيوية فى جانب واحد من جوانب الحياة ، بل لقد كان أكثر هذه القوة وتلك الحيوية منصرفاً فى القيام بأمر الدعوة فى ميادين السلم والحرب ، وفى التمسك لها فى قلوب المؤمنين ، ولقاءهم أفراداً وجماعات ، ويسألونه فى أمور دينهم ، ويحفظون بالحديث إليه ، ويسعدون بالقرب منه .. فإذا جاء الليل ، وسكنت الحياة ، وآوى الناس إلى مضاجعهم قام ليله أو شطراً كبيراً منه ساجداً ، وقائماً ، يناجى ربه ، ويقرأ ما نزل عليه من كتابه .. وكان ذلك دأبه حتى تورمت قدماه !

ومع هذا ، فإن ما بقى له بعد ذلك من وقت ، ومن قوة وحيوية كان كافياً لإرضاء نسائه وقضاء حق الزوجية لهن .

فعن أنس رضى الله عنه : « أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يدور على نسائه فى الساعة من الليل أو النهار ، وهن إحدى عشرة » .

وعن طاوس ، قال : « أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم قوة أربعين رجلاً » .

وعن سلمى مولاة رسول الله قالت : طاف النبي صلى الله عليه وسلم ليلة على نسائه التسع ، ويطهر من كل واحدة منهن قبل أن يأتى الأخرى ، وقال : « هذا أطهر وأطيب » .

وننظر نظرة سريعة فى زوجات النبي ، والاحوال والظروف التى تزوجهن فيها ...

١ - خديجة بنت خويلد :

أول امرأة تزوج بها النبي . وقد تزوجها قبل البعثة ، وكان إذ ذاك في الخامسة والعشرين من عمره ، وهن في نحو الأربعين ؟

ولم يتزوج عليها حتى ماتت قبل هجرته صلى الله عليه وسلم . وقد تجاوزت الستين ، كما قارب هو صلوات الله وسلامه عليه الخمسين .

ومن هذا نرى أنه قد ذهب أكثر شباب النبي مع امرأة واحدة ، قد كبرت ، ولم يكن فيها مأرب للرجال .

ومع هذا ، فقد كانت أحب نساء النبي إلى النبي . . . وقد ظلت ذكرها الطيبة تجرى على لسانه بين نسائه . فيجندن في أنفسهن غيرة منها .

عن عائدة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يكاد يخرج من البيت حتى يذكر خديجة ، فيحسن الشاء عليها ، فذكرها يوماً من الأيام فادركتني الغيرة فقلت هل كانت إلا عجوزاً أبذل الله خيراً منها ؟

« فغضب حتى اهتز مقدم شعره ، ثم قال : « لا والله ، ما أبذلني الله خيراً منها . . . آمنت بي إذ كفر الناس ، وصدقتني إذ كذبني الناس ، وواستني في مالها إذ حرمني الناس ، ورزقني الله منها أولاداً إذ حرمني أولاد النساء . قالت عائشة : فقلت في نفسي لا أذكرها ببيتة أبداً » ؟

وانظر سبب هذا الحب الذي كان من الرسول الكريم للسيدة خديجة ؟ أكان لجمالها ؟ أو لشبابها ؟ لأنه لم يمكن لشيء من هذا وإن كان لها جمال ، ولها شباب وإنما لأنها كانت أول من استجاب لدعوته وآمن برسالته ، ووقفت إلى جواره تشد من عزمه ، وتخفف من آلامه .

وكان هذا الحساب للمرأة في نظر الرسول يغني عن متابعة النظر في زياته الأخرى ، للتعرف على الغايات التي كان يبغيها النبي الكريم من الزواج بمن تزوج بهن .

ويكفي أن نذكر هنا أنه قضى شبابه مع امرأة واحدة ، وأن هذه المرأة كانت تكبره بأعوام ، حتى لقد أدركتها النخوخة ، ولم يكن هو قد بلغ الخمسين من عمره .

ويكفي أن نذكر أنه — صلوات الله وسلامه عليه — لم يذكر في معرض الكشف عن حبه لها شيئاً مما كان لها من جمال وشباب في أيامها الأولى معه ، وإنما ذكر نبلها ، ومثانة حلقها ، وعظمة وفائها ، وسابقة إيمانها .

كان يكفي هذا أو بعض هذا .. ولكن لا بأس من أن نمضى في النظر إلى هذه الزيجات .. ففيها عظات ، وعبر ، وفيها دروس نافعة ، وحكم بالغة .

٢ — سودة بنت زمعة :

تزوجها النبي بمكة بعد موت السيدة خديجة .

وكانت حين تزوجها الرسول في سن متقدمة ، وهاجرت مع النبي إلى المدينة وتقدمت بها السن ، وبدأت بين نسائه في موقف حرج ، فهم النبي بطلاقها فقالت له : لا تطلقني . وأنت في حل من شأني ، فإنما أريد أن أحشر في أزواجك ، وإني قد وهبت يومي لعائشة ، وإني ما أريد ما تريد النساء ، فأمسكها الرسول صلى الله عليه وسلم ، وصار يقسم أيامه لبقية نسائه دونها ، ويجعل نوبتها لعائشة .

وواضح من هذا أن النبي إنما هم بتطليقها لينفيها من عبء الزوجية ، بعد أن أصبحت في هذه السن المتقدمة . وقد كان النبي حريصاً على أن يعطيها نصيبها كبقية نسائه من المبيت عندها في يومها الذي لها . فلما نزلت عن هذا الحن ارتفع الحرج الذي كان بينه وبينها . فأمسكها عنده بين نسائه .

٣ — عائشة بنت أبي بكر :

تزوجها النبي وهي بنت تسع سنين ، وكان صلوات الله وسلامه عليه قد شارف الخامسة والخمسين !

والجدير بالنظر هما ، أنما نرى النبي . وهو في مطلع شبابه ، واكتمال فوته
يتزوج من أكر منه سناً ، بل ومن تكون قد بدت عليها الشيخوخة ، كما رأينا
في الزيجتين الأوليين له من السيدتين « حديجة ، وسودة » . ثم هو وقد ولى
شبابه ، وجاءته أعباء الرسالة . وأثقالها ، وما لاقى من أجلمها من ضروب الآلام ،
وشقى المسئوليات - يتزوج فتاة في التاسعة من عمرها !

أفهذا زواج يراد به المتعة حقاً ؟

قد يكون ذلك نشاب في مستقبل العمر . يرفب نمو شبابه وشبابها معه ، ففي
مستقبل أيامهما فسحة فسيحة للمتعة !

أما والزواج في مثل هذه السن ، في الخامسة والخمسين . . فإذا ينتظر من
مرور الأيام والسنين إلى أن تنضج فتاته ، وتصبح أهلاً للقاء الرجل ؟
كم عاماً تقدر لهذه الفتاة حتى تصلح لأن تكون زوجة . . ؟ سنتين ؟ ثلاثة ؟
أربعة ؟ . . خمسة ؟

إن أدنى هذا العدد لا يصبر عليه من في هذه السن إذا كان يريد بزواجه مجرد
الزواج ، ومجرد المتعة به ! . . فإن الأيام التي تمضي تخطر به نحو الشيخوخة
والضعف ، ينبا تخطو بفتاته نحو الشباب والاكتمال !
لإذن فلا بد أن يكون للزواج هنا غاية غير المتعة ، ومطلباً أسمى من الزواج
لمجرد الزواج . .

والمعروف أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه هو والد السيدة عائشة ،
والمعروف أيضاً أن مكانه من رسول الله ، كان المكان الأول من الحب والتقدير ،
لما كان من موقفه في الإسلام ، وبلائه مع رسول الله ، واحتماله العدمات الأولى
في سبيل الدعوة الإسلامية . .

كان أبو بكر أول من أسلم من الرجال — على أصح الروايات — فهو هذا
كان ثانياً اثنين — الرسول ، وهو — في الإسلام ، كما كان ثانياً اثنين إذ هما في
الغار كما يذكر القرآن الكريم .

وقد أذن الرسول الكريم — وهو بمكة — لأصحابه بالهجرة ، ولم يأذن
لأبي بكر ، ليكون طعيراً له ، وسعداً .. فذأها ر النبي إلى المدينة كان أبو بكر
رفيق هجرته دون المسلمين جميعاً !

ومن أجل هذه المواقف التي وقعها أبو بكر من الإسلام ومن رسول الله
كانت له تلك المنزلة عند الله ، وعند رسول الله ، وعند المسلمين !

فلقد رفع الله شأن أبا بكر ، وأذاع في العالمين ذكره وفضله ، فأشار إليه
في القرآن أكثر من مرة ..

ففي هجرته مع رسول الله ، وتخفيه معه في غار ثور .. يقول الله سبحانه
وتعالى : « إلا تنصروه فقد نصره الله ، إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما
في الغار ، إذ يقول لصاحبه ، لا تحزن .. إن الله معنا » (١) . وصاحب الرسول
في الغار هو أبو بكر الصديق ، بإجماع لم يخرج فيه أحد .

وفي حديث الإفك .. الذي امتحنت فيه السيدة عائشة . كان الذي تولى كبر
هذا الإثم ، وأطلق لسانه بالمأحنة قريب لأبي بكر ، اسمه مسطح .

فلما برأ الله السيدة عائشة ، وقطع السنة السوء فيها بمانزل من القرآن ، حلف
أبو بكر ألا ينفي على قريبه هذا ، وكان من قبل محسناً إليه ، باراً به .. فنزل قوله
تعالى : « ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين
والمهاجرين في سبيل الله ، وليعففوا ، وليصفحوا ، ألا تحبون أن يغفر الله لكم ،
والله غفور رحيم » (٢) .. وكان أبو بكر هو المشار إليه هنا في هذه الآية ، فامتثل
لأمر الله ، وعاد بالفضل والإحسان على قريبه هذا !

هذا هو أبو بكر ، وقد أسمع الله عليه هذا الفضل ، واختصه بهذا الإحسان
فذكره في القرآن ورفع ذكره بهذا الذكر !

فإذا يصنع رسول الله لأبي بكر لقاء ما صنع أبو بكر معه ؟ وماذا يعمل
ليجزى إحسانه بإحسان وفضله بفضل ؟

لقد رضى رسول الله عنه كل الرضا ، ورضا رسول الله ربح عظيم في الدنيا والآخرة ، لأنه من رضا الله ورضوانه !

ومن تمام هذا الرضا أن يدنى الرسول أنا بكر منه إلى أقرب مكان يمكن أن يكون . . لأنه لا يكتفى لأبي بكر أن يلقاه في مجالسه بين المسلمين في المسجد ، وفي الصلاة ، وفي غير المسجد ، وغير الصلاة . لأنه يريد أن يتيح له مريداً من الفرص للقاء الرسول ، ويؤثره من بين أصحابه بأن يدخل عليه بيته متى أحب . فكان أحكم تدبير لهذا أن يتزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم بعائشة . ليكون في ذلك زيادة في إدفاء أبي بكر منه . وباب يدخل منه إلى بيت الرسول ، ويجلس إليه في حلوته مع أهله . . وكان في التعجيل بزواج الرسول من السيدة عائشة قبل أن تمضي . وتصبح أهلاً للزواج — كان في هذا مبادرة بالخير لأبي بكر وتعجيل به له .

ولعلنا نستطيع إذ نلتمس أسباب هذا الحب والتدليل الذي كان من الرسول الكريم لزوجته عائشة أن نضيف ذلك كله ، أو أكثره إلى حب الرسول لأبيها أبي بكر ، وجعل هذا الحب والتدليل الذي يعنفيه الرسول عليها زيادة في الحب والإيثار الذي أضفاه على أبيها . .

« روى عن عمرو بن العاص قال : قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، من أحب الناس إليك ؟ قال . عائشة . قلت : فمن الرجال ؟ قال : أبوها ؟

ولقد اكتست السيدة عائشة من حب رسول الله لها بركات من السماء والأرض . . فكان لها هذا الذكر العظيم بما حلت من العلم ، والمعرفة ، وما حفظت من حديث الرسول ووعت من آثاره ، على حداثة سنّها ، إذ توفى عنها رسول الله وهي ابنة ثمانية عشر عاماً !

ثم كان لها من الله ذكر عظيم في القرآن إذ نزلت آيات الكتاب مبرئة لها ، ناطقة بعبثها وطهارتها : فقال تعالى في حق من أذاعوا هذا السوء فيها ، وافتروا هذه القرية عليها « إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم ، لا تحسبوه شراً لكم ،

بل هو خير، لكم لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم ، والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم، (١) .. ثم قال فيمن استمع إلى هذا الحديث ، وأعطاه أذنيه : «ولولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً ، وقالوا هذا إلفك مبين» (٢) . ثم التفت القرآن إلى أصحاب هذا الإلفك يسألهم البينة عليه ، وما يدهم من حجة . «ولولا جاءوا عليه بأربعة شهداء فإذلم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون» (٣) ثم يلفت مرة أخرى إلى الذين استمعوا لإلفك الآفكين : «ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا ، سبحانك .. هذا بهتان عظيم» (٤) ، والذي يتدبر آيات القرآن التي جاءت في هذا الشأن يجد فيها شواهد ناطقة على ما للسيدة عائشة من منزلة كريمة عند الله ، إذ دفع عنها القرآن هذا الإلفك دفعاً قوياً ، وكان في هذا الإلفك خير كثير ، ونعمة من الله ورضوان للسيدة عائشة ، ولا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم» (٥) .

عن القاضي أبي بكر الطيب قال :

«إن الله تعالى إذا ذكر في القرآن ما نسبته إليه المشركون سبج نفسه لنفسه ، كقوله «وقالوا اتخذاً الرحمن ولداً ، سبحانه» (٥) في آي كثير . وذكر تعالى ما نسبته المنافقون إلى عائشة ، فقال : «ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك» (٦) سبج نفسه في تنزيها من الدعوى ، كسبج نفسه في تنزيها من السوء» (٧) .

هذه هي الزوج الأثيرة عند رسول الله ، وأحب الناس إليه ! لم يكن زواجه منها صلى الله عليه وسلم لشهوة ، لأنه حين تزوجها لم ينسك بلغث بعد سن الاستبراء ، ولم تكن دوافع الزواج بها المتعة الزوجية بقدر ما كانت غاية ذلك تكريم أبي بكر ، وإيثاره وإدناؤه إليه ، وملء قلبه غبطة ورضى في ضم فائدة من كبده إليه ، ولأنها أكرم المنازل في بيت النبوة .

(١) سورة البور : آية ١١ (٢) سورة النور : آية ١٢

(٣) سورة البور : آية ١٣ (٤) سورة النور : آية ١٦

(٥) سورة الأنبياء : آية ٢٦ (٦) سورة النور : آية ١٦

(٧) نهاية الأرب — الجزء الثامن عشر ١٧٦

٤ — حفصة بنت عمر :

وما يقال في زواج الرسول الكريم من عائشة ، يقال كثير منه في زواج حفصة بنت عمر بن الخطاب . وإذا كان شأن عمر في الإسلام في الميزة الثانية بعد أبي بكر ، وإذا كان مكانه من رسول الله بالمكان الثاني لأبي بكر . . . وهذا أمر لا يحتاج إلى شرح أو بيان ، إذ كان أسرته ، وإفصاة أحباره أظهر من أن يدخل عليه شرح أو بيان !

كانت حفصة من المهاجرات ، وكانت قبل زواج رسول الله بها عند خنيس ابن حذافة الهمسي ، وكان ممن شهد بدرًا . . فلما مات عنها ، وتأيمت ، ذكرها عمر لأبي بكر وعرضها عليه ، فلم يرجع إليه أبو بكر كلمة ؛ فغضب من ذلك عمر ، ثم عرضها على عثمان حين ماتت زوجته رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عثمان : ما أريد أن أتزوج اليوم ، فانطلق عمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فتسكا إليه عثمان وأخبره بعرضه « حفصة » عليه . . فقال رسول الله : « يتزوج » « حفصة » من هو خير من عثمان ويتزوج « عثمان » من هو خير من « حفصة » . . ثم خطبها رسول الله من عمر ، فتزوجها ، فلقى أبو بكر الصديق عمر بن الخطاب ، فقال : لا تجد على في نفسك ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قد ذكر « حفصة » فلم أكن لأفشي سر رسول الله ، ولو تركها لتزوجتها . . ثم زوج رسول الله « عثمان » بابنته « أم كلثوم » . . ولهذا سمي عثمان بنى النورين ، إذ تزوج بابنتي رسول الله : رقية ، وأم كلثوم . . ولما ماتت أم كلثوم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعثمان : « لو كانت عندنا ثالثة زوجنا كها يا عثمان » (١) .

وأنت ترى من هذا أن الزيجات كانت بين النبي وأصحابه ، وبين الصحابة والصحابة قائمة على معيار الوثيق للصلات التي بينهم وشدة أواصرها بلحمة النسب ، والمصاهرة .

٤ — زينب بنت حزيمة :

كانت تدعى في الجاهلية أم المساكين . . وكانت قبل رسول الله عند الطفيل ابن الحارث بن عبد المطلب بن عبد مناف ، فطلقها ، ثم خلفه عليها أخوه عبيدة ابن الحارث ، فقتل عنها يوم بدر شهيداً ، فتزوجها رسول الله (١) .

وقد مكثت عند الرسول ثمانية أشهر ثم ماتت .

٦ — أم سلمة ، هند بنت أبي أمية :

وكانت قبل رسول الله عند أبي سلمة بن عبد الله المخزومي . وكانت هي وزوجها أول من هاجر إلى أرض الحبشة ! فلما مات عنها زوجها تزوجها رسول الله ، وأصدقها فراشاً حشوه ليف ، وقدحاً ، وصحنه ، ومجشمة (٢) .

٧ — زينب بنت جحش :

كان اسم زينب برة ، فسميها رسول الله زينب . . وقد زوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم لزيد بن حارثة متبناه ! وقد وقعت بينها وبين زيد ففورة ، إذ كانت قرشية ، وزيد غير فرشي . . وللنسب وزنه عند العرب ، رجالاً ، ونساء ! ولما لم يستقيم الأمر بينهما طلقها زيد . . فتزوجها رسول الله .

وقد لفظ المنافقون بهذا الزواج في عهد الرسول ، وقالوا حرم محمد نساء الولد وقد تزوج امرأة ابنه ؟ فأقر الله سبحانه وتعالى : « ما كان محمد أباً أحدهم من رجالكم ، ولكن رسول الله وخاتم النبيين » (٣) . . وقال تعالى : « ادعهم لأبائهم هو أفسط عند الله » (٤) . . فدعى « زيد » من يومئذ زيد بن حارثة ، وكان من قبل يدعى زيد بن محمد .

(١) في بعض الروايات أنها كانت عند عبد الله بن جحش ، مات عنها شهيداً يوم أحد فتزوجها رسول الله .
(٢) المجشمة : الرحي .

(٣) سورة الأحزاب : آية ٥٠ (٤) سورة الأحزاب : آية ٥

وبهذا التدبير العملي أبطل الإسلام عادة التبني التي كانت شائعة عند العرب ...
ولو اقتصر فيها على حكم القرآن لظلت بعض علائق هذا التبني قائمة مقام العادة في
النفوس ، وظل في الناس من لا يرضى بزواج من يجعل منزلته عنده بمنزلة
ابنه ، وإن رضى بحكم الإسلام فدعاه باسم أبيه الذي ولده .

٨ - جويرية بنت الحارث :

وهي من سبي بني المصطلق ، وقد وقعت في سهم ثابت بن قيس بن شماس .
تقول السيدة عائشة : لما قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم سبايا بني المصطلق ،
وقعت جويرية بنت الحارث في سهم ثابت بن قيس بن شماس ، فكانت بنته على
نفسها ، وكانت امرأة حلو ملاحه (١) ، لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه ، فأتت
رسول الله تستعينه في كتابتها - أي في عتقها - ؛ قالت عائشة : فرأى الله ما هو
إلا أن رأيته على باب حجرتي فكرهتها ، وعرفت أنه سيرى - أي النبي -
منها ما رأيت .. فدخلت عليه فقالت : يا رسول الله : أبا جويرية بنت الحارث
ابن أبي ضرار ، سيد قومه ، وقد أصابني من البلاء ما لم يخف عليك ، وقد
وقعت في السهم لثابت بن قيس بن شماس ، فكانت به على نفسي ، فحمتك
أستعينك على كتابتي ؛ قال : « فهل لك في خير من ذلك ؟ » قالت : وما هو
يا رسول الله ؟ قال : أفض عنك كتابتك وأتزوجك ؛ وقالت : نعم يا رسول الله
قال : « قد فعلت » .. قالت - السيدة عائشة - نخرج الخبر إلى الناس أن رسول
الله صلى الله عليه وسلم تزوج بجويرية بنت الحارث ، فقال الناس : أصهار رسول
الله صلى الله عليه وسلم ١١ فأرسلوا ما بأيديهم .. فلقد أعتق بترويجه - أي
النبي - إياها مئة أهل بيت من بني المصطلق .. فما أعلم امرأة كانت أعظم
بركة على أهلها منها ، (٢) .

وطبيعي أن الجبال وحده لم يكن هو داعية الرسول إلى زواجه من جويرية

(١) أي بالغة قدراً كبيراً من الملاحه والحس

(٢) نهاية الأرب جزء ٨ ص ١٨٣

هذه ، بل كان من دواعى هذا الروح لكرام عزيمة قوم ذاك كما يقول الرسول الكريم : « أكرموا عزيز قوم ذل » . كما كان من دواعيه لكرام أهلها الذين دخلوا فى الإسلام بهذا الذى صمعه المسلمون مع من وقع فى أيديهم منهم .

٩ — أم حبيبة بنت أبى سفيان :

كان زوجها عبد الله بن جحش من مهاجرى المسلمين إلى الحبشة ، وقد هاجرت معه . ثم ارتد زوجها عن الإسلام هناك ، وثبتت هى على إسلامها ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشى ليخطبها له ويزوجها إياها ، فخطبها النجاشى لرسول الله . وأصدقها أربع مئة دينار .

وواضح من هذا الزواج ما فيه من ترغيب لهذه السيدة الكريمة وهى فى غربته عن أهلها . بعد أن فارقها زوجها كما فارق دينه ! كما أن فيه أيضاً استرضاء لابن سفيان .

وتخفيف من حدة العدواة التى فى قلبه لرسول الله (١) .

١٠ — صفية بنت حيى بن أخطب :

كان أبوها سيد بنى النضير . من بنى إسرائيل . من سبط هرون بن عمران عليه السلام . فلما غزا الرسول بنى النضير . ووقع حصن « أبى العقيق » فى يد المسلمين جرى إليه بسباياهم . وكانت فيهم صفية بنت حيى . فأعتقها رسول الله ، وتزوجها !

روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عليها — بعد أن تزوجها وهى تبكى ، فقال ! ما يبكيك ؟ قالت ؛ بلغنى أن عائشة وحنصة تنالان منى وتقولان : نحن خير من صفية ! نحن بنات عم رسول الله وأرواؤه ! فقال لها : ألا قلت لهن : كيف تكن خيراً منى وأبى هرون ، وعمى موسى ، وزوجى محمد ؟ !

١١ — ميمونة بنت الحارث :

تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة سبع من هجرته ، في عمرة القضاء ،
وفد خطبها عليه جعفر بن أبي طالب ، وكانت أحبتها أسماء زوجة الجعفر ، وأختها
سلمى عند حمزة ، وأحبتها أم الفضل عند العباس بن عبد المطلب .

١٢ — ريمانة بنت زيد بن عمر بن حنيفة بن شمعون :

وهي من يهود بني قريظة ، وكانت قد وقعت في السبي يوم قريظة ، فكانت
صفي (١) رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخيرها بين الإسلام ودينها فاختارت
الإسلام ، فأعتقها وتزوجها . . وقيل إنه لم يتزوجها ، بل كان يطؤها ملك البين ،
وأنه خيرها بين العتق والتزويج ، أو تكون في ملكه ، فقالت : أكون في ملكك
أخف على وعليك ، فكانت في ملكه حتى توفي عنها .
والرواية الأولى أثبت وأرجح .

• • •

هذه هي زيجات النبي ، وأولاء كن زوجاته . . والاحوال والملايسات
التي تزوجهن فيها .

ولأن يستطیع منتصف ، يحترم الحق ، ويحترم العقل ، أن يقول إن هذا العدد
الكثير من النساء اللاتي جمعهن الرسول في بيت الزوجة — كن لإشباع رغبته
في النساء وإرواء ظمئه منهن !

إن ذلك افتراء على التاريخ ، واعتداء على الواقع ، ولجأ على الحق .

يقول ول ديراند في شأن زيجات النبي :

• ولقد كان بعض زيجاته من أعمال البر والرحمة بالأرامل الفقيرات اللاتي
توفى عنهن أتباعه أو أصدقاؤه . . وكان بعضها زيجات سياسية ، كزواجه بحفصة

(١) الصبي : ما يختاره الرسول من العيمة .

بذت عمر الذى أراد به أن يوثق صلته بأبيها ، وكر و اجأ من ابنة أبي سفيان ليكسب بذلك صداقة عدوه القديم ، وربما كان الدافع إلى بعضها أمله فى أن يكون له ولد^(١)

فإذا تعلق مغيظ من الإسلام ، محقق على شريعته . بهذا اللون الظاهرى للصورة التى يبدو فيها هذا العدد الكثير من النساء فى بيت النبوة — إذا تعلق بهذا اللون الظاهر . من الصورة . وعمى عن إيجاءاتها . وتغافل عن المعانى الجليلة السامية التى تنطق بها — فحسبنا أنه لن يستطيع أن يجد حتى كلمة زور تستوجب له ليلتهم النبى مع ما يدعيه له من قوة شهوته إلى المرأة — فى شئ من عنته وطهارته . فى حياته كلها . قبل البهثة وبعدها . وذلك مما يزيد النبى عظمة إلى عظمته . وجلالا إلى جلاله .

• • •

الباب الحادى عشر نبى المسحمة

الخير والشر ، والدور والظلام ، والطمأنينة والقلق ، والرجاء واليأس ،
والعافية والسقم ، والفقر والغنى ، واليسر والعسر ، والسعادة والنقاء . هذه
وكثير غيرها من المتناقضات هى دنيا الناس ، التى قدر لهم أن يعيشوا فيها ، وأن
تدور أمورهم على هذه الاضداد المتقابلة المتناقضة فى كل شىء منها .

فليس فى هذه الحياة شىء لا يضاده شىء ، ولا يقف له ، حتى لسكان ميزان
الحياة لا يقوم إلا على هذا التراجع بين السكنتين . . فى إحداهما النىء ، وفى
الأخرى قبيضه !

انظر إلى الحياة بالمنظار الذى يروك تجد أنها ليست لوياً واحداً أبداً فى أى
حال من الأحوال . . إن نظرت إليها بمنظار أسود حالك السواد . بدا لك من
خلال هذه الظلمات الكثيفة التى تسد وجه الأفق ساعات من النور ، ولمعاً من
الضوء تخط السواد بالبياض ، وتفسد عليك هذه الصورة السوداء ، التى
وقعت فى شباك تشاؤمك ويأسك ، فإذا أنت ممسك بخيوط هذا الضوء ، متعلق
بشاعات الأمل والرجاء . . وإن نظرت إليها بمنظار سحرى يريك الأشياء فى
حمل عروس تحف بها الهجة ، وترف عليها أطيان السعادة طلع عليك من
خلال ذلك وجوه كئيبة كالحة تدخل فى هذا الفرح القائم ، وتضرب بيدها فى
عقده المنتظم ، فيتناثر ، وتنفتح بأفواها فى أنواره ، فتضطرب ، وإذا هذا المنظر
الجميل نطله سحابة كثيفة ، كما تكسف السحب وجه الشمس فى يوم مشرق
من أيام الربيع !

تلك هى الحياة . . ليست خيراً محضاً ، ولا شراً خالصاً ، وإنما هى

مزاج من الخير والشر معاً ، لا ينفرد أحدهما في هذه الحياة ، ولا يستقل بوجوده فيها ! .

وكذلك الناس .. أختيار وأشرار . لن تخلو الحياة أبداً من وجهيهما معاً ..
فما خلاصت الحياة للأخيار ، ولا وقفت كلها ليد الأشرار ..

وتمثل هذا في الإنسان الفرد . تجده تركيبة ، من الخير والشر .. فليس هناك ذلك الإنسان الذي يحسب خيراً لا شر فيه ، كما أنه ليس هناك ذلك الإنسان الذي يحسب شراً لا خير معه !

ولنما الحياة في شئونها ، والناس في جعلتهم ، والإنسان الفرد في خاصته —
خير وشر ، أشبه بتلك المركبات الكيميائية التي تخرج بين حمضين ، وتواف
بين عنصرين ..

على هذه الصفة قامت الحياة ، وعلى تلك الصورة صيغت الناس ، وصيغها
الغاس ، فألفتهم وألفوها .. سنة الله .. ولن تجد لسنة الله تبديلاً .

• • •

نقول هذا ليستقيم في فهمنا أن الرحمة الخالصة ليست هي الدواء في كل حال ،
وليست الطعام السائغ الذي تحيا عليه النفوس في كل حين .

وأنبياء الله ورسله هم أطباء الإنسانية وأساتها . ومن تدير الطبيب الحكيم
أن يجعل لكل حال حالاً ، وأن يصف لكل داء دواء . فهناك داء دواؤه الحمية
والإمساك عن الطعام زمناً ، وهناك داء دواؤه طعام دون طعام .. وهناك
داء تقضى مصلحة الجماعة أن يغيب مع صاحبه في التراب اتقاء لعدواه ، ودفعاً
للبلاء الذي ينجم عنه إذا لم يكن من الممكن شفاؤه من هذا الداء .

وحين يحمل رسل الله إلى الناس رحمة السماء فإنما هي دواء تستقيم عليه نفوس ،
وتضيق به نفوس ، وتفتتح له قلوب ، وتستغلق دونه قلوب .

إن النور الذي يغمر الوجود ، نعمة يعيش فيها الناس ، ويحييها الأحياء ،

وتتكشف به مسالك الطريق إلى أبواب الرزق . . ولكنه عدو مبين للحنافس
مثلاً . . يمزله عن الحياة ويعمى عينيه عن موارد الرزق ، ومواقع الخير . .
لأنه لا يحيا إلا في الظلام الخالك ، ولا تنها له الحياة إلا في ظلمات الليل البهيم .

وفي الناس من ارتكست نفسه وانتمست طبيعته ، فلا ينتفع بأزوار السماء ،
ولا يتقبل الرحمت التي تحيى منها على يد رسل الله وأنبيائه ثم لا يقف الأمر به
عد هذا ، بل يحاول جاهداً أن يطفىء هذا النور ، ويبدد تلك الرحمت . . فإنها
— في تقديره — العدو المبين له . . ولو استطاع الحنفاس أن يسد وجه الشمس
بحناحيه لفعل ، ولو غرق الناس والأحياء في بحار الظلام . . إنه لا يريد
نوراً أبداً !

ولأنه لمسكى يصل هذا النور السجاوى الذى تحمله رسالات الرسل إلى أقوامهم
لا بد أن يدفع عنها كل ما من شأنه أن يعطل وظيفتها ، أو يعوق سيرها
إلى غاياتها .

ومن أجل هذا كانت كل رسالة سماوية تحمل معها من القوى المضاربة على
يد المعندين عابها ، والمهوقين ، والواقفين في وجهها — تحمل القدر الذى يناسب
قوى الشر والعدوان المواجهة لكل رسالة .

فإذا كان العناد إجماعياً ، وكان الشر مستولياً على الجماعة كلها . . كان العقاب
على قدر الجرم . . فناء إجماعياً ، وهلاكاً كامبياً يأتي على كل شيء . .

أما إذا كان في الجماعة راشدون : رأوا الهدى فاهتدوا ، وسمعوا منادى
الحق فأجابوا ، فإن العقاب لا يقع إلا على الميئوس من هدايتهم وإنقاذهم .

• وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم . وحملناهم للناس آية ، (١) .

وكان ذلك بعد أن لبث نوح في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً . يدعوهم إلى
الله . ويرفع لهم أعلام الهدى والرشاد . فما استقاموا ولا استجابوا . .

وكان أن دعا ، نوح ، عليهم دعوته . فاستجاب الله له .
 « وقال نوح رب لا تدر على الأرض من الكافرين ديّاراً . إنك إن تذرهم
 يصلوا عبادك : ولا يلدوا إلا فاجراً كفّاراً » (١) ..

« إنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم ، واستغشوا ثيابهم ،
 وأصروا . واستكبروا استكباراً ، ثم إنى دعوتهم جهاراً ، ثم إنى أعلنت لهم
 وأسررت لهم إسراراً ، فقلت استغفروا ربكم لأنه كان غفاراً ، يرسل السماء عليكم
 مدراراً ، ويمددكم بأموال وبنين ، ويجعل لكم جمات ويجعل لكم أنهاراً ..
 ما لكم لا ترجون لله وقاراً ، وقد خلقكم أطواراً » (٢) ..

فإذا بعد هذه المصابرة ، وهذا الغدو الروح بالدهاء ؟ لم هذا والمرضى
 يشرون فى رحة الطبيب ويحسبونه بكل ما يقع فى أيديهم .

وهكذا كان الشأن فى قوم : عاد ، وثمود ، وقوم لوط .. عصيان عنيد :
 عقابه الإبادة التامة التى لا يدجو منها إلا القليل .

يقول الله سبحانه وتعالى : « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم
 الكتاب والميزان .. ليقوم الناس بالقسط ، وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد
 ومنافع للناس » (٣)

يقول ابن قيم الجوزية فى تفسير هذه الآية : « من عدل عن الكتاب قوم
 بالحديد .. وقد روى عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهم ما قال : « أمرنا رسول
 الله صلى الله عليه وسلم أن نضرب بهذا — يعنى السيف — من عدل عن هذا
 » يعنى المصحف » (٤) ١

فالإسلام دين قام على الدعوة بالحق ، فمن لم ير فى الحق مقنعاً .
 فالسيف . . .

(١) سورة نوح : آية ٢٧ (٢) سورة نوح الآيات من ٧ — ١٤

(٣) سورة الحديد : آية ٢٥

(٤) السيرة الشرعية : لابن تيمية ص ١٢ ،

لأنه لا بد للحق من قوة تزيده ، وتدفع عنه يد المعتدين الظالمين . . . ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله . (١) .

الإسلام والسيف :

من مقتريات الغرب على الإسلام ، ومحاولاتهم النيل منه ، والزاية عليه القول بأن العقيدة الإسلامية إنما قامت على السيف واستندت إليه في حمل الدار عليها وإلباسهم لباسها ، وأنه لولا سطوة سيوف المسلمين وما فعلت في رقاب الناس لما كان للإسلام أن يبلغ هذا المدى الذي بلغته دعوته . ولا بسط سلطانه على هذه الآفاق البعيدة في الشرق والغرب التي يسط سلطانه عليها .

ولإننا نلاحظ من عقول هؤلاء الغربيين عمالة الحق على الإسلام . وتبخرت من أدمتتهم أدخنة الزلل الدمين له ، لرأوا أنهم قد حافوا الأمادة العلمية التي جاءوا إلى الناس بها . ودخلوا عليهم من أبوابها ، بهذه المقولات التي تقولوها على الشريعة الإسلامية ، وعلى رسولها الأمين . .

ولو أننا وجدنا عذراً لرجال الدين منهم . من الذين نشئوا على التعصب لعقيدتهم وخلع المجادة عليها ، والقداسة لها ، ولم يثارها بالحسن الجميل من كل شئ دون غيرها ، ولم يظهروا محاسنها بإلقاء الريب والشكوك على من ينافسها أو يهددها في وجودها - لو أننا وجدنا عذراً لرجال الدين من هؤلاء العلماء ، فإننا لن نجد مثل هذا العذر للعلماء غير الدينيين ، الذين تخصصوا للبحث العلمي . ونذرنا أنفسهم له . .

ولو أننا وجدنا شيئاً يعتذر به للعلماء العصور الماضية حيث استحكم الجدل ، وسيطرت السفسطة على عقول العلماء ، وحيث كانت مذاهب الكلام ، وتركيبات المنطق هي المادة التي يقيم منها العلماء مذاهبهم ، ويعلون بها عروحوها - لو أننا وجدنا شيئاً يعتذر به هؤلاء العلماء الثغابرين لما وجدنا شيئاً من ذلك للعلماء المعاصرين الذين أدخلوا معهم تلقيات العلم التلقيني ، وأفرغوا عقولهم من تلك المسلمات التي آمن لها الناس من غير بحث أو تمحيص ، حين أعادوا بناء العلم على أسس المجردة في

سحق الحياة ، وتحيص الحقائق وتنقيتها بمعطياتها الحس والمشاهدة .

إن هذه القولة التي يقولها العلماء الغربيون المعاصرون عن الإسلام هي إحدى رمياتهم الهزيلة الطائفة فيما يرمون به الإسلام من أباطيل ومفتريات !

ونحن لاندفع أن الإسلام قد أعمل السيف في رقاب أعدائه وخصومه ، وأنه أطاح به بساً وقلق هاهنا ، وأراق دماء .

هدد حقيقة غير منكورة ، فلم يحاول الإسلام أبداً أن يقول إن شريعته لا تستعمل السيف ، بل إنه دعا إلى استعمال السيف وعرض عليه تحريضاً شديداً ، لأنه لم يعمل إلى اتباعه قولة السيد المسيح : « من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر » ، بل حمل إليهم : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » (١) . بل دعا إلى أكثر من هذا ، دعا إلى أن يستبسل المسلم في ميدان المعركة إذا لم يكن له بد من لقاء العدو . فليقتل خصمه قبل أن يقتله الخصم . قال تعالى : « فإن قاتلوكم فاقتلوهم . كذلك جزاء الكافرين » (٢) . فالقتل بين المؤمنين هو الجزاء الذي يجب أن يكون للكافرين ، وهو الحساب الذي ينبغي أن تختم به المعركة بين المؤمنين والكافرين !

لقد دعا الإسلام إلى الجهاد في سبيل الله ، وإلى الإقدام في الحرب ، والشباب في وجه الأعداء ، ومجد الاستشهاد في ميدان القتال ، وجعل منازل الشهداء مع النبيين والصدّيقين . وحسبنا أن نقرأ في كتاب الله قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار » ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيّزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ، ومأواه جهنم وبئس المصير » (٣) . وقوله : « يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا . واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون » (٤) ، وقوله جل شأفه : « فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب ، حتى إذا أخنثمهم فشدوا الوثاق » (٥) . وقوله سبحانه : « إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً ، كأنهم بنيان مرصوص » (٦)

(٢) سورة البقرة : آية ١٩١

(٤) - سورة الأنفال : آية ٤٥

(٦) سورة العنكب : آية ٤

(١) - سورة البقرة : آية ١٩٤

(٣) - سورة الأنفال : آية ١٦

(٥) - سورة محمد : آية ٤

هذه الآيات ، من كتاب الله لعلم أن الإسلام قد جعل الجهاد بالسيف في سبيل الدعوة والدفاع عنها أمراً واجباً ، من كل عنه ، أو نخاضل في ميدانه ، أوتبت في الانطلاق إليه ، فقد أتى باباً عظيماً من أبواب المسوق والعصيان ، واستوحب غضب الله ومقتته (١) .

هذه حقيقة لاندنهما ، ولكن ليست هي الحقيقة كلها . . إنها تنظر الحقيقة أوبعضها . أما النضر الثاني من الحقيقة ، أو القدر الأكبر منها فهو الدعوة الإسلامية ذاتها ، أو بمعنى آخر حتمات هذه الدعوة ، وما تحمل إلى الناس في يديها من خير كثير . ورحمة واسعة . وأن هذا الخير ، وتلك الرحمة هما مقصد الدعوة وغايتها . أما السيف الذي قام إل جانب هذا الخير وتلك الرحمة ، فإنه ليس أمراً مقصوداً لذاته . وإنما هو شيء عارض ، لا ينبغي أن يكون من مقومات الدعوة ولا أن يحسب عليها . إنه الحارس الذي يقف وراء هذا الكنز الثمين ، يدفع عنه غارات اللصوص ، والمتهمين ، والخاطفين .

أرأيت إلى هذا العدد من الشرطة . يقوم على حراسة هذه الخزائن التي تضم الأموال الطائفة وكراثم الجواهر والخلي في مصرف من تلك المصارف المالية ؟ ثم أرأيت إلى اللصوص يتسللون إلى هذه الخزائن ، يريدون الاستيلاء على ما يقدرون على حمله منها ؟ ثم أرأيت إلى الشرطة وقد انهبوا إلى هؤلاء اللصوص ؟ ثم أرأيت هؤلاء اللصوص وقد تنهبوا إلى ما يريد الشرطة بهم ؟ ثم أرأيت إلى تلك المعركة التي نشبت بين الفريقين ؟ وإلى الدماء التي سالت ، والأرواح التي ذهبت ؟ ثم . . ماذا ترى فيما حدث ؟ هل ينقص ذلك من قيمة الخزائن وما أودع فيها ؟ وهل يقع لوم على الشرطة وما نالت أيديهم من المعتقلين ؟ وهل تأخذك هؤلاء اللصوص أو يقتلهم وجرحهم مرحمة ؟ لأنهم أئمة معتدون ظالمون . . قتلهم اليد الأمانة الحارسة . . وذلك جزاء الظالمين .

(١) تأمل هذا الإشعار في تلك الكناية اللطيفة الرائعة التي قصد منها تنفير المؤمنين من التراجع عند ملاقة الأعداء في قوله تعالى : « فلا تولوهم الأدبار » حتى لا يكشع عن - و نه .

إن أمر الدعوة الإسلامية - وكل دعوة سماوية - ليس دون هذه الخزائن وما تشمل عليه من أموال ، وإن بلغت ما بلغت من نفائسه ووفرة : فإن الروح الذى تقولاه رسالات السماء أهم بكثير من أمر الجسد الذى تتجه إليه هذه الأموال ! ومن جهة أخرى . فإن الإسلام ليس وحده هو الذى دفع بالسيوف بضئى الباغين عليه ، وكيد الكافرين لدعوته ، فإن الرسالات السماوية جميعها قد حملت الناس مع ما حملت من أفوار الهداية والرحمة صوراً مختلفة من الذنر ، وألواناً متعددة من النكال لمن كذب برسول الله ، ووقف فى سبيل دعوتهم ، وبسط يده أو لسانه بما يسوؤهم !

وهل طوفان نوح أو صواعق عاد ، أو رسائل هود ، أولوط ، أقل لهلاكاً وتدميراً مما فعلت سيوف الإسلام بالعصاة والمكذبين ؟

وهل لما رقع فى بنى إسرائيل من مسخ ، وارتكاس من الطبيعة البشرية إلى طبيعة الفردة والخنازير دون ما أحدثت سيوف الإسلام فيمن أصيبوا بها ، وكانوا من إصرعها ؟

ليس الإسلام إذن بدءاً بين الرسالات السماوية فى الالتجاء إلى السيوف حين لم يجد النصيح ، ولم تكن البيئات ؟ بل إن السيوف لأرحم كثيراً مما حل بالمكافئين المخالفين للرسول فى الأهم السابقة !

يقول الله سبحانه وتعالى فى شأن المكذبين بالرسول : « فكلما أخذنا بذنبه ، فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة . ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا . » وما كان الله ليظلمهم ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ، (١) وقد كانت السماء فى الرسالات السابقة هى التى تتولى تأديب العصاة ، والتشكيل بهم ، على حين أن الرسالة الإسلامية قد جعلت أمر ذلك لدى النبى ومن اتبعه من المؤمنين ، ليبتلى ما فى قلوبهم ، وليحصى ما فى صدورهم ، حتى ترسخ قواعد الإسلام ، ويؤكد مقامه فى الحياة ، وليكون للمؤمنين فى كل زمان ومكان يشاؤكه فى هذا الغرس الطيب الكريم الذى غرسه النبى ، حتى يرووه حتى وعائته ، وحتى

يحد الناس فيه ريح الإيسار، فيأفسوا إليه ، ويخبطوا أنفسهم به ١ . رى هذا ما ينبغي
عن أن هذه الرسالة هي رسالة الإنسانية كلها ، وأن الناس قد شاركوا في رعايتها
والقيام عليها .

وفي الرسالة الموسوية أول دعوة إلى الجهاد في سبيل الله . . وهي أشبه بالطلقة
الأولى في المعركة الإنسانية بين الإيمان والكفر . ولكنها حركة لم تبدأ إلا في
الرسالة المحمدية . .

لقد سأل موسى قومه أن يدخلوا الأرض المقدسة ، وأن يظهروها من
المحدين ، فأبوا أن يسمعوا له ، وأن يلقوا عادوهم هناك .

ويقص القرآن الكريم هذا الذي وقع بين موسى وقومه . . فيقول سبحانه
وعلى « وإذ قال موسى لقومه : يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم ، إذ جعل فيكم
أنبياء وبعثكم ملوكاً وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين ، يا قوم ، ادخلوا
الأرض المقدسة ، التي كتب الله لكم ، ولا ترمدوا على أدباركم فتقلبوا خواسر . .
قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن
يخرجوا فإبادوا ١١ . . قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما : ادخلوا
عليهم الباب ، فإذا دخلتموه فإنكم غالبون ، وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين ،
قالوا يا موسى : إنا لن ندخلها أبداً ما دموا فيها . . فاذهب أنت وربك فقاتلا ، إنا
ههنا قاعدون ، قال : رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم
الفاسقين . . قال : فإنها حرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض . . فلا تأس على
القوم الفاسقين » (١) .

لم يقدر لبني إسرائيل أن يحملوا هذا الشرف الذي نديبتهم السماء له ، ودعتهم
إليه ، بل استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ، فكان هذا الإجماع الآثم على النكول
عن الجهاد في سبيل الله ، وعن تلقى هذا الشرف بإهلاك العصاة . الذي كانت تتولاه
السماء ونديبت الإلهان له ، ليكون له شرف المشاركة في هذا الأمر العظيم .

(١) هذان الرجلان هما موسى وأخوه هرون كما يدل عليه سياق الآيات : « لا أملك

إلا نفسي وأخي » . وفي المائدة من ٢٠ — ٢٦

وعمل الزمن عمله في بني إسرائيل من بعد موسى ، وولدت الحياة منهم من
يرضى الجهاد في سبيل الله . . ولكنهم قلة لا تقبل الدعوة ، ولا يشهد
بهم دين .

يقول الله سبحانه وتعالى : « ألم تر إلى الملائكة من بني إسرائيل من بعد موسى ؟
إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله ! قال هل عسيتم إن كتب
عليكم القتال ألا تقاتلوا ؟ قالوا وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من
ديارنا وأبنائنا ؟ » (١) . . فإذا كان من أمرهم بعد أن كتب عليهم القتال ؟

« فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم . والله عليم بالظالمين . . » (٢)
الآيات . . إنها ثلثة من فلتات الحياة أن يوجد في القوم من يقاتل في سبيل دعوة
الله ، ينصر بها دينه ، ويؤيد كلمته ، ولو كان ذلك من قلة بحيث لا يذكر .

ولكن ما هكذا كان الشأن حين دعا محمد ، إلى الجهاد . . لقد استجاب
إليه المؤمنون جميعاً . وألقوا بأنفسهم في أحضان الموت . لا يبالون أن يلقوه
مصباحين أو عمسين . إن المسلمين جميعاً كتيبة معبأة للحرب ، والجهاد في سبيل
الله . . « ما كان المؤمنون أن يتخلفوا عن رسول الله ولا أن يرغبوا بأنفسهم
عن نفسه » .

فلقد كان من فضل الله على العرب أن فتح قلوبهم لدعوة الإسلام ، ثم ضاعف
هذا الفضل بما حبيب إليهم من أمر الجهاد في سبيل الله ، وجعلهم أهلاً لحراسة
هذا الدين ، ودفع بهم كل يد آثمة تريد أن تنال منه .

لقد كانت الدعوات السماوية في الأمم السابقة تؤيد من السماء بالقوى القاهرة
المهلكة : من طوفان ، وصواعق ، وسحابة من سجيل ، وريح صرصر عاتية ،
وغيرها مما يذهب بالمكذابين المعاندين ، وبما معهم من مال وبنيين .

(١) وقد كانت سابقهم مع موسى لا تزال ماثلة . والآية من سورة البقرة رقم ٢٤٦ .

(٢) سورة البقرة : ٢٤٧

لأنه لم يكن آنذاك في الإنسانية مكان لمل هذه المهمة النبيلة . ولم يكن في الناس - غير رسول الله - من يستحق أن يقوم بالحراسة على الدعوة السماوية وحمايتها من السفهاء . وهذا ما يؤيد ما ذهبنا إليه من قبل أن الإنسانية كانت قبل الرسالة الإسلامية في أطوار لم تبلغ بها مبلغ الرشد . . ولهذا لم يصح أن يقوم في الناس أوصياء على الناس . . لأنهم جميعاً في طور مادون الرشد، ولا يقوم بالوصاية إلا من كمل ورشد .

فلما أن جاءت الرسالة الإسلامية التقت مع الإنسانية وقد طلعت فيها طلائع الرجولة ، وبزغت من بينها بواكير الرجال - نذبت السماء من آمنوا بهذه الدعوة أن يكونوا هم حمايتها ، والذائدين عنها . لأنهم - وقد أصبحوا الإنسان الذي خلق على صورة الله - أن يكونوا خلفاء الله في الأرض وعلى الناس .

هذه حقيقة من حقائق الدعوة الإسلامية، وفضل من أفضالها على أهلها المؤمنين بها . ثم هي من جهة أخرى شهادة للعرب أنهم كانوا البواكير المتفتحة في الإنسانية كلها ، وأنهم أول من التقي بالسماء ، واستأهل حمل رسالتها، وحمل مسئولية حمايتها والدفاع عنها (١) .

وندع هذه المقارنة بين الديانات السماوية ومواقع العقاب وصوره فيها للمعاندين والمكذبين ، لننظر في تلك الدعوات والمذاهب غير الدينية التي تعججه إلى تغيير الأوضاع والنظم القائمة في المجتمعات الإنسانية . . ماذا أربى في سبيل هذه الدعوات وتحقيقها من دماء ؟ وماذا أزهد لدعمها والتسكين فما مرأ - داح ؟ ولا نسأل إذا كانت هذه الدعوات وتلك المذاهب صالحة أم فاسدة، وأزناً . . تلد خيراً أم شراً . . أم عقيم لا تلد شيئاً ؟ فإنها على أي حال لا ترتفع إلى مستوى الدعوات السماوية التي خلصت للخير ، وخلت من الدوافع الذاتية والأهواء الشخصية ؛ لأنسأل عن هذا ، ولسكن لننظر كيف سارت هذه الدعوات في طريقها ، وكيف كان بدؤها ونشأتها ؟ وكيف ذهب بريقها الذي استهوى الناس

(١) لعل هذا الرأي يفتح مجالاً للنظر عند علماء الحياة - في مدى تأثير البيئة الصحراوية وخاصة الصحراء العربية - في السكبان الإنساني وإنضاج مملكتها : إن المواطن المختلفة من الأرضي أشبه بالأرحام، والناس في كل موطن هم الأجنة في هذه الأرحام .

لأول أسرها ، ثم تحرر ، هذا البريق إلى ناز تالظ . . استغرق بها أولياؤها قبل أعدائها . . وخذ لذلك مثالا : الثورة الفرنسية . . إنها قامت على مبادئ إنسانية رفيعة . رسمتها أفلام الكتاب ، ولونتها قممائد الشعراء ، وهامت بها أفئدة الجماهير . فكانت هتافاً يملأ الآفاق بالحرية والإخاء والمساواة . . وإن دفع الناس ثورة عارمة وفي زحف مجنون ، يبشرون بهذه المبادئ ، ويجلون بها للناس عرائس عليها بهجة العرس ، وفضرة النعيم . ولكن سرعان ما تنحوت هذه الثورة إلى مجزرة ، فسالت الدماء أنهاراً بلا حساب ولا صرامة . . لا يدرى أحد الطريق إلى النجاة . . فلا يكفي أن ينضم إلى صفوف الثائرين ، ولا أن يتحلى بشايرهم ، ولا أن يردد هتافهم . . فلن يجبه ذلك من أن يساق إلى المقصلة . مادام هناك من يدس له ويشو به ، ويكيد له عند من صارت إليهم مسمات الأمور .

فأين هذا من دعوة الإسلام ومبادئه ؟ لقد كشف الإسلام للناس عن دعوته ، ورفع لهم أعلام النجاة . . فمن استظل بها فقد ضمن السلامة لنفسه وماله . . من قال : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فقد أصبح في الإسلام مسلماً ، لا سبيل لأحد عليه . . يقولها بلسانه ، وإن لم يعتقدها في قلبه . . إنها جواز المرور إلى الأمن والسلامة . . وهي الحد الفاصل بين الإيمان والكفر . . إنها حسابه في الدنيا ، يصدق فيها بقوله . . أماما في قلبه حسابه على الله الذي لا تخفى عليه ماتخفى الصدور .

فلم يترك الإسلام الأمر في دعوته طوى الناس وشهواتهم ، يكتلون بالكيل الذي يرضى منازعهم ، ويجرى مع أهوهم . . وإنما الذي صنعه الإسلام هو أن أقام إلى جانب دعوته حجازاً بين الحق والباطل هو شهادة الله لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله . . يقولها الإنسان فيتحول من الكفر إلى الإيمان ، وليس لأحد عليه بعد هذا من سبيل !

أما القلوب وما تنطوى عليه فأمرها إلى الله . . ليس لأحد أن يدعى الكشف عما فيها من خير وشر . . من إيمان أو كفر . .

يقول النبي الكريم : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله . فإن قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم . . وحسابهم على الله » ! وفي حديث ذي الخويصرة ، وقد استبان منه للمسلمين ما استبان من ربح

النفاق . . وبدا لأحد الصحابة أن يستأجل هذه الجريئة الفاسدة . . لم يمكنه
النبي منه ، وقال : « هلا شقتك عن قلبه ؟ » . . ومن أجل هذا احتجى بالإسلام
كثير المنافقين من لا خلاف لهم ، ولا ضرورة عندهم ، وإفقه على الرغم من أمارات
النفاق البادية عليهم . فإن الإسلام قد تركهم وشأنهم . وجعل السكامة التي زلزلوا
بألسنتهم دون أن تدخل قلوبهم - وقاية لهم ، وسقاراً يستترون فيه ومدخل يدخلون
به في المجتمع الإسلامي .

ولا شك أن هذا المنهج على ما فيه من نفرة ينفذ منها ذوو النفوس الضعيفة
هو أعدل منهج يمكن أن يقوم بين الناس . وبعضهم من الدسائس والرشايات إلى
إن أدانت مذنباً فإنما تدين لإزائه عشرات من الأبرياء الذين لا ذنب لهم . ولهذا
كان من مبادئ الإسلام : « الخطأ في العفو عشرات المرات خير من الخطأ في
العقوبة مرة واحدة » .

وتخذ مثلاً آخر - غير الثورة الفرنسية ومذابحها - الثورة الروسية . إنما
جاءت باسم الاتصاف للطبقات الفقيرة الكادحة وتخليصها من العبودية والإذلال
لأصحاب رؤوس الأموال ، من طبقات الأمراء وأصحاب الأعمال !

كم ذهب في سبيلها من ملايين البشر الذين حصدتهم من جل قادة الحركة زعماءها ؟
وكيف غرق الناس في بحار من الفوضى فلا يدري أحد ما المصير الذي يصير إليه
في مصبحة أو مهاة ؟ ولا يدري أحد الاتحاد الذي يتجه إليه فيجده عنده الأمن
والسلامة ، إن مشى في ركب الثائرين لم يأمن أن يحجى من يشهد عليه أنه ليس
على دين الثورة . ولم ؟ لأن أسارى وجهه تقول هذا ، أو أنه سمع يقول كلاماً
يشتم منه ربح العداوة للثورة ، أو أن فلاناً سمعه يقول كذا وكذا . . أو لا هذا
ولا ذاك . . إنه ليس من شأنه أن يسأل : لم ؟ إن عليه أن يمد رقبته لسيف
الجلاد وحسب ، دون أن يفتح فيه !

هذا شأن كثير من المذاهب والدعوات المدنية التي ربما تكون قد نشأت عن
دوافع إنسانية كريمة ، وقامت من أجل مقاصد طيبة نبيلة ، ولكنها عند دخولها
في دور التطبيق العملي اصطدمت بالمماندين ، أو الخاقدين أو الجاهلين ، فكان

صراخهم صراخاً لا تحكّمه قاعدة عامة شاملة تفرق بين الأولياء وبين الأعداء، وإذا الناس جميعاً متهمون ، وإذا كل إنسان متهم إلى أن تثبت براءته ، وذلك على عكس القاعدة القضائية التي تقول : « كل إنسان بريء إلى أن تثبت إدانته » .

* * *

ولا يأس من أن نستطرد هنا بعض الاستطراد ، فنسأل : ترى لو أخذت الدعوات والمذاهب المدنية بالمبدأ الإسلامي وطبقته في مجال الحياة العامة لنسر مذاهبها ، والتسكين لها - أكانت تصادف بعض النجاح الذي صادفت الدعوة الإسلامية؟ أو بعبارة أخرى : لو أن كل دعوة من هذه الدعوات المدنية جعلت لها شعاراً مادياً يعرف به الأولياء من الأعداء هذه المعرفة الظاهرية التي لا تكشف عن الواقع الذي عليه الناس - أكان ذلك يبلّغها النجاة ، ويدفع عنها كيد الكائدين ، ومكر الماكرين؟ ونقول في غير تردد أن نعم ! فليس بعد هذه التجربة الكبرى التي اتبعها الإسلام في دعوته - من يستطيع أن يدفع هذا الجواب أو ينقضه !

تستطيع الدعوات الدنية أن تقفو أثر الدعوة الإسلامية ، وتستطيع أن تضمن - مقدماً - نجاحاً مؤكداً ، وأن تأمن النكسات التي تعترى كثيراً من الدعوات .. ولكن .

ولكن ليس هذا على إطلاقه . .

فليس كل دعوة صالحة لأن تدخل في مثل هذه التجربة الإسلامية ، وأن تظهر ببعض النجاح الذي قدر لها .

فهنالك دعوات هو جاء طائشة ، تمنحضت عنها تقول مضطربة ، وتنفضت بها صدور محرومة ، ونزوات طائشة . ومثل هذه الدعوات لا يمكن أن تحتفظ بحياتها إلا كما تحتفظ الدود الذي يتولد من الجيف . لأنه لا يتحرك إلا لموت

وفي التاريخ - في الشرق والغرب - شواهد كثيرة لهذا . .

دعوة بابك الخرمي مثلاً (١) . وهو فارسي ظهر أيام « قباذ » ، بذهب لإباحي

(١) الحارمية : نقطة أعجمية تدل على ما يلد وما يشتهي .

دعا فيه إلى انتهاب كل شيء ، واستحلال كل شيء .. فاجتمع إليه الجياع والحر ومون ، والمنهلون . وهافت أصحاب اللذات على دعوته تهافت الذباب على العسل ١ .

هذه الدعوة قد صادفت في أول أمرها نجاحاً ملحوظاً ، باجتماع الناس عليها ومظاهرتهم لها .. ولما كان سرعان ما عصف بالناس أعاصيرها ، فأفقدت حيويتهم وقلبت أوضاعهم ، واقلب أكثر الناس من دعائها حرباً عليها .

وهكذا شأن الدعوات التي تخرج على طبيعة الحياة ، وتقلب أوضاعها .. لأنها حينئذ لا تجد من الناس من يندها ويشده أزرها ، لأنها لا تقبل بعقل أو قلبه .

فلكى تجد الدعوة مدخلا للتجربة الناجحة يجب أن تكون دعوة إيسافية . بمعنى أنها تستخدم الصالح العام للناس وترعاه ، فلا تكون لحساب فرد ، أو جماعة . أو طائفة ، وإنما هما للناس ، ولخير الناس . إن لم يكن كل الناس فالغالبية العظمى فيهم . ثم لا يكفي أن تكون هذه الدعوة كلاماً يصاح في عبارات طلية ، أو أساليب منطقية ، وإنما يجب أن يكون الداعي أو الدعاة لها مؤمنين بها عن فهم ، متحمسين لها من غير تعصب . يدعون لها بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويحيثون بها إلى الناس عن إقناع .

إن مثل هذه الدعوة لا تثبت أن تجد كل يوم ، لأمؤمنين بها فعتسب ، بل دعاة يستندون الدعاة ، ويقفون إلى جوارهم ومن وراءهم .. لأنها ليست دعوة فرد ، وليكنها دعوة الحياة .. دعوة الناس جميعاً .

وفي الناس دائماً — في كل عصر ، وفي كل أمة — منجرون ، لا يستجيبون لدعوات الخير ولا يستقيمون عليها .. وهؤلاء ينبغي — لكي تسلم الدعوة ، ولكي يصل الخير إلى أهله — أن يضرب على أيديهم ، وأن يرصد لهم العقاب الرادع الذي يناسب كل حالة ..

وهنا ممكن الداء وموضع الخطر ، فما أكثر ما تختلط الأمور . وتختل

الوازنين ويملك الزمام من يد التأمين على الدعوة ، فبكون البلاء ، ونكون
النتيجة .

يخفف دائماً بأخبار الدعوات كثير من أصحاب الأهواء والمضالات . يزبون
لهم التمر ، ويفتحون لهم أبواب السكيد والانتقام ، في صورة من يرضى النصح ،
ويريد الخير .. وقد يتخذ هؤلاء الناصحون من القول . ولطف المدخل ما يفرى
أصحاب الدعوة بالاستماع إليهم ، والأخذ بمشورتهم ، وهنا يفتح الباب الذي
لا يسد أبداً . بل يزداد على الأيام اتساعاً ، وتزداد الفتنة به عمقاً وامتداداً ..

ولعلنا نجد العبرة ماثلة في فتنة وقعت في المجتمع الإسلامي — هي فتنة خالق
القرآن - التي قسمت المسلمين شيعاً وأحزاباً . وحملت الخليفة « المأمون » على
ما به من عقل وما عنده من حكمة — حملته على جناحها وأشرفت به على هاوية
كادت تذهب بخلافته .

ولم يكن المأمون هو الذي يطرق هذا الأمر ، ولا أن يفتح له عقله أو أذنه ،
لولا أن التف حوله عصبية أرادت أن تنتقم من مصومها ، فلم تجد سبيلاً غير هذه السبيل
التي تضمنهم أمام الخليفة موضع الخالف لرأيه ، الخارج على عقيدته !

وانظر كيف كان مكر هذه العصابة وكيف كان تدبيرها !

فأولاً : أوقعت في نفس المأمون ، بعد مدارسات ومباحثات في مجالسه
العلمية — أن القرآن مخلوق ! لأن كل شيء مخلوق لله ، والقرآن شيء وإن كان
كلام الله فهو مخلوق !

وثانياً : كل من لا يعتقد هذا المعتقد فهو مشرك بالله . مستوجب العقاب ،
وكان أن فوجيء الناس بهذا الرأي ، ووقع العلماء في محنة ! الخليفة — وهو القائم
على حماية العقيدة — لا يرى المؤمن مؤمناً حتى يقول إن « القرآن مخلوق » !
والعلماء يرون هذه القولة بدعة ، لأنها لم تكن من مقولات السلف ، ولم تكن
موضوع نظر ومبحث ، ولم يكن لها مكان في مقررات العقيدة .

ولذلك أن تقرأ صحفنا من أخبار هذه المحنة لنرى كم أذيق الناس فيها من بلاء
وكم نزل بهم من كرب ؟ حتى أن الإمام الخليل أحمد بن حنبل قد قيد . وحبس
وضرب ، وكادت تذهب روحه بما نزل به من بلاء !

نقول هذا لنقرر أن الدعوات المدنية كثيراً ما تدخل عليها العناصر العريية ،
فتفسده على القائمين بها بديهم المستقيم ، وتلتوى بمقاصدكم الطيبة .

والناس هم الناس ، أياً كانوا من رجاحة العقل وسمانة الخلق ينضعون
للمؤثرات الخارجية ، ويتأثرون بالندوافع السخسية ، والريجات الذاتية .

وليس هناك من عاصم لمن يقومون على أمور الناس إلا الرجوع إلى
« قانون » يحكمون له ، هم وخموصهم على حد سواء .

لا بد من شريعة تحكم بين الناس . لكل جريمة جزاؤها ، من غير إفراط
ولا تفريط .

و « الإسلام » يعصم دماء الناس وأموالهم إلا بحق . هذا مبدأ قرره الإسلام
من أول يوم جاء .

فشكل ما وقع من الذين عارضوا الدعوة الإسلامية . قيل أن يدخلوا في
الإسلام — كل ما وقع منهم من أذى للرسول الكريم قدحاه الإسلام ، منذ اللحظة
الأولى التي دخلوا فيها مع جماعة المسلمين في الإسلام .

فدخل أولئك الذين حاربوا الدعوة وأذوا رسول الله حين دخلوا في الإسلام
بصفحات بيضاء ناصعة ، لم يعلق بها شيء مما كان منهم قبل أن يسلموا .

فهذا « وحشى (١) » قاتل حمزة ، أسد الله ، وعم النبي ، وأحب الناس
له . يدخل في الإسلام ويعيش في المسلمين مسلماً ، لا يناله لسان بسوء ولا تبه
له . بل يأذى .

وهو من الخطاب يرى قاتل أخيه زيدا ، فلا يزيد على أن يقول له : « والله

(١) وحشى هذا عبد حبشي كان يجيد استعمال الحرب ، وقد جعل له سيده الخلامس
من الرزق إذا هو قتل حمزة في غزوة أحد : وقد فعل ، فقتل حمزة ، وتحرر من الرق .

لا أحبك أبداً حتى تحب الأرض الدم المسفوح ، فيقول الرجل : وهل ذلك يعنني
«تقاً هو لي ؟ فيقول عمر : أما هذا فلا . فيقول الرجل : لا بأس . لما تبكي على
الحب النساء !

« العدل » القائم على معيار ثابت مستقيم هو الذي ثبت أركان الدعوة
الإسلامية ، ويمكن لها في القلوب .

« والعدل » الذي يقول به الإسلام هو « العدل » المطلق ، العدل الذي لا يتغير
وجهه أبداً ، ولا يناله أسد دين أحد .

* * *

ونعود إلى حديثنا عن الإسلام . وأن السيف لم يكن الأداة العاملة في انتشاره .
ودخول الناس فيه أفواجا

فيقول - إلى ما قلناه ، من قبل - إن سيف الإسلام قد أغمد منذ أكثر من
ألف عام . . ولا زال الإسلام يهزم القلوب في أربع مئة مليون من البشر ،
ولا زال الناس يدخلون في الإسلام أفراداً وجماعات وأما ، وليس للإسلام سيف ،
بل إن السيف تنهر ضد الإسلام في صور من حملات التبشير ، والاضطهاد
للمسلمين في المواطن التي يتجه أهلها إلى الإسلام عن اقتناع ، دون أن يدلهم
عليه لغراء بهال أو منصب وإنما دليلهم إليه مبادئه الإنسانية العادلة ، وشريعته
السمحاء .

وانظر في آفاق العالم الإسلامي تجد أن كثيراً من هذه الآفاق قد دخلها
الإسلام دون أن يسدل فيها سيف ، أو مراق قطرة دم . .

فمثلاً أندونيسيا ، وأطراف الصين ، وسومطرة وجاوة وفيها جميعها أكثر
من نصف العالم الإسلامي . . هل كانت ميادين حرب بين الإسلام والإلحاد ؟
وهل شهدت جيوش المسلمين تطوها بخيلها ورجلها ؟ إن الإسلام قد دخل ذلك
الوطن في غير جلبة ولا صخب . . دخلها كما يدخل شعاع الشمس على الناس

في يمتثلهم أو نومهم دون أن يطرق باباً أو يسكن نافذة . . لنا يتحسب النافذ
المتوجهة فيتسلل منها في رفق إلى الحرات، والساحات، فيغمرها بالنور والدفع،
على حين يقف مترصداً النوافذ المنافذة والأبواب الوعدة حتى تمتح فيتدفق منها
تدفق السبيل الغامر .

هكذا دخل الإسلام على أهل تلك البلاد كما دخل على أوطان كثيرة أخرى
في أفريقيا مثل السنغال ، والسنغال ، وأوغندا ، وجنوب إفريقيا ، وغيرها .

o o o

وندع هذا كله ، ونسلم جدلاً ، للقائلين — كيداً أو جهلاً — بأن الإسلام
قامت دولته على السيف ، وأن السيف وحده هو القوة العاملة فيما كان للإسلام
من امتداد في المشرق والمغرب .

نسلم بهذا جدلاً .

ولكن لنا سؤال نريد جواباً عليه من أصحاب هذا القول : ما الذي يمسك
نظام الإسلام اليوم ؟ ومن الذي يقوم عليه ، فلا تفلت منه من هذه الأمم
والشعوب التي يدين به ؟ إن النظام الذي يقوم بالقوة ويعتمد عليها لا يبقى في
الحياة لحظة واحدة إذا ذهبت عنه تلك القوة أو ضعف شأنها .

وواقع الإسلام اليوم ، وقبل اليوم ينبىء عن أن القوة التي صحبت الدعوة
في أول أمرها لم يعد لها مكان .. وأنه لا سلطان لأحد على أحد في مواطن الإسلام
في أن يدين بأى دين ، أو لا يدين بدين أصلاً .

رأى كثير من هذا . . الدعوة الإسلامية نفسها صريحة صراحة لا تقبل جدلاً
في أنها لا تعتمد بشيء . . حسناً كان أو شيئاً — إذا جاء عن طريق الإكراه .

فن آمن مكرهاً ، فلا إيمان له . . كمن كفر مكرهاً ، فليس من المكفر في
شيء . يقول الله سبحانه وتعالى :

« من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره ، وقلبه مطمئن بالإيمان . » ولكن

من شرح بالكفر صدراً فهم لهم غنم من ربهم ولهم عذاب عظيم » (١) .
ويقول نبي الإسلام صلوات الله وسلامه عليه : « رفع عن أمتي الخطأ ،
والنسيان ، وما أكرهوا عليه » .

الدين . . إيمان ، ولا يكون إيمان تحت مؤثرات مادية تهدد الإنسان في ماله
أو دمه أو عرضه .

الدين . هو إيمان . . والإيمان حب وتقدير وإجلال لما يقع الإيمان به . .
فسكيف بدين يدخل على الناس من طريق الإرهاب والتهديد . . لأن النفس
لا تنضج على مثل هذا الدين إلا السكره والمقت والازدراء ، وإنما ستلفظه كما
تلفظ المهدة الطعام الفا . د .

وأمر الإسلام من أوله إلى آخره قائم على ألا كراه في الدين ، حتى تنفتح
له القلوب وحتى يقع منها موقع الحب ، يخاطبها بخالصة الروح للجسد .

يقول الله سبحانه وتعالى : « لا كراه في الدين ، قد تبين الرشد من الغي . .
فن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله ، فقد استمسك بالعروة الوثقى ، لا انفصام
لها ، والله سميع عليم » (٢) . .

فالسيف لم يستعمل إلا لفتح الطريق للدعوة حتى تبلغ أسماع الناس ،
وحتى يدفع عنها حملات التضليل أو الإرهاب التي كان يقوم بها أعداء هذه
الدعوة . . من المشركين ومن أهل الكتاب . . وحسبنا أن قلب الصفحات
الأولى من حياة الدعوة لنرى ما لقي النبي والمفر القليل ممن صحبه السابقين إلى
الإسلام من بلاء ، وما احتملوا من شدايد . . حتى أنهم قد سدت عليهم منافذ
الطريق إلى الهجرة عن الأهل والوطن ، فراراً بدينهم وتنقيساً لهذا الضيق الذي
بلغت به القلوب المتناجرة !

ولرى من جانبي آخر تلك المعثرات الخبيثة والمرامض الدنيئة التي كان

(١) - سورة النحل : آية ١٠٦

(٢) - سورة البقرة : آية ٢٩١

يذيعها اليهود في الناس ، ويدبرونها للكيد للإسلام ولنبى الإسلام ، ولمن دخل في الإسلام .

فكان لا بد أن يسكون للسيف موقف هنا . . وأن يكون موقفه إذن إذا تخلف عن هذا الموقف ، ليمضى بقافلة الرحمة والخير إلى حيث تنتظرها الإنسانية لتجد فيها زادما العتيد لحياتها ، ولما بعد حياتها ؟ . .

فإذا سلمت القافلة من يد اللصوص وقطاع الطريق ، ووصلت إلى أهلها سالمة فقد آن للسيف أن يغمد . . إلا أن تسول لقطاع الطريق ، وللصوص ، أن يحرکوا الثمن ، أو يعينوا عليها .

ولا إكراه في الدين . . قد تبين الرشد من الغي . . فهذا هو مبدأ الإسلام الذي تقرر بعد أن رسخت قواعد الدين ، وبعد أن وجدت الدعوة طريقها مفتوحة بينها وبين الناس . . يحيمون إلیها أو تجيء إلیهم . . على حد سواء .

ودع عنك ما يذهب إليه بعض من يستبد بهم الخناس الكاذب من العلماء والفقهاء الذين يقولون — بغير علم — إن هذه الآية منسوخة بآية أخرى أطلقوا عليها آية السيف ، وهى قوله تعالى :

« وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة ، واعلموا أن الله مع المتقين » (١) .
« قاتلوا المشركين كافة » . . هذا المقطع من الآية هو الذى تعلق به من تعلق من الفقهاء والمفسرين ، لجعلوا منه وثيقة لإعلان حرب على غير المسلمين ، إعلاناً عاماً ، قائماً أبداً ، لا فرق بين أن يسكون ذلك في مقام الدفاع أو العدوان .
وتحميل هذا المقطع من الآية هذا المعنى هو مما لا تعين عليه دلالة النص ، ولا يلتقى معه المقطع الآخر من الآية نفسها ، كما لا يشهد له الحال الذى نزلت الآية فيه . .

فأولاً : « قاتلوا المشركين كافة » لا يمكن أن يفيد العموم المطلق ، وإلا كان على المسلمين أن يتتبعوا في حرب شاملة مع جميع المشركين على هذه السكرة الأرضية . وإلا كانوا في حكم المخالفين لأمر الله ، الخارجين عن طاعته ، إذا هم لم يفعلوا ذلك وبحقوه .

(١) — سورة التوبة : آية ٣٦

ومحاربة المسلمين للمشركين على هذه الصورة أمر مستحيل لا يمكن أن يتحقق في أى ظرف ، وفي أى حال . والتكليف به تكليف بما لا تسعه النفوس ، ولا تقوم له .. وشريعة الإسلام شريعة يسر لا حرج فيها .. « ما جعل عليكم في الدين من حرج » (١) . « يريد الله بكم اليسر ، ولا يريد بكم العسر » (٢) . « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » (٣) .

وثانياً : المقطع الثاني من الآية : « كما يقاتلونكم كافة » هو في مقابل « قاتلوا المشركين كافة » .. وهذا يدل على أن المسلمين ليسوا هم البادئين بالحرب ، ولا بقتال جماعى الجماعات المشركين ؛ وإنما المشركون هم المعتدون ، فكما اعتدوا في جموع جمعوا لها الشيع والاحلاف ، فعلى المسلمين أن يجمعوا جموعهم لهم وأن يقاتلوهم جميعاً .. « قاتلوا المشركين كافة .. كما يقاتلونكم كافة » .

وثالثاً : نزلت هذه الآية في غزوة الأحزاب « الخندق » .. وفيها جهت قريش جمعوا ، وأحلافها من كل ملة وقبيل .. وبهذا الجمع الغفير رمت قريش المسلمين ، فكان لزاماً على المسلمين أن يكونوا جميعاً جهة واحدة ضد المشركين جميعاً .

وعلى هذا فليست هذه الآية — آية سيف — كما يسمونها . وليست ناسخة للآية المحكمة : « لا إكراه في الدين » قد تبين الرشد من الغي » .

ثم كيف يستساغ أن يقول الله لنبيه « لا إكراه في الدين » .. ويقرر له أن الدين لا يكون عن إكراه . ولا يثمر ثمرة طيبة إذا جاء عن هذا الطريق ، ثم يأمره أن يعلن هذه الحرب الجماعية على غير المسلمين أياً كافوا ، وأين وجدوا ؟ أهذا منطق يقبل لإنسان أن يكون له ، وينسب إليه ؟ فكيف بالحكيم الخبير .. رب العالمين ؟

وكيف يلقي النبي والمسلمون معه المشركين في حرب عدوانية عامة ، والله سبحانه وتعالى يقول له : « أفأنت تسكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » (٤) ؟ ويقول له :

(٢) سورة البقرة : آية ١٨٥

(٤) سورة يونس : آية ٩٩

(١) سورة الحج : آية ٧٨

(٣) سورة النقرة : آية ٢٨٦

« ليس عليك هدام ، ولكن الله يهدي من يشاء » ويقول له : « عليك البلاغ وعلينا الحساب » .. ويقول له : « لست عليهم بمسيطر » ويقول : « وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » ويقول : « إنما أنت منذر .. ولكل قوم هاد » ويقول : « ما على الرسول إلا البلاغ » ويقول : « ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم ، أو يعذبهم .. فإنهم ظالمون .. » (١) وكثير من الآيات غير هذه تدعو إلى هذا الموقف .. وورودها على هذه الكثرة لتؤكد هذا المعنى ، ولتكون للسيف الذي يحمله النبي والمسلمون معه أومن بعده - أشبه بالمؤشر الذي يضبط وجهة المدفع عند انطلاقه حتى لا يصيب غير الهدف الموجه إليه .

وأكثر من هذا ، فإنه في سورة التوبة ، وهي آخو ما نزل من القرآن وفيها بضع وسبعون آية تحدد موقف المسلمين من المشركين .. وقد بعث رسول الله ﷺ صلى الله عليه وسلم على بن أبي طالب رافداً به أبا بكر - أمير المؤمنين في الحج - ليعلم المشركين بها ..

في سورة التوبة الآية التالية : « يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس ، فلأيقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ، وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله » (٢) . فهذه الآية صريحة صراحة قاطعة بأن الأمر بقتال المشركين ليس أمراً عاماً على إطلاقه في كل زمان وفي كل مكان .. فهؤلاء مشركون كانوا يشاركون المسلمين في الحج والطواف بالمسجد الحرام ، وذلك بعد فتح مكة ودخول الناس في دين الله أفواجا .. وكان أول الناس بالقتال وأحقهم بالقتل هؤلاء المشركين الذين يخاطبون المسلمين ويذشون المسجد الحرام .. ولكن دعوة الإسلام هذه لم تسكن للتحريض على قتالهم أو الأمر به ، وإنما هي لإعلانهم بالألا يقربوا المسجد الحرام ، ومتى بعد عامهم هذا !

فما أعظم هذا الدين ، وما أكثر رحماته بالناس .. حتى بالمشركين .. أعدائه السافرين ..

لأنه لم يشأ أن يعجل بطردهم - وهم رجس - ولو شاء لكان في المسلمين القوة

(١) سورة آل عمران : آية ١٢٧ . (٢) سورة التوبة : آية ٢٨ .

المبيرة المبيدة لهم .. ولكنه سمح لهم إن يطفروا بالبیت ، وأن يملفوا حاجتهم منه .. لانه لم يكن أنذرهم بذلك من قبل .

وقد جاء بعد هذه الآية قوله تعالى :

« قاتلوا الدين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق من الدين أو توال الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » (١) .

ومجىء هذه الآية بعد الآية السابقة بيان كاشف للعلة التي من أجلها ينبغي أن يضحي المسلمون بما كان يعود عليهم في موسم الحج ووفود المشركين إليه ، ومشاركتهم في هذا الرواج المادى الذى يكون عادة في مثل هذا الموسم ..

إن على المسلمين أن يضحيوا بهذا النفع المادى في سبيل تطهير المسجد الحرام من هذا الرجس الذى يطوف به ، مع المشركين الذين يقتربون منه .. وعلى المسلمين أيضاً أن يعملوا على تطهير المجتمع الإنسانى من الشرك والمشركين ، وخاصة فى مواطن الطهر والقداسة « الذين لا يؤمنون بالله ، ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق من الدين أو توال الكتاب » .. قاتلوهم وحتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » .

فهذه الآية وسابقتها فى مساق واحد .. لقتال المشركين الذين يطوفون بالبیت الحرام بعد أن أنذروا بالألا يطوفوا بعد عامهم هذا .. فإن عادوا بعد هذا الإنذار وجدوا المسلمين لهم بمرصد ..

الجهاد .. فى الإسلام :

الحرب شر لا بد منه .. ودواء من تقتضيه طبيعة الحياة الإنسانية لعلاج الأدواء الخبيثة ، والعمل المستعصية .

وفى الشر نجاته حين لا ينجيك إحسان

لأنها سنة الحياة .. سلام وحرب .. وخير وشر .

والإسلام دين الفطرة . وتعالى به وأحكامه قائمة عليها ، مقدرة بمقدارها .
فما كان على فطرة الناس من أمور فهو دين وشريعة . . وما خرج على الفطرة
وخالف طريقها ، فليس من الدين ، ولا من الشريعة .

وقد أشرنا من قبل إلى أن الحرب التي قامت في ظلال الدعوة الإسلامية
كانت حرباً دفاعية لاهجومية ، وأن غاية هذه الحرب كانت اقتلاع الأشواك ،
ورفع الحواجز التي اصطنعها المشركون في طريق الدعوة ليصدوا الناس عنها ،
وليحولوا بينهم وبين الاتصال بها ، والتعرف عليها !

وقد عرفنا أيضاً أن آيات القتال التي جاءت في القرآن داعية إلى قتال
المشركين والضرب على أيديهم أين كانوا ، وحيث وجدوا — كانت غايتها تعبئة
شعور المسلمين ، واستثارة حميتهم للذود عن الدعوة وإرهاب أعدائها حتى
لا يجدوا فيها مطمعاً ، وحتى ينحسم الأمر بين الإسلام والكفر ، ويوضع حد للفتن
التي يدفع بها المشركون إلى مواطن المسلمين . . . وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ،
ويكون الدين كله لله ، (١) . . . وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل
ترهبون به عدو الله وعدوكم ، (٢) !

عرفنا هذا ، وقلنا إنه بعد أن قويت شوكة الإسلام ، وانجحر أعداؤه ،
أخذت الآيات القرآنية تنزل بالدعوة إلى إخماد السيوف التي لم يعد لها مكان بعد
أن أدت مهمتها ، وبلغت غايتها . . فما كان بالإسلام حاجة إلى إراقة ما أريق
من دماء ، لولا أن هذه الدماء كانت إراقتها أمراً تدعو إليه المصلحة العامة لسلامة
الإنسانية وخيرها . . لأنها دماء فاسدة في الكيان الإنساني ، وفي إراقتها شفاء من
هذا الصداع الذي يزعج راحة هذا الكيان وسلامته . . لأنها أشبه بعملية «الفصد»
تذهب ببعض الدم وإن كان الدم ينبوع الحياة ، وسرها الممسك بها :

وكذلك الجصور وهي أمراض بعض أعضائها لبعض وقاء
هذا هو صميم الإسلام في تشريع القتال : « لا عدوان إلا على الظالمين »
فما جاء الإسلام ليقم بين الناس العداوة ، وليوقد بينهم نار الحرب . . وما جاء
عقيدة سماوية لذلك ، وإنما جاء ليزرع الود ، والمحبة ، وليؤلف بين القلوب

المتنافرة وليجتمع بين الشيع المتباعدة ، ولتتبع العصبيات التي تولد الحقد والضغينة بين الناس والداس .

والجمال التطبيقي لدعوة الإسلام أصدق شاهد لهذا ، فقد انضوى تحت لواء الإسلام السادة والعبيد ، والأشراف والسوقة ، ووقف الناس جميعاً في مقام واحد ، ليس لأحد فيه فضل على أحد إلا بالتقوى .

فما اقتصت الدعوة قريشاً بشيء ، ولا ميزت العرب بشيء ! لأنها دعوة الله لعباده جميعاً ، وهي رحمة للناس جميعاً . . كالشمس ، والهواء ، لا يجهبان عن أحد ، ولا يؤثران بلداً عن بلد !

« يأياها الناس : إني رسول الله إليكم جميعاً ، . . ليس للعرب ولا للعجم ، وإنما لهم جميعاً . »

وليس بين المسلم — في شريعة الإسلام — وبين غير المسلم عداوة . . فهما إن فرق بينهما الدين ، فقد جمعتهما أواصر الإنسانية ! وهي أواصر يمكن أن يعيش الناس فيها على مودة ووفاء ، فإن دعوة الإسلام — في صميمها ليست إلا توثيقاً لهذه الصلات الإنسانية ، وإقامة قواعدها على أسس ثابتة ، ودعائم متينة ، تمسك بميزان العدل والحق والخير بين الناس . فلا يضطرب ولا ينحرف !

« لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم أن تروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين . . إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين ، وأخرجوكم من دياركم ، وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون ، (١) »

فأى سماحة بعد هذه السماحة ، وأى دين مثل هذا الدين في سماحته تلك ؟ أو أى مذهب مثل هذا المذهب يسع الأولياء والأعداء ، ويسط لهم يده جميعاً ؟ أى دين أو أى مذهب رفع هذه الحواجز القائمة بين الناس من مختلف الأجناس ، والألوان ، والعقائد ، والألسنة ، والمشارب ، وجمعهم على

مائدة الحياة ، في مودة ووفاق ، كما فعل الإسلام بالمجتمع الإسلامى فى المجتمع الإنسانى ؟ .

ودع ما يتحدث به الغربيون من تسامح الديمقراطية وإنسايتها ، فإنها لا تعدو أن تكون أحاديث منمقة مزوقة ، ينكشف زيفها ، ويبطل عملها ، عند التطبيق ، وعند ملامسة الواقع الذى يعيش فيه الناس .

إن العصبية للون ، وللجنس ، وللعقيدة ، مازال يملأ نفوس الغربيين ، ويتحكم فى تصرفاتهم ، فإذا الناس عندهم بيض وسود . . وإذا العالم فى نظرهم غرب وشرق ، وإذا الشعوب فى حسابهم مسيحيون ومسلمون !

ولو أخذنا نحصى الشواهد ، ونضرب الأمثال لهذا ، لاستولى ذلك على زمام المواقف منا ، وخرج بنا عن موضوعنا الذى نهالج به .

ولكن حينما أن ننظر إلى مأساة فلسطين نظرة خاطفة . . فى هذه النظرة السريعة ينكشف تعصب الغرب ، وينفضح زيف دعواه التى يدعيها عن مبادئ الإنسانية الديمقراطية . .

فأول كان الفلسطينيون غير عرب . . أكان يلقى بهم فى العراق يموتون جوعاً ، وبرداً ومرضاً ؟

وهل شهد التاريخ أمة تجلى عن وطنها فى القرن العشرين ، وعلى مرأى ومسمع من جمعية الأمم المتحدة ، بل وبتدبير الأمم المتحدة التى يسيطر عليها الغرب ، ويوجه سير الأمور فيها ؟

وهل كانت الهدنة الأولى بين العرب واليهود فى سنة ١٩٤٨ وقد أوشك العرب أن يدقوا بجيوشهم تل أبيب ، هل كانت هذه الهدنة التى دعت إليها الأمم المتحدة إلا الخنجر المسموم الذى أغمد فى صدر الشعب العربى لينزع تلك القطعة الغالية من الأرض المقدسة لتكون مرآها خصباً لعصابة من جرائم اليهود ، تستوطن فلسطين ، وتخرج منها أهلها منسردين ، محردين من كل ما كان لهم من مال ومتاع وديار !

وقد عاشت هذه المأساة ، وسليخت من عمرها قرابة خمسة عشر عاماً إلى يومنا هذا ولا ندرى إلى متى تعيش . . . ولكن الذى ندرىه ويسجله التاريخ أن العالم الغربى الذى يزعم لنفسه الوصاية على العالم باسم الإنسافية والديمقراطية قد استساغ هذه المأساة ، وكأنها أمر مألوف لم يدخل على العالم بما يرجع ضميره ، ويؤذى وجدانه !

ولو كان أبناء فلسطين غير عرب لما استساغ الغرب هذا المسير الذى صاروا إليه . فقد كانت الحرب العالمية الأخيرة — مثلاً — بما وقع فيها من أحداث قادرة على أن تنيد أمة وتمحو شعوباً وتجليها عن أوطانها فى الميدان الأوربى ، ولكنها مع ذلك احتفظت لكل أمة بأهلها وبأرضها ، وبعضها لا يعدو أن يكون فى صفه قرية من القرى « كما مارة موناكو » مثلاً ؟ ولم ؟ لأن أبناء أوروبا - مهما يكن الأمر بينهم — لا يمكن أن يسترخوا ، وأن يباعوا فى الحياة بيع العبيد . . .

أما غيرهم من أمم الشرق فلا عليها أن تطرد ، وتشرد ، وتهم على وجهها . ومأساة أبناء فلسطين لم تقع على الصورة التى وقعت بها لأنهم عرب وحسب ، ولكنهم عرب ومسلمون معاً . . . وهذا مما ثبت أقدام المأساة ، وأكدها ، ويمكن لها . . . فإن كون الشعب الفلسطينى شعباً مسلماً هو جريمة غليظة ، إلى كونه شعباً عربياً . . . لأن الغرب على رغم لادينيته اليوم وعلى رغم دعوى التسامح التى يدعيها حيال المعتقدات الدينية ، والسياسية ، والاجتماعية وغيرها ، فإنه مازال يحمل للإسلام بموع خاص دون سائر المعتقدات والمذاهب — مازال يحمل قدراً كبيراً من البغض والكراهية للإسلام والمسلمين ، وإن الحرب الصليبية التى وجهها الغرب إلى الإسلام منذ تسع مئة عام وإن سكن لهيها فإنها ما تزال تخفى تحت رمادها جحراً يتغرم حنقاً وغيظاً على الإسلام ، ومازال يرمى بين آونة وأخرى بشرر وشر ينال من الإسلام ومواطنه ما ينال من ضرر وأذى .

وارجع البصر إلى مواطن الإسلام خلال موجة الاستعمار التى اجتاحت قارتى آسيا وأفريقيا خلال القرنين الماضى والحاضر تجد أن ما وقع على الإسلام ومواطنه من آثار الاستعمار وسيئاته أضغاث ما وقع على الشعوب غير الإسلامية

التي أصيبت به ! فإذا كان ما وقع عليه الاستعمار أمة ينسب أهلها إلى المسيحية كانت يد الاستعمار رفيقة عليها رحيمة بها ، بل إن الاستعمار لا يجد له مقاماً فيها ، فسرعان ما يحلو عنها وينسحب منها إلى أقطار إسلامية جديدة به !
الحبشة — مثلاً — أمة المسيحية مكان فيها . فما حدث لها ؟

إنها الدولة الوحيدة بين دول أفريقية هي التي سلمت من الاستعمار ومن جرائمه ، فلم يدخلها في حسابه ، ولم يضمها إلى قائمة الأمم التي يتعامل معها ؟
ولم ؟ لأنها مما يزهده فيه الاستعمار لقلة مواردها ، وضآلة شأنها ؟ كلا ، فإن فيها موارد كثيرة ، وخيرات موفورة ، ومجالات للاستغلال ، ومواقع « استراتيجية » لها شأنها في الحرب ، وفي السلم .
فإذا إذن ؟ إنها في حساب الدول المسيحية ! وهذا وحده كاف لأن يعزلها عن موكب العبيد الذي ينتظم الشعوب المستعمرة .

لقد كانت قبيل الحرب العالمية الأخيرة حرب بين إيطاليا والحبشة . . وفيها استولت إيطاليا الفاشية ، التي كانت تنفخ فيها في شهية محومة إلى التوسع والاستعمار . .

وكانت هذه فرصة لإيطاليا الوحيدة للتوسع والاستعمار الذي تشده ذاك ، ولم يكن لها فرصة غيرها .
فماذا حدث ؟

الذي حدث هو ما كان ينبغي أن يحدث لأية دولة « مسيحية » غابت على أمرها في مجال الحرب ، ووطئت أرضها حيرش أعدائها .
لقد طلبت عصبة الأمم ، — وكانت هي المنظمة الدولية إذ ذاك — طلبت إلى إيطاليا أن تنسحب من الحبشة .

فلما تلسكات فرضت عليها « عصبة الأمم » هذه حصاراً اقتصادياً ، وطلبت إلى جميع الأمم المتمثلة فيها أن تنفذ هذا القرار ، وألا تتعامل مع إيطاليا ، حتى تقصاع لطلاب العصبة ، وتجلو عن الحبشة . . وقد كان ! فلم تحتل إيطاليا مقاطعة العالم لها ، فجلت عن الحبشة بعد بضعة أشهر من احتلالها .

أو لو كانت الحبشة دولة إسلامية ، - دولياً - وهي في حقيقتها دولة إسلامية لأن غالبية أهلها من المسلمين ، ولكن ضعف أحوال المسلمين قد مكنت للعناصر المسيحية القليلة أن تسود وأن تحكم ! لو كانت الحبشة دولة إسلامية دولياً أكان جلاء إيطاليا يحدث . . وعلى تلك المسورة ؟

ولماذا إذن لم تجل الجيوش الإنجليزية عن مصر إلا بعد نحو ثمانين عاماً ؟ ولماذا لم تجل فرنسا عن الجزائر إلا بعد قرن وثلث قرن وإلا بعد أن استبسل أهلها - وبعد أن استئسوا - فدخلوا في صراع غير متكافئ مع المستعمرين وضحووا بأكثر من مليون شهيد ؟

ومثل آخر أوضح من كل هذا وأكثر دلالة على ما عند الغرب من حقد دفين على الاسلام الدولة العثمانية . . كانت تضم تحت سلطانها شعوباً إسلامية وغير إسلامية . . فإذا حدث عندما وهنت قوة العثمانيين ، ولانت شوكتهم !

لقد أقام الغرب حرباً صليبية جديدة على الدولة العثمانية فنشبت حرب «البalkan» التي حشدت بها أوروبا قوى كثيرة - ظاهرة ومستترة - في ميادين الحرب ، وفي مؤتمرات - أو مؤامرات - الصلح ، وانتهى ذلك الدور بقطع الاواصل الأوروبية من جسم الدولة العثمانية . . فانسلخت بلاد البalkan كلها ، وخرجت من الدولة العثمانية : - اليونان ، ورومانيا ، وبلغاريا ، الصرب ، ومقدونية الأوروبية وغيرها !

أهو موقف إنساني وقفته أوروبا مع الدول المغلوبة على أمرها والخاضعة لسلطان العثمانيين ؟ قد كان ذلك يمكن أن يسجله التاريخ ! ولكن ماذا يقول في الوجه المقابل لهذا الموقف ؟

لقد هزمت تركيا مع حليفاتها ألمانيا في الحرب العالمية الأولى . . وكالحال مع كل مهزوم فرضت عليها عقوبات . . وكان من تلك العقوبات أن تأسلخ عنها الدول الباقية تحت سلطانها ، وهي دول إسلامية كلها ! وكان المنطق يقضى - كما حدث في الولايات التي كانت تابعة لتركيا من القطاع الأوروبي ، كان المنطق يقضى أن تحكم كل دولة من الدول الإسلامية نفسها بنفسها . .

ولسكن الذى حدث كان على غير هذا ! لا لعلة إلا أن هذه الدول تدين بالإسلام ، وتلك جريمة لا تغفل أضرارها إلا بالاستعمار !! ولقد قسمت التركة على الغرب المستعمر ، فهو الوارث ، الشرعى ، لتلك التركة . .

فذهبت فرنسا بالشام ، وجعلت منه دولتين : سوريا ولبنان . ووضعت لإنجلترا يدها على العراق ، وتسرق الأردن ، وأقامت فى الأولى حكماً ملكياً وأقامت فى الثانية أميراً على إمارة — وكلا المملك والمؤمر لا يملك ، ولا يأمر .

أما فلسطين — الجزء الباقى من بلاد الشام — فقد جعلت لإنجلترا وصية عليه وصاية انتهت بتسليم فلسطين لليهود !! وهكذا تم توزيع الأسلاب والغنائم .

أفرايت إذن كيف كان نضيج هذه الضغائن التى يحملها الغرب للإسلام والمسلمين ؟

على أننا لسنا فى مقام الكشف عن جنائيات الغرب وآثامه فيما جر على البلاد الإسلامية من مصائب ومحن . . . لسكننا هنا إزاء مقايضة بين مبادئ الإسلام فى الأخوة والمحبة والبر بالناس جميعاً وبين دعوى الغرب فى ظل المدنية الحديثة لتلك المبادئ الكريمة ، والتهم التى يرمى بها الإسلام من أنه دين حرب وعداوة يثيرها أتباعه فى وجه من يخالفهم ولا يدخل فى دينهم !

ونسأل عن السلام الذى نعم به العالم فى ظل المدنية الحديثة فلانجد إلا حروباً قائمة فى كل مكان ، تتجمع شيئاً فشيئاً حتى تكون حرباً عالمية يصلى العالم كله بنارها ، ويحترق فى لهيبها . .

ففى خلال النصف الأول من هذا القرن قامت حربان عالميتان بسبب أطاع الغرب ومدنية الغرب . . وبسبب هذه الاطاع لم يبت العالم ليلة واحدة دون أن تسكون هناك حرب فى جزء من أجزائه . . هذا إلى جانب الحرب « الباردة » التى تهدد العالم فى كل لحظة بحرب عالمية ثالثة ، تنطلق فيها الصواريخ محملة بالقنابل الذرية والهيدروجينية . وحسبك أن تتصور وقوع هذه الحرب ، لتعرف المصير

الذى يصير إليه العالم . . إنه الفناء الذى لا يبقى على صورة من صور الحياة على هذه الأرض .

فأين هذا من دعوة الإسلام إلى السلام ، دعوة مخلصة ، تنبع من أعماق حقيقة من كل مبادئه . .

فكل ما اشتملت عليه شريعة الإسلام من مبادئ إنما غايته تقويم الإنسانية كلها فى أفرادها وجماعاتها ، حتى يقوم بين الناس ميزان العدل ، فلا عدوان على الضعفاء ، ولا اعتداء على أموال الناس ودمائهم وأعراضهم . . فمن خرج عن هذا الطريق القويم وجد العقاب العاجل الذى يردعه . إلى جانب العقاب الأخرى الذى ينتظره .

لقد أقام الإسلام من مبادئه سياجاً متيناً يحمى الناس - كل الناس - من الناس - كل الناس . . إن المجتمع المثالى الذى أقامه الإسلام بمبادئه ليس مجتمعاً مطلقاً على نفسه بما فيه من خير وشر ، وإنما هو مجتمع أشبه بالشجرة المثمرة الطيبة ينتفع الناس بشعرها . . فمن فاته ثمرها فلن يفوته الانتفاع بظلها . . ومن حرم من هذا وذلك فلن يحرم النظر منها إلى منظر معجب يسر الناظرين .

فما عند المسلم من مبادئ دينه وأحكام شريعته لا يتعامل به فى المجتمع الإسلامى وحده وإنما يتعامل به مع الناس جميعاً . . مسلمين وغير مسلمين . .

فالمسلم شخصية واحدة . . لا تنقسم إلى شخصين أو أشخاص ، فيكون لها مع المسلم حال ، ومع غير المسلم حال أو أحوال . . كلا .

فإذا أمر الإسلام بالوفاء بالعهد ، فإنما هو وفاء واحد لكل الناس وفى جميع الأحوال . قال تعالى : « وأوفوا بعهدهم الله إذا عاهدتم » . . ويقول بى الإسلام : « من أمن رجلاً على نفسه فقتله ، فأنا برىء من القاتل ، وإن كان المقتول كافراً ، هو قول واحد للناس جميعاً ، وتشريع واحد ينزل عليه الناس جميعاً .

وإذا دعا الإسلام إلى العدل وأمر به ، فإنما هو عدل واحد ، لكل الناس وفى جميع الأحوال . .

يقول الله تعالى : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وإذا حكمتم

بين الناس أن تحكموا بالعدل (١) . . بين الناس عامة ، وليس بين المسلمين وحدهم ؟
ويقول سبحانه وتعالى : « ولا يجر منكم شأن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو
أقرب للتقوى » (٢) .

هكذا كل مبدأ كريم ، وحلف قويم جاء به الإسلام ، وكل ما جاء به كريم
وقويم إنما هو خير عام يعود فضله على القريب والبعيد على المسلمين . وغير
المسلمين جميعاً .

كالبحر يلقى للقريب جواهره منه ، ويرسل للبعيد سحائبه

° ° °

عدود على بدء :

قد يشير دعاة التشنيع على الإسلام ، والتشويه لحقائقه اعتراضات على هذا
القول فيلقونك بعدد من الاسئلة الخبيثة الماكرة . . وكأنهم يجهلون جوابها
ولا يعرفون وجه الحق فيها . .

فتراهم يقولون مثلاً : لماذا يدفع الإسلام أتباعه زمراً إلى ميادين الحرب
ويصور لهم الموت في ساحة القتال بصورة شبيهة ، يحرصون على الفوز بها : حتى
يتدافعون إلى ساحة القتال تدافع الإبل العطشى على موارد الماء ؟
ولماذا يمجّد الإسلام البطولة ، والفروسية على هذا النحو الذي يمثل حياة
الفروسية في العصور الوسطى ؟

أذلك مما يعدّه الإسلام لقيام السلام في الحياة ؟ وهل سلام مع هذه النفوس
المعبأة للقتال ، والموطنة على الموت للانتقال في رحلة سعيدة إلى عالم الخلود ؟ إن
مثل هذه النفوس إن لم تجد باباً مفتوحاً للقتال عملت بكتأيديها على فتحه
أو تحطيمه ، لتجد طلبتها ، ولتحقق الأمنية التي تحرص عليها !!

وقد يبدو لهذا القول ظاهر مقبول إذ أنه يجري على مألوف الحياة التي لا تقوم
على دين ، ولا ترجع إلى شريعة إنسانية كشرعية الإسلام .

« فالنازية ، حين عبأت شعور الشعب الألماني للحرب ، وملاّت رؤوس الشباب بهذا الهوس المسعور باستعلاء الشعب الألماني وامتياز عنصره ، وحقه في السيادة على العالم - حين عملت النازية على هذا وحققت له اندفع الشعب الألماني نحو الحرب بكل قواه ، وكان من هذا أن قامت الحرب العالمية الأخيرة !

وشئ مثل هذا كان من « الفاشية » الإيطالية التي أرادت أن تحزو حذو النازية الألمانية وأن تجرى معها .

وشتان بين ماصع الإسلام في أتباعه ، وبين تلك النزوات التي دعت إليها النازية الفاشية وما على شاكلتهما من دعوات .

وشتان بين إنسان تنمى فيه ملكاته الإنسانية ، فتملأ كيانه قوة ، وعزماً كما تملأ عقله حكمة ورشداً ، وتملأ قلبه مودة ورحمة .. وبين إنسان تغذيه بطبايع الحيوانات المفترسة . وتستنبت له مخالب الأسود وختل الذئاب ، ومكر الثعالب !

فالإسلام حين دعا إلى القوة ، وحين مجد الأقوياء ، فإنهما لتكون هذه القوة قوة عاملة لحساب الخير ، قائمة على ميزان الحق والعدل .. قوة يحكمها خلق ، ويعصمها دين ، وإلا كانت غير محسوبة على الإسلام ، ولا عاملة تحت لوائه . القوة في ذاتها كمال مطلوب ، وعدم بلوغها نقص وقصور .. ولكنها تكون عيباً حين تتحول إلى أداة شر ، وتستحيل إلى إعصار مدمر .

وقد أراد الإسلام لأنبأه القوة المادية والمعنوية معاً .. قوة الروح ، وقوة الجسد ، لا ليكونوا نموراً وأسوداً يأكلون الناس ، وإنما ليكونوا أعزاء ، أقوياء ، تجمد مبادئ الإسلام في كنفهم حمى كريماً تتمتع فيه أزهارها ، وتنضج ثمارها ، أشبه بالأرض الطيبة التي تشتمل على عناصر القوة والخصب . فالنبت الطيب لا يوثق ما عنده إلا في أرض طيبة .. فإذا ضمت أرض سبخة فكدة ذبل ومات .. « والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه ، والذي خبث لا يخرج إلا نكداً » (١) .

فالقوة حين تضبطها قوى الخير والعدل تكون رحمة وبركة على نفسها وعلى من حولها ، أما حين تنعزل عن هذه الشوابط أو تتفلات منها ، فإنها تكون شراً وبلاءً ، على نفسها ، وعلى من يتصل بها ، أو يدنو منها !

والقوة التي يزكها الإسلام ، ويحث أتباعه على تحصيلها هي هذه القوة الملمجة بلجام العقل والحكمة ، والحب والرحمة . . قوة مستبصرة ، تعرف طريقها ، وتنتجه إلى غاياته ، ولهذا لم يحمد القرآن القوة إلا ومعهما الأمانة ... الأمانة التي تمسك بالقوة أن تجور على حق ، أو تعتدى على ضعيف . . قال تعالى على لسان ابنه نبي الله شعيب في مرسى عليهما السلام : ديا أبت استأجره . . إن خير من استأجرت القوى الأمين^(١) ، قوة ترفضها أمانة . . أمانة هي اليد الممسكة بزمام القوة أن تميل إلى ظلم أو فساد في الأرض ، أو بغى أو عدوان بغير حق !

إن الإسلام ليدعو كل مسلم أن يكون قوياً ، ممسكاً من القوى بأقوى أسبابها ، محصلاً لأكرم جواهرها . . قوة عامة شاملة . . قوة في الروح ، وقوة في الجسد . . وقوة في الخلق . وقوة في العلم . . قوة في كل جانب من جوانب الحياة ، وفي كل كنف من أكنافها . .

لأنه حين يحصلها المسلم تكون . . طاقة ، كبيرة من القوى ، يشتمل عليها كيانه ، ويدفع بها في مجالات الحياة فتعلم يديه من كل خير فيها . .

فإذا كانت داعية الحرب خف إلى ميدانها منطلقاً كالريح المرسلة ، فإذا واجه الأعداء كان إعماراً عاتياً لا يريم مكانه حتى تقتل أو يقتل !

إن الإسلام كان يعطي كل حال حالها . . وحال الحرب ليست لهو ولا لعباً . . إنها الحرب . . وليس لمن يشهدها إلا أن يكون على حال من حالين : قاتل أو مقتول . .

فهل ترى يدع الإسلام أتباعه أن يكونوا في عداد القتلى ؟ فمن إذن الجهة الخير يحميها ؟ ومن الدعوة السماء يقوم عليها ؟

وهل من شريعة العدل أن يقتل دعاة الإصلاح ويسلم الطغاة والمفسدون ؟
إن ذلك تأباه الحكمة والعدل !

فليكن إذن ما يجب أن يكون . . وهو أن يلقي المسلمون أعداءهم في المعركة وهم مزودون بالقوى النفسية والمادية ، ليكونوا أقدر على أن يصيدوا من أن يصابوا . . واستمع إلى قوله تعالى : « يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال : إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مئتين ، وإن يكن منكم مئة صابرة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا . . بأنهم قوم لا يفقهون » (١) . . الآن خفف الله عنكم ، وعلم أن فيكم ضعفاً ، فإن يكن منكم مئة صابرة يغلبوا ألفاً ، وإن يكن منكم منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله ، والله مع الصابرين ، (٢) .

فإنك تجد في هاتين الآيتين الكريمتين كثيراً من مواقع العجب والدهش :
فن ذلك أن هذه المقابلة النسبية بين قوة المسلم وبين قوة خصمه في الآية الأولى تنبئ فيما تنبئ عنه أن المسلمين في أول أمرهم كانوا قلة . . وهم — فوق هذا — جبهة الإسلام والسابقون إلى غايات الخير من الناس — ومن أجل هذا كان الحرص عليهم أشد ، والضم بهم ألزم . . فلا يقتل أحد منهم إلا في مقابل عشرة يقتلون من الجبهة المعادية !

ومن ذلك أيضاً أن الخير لا يوزن بالشر . . والحسن لا يباع بالسيئ . فإن كان ذلك أمراً لا بد منه — وهو أمر لا بد منه — فليكن الطيب الواحد في مقابل عشرة ؟ !

ولعلك تذكر هنا تدبير الإسلام في الحسنة والسيئات . فإن الحسنة تذهب بعشر سيئات . . إن الحسنات يذهبن السيئات ، (٣) . وهذا وجه يمكن أن نرى فيه المعنى الذي أشرنا إليه في الآية السابقة من تقويم المسلم بعشرة من مقاتليه في ميدان الحرب ، إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مئتين ، .

« والفقهاء ، الذي ختمت به الآية وجعلته صفة منفية عن مقاتلي المؤمنين هو الفقهاء الذي يمنح المرء وعياً مبصراً ، مستقيماً مع الفطرة ، فيولد في كيانه إيماناً

(١) سورة الأنفال: آية ٦٥ (٢) سورة الأنفال: آية ٦٦ (٣) سورة هود: آية ١١٤

راسخاً بالخير والعدل . . وكراهية بالهمة للعوج والانحراف . . فإذا تامل قاتل عن عقيدة واضحة بيّنة . . وليس كذلك غير المؤمن . . إن فؤاده فارغ من كل معنى من معاني الخير والحق ، وإنما تدور في فؤاده حيالات من أوهام وأباطيل لا يجد منها في محال القتال مداد يمدّه بالصبر ويلقى إليه بالعزم . وهذا المعنى ذاته نجده في المنافق . . فإن أبرز صفاته ألا صفة له . . إنه أشبه بالهرباء ، يتلون كما تتلون ويدور كما تدور . . ولهذا كان وصف المنافقين الذي وصفهم الله به هو أنهم لا يفقهون : قال تعالى ، ذلك بأنهم آمنوا ، ثم كفروا ، فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون ، ١١ .

فالفرق بين المسلم وبين غير المسلم هو هذا ، الفقه ، الذي عبأ به الإسلام نفوس المسلمين ، مما كشف لهم من معالم الخير وما أراهم من آيات الحق . وانظر كيف تفعل أجهزة الدعاية في نفوس المقاتلين ، وكيف تقدم إلى جانب العتاد والسلاح ، عتاداً أقوى من أى عتاد ، وسلاحاً أمتنى من كل سلاح . إن غاية هذه الأجهزة هي تعبئة النفوس ، بما تلقى إليها من التصورات ، وما تحمل إليها من المعاني ؛ التي تزيدها معرفة وفقهاً — إن حقاً ، وإن كذباً — بموقفها من عدوها هذا الموقف الحائر ، الظالم . . أبدأ ١١

وفرق كبير بين قضية الحق التي يدافع عنها الإسلام ويجمع عليها الانصار ، ويبدل من أجلها المهج والأرواح ، وبين قضايا محتلطة ظاهرها حق منفرى ، وباطنها أحقاد وأطماع ، ونزوات وشهوات .

وإذ لم يعرف أعداء الإسلام من الإسلام إلا جانب السيف الذي قام بين يدي الحق ؛ برد عنه هجمات المبطلين ، وعمليات المضللين — فإننا نريهم جانب الرحمة التي حملها الإسلام إلى الناس ، وحمل معها السيف الذي يحميها ، ويثبت مغارسها في الأرض .

* * *

الباب الثاني عشر

نبي الرحمة

« وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين »

- ١ -

النبوة :

النبوة رحمة راحمة حيث كانت ، وحير غدق حيث أصابت . لأنها تحمل كلمة السماء إلى الناس محملة برحمة الله لعباده ، موقرة بالخير لمن أقبل بها ، وفتيح قلبه لها .

فما بزغ في الناس نبي من أنبياء الله أو رسول من رسله ، إلا والناس منه في معرض الرحمة ، وفي عارض مطر بالرغد والخير العميم .

فبين يدي كل نبي نور يضيء دنيا الناس ، ويكشف لهم معالم الطريق إلى الخير والحق . . وعلى لسان كل نبي كلمات ربانية ترسم للناس مهادج العمل لغايات الخير والسعادة . . يقول الله سبحانه وتعالى : « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات ، وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط » (١) . . ويقول سبحانه : « رسلنا مبشرين ومنذرين ، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » (٢) ويقول سبحانه : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » (٣) . . فأفقياء الله ورسله هم حجة على عباده . . لأنهم يحملون إلى الناس « أطواق النجاة » ، حين تضطرب بهم سفينة الحياة ، وحين تنطمس أمامهم معالم الطريق إلى شطآن الأمن والسلامة ! فمن استجاب لهم ، وتناول ما في أيديهم من أضواء الحق ، وأطواق النجاة ،

(٢) سورة النساء: آية ١٦٥ .

(١) سورة الحديد: آية ٢٥

(٣) سورة الإسراء: آية ١٥

سلم وسحا ، وكان من العائزين برحمة الله ورضوانه .. ومن أبى واستكبر أن يمد يده إلى هذا الحبل الممدود لنجاته ، واستنقاذه من الهلاك المطلق عليه ، فلا ينوم إلا نفسه؟
• ومن اشتدى فإنما يبتدى لنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها .. (١)

إن أنبياء الله ورسله هم رحمة حالصة ، لا أجر عليها . ولا من معها . لإنها من الله ، وإلى عباد الله ، ويقوم لا أسألكم عليه أجراً ، إن أجرى إلا على الله (٢) .

فما حملت دعوة نبي ، أو رسالة رسول شيئاً من شأنه أن يضيق به الناس أو يشقوا به . لإنها دعوة تحمل إلى الناس الحياة لموات القلوب ، والهدى لضلالات العقول ، كما يحمل النيث الحياة لضموف الأحياء ؛ أو مامن شأنه أن يكون في الأحياء : أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به في الناس كمن مثله الظلمات ليس بخارج منها ؟ ، (٣) .

نعم .. قد يضيق بعض المنحرفين ، والمقسلطين بدعوات الأنبياء لأن انحرافهم لا يستقيم معها ، ولأن تسلطهم لا يحيا في ظلها .. إذ هي دعوة من شأنها أن تقيم العوج ، وتقضي على التسلط ، وتقيم بين الناس موازين المساواة والعدل .

وهن أجل هذا كان الذين يعادون الأنبياء ، ويعسدون الناس عنهم هم دائماً أصحاب السلطان ، وأرباب الجاه والغنى ، إذ يحسبون في هذا الذي تحمله الدعوة النبوية إلى الناس من عدل وإحياء — تصديعاً لما معهم من سلطان وجاه ، وذهاباً لما بين أيديهم من مال وحطام !! أو هو أقل تقدير لزجاج لما هم فيه من حال رضوا بها وأطمأنوا إليها ..

ولو عقل هؤلاء لعرفوا أن النبي لا ينزع سلطانهم ليضعه في يده ، ولا يأخذ ما لهم ليمنيفه إلى نفسه .. فما جاء رسل الله لطلب جاه أو سلطان ، وما عملوا على جمع المال ، ولا تشييد القصور والاستمكتار من الخشم والخم .. لإن دعوة النبي وجهاده وكفاحه من أجل الناس ، ولحساب الحق والعدل ، وليس له من شيء إلا ما فصل الله به عليه من منزلة كريمة عنده ، وثواب طيب لما حمل من عبء الدعوة . ولما لقي في سبيلها من عت وأذى : « إن أجرى إلا على الله ،

ولو عقل هؤلاء الذين يعادون الأنبياء ، لعرفوا أن دعوتهم هي دعوة الحق والإحسان ، والعدل والبر ، وأنها لا تتعرض للسلطان العادل ، ولا تقف في وجه الغنى ، إذا كان فيه حق الله وحق السائل والمحروم .

قد يصاب بعض الناس من الشمس بضربه . أو من الماء بعصه . . ومع هذا فإن الشمس هي سر الحياة ، والماء هو أصلها ومحسنها . فالتطلع الشمس في كل مكان وليجر الماء في كل صوب ، وإن أودى بالشمس خلق ، وغرق أو ذبح بالماء خلق ، فإن هذا الذي يذهب هو ضريبة الحياة للأحياء .

وكذلك دعوات الأنبياء قد تصيق بها بعض النفوس ، وقد يهلك بها بعض الناس ، ولكن ذلك لا ينقص من قدرها ، ولا ينال من جلالها ، فإن الذي يذهب ويعطب لا يعد شيئاً إلى جانب الذي يبقى ويسلم .

الرسالة المحمدية :

وإذا كانت دعوات الأنبياء رحمت وبركات على الناس في أجيالها وأوطانها ، فإن رسالة محمد ، رحمة شاملة ، وبركة عامة ، للناس جميعاً ، من كل أمة ، ومن كل جنس ، على مدى الأيام والدهور .

لأنها رسالة لا تخص أمة من الأمم ، ولا تنتهي عند زمن من الأزمان . فهي ليست للعرب وحدهم ، وليست لعصر النبوة وحده . . فإلى العرب فيها إلا لسانها وترجمانها ، وما عصر النبوة إلا مطالعها ، ومجلى أنوارها . . ثم هي بعد ذلك رحمة متباعدة في الناس كلهم ، وحظ مقسوم لجميع الأزمان ؛ « قل يأيتها الناس : إني رسول الله إليكم جميعاً الذي له ملك السموات والأرض ، لا إله إلا هو ، يحيي ويميت ، فآمنوا بالله ورسوله . . النبي الأمي .. الذي يؤمن بالله وكلماته . . » (١)

ومن أول آية نزلت من القرآن شعر النبي أنه رسول الله إلى الناس كافة ، إذ كانت الآية شارحة لقضية الإنسانية ، من حيث أنها مخلوقة من معدن واحد ،

(١) سورة الأعراف: آية ١٥٩ .

فليس لأمة ، ولا لعب فصل أو امتياز في الأصل والنسأة . . ولا في الدم أو الموطن ، ولا في الزمن السابق أو اللاحق .

« اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق » (١) .

فهذه أول آية يتلقاها الرسول من السماء ، وتفتح بها رسالته : الله هو خالق كل شيء . . والإنسان هو من مخلوقات الله . . قد خلق من علق !

هذا هو عنوان الرسالة المحمدية : « الإنسان » . . الإنسان مطلقاً ، في أى مكان ، وفي أى زمان !

والقرآن الكريم كله ، في أحكامه وتشريعاته ، وفي أوامره ونواهيه ، وفي نصائحه ووصاياه — مخاطب الناس جميعاً ، ويدعو الناس جميعاً . . بهذه الكلمة العامة الشاملة : « يا أيها الناس » أو « يا بني آدم » أو « يا أيها الإنسان » . ولم يختص العرب أو قريشاً بخطاب أبدأ ، فلم يقل يا أيها العرب ، أو يا بني إسماعيل ، أو يا أبناء عدنان وقحطان . . كما كان ذلك شأن أنبياء الله ورسله في أقوامهم ، ومن أرسلوا إليهم . . فكان كل نبي يدعو قومه خاصة كما حكى القرآن الكريم ذلك في قصص الأنبياء : « إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتهم عذاب أليم ، قال يا قوم إني لكم نذير مبين » (٢) .

« وإلى مدين أخاهم شعيباً .. قال يا قوم . . . » (٣) .

« وإلى عاد أخاهم هرداً .. قال يا قوم . . . » (٤) .

« وإلى ثمود أخاهم صالحاً .. قال يا قوم . . . » (٥) .

« ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور ، وذكركم بأيام الله . . » (٦) .

(٢) سورة نوح: آية ١

(٤) سورة هود: آية ٥٠ .

(٦) سورة إبراهيم: آية ٥ .

(١) سورة العلق: آية ١

(٣) سورة هود: آية ٨٤

(٥) سورة هود: آية ٦١

« وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذوني ، وقد تعملون أنى رسول الله إليكم ؟ » (١)

« وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تدبحوا بقرة » (٢) .
وهكذا كانت دعوات الأنبياء في أقوامهم خاصة ... ولم تعتمد أقوامهم ، ولم تتجاوز حدود أوطانهم .

وأكثر من هذا .. فالذى يقرأ التوراة والإنجيل — على ما هما عليه الآن — يجد فيهما حرصاً شديداً على احتجاج الرسالة الموسوية ، والرسالة العيسوية عن الناس ، وقصرها على بني إسرائيل خاصة .. فلم يكن لهاتين الرسالتين متوجه لغير بني إسرائيل ، ولم يكن لهدى النبيين الكريمين — موسى وعيسى — شأن بداية أحد من الناس غير شعبيهما الذى بعثا إليه .. والقرآن الكريم يذكر ما بين موسى وفرعون فيحدد العاية التى من أجلها أرسل موسى إلى فرعون . وهى تخليص بني إسرائيل من قبضته ، وإخراجهم من تحت سلطانه ، الذى بسط عليهم فيه يد القهر والاذلال « يقتل أبناءهم ؛ ويستحي نساءهم » . ولم يكن لموسى دعوة مباشرة إلى فرعون ليؤمن بالله ، اللهم إلا ما قد يلاحظ فرعون من دلالات تدل على الله ، فما قدم له موسى من معجزات ، تصدق دعواه أنه رسول رب العالمين ، قد أرسله إلى فرعون ليرسل معه بني إسرائيل .. يقول الله سبحانه وتعالى لموسى وهرون :

« اذهبا إلى فرعون إنه طغى ؛ فقولا له قولاً ليناً ، لعله يتهنى ، قالا ربنا إنما نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى . قال لا تخافا ، إننى معكما أسمع وأرى ، فأتياه فقولا إنا رسولا ربك ، فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم ، قد جئناك بآية من ربك ، والسلام على من اتبع الهدى » (٣) .

ويقول سبحانه على لسان موسى يخاطب فرعون : « يا فرعون ، إني رسول

(١) سورة الصف: آية ٥

(٢) سورة البقرة: آية ٦٧ .

(٣) سورة طه: الآيات : ٤٣ — ٤٧ .

من رب العالمين حقيقى على ألا أقول على الله إلا الحق ، قد جمعتك بآية من ربك فأرسل معى بنى إسرائيل ، .

والتوجهات التى يلقى بها موسى إلى فرعون إلقاء مباشر أهى فى الواقع لحساب الغاية الأصلية من الرسالة الموسوية ، وهى تخليص بنى إسرائيل من العذاب الماهين ، فإذا دعا فرعون إلى الله فإنما ليستقيم على الحق ، وليأخذ بنى إسرائيل بالرحمة والعدل . . التى يأمر الله عباده بها . . يقول سبحانه وتعالى : « اذهب إلى فرعون إنه طغى ، فقل هل لك إلى أن تزكى ؟ وأهديك إلى ربك فتخشى ؟ » (١) أى ليخشى الله فى بنى إسرائيل ، ويرضى يده القابضة على رقابهم !

وليس معنى هذا أن فرعون لا تقوم عليه الحجة بدعوة موسى له إلى الإيمان بالله . . كلا . فإن موسى قد دعاه إلى الإيمان بالله ، وأقام عليه الحجة بتلك الدعوة ، وما قام على دلائل صدقها من آيات معجزة قاهرة ! ولكن لم يكن ذلك إلا لأن لفرعون شأناً فى حياة بنى إسرائيل ، فهم فى ملكه ، وتحت سلطانه ، ولهمهم ، لكي يخرجوا من هذا السلطان كان لابد أن يكون ذلك عن رضى من فرعون ، ولا يرضى فرعون حتى يخرج عن طبيعة البطش والقهر والظلم ، التى تستبد به ، ولا يكون ذلك إلا عن إيمان بالله وعن مراقبته وحسنه . . ومن هنا كان موسى رسولاً إلى فرعون ، وداعياً له إلى الله ، وإلى الرفق بعباد الله . . فلما لم يستجب فرعون لهذه الدعوة ، ولم يرسل بنى إسرائيل مع موسى ، كان لله تدبير . . فأوحى الله إلى موسى أن يخرج بنى إسرائيل متخفياً بالليل ، وأن يهرب إلى حيث لا سلطان لفرعون . . : « أن أسر بعبادى ليلاً ، إنكم متبعون ، وأترك البحر رهواً . . إنهم جند مغرقون » (٢) .

أما التوراة فإنها كلها لبنى إسرائيل ، ليس فيها شيء لأحد من الناس غيرهم . . حتى أن الله هو إلههم وحدهم دون الناس ، لا يلتفت إلى غيرهم ، ولا ينال برحمته وفضله سواهم . . هو رب الجنود ، وهو ، « رب إسرائيل » ، وليس رب الناس ، ولا رب العالمين !

(٢) سورة الدخان: آية ٢٣ ، ٢٤

(١) سورة النازعات: آية ١٧ - ١٩

« وكلم الرب موسى قائلاً : كلم بنى إسرائيل وقل لهم : أنا الرب إلهكم ، مثل عمل أرض مصر التى سكنتم فيها ، ومثل عمل أرض كنعان التى أناأت بكم إليها لانعملوا ، وحسب فرائضهم لا تسلكوا » (١) .

« وكلم الرب موسى قائلاً : كلم بنى إسرائيل أن يأخذوا إلى مقدمة .. من كل من يحبه قلبه يأخذون تقدمتى ، وهذه المقدمة التى تأخذونها منهم .. ذهب وفضة ونحاس ١٠٠ » (٢) .

وهكذا كل ما حملت التوراة من تشريع هو موجه إلى بنى إسرائيل ، لايراد به غيرهم من الناس . إنه تشريع « مفصل » على « كياس » هذا الشعب ، وهو « دواء » لا يصلح إلا لهذه الجماعة التى حملت فى كيانها تلك الجراثيم الخبيثة التى أفسدت فطرة الله فيها ، وكان أصدق وصف ما وصفهم به المسيح فى قوله : « يا أولاد الحيات » .

وكذلك « الإنجيل » .. وصاياه كلها لبنى إسرائيل ، ومعجزات « عيسى » كلها لبنى إسرائيل .. فهو إذا أبرأ الكمه ، والعمى ، والبرص فى بنى إسرائيل لا يلتفت إلى غيرهم ، ولا يمد يداً إلى سواهم :

ففى إنجيل متى : « ثم خرج يسوع من هناك وانصرف إلى فواحي صور وصيدا ، وإذا امرأة كنعانية خارجة من تلك التخوم ، وصرخت إليه قائلة : ارحمنى ، ياسيد يا ابن داود ! ابتنى بجنونة جداً .. فلم يجبها بكلمة .. فتقدم تلاميذه وطلبوا إليه قائلين : اصرفها ، لأنها تصيح وراءنا ! ، فأجاب وقال : لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة ! فأنت وسجدت له قائلة : ياسيد .. أعنى ! فأجاب وقال : ليس حسنأ أن يؤخذ خبز البنين ، وي طرح للكلاب الضالة ! ! فقالت : نعم ياسيد : والكلاب أيضاً تأكل من الفتات الذى يسقط على مائدة أربابها ! » (٣) .

(١) الإصحاح الثامن عشر من سفر اللاويين .

(٢) الإصحاح الخامس والعشرون من سفر الخروج .

(٣) إنجيل متى : الإصحاح الخامس عشر .

فانظر كيف كان موقف السيد المسيح مع هذه المرأة التي علقت آمالها به ؟ وكيف أذلت كبريائها ، ونزلت إلى منزلة الكلاب ، لتتال من فئات المسائفة المملوذة لبني إسرائيل ؟ !

وليس في هذا ما يؤخذ على الرسالة ، والعيسوية . . فهو رسول الله إلى قومه . . مهمته محددة بهؤلاء القوم . ليس له شأن بما عداهم من الناس . . وذلك شأن جميع الرسل المبعوثين من قبله . . كل رسول داعية إلى الله في قومه ، منغول بهم عن كل ماعداهم .

ولكن الذي لا يستقيم مع هذه الدعوة المحددة القول بأن « عيسى » هو ابن الله أو هو الله ، أو ما شاكل ذلك من الادعاءات . وأنه إنما جاء على تلك الصورة البشرية المجسدة ، ليكون له مكان بين الناس ، يعيش فيهم ، ويحيي معهم ، ثم تختم حياته بالصليب ليكفر الخطيئة التي تعيش في الناس . من ميراث أبيهم آدم ، وليطهرهم منها !

وفي هذا القول تنافت ، وبطلان من وجوه كثيرة :

فأولاً : لو كان المسيح هو الله أو ابن الله تجدد في صورته التي عاش بها في الناس لما كان له مكافئة في بني إسرائيل خاصة ، ولا قصر دعوته عليهم . . ولما كان الإله الذي يقرم على السموات والأرض ، ويديطر رحمته للناس جميعاً .

وإذا كان من تدبير عيسى — وهو الله أو ابن الله — أن يكفر خطيئة آدم في أبنائه ، فكيف يحمل هذا التكفير لبني إسرائيل وحدهم دون أبناء آدم ، وكلهم آخذ بنصيبا من تلك الخطيئة ؟ . . معقول جداً أن يحى النبي إلى جماعة من الناس ، وأن يطلع عليهم بالهدى والرحمة والبركة ، كما يصيب الغيث جانبا من الأرض فيحضر ويمرع على حين تظل هناك كثير من وجوه الأرض مقبرة كالحية مجذبة ! ولكن غير معقول أن يحى الله في صورة بشر ليخلص الناس من الخطايا ، ثم يختص بهذه الرحمة التي أرادها للناس — فريقاً منهم ، ويحجزها عن

العالية العظمى من الناس . . إن ذلك تدبير لئلا يدخل في حكمة الله ولا يحجى مع عدله . فأين يذهب الناس بعد أن قبض الله عنهم يده التي بسطها لحفنة قليلة من الناس هم بنو إسرائيل ؟

وثانياً : إذا كان المسيح الإله قد جاء ليخلص الناس ، وليحمل عنهم خطيئتهم ، فذلك — إذا سلمنا به — إنما يكون لأجل الذي أدركه المسيح الإله من أجيال الناس ، وقد يمتد للأجيال اللاحقة لهذا الجيل . أما الأجيال السابقة لظهور المسيح من عهد آدم إلى يومه الذي ظهر فيه فإنهم بمعزل عن هذا الذي جاء المسيح من أجله ، لا يبالهم منه شيء ، لأنهم لم يؤمنوا به ، ولم يعمدوا بماء المعمودية الذي باركته يد المسيح !

وإذا كان ذلك كذلك ، فما شأن هذه الأجيال الكثيرة التي تقدمت لظهور المسيح من آدم إلى يوم ظهوره . لماذا لم تأخذ فرصتها من التطهير ؟ ولماذا لم يحجى إليها المسيح في الصورة التي جاء بها ، وللغاية التي قصد إليها منذ هبط آدم إلى الأرض ؛ ليسح بيده على ظهر آدم أو أبناءه فيطهرهم ويحمل خطيئتهم وخطايا الأجيال المتعاقبة من ذرائعهم ؟ ألم يكن ذلك هو الذي تقتضيه الحكمة والعدل ، إن لم يكن من مقتضيات المنطق والعقل ؟

والم يكن ذلك هو الذي يناسب الغاية التي يدعيها المدعون لنجى المسيح الإله ، وهي تطهير خطايا الناس وحمل أوزارهم ؟

إن القول بأن السيد المسيح هو الله أو ابن الله هو قول أبتر ، لا يستقيم أبداً ، على تملك الصورة التي يدعيها المدعون له .

إن المسيح إلهاً فليكن شأنه عاماً في الناس ، ورحمة شاملة لهم في أجيالهم جميعاً . . من آدم إلى أن ينتهى دور الناس على هذه الأرض لا أن يكون ذلك لبنى إسرائيل خاصة . . وإن لم يكن المسيح إلهاً ، وكان نبياً من أنبياء الله ورسولا من رسله ، فلتكن دعوته في بنى إسرائيل ولبنى إسرائيل ، شأن الرسل والأنبياء من قبله !

المسيح إله أو بى . . إله للناس جميعاً . . أو نبى فى نبي إسرائيل ، ولا ثالث وراء هذين الأمرين

الرحمة الدائمة الشاملة :

وعجب أن تقصر يد المسيح الإله ، أو الإله المسيح عن أن تمتس برحمتها الناس جميعاً وأنها تضيق بهم إلى الحد الذى لا يسع أحداً غير بنى إسرائيل . . ثم يكون لإنسان من الناس ، ولد بشر من البشر محض الإنسانية ، حالص البشرية ، ليس إلهاً ولا ابن إله ، — يكون لهذا الإنسان أن يحمل رحمة السماء إلى الناس جميعاً . من كل أمة وفى كل جيل !

عجب هذا . عجب ألا يتساوى الإله مع الإنسان . . وأن يكون المسيح الإله دون محمد ، الإنسان النبى !

فهذه رسالة محمد ، قد حملها صاحبها — بتدبير السماء — إلى الناس كافة . . فأذنهم من أول يوم بما أمر الله سبحانه وتعالى أن يؤذنهم به : « يا أيها الناس . . إني رسول الله إليكم جميعاً » (١) . وجاءت آيات الكتاب تحمل أحكام الشريعة الإنسانية كلها : « يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون » (٢) . « يا أيها الناس اتقوا ربكم . . إن زلزلة الساعة شيء عظيم » (٣) . « يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوماً لا يجزى والد عن ولده ، ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً » (٤) . « يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم ، فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها ، وما أنا عليكم بوكيل » (٥) . « يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم الذى خلقك فسواك فعدلك فى أى صورة ما شاء ركبك » (٦) . « يا بني آدم لا يفتنكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة » (٧) .

- | | |
|-----------------------------|---------------------------|
| (١) سورة الأعراب : آية ١٥٨ | (٢) سورة البقرة : آية ٢١ |
| (٣) سورة الحج : آية ١ | (٤) سورة لقمان : آية ٣٣ |
| (٥) سورة يونس : آية ١٠٨ | (٦) سورة الألفطار : ٦ - ٨ |
| (٧) سورة الأعراب : آية ٢٧ . | |

وهكذا تتكرر دعوة الإسلام على لسان الرسول ، وفي آيات القرآن في تلك الصورة العامة للناس جميعاً ، لا يلتبس بها شيء من التخصص بأمة دون أمة ، أو بجيل دون جيل . . ففي خير مطلق للناس جميعاً ، ورحمة مبسطة لكل من يتعرض لها ، ويمد يده إليها !

وقد ظهرت آثار هذه الدعوة الشاملة العامة منذ اليوم الأول للإسلام، فدخل فيه منذ أيامه الأولى ، بل منذ يومه الأول العبيد والأحرار ، والعرب ، والعجم ، فكان بلال ، — العبد — وسلمان — الفارسي — من أول الناس إسلاماً ! سئل النبي صلى الله عليه وسلم : من أول من بايعك على الإسلام ؟ قال : حر وعبد — . قيل : إن الحر هو أبو بكر والعبد هو بلال .

ولعل في هذا البدء الذي بدأ به الإسلام من أن يكون أول المستجيبين له حر وعبد — لعل في هذا ما ينبئ عن طبيعة هذه الرسالة المحمدية ، وأن حظ الناس فيها سواء ، وأن للعبد مثل ما للحر منها . وأن العبيد والأحرار فيها في كفتي ميزان . لإنهم جميعاً أبناء طينة واحدة . . كلكم لأدم ، وآدم من تراب . كذلك كان من مقررات الرسالة المحمدية دعوة النبي للملوك والقيصرة ، والرؤساء من غير العرب ، فبعث النبي بكتبه ومبعوثيه إلى النجاشي ملك الحبشة ، وإلى كسرى ملك الفرس ، وإلى المقوقس رئيس القبط في مصر ، يدعوهم جميعاً إلى الإيمان بالله والاستجابة لله ولرسوله . . فالملوك والسوقة والأحرار والعبيد ، والرجال والنساء كلهم مدعون إلى الإيمان بالله والاستجابة لداعى السماء . . ثم إنه لم تمر سنوات على الدعوة الإسلامية حتى دخل في دين الإسلام كثير من الأمم والشعوب ، من جميع الأجناس . ومن مختلف الأمم . . وكان مسكانهم في الإسلام بمنزلة واحدة . . لأفضل لعربي على عجمي ، ولا لأسود على أحمر . . إلا بالقوى . . . يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا . . إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، (١) .

فأين من هذا ما ادعى لدعوة المسيح الإله أو الإله المسيح ؟

ولا تنتظر إلى ما صارت إليه دعوة السيد المسيح بعد أن انتهى دوره فيها ، وبعد أن ردها أصحابها من بنى إسرائيل ، وأبوا أن يقبلوا هذا الرسول الكريم ، وأن يعرفوا به وبرسالته . . فلم يؤمن به إلا نفر قليل لا يكاد يذكر من بنى إسرائيل . . لا تنتظر إلى هذا ، ولا إلى من دخل في دعوة المسيح من غير اليهود . . فإن دعوته لم تكن إلا لليهود خاصة ، ولم يكن للسيد المسيح تدبير فيما حدث بعد ذلك من دخول غير اليهود في دعوته . . فإنه لم يتجه بدعوته إلى أحد غيرهم ، ولم يحاول أن يقول كلمة واحدة لقيصر أو لجنود قيصر الدين كانوا يحكمون إسرائيل ، ويعيدون بين اليهود . .

فإذا قدر لدعوة السيد المسيح أن تخرج من محيطها إلى محيط آخر ، وأن تتحول من شعب إلى شعوب أخرى ، فإن ذلك لم يكن من طبيعة الرسالة ، ولم يكن من أهدافها .

ذلك لأن الوصايا التي حملتها رسالة السيد المسيح لا يمكن أن تقبلها الحياة ، وأن يعيش فيها الناس أجيالاً وأزماناً ، وإنما هي دواء مر المذق لشعب إسرائيل الذي كان قد أصيب في روحه بداء ذهب بكل ما فيه من مقومات الإنسانية ، وبالعناصر الطيبة فيها . فكان لابد من هذا الدواء المر الثقيل ، ليخلص هذه النفوس المنكوسة من دائها الوبيل .

ومن أجل هذا نرى هذا التفاوت البعيد بين حياة المسيحيين ، وبين الدعوة المسيحية ، فما استقام المسيحيون على تلك الدعوة في أي دور من أدوار حياتهم فيها . . لأن مقررات هذه الدعوة لم تكن للحياة العامة ، ولم تكن للناس جميعاً ، وإنما هي لفترة من فترات الحياة . ولجيل معروف من أجيال الناس .

ولو أراد المسيحي أن يكون مسيحياً حقاً ، مستقيماً على دعوة المسيح . لكان راهباً يعيش في إطار من الإذلال لنفسه ، والانطواء على ذاته . .

ولا شك أن مثل هذه الحياة لا تستقيم بها حياة الناس ، ولا يصبر عليها كثير من الناس .

وكيف يستطيع الناس أن يحيوا حياة طبيعية فى ظل هذه الوصايا التى ألقاها السيد المسيح فى أسماع اليهود فجعلوا أصابعهم فى آذانهم دونها ؟ وهل يستطيع الناس أن يقوموا على الوفاء لمثل هذه الوصايا ؟

يقول السيد المسيح فى بعض وصاياه : « قد سمعتم أنه قيل عين بعين ، وسن يسن ، وأما أنا فأقول لكم : لا تقاوموا الشر . . بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضاً . . ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضاً . ومن سخرك ميلاً واحداً فاذهب معه اثنين !

» سمعتم أنه قيل : تحب قريبك وتبغض عدوك ، وأما أنا فأقول لكم : أحبوا أعداءكم ، وباركوا لاعنيكم . . ١ » (١)

وأحسب أن النفس البشرية لا تتسع لهذه الوصايا ، ولا تستقيم عليها . . إن الناس هم الناس ، وليسوا ملائكة يمشون فى الأرض . . وما نحسب أن الحياة على هذه الأرض تسمح بتجربة ناجحة لهذه الوصايا فى أى مجتمع بشرى . يقول « جان جاك روسو » فى مدى التطبيق العملى لتعاليم المسيحية :

« ويقولون لما لاه إذ وجد شعب من المسيحيين الحقيقين فإنهم يؤلفون مجتمعاً هو أكثر المجتمعات التى تتصورها كالا وأنا لا أرى فى هذا الفرص سوى صعوبة كبرى واحدة ، وهى أن المجتمع المسكون من مسيحيين حقيقين لا يعود مجتمعاً بشرياً . . بل أقول أيضاً إن هذا المجتمع المزعوم لن يكون رغم كل كاله أقوى المجتمعات ولا أدومها ، فبقدر كاله ستهوزه الرابطة ، وستكون جرثومة هلاكه فى كاله ؛ ذاته . .

ويقول : « لى أخطئ إذ أتحدث عن جمهورية مسيحية ، فالسكلمتان متناقضتان : إن المسيحية تفتش بالعبودية والطاعة . . إن المسيحيين الحقيقيين خلقوا ليكونوا عبيداً ، (٢) .

ويقول « نيتشه » فى سخرية : « إن المسيحي الوحيد مات على الصليب !! » .

(١) إنجيل متى : الإصحاح السادس .

(٢) المقدم الاجتماعى ترجمة عبد الكريم أحمد ص ٢٣٧ .

نستطيع بهذا أن نقرر في يقين نقض ما يدعيه المدعون المسيح من أنه خارج
عن طبيعة البشر ، وعن سنة الأنبياء من قبله . فنقول إنه بذر ، وإنه هو نبي
ورسول إلى بني إسرائيل وخدمهم دون الناس .

وأكثر من هذا ، فإذا نستطيع أن نقرر أيضاً أن الدين تابعوا السيد المسيح
وآمنوا بدعوتهم من غير اليهود هم دخلاء على هذه الدعوة ، يتناولون من طعام
غير معد لهم ، وغير متناسب مع طبيعتهم . لا يصلح لهم ولا يسلمحون له . إن
الرسول ليس رسولا إليهم ، والرسالة لم تكن سرعاً لهم . فكيف يدينون
بدن لم يدعوا إليه ، وشريعة لم يحسب لهم حساب فيها ؟

ولو كانت شريعة موسى ، أو المسيح شريعة عامة شاملة لكل إيمان المؤمنين
بهما من غير اليهود إيماناً صحيحاً ، لا شائبة فيه ، بل هو الإيمان الواجب على كل
عاقل أن يدين به ، ويستقيم عليه .

ولكن الأمر — كما قلنا — على خلاف هذا ، فالديانة الموسوية ليست
لأحد غير اليهود ، ولا متوجه لها إلا هذه الجماعة من الناس ، لئعالج داء « محلياً »
متوطناً فيهم ، متمكناً في نفوسهم . . وليس الدواء الذي تحمله شريعة موسى
وتؤكد وصايا المسيح إلى هذه الجماعة المريضة بالذى تصلح عليه نفوس غير تلك
النفوس ، أو يداوى به داء غير هذا الداء !

وهل رأيت مريضاً بالحمى — مثلاً — يتداوى بالدواء الذى يوصف للرمم؟
وهل يغير ذلك من واقع الأمر شيئاً أن يكون الطبيب الذى تشخص داء الرمد
ووصف علاجه هو ماهو فى العلم والمعرفة ؟ ذلك هو الحال سواء بسواء فى
الديانة العيسوية فى امتداد لشريعة موسى وتأكيدها . بل هى تكرار للدواء
لذات الداء الذى يكمن فى كيان بني إسرائيل .

• • •

وقد يقول قائل : إن شريعة الإسلام ذاتها تدعو إلى الإيمان بالشريعتين
الموسوية والعيسوية ، وأن القرآن يقول : « قلوا آمنا بالله ، وما أنزل إلينا ،

وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب : والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى . وما أوتى النبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ، ونحن له مسلمون ، (١) .

ونقول في إيجاز : إن الذى تدعو إليه شريعة الإسلام من الإيمان بالمؤمنين وما أنزل عليهم ، هو التصديق بالرسول ، والتصديق بما جاءوا به ، إذ أن ما جاءوا به هو الهدى والخير ، وهو الحق من عند الله ، وليس المراد بهذا التصديق العمل بالشرائع التى جاءوا بها ، فقد جاء القرآن بهذا الخير كله ، وبهذا الهدى كله .

• • •

وندع هذا كله لنعود إلى حديثنا عن الرسالة المحمدية من جانب الرحمة العامة فيها ، فنقول إنما قبل أن ناتمىس النواهد والأدلة على هذه الرحمة العامة فى الرسالة المحمدية نجد القرآن الكريم قد تولى تجاية هذه الحقيقة ، فجاء فيها بالقول الفصل فى غير موضع منه ، وفى غير آية من آياته . فقال تعالى مخاطباً نبيه الكريم « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » (٢) . وقال سبحانه : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم ، بالمؤمنين رؤوف رحيم » (٣) فالرسول مبعوث لرحمة الناس جميعاً . . وليس شئ فى باب الرحمة بالناس أفصل من استنقاذهم من الضلال ، وتزكية نفوسهم وتطهيرها من الرجس . إن ذلك يعادل الحياة بعد الموت . والبصر بعد العمى ، والسمع بعد الصمم . « أو من كان ميتاً فأحييناه ، وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها » (٤) ورسالة محمد ، تحمل للناس جميعاً الهدى فى رفق ، وفى لين . فليس فيها هذا البريق الذى يخطف الأبصار ، ثم يخبو ، وليس فيها هذا العنف الذى تنقطع له الأنفاس ، وينقطع دوفه جهد كثير من الناس .

لأنها ليست رسالة طوارئ ، كما جاءت كثير من الرسالات فى أحوال مضطربة ، وطروف قاسية . قد ركب الناس فيها ظهر الفتنة ، ولجوا طبايع

(١) سورة البقرة : آية ١٣٦
(٢) سورة الأنبياء : آية ١٠٧
(٣) سورة التوبة : آية ١٢٨
(٤) سورة الأنعام : آية ١٢٢

الوحوش الكاسرة .. فكان محيى الرسول في مثل هذه الأحوال ، وفي مواجهة تلك الظروف ، إنما هو للإنقاذ الحاسم السريع ، الذى لا يمتثل مهلة أو تطاولا في مدة الإنقاذ . . ومن أجل هذا كان إعلان حالة الطوارئ ، هو العلاج الحاسم في مثل هذه المواقف ، ومن أجل هذا أيضاً كانت عملية الرسول أحياناً تنتهى بالبتر الحاسم ، والتدمير الكامل للمجتمع المريض الذى بعث إليه ، حين لم يكن ينفع العلاج ، ولم يفيد الدواء . . فقد شهد كثير من الرسل مصرع أقوامهم واستئصال فروعهم وأصولهم . . لم ينج منهم إلا قلة تعد على الأصابع .

« الحاقة ، ما الحاقة ، وما أدراك ما الحاقة . . كذبت ثمود وعاد بالقارعة . فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية ، وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية ، سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ، فهل ترى لهم من باقية . (١) . . » وأنه أهلك عاداً الأولى ، وثمود فماً أبقى ، وقوم نوح من قبل . . إنهم كانوا هم أظلم وأطغى ، (٢)

فالإهلاك الجماعى ، والإبادة العامة ، والاستئصال الشامل لهؤلاء المنحرفين داعية من دواعى التأمين للإنسانية ، وحمايتها من عدوى هذا الانحراف الذى لا يرجى له شفاء ! والذى إن عاش فى الناس امتدت عدواه إلى غير المصابين به ، فتعهم به البلوى ، ويشمل البلاء .

أما الرسالة المحمدية فإنها لم تبحىء من أجل أمر عارض ، ولا لحالة طارئة فى جيل من أجيال الناس . . وإنما جاءت للناس جميعاً فى جميع أحوالهم وأزمانهم . . ولهذا لم يكن من تدبيرها تلك الإجراءات السريعة الحاسمة التى تنهى الموقف بين النبي وقومه فى لحظة واحدة ينتهى فيها كل شيء ، ويسكن فيها كل شيء ، فلا تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا . . بل إن تدبيرها قائم على ترويض الناس ، وأخذهم بالرفق ، وإعطائهم الدواء جرعة جرعة ، على فترات متفاوتة ، وأزمان متباعدة . !

(١) سورة الحاقة: الآيات من ١ — ٨ (٢) سورة النجم: الآيات ٥٠ — ٥٢

(٢٧ — النبي محمد)

ولم يكن لرسالة عامة شاملة أن تجيء على غير هذا التدبير والتقدير ، لكي تنجح في مهمتها ، وتبلغ الغاية المرجوة منها .

ولأنك لترى هذا في التشريعات والقوانين الوضعية . . فهي في أحوال الطوارئ تكون إحاسمة قاطعة ، لا تحتل تأويلاً ، ولا تقبل تحويراً ، ولكنها في الأحوال الطبيعية وفي الحياة المستقرة تجيء في صورة تتسع للاحتتمالات المختلفة ، وللتأويلات المتعددة . . التي تفرضها الحياة المتطورة المشتتة بالناس من حال إلى حال . . ولهذا فإنها لا تتناول إلا الأصول العامة ، وأهميات المبادئ دون الفروع والجزئيات ، التي تختلف صورها وأشكالها ، حالاً بعد حال ، وجيلاً بعد جيل .

والذي ينظر في الشريعة الإسلامية يجد أنها تناولت الحقائق العامة، والأحوال الثابتة التي تعيش في الناس ، ويعيش بها الناس ، في جميع الظروف والأحوال ، ولم تقف عند الحالات التي لا تقع إلا في الفلوات النادرة النادرة من الحياة !

ولك أن تأخذ أي مبدأ من مبادئ الإسلام ، وأي حكم من أحكامه ، وأن تنقل به عبر الأزمان وأن تطوف به في مختلف الأمم والشعوب ، فإن رأيت فيه نبواً عن الحياة ، أو مجافاة لطبائع الناس ، أو تخلفاً عن مواطن الخير والفلاح لمن اعتقده وعمل به — فلك أن تسوء الرأي بهذا الدين ، وأن تنضم إلى الجهة المعادية له . . واسكن أنا زعيم لك إن أنت نظرت فأحسنْتَ النظر ، وقدرت فأحسنْتَ التقدير ، وحكمت فعدلت في الحكومة ، ووقفت إلى جانب الحق — أن تعود بعد هذا وملء كيانك لإيمان بأن هذا الدين هو الدين الحق ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد .

وليس من ههنا هنا أن نعرض حقائق الإسلام ، وأن نكشف عن جوهرها الحر الكريم ، فذلك ليس من موضوع هذا البحث ، وإنما يكفي أن نشير إلى بعض تلك الحقائق لإشارات سريعة ، وأن نضعها في إطار البقاء والخلود ، وأن نتمتها بالصلاحيات في كل زمان ولكل مكان . . ثم ليقم من يجد في وسعه القدرة على دفعها من مكانها هذا ، وإخراجها عن صفتها تلك ! فإن

من يقيم لذلك ويحدد الدليل عليه — وهيئات — فإن له ، كما قلنا — أن يسـء
الرأى بالإسلام ، وأن ينضم إلى الجبهة المعادية له . . والإسلام في هذا لن يخسر
شيئاً ! لأن الذى ينتهى به الأمر مع الإسلام إلى هذا الموقف فهو أحد رجلين :
إما رجل يحمل العداوة الموروثة للإسلام ، ويمتلئ دماغه بما نشئ عليه
وغذى به من صغره من مفتريات على الإسلام ، وطمس لحقائقه . . وإما رجل
أحق مغرور يريد أن يلفت إليه الأنظار فيتعان بأذيال العطاء ، ويندس في
ركب المفكرين . . ليحسب في الرجال . لأنه كالوعل ينطح بقرنيه جبلاً شامخاً ..
يقف منه موقف الند للند !

ونعرض هنا بعض الأصول التى شرع لها الإسلام ، وبين معالمها وحدودها
فن ذلك : —

١ — الإيمان بالله :

وقد رسم الإسلام إلى التعرف على الله طريقاً واضحاً لا يتعثر فيه إنسان ،
ولا يضل . .

والعقل في شريعة الإسلام هو الذى يهـدى إلى الله عن طريق المظـر في ملكوت
السموات والأرض . .

فهذا الوجود لا بد له من صانع . . والله هو صانع هذا الوجود ، وهو القائم
عليه . . والله في مفهوم الشريعة الإسلامية إله واحد . . أزلى أبدي . . لا تدركه
الابصار ، وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير .

ذلكم هو الله رب العالمين !

لا يبعد مفهومه عن أحد من الناس .

ولا يحتاج إنسان في طريقه إلى الله إلى أكثر من نظرة يديرها في هذا الوجود . .

فلا أستار ولا حجب بين الله وبين الناس جميعاً . . !

والعقل هو في كيان الناس جميعاً . . لم تختص به أمة دون أمة ، ولم يستأثر به
جيل دون جيل . . بل إنه في الناس جميعاً . . فرداً فرداً . . لا تزيده الأيام
إلا قوة وعمقاً .

فالإسلام يدعو الناس إلى الله ، ويدلهم عليه ، وفي كيانهم جميعاً الدليل الذى يدلهم عليه ، ويكشف معالم الطريق .

٢ — ما يتصل بالإنسان فى حفظ حياته :

وفى هذا يقرر الإسلام القصاص فى القتل والجراحات .. قال تعالى : « كتب عليكم القصاص فى القتل : الحر بالحر ، والعبد بالعبد ، والأنثى بالأنثى : فمن نفى له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان » (١) وقال سبحانه : « وجزاء سيئة سيئة مثلها ، فمن عفا وأصلح فأمره على الله » (٢) وقال : « وإن عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خیر للصابرين » (٣) .

فالقصاص مبدأ من مبادئ الإسلام ، يتولاه ولى الأمر كما أمر الله .. ومن تدبير الإسلام فى هذا أنه أبطل التضحية بالنفس الإنسانية ، وتقديمها على مذهب القربان لله .. فقد كان ذلك مباحاً حتى فى الشرائع السماوية .. ولكن الإنسان الذى أدركته شريعة الإسلام لإنسان قد بلغ رشده ، وارتفعت قيمته عن أن يكون قرباناً ولو لخالفه .. فإنه وقد بلغ رشده يستطيع أن يتقرب إلى الله بالمعرفة الواعية لجلاله وعظمته ، وهذه المعرفة فى ذاتها قربان إلى الله أعظم من التضحية بالجسد ، وأعظم دلالة على حب الإنسان لخالفه !

ومن تدبير الإسلام فى هذا أيضاً أنه جعل قتل النفس من أكبر الكبائر ، فلا يتطهر القاتل بأية وسيلة من وسائل التطهير أبداً .. قال تعالى : « وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ ، ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله ، إلا أن يصدقوا ، فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة ، فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله ، وكان الله عليماً حكيماً .. ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً » (٤) .

(٢) سورة الشورى: آية ٤٠ .

(١) سورة البقرة: آية ١٧٨ .

(٤) سورة النساء: الآيات ٩٢ ، ٩٣ .

(٣) سورة النحل: آية ١٢٦ .

وليس معنى استبهاد أن يقتل المؤمن مؤمناً أن للؤمن أن يقتل غير المؤمن .
ولكن المراد بالآية هنا الإطلاق والتعميم ، فلا يقتل المؤمن المؤمن أبداً في جميع
الأحوال ، على حين أنه قد يقتل المؤمن غير المؤمن في حال الحرب بين المؤمنين
وغير المؤمنين . أما في غير هذه الحالة فإن لدم غير المؤمن حرمة مثل دم المؤمن .

٣ — ما يتصل بالإنسان في ماله :

وللبال في الإسلام حرمة كحرمة النفس ، ولهذا وضع الإسلام - حماية للمال -
حداً للسرقة ، والنهب ، والختل . كما حرم الإسلام الربا وأكل أموال الناس بالباطل ،
كالنش في البسج ، وتطفيف السكيل ، وسرقة الميزان ، كما حرم الاحتكار ،
والرشوة ، وغيرهما من شأنه أن تصيب الإنسان في شيء من ماله . . يقول
الرسول الكريم : « كل المسلم على المسلم حرام : ماله ، ودمه ، وعرضه » .

٤ — ما يتصل في حياته مع الناس :

(١) الرجل والمرأة :

مكان المرأة في الحياة ، وموضعها من الرجل لم تأخذ صورة مستقرة في الحياة ،
وما زال وضع المرأة قلقاً مضطرباً حتى في تلك المجتمعات التي تدعى أنها ساوت
بين المرأة والرجل ، وجعلتها بمنزلة سواء . . فما زالت المرأة هي المرأة . . لأنها غير
الرجل ، وستظل أبداً هكذا . . شيئاً آخر غير الرجل ما دامت تختلف عنه في
تكوينها العضوي وفي وظيفتها لحفظ النوع . . لأنها أنثى . . وليس الذكر
كالأنثى (١) .

ولسنا هنا في مقام الموازنة أو المقاضاة بين الرجل والمرأة ، فذلك ليس في
موضوع بحثنا ، ولا يدخل في مقرراته ، . وإنما الذي نريد أن نقرره هو مالا
يشير خلافاً بين أنصار المرأة وخصومها ، وهو أن المرأة غير الرجل . . وأنها وإن
اتفقا في كثير من الصفات فإنها يختلفان أيضاً في كثير من الصفات ، كما أنها
يختلفان فيما اتفقا فيه من صفات كما وكيفاً ، . ذلك أمر لا يمارى فيه أحد . .

(١) سورة آل عمران : آية ٣٦ .

وهذا القدر يكفيننا لما نريد أن نقررره ، وهو أن الحياة قد سارت بكل من المرأة والرجل في الاتجاه الذى ينبغى أن يسير فيه كل منهما كي تحقق من سيرها الغاية التى خلقا لها ..

ولإن أى انحراف يحدث لهما أو لأحدهما فى الطريقين الطبيعى يضر بهما ، كما يضر بالحياة التى يعملان فيها .

وإن أى تشريع سماوى أو غير سماوى لا يقوم على هذا التقدير ، ولا يتخذ أساساً فى تحديد العلاقة بين الرجل والمرأة ، وفى وضع كل منهما بالموضع المناسب له — كل تشريع لا يقوم على هذا التقدير لا يمكن أن ينظم به ركب الحياة ، بل لا يمكن أن يعيش فى الحياة ، وإن قدر له أن يقوم فى حال من الأحوال وفى زمن من الأزمان . فلن يكون ذلك إلا أمراً عارضاً لا يلبث أن يزول .

ولا نتخذ لما يبدو اليوم فى المجتمع الغربى ، من إدماج الرجل والمرأة فى كيان واحد ، تبدو فيه الحياة وكأنها أخليت من الرجال ، أو تعرت من النساء .. وأن الناس قد أصبحوا كائناً واحداً .. لك أن تقول فيهم لأمهم جميعاً رجال أو هم جميعاً نساء ..

لا نتخذ لهذا ...

لا نتخذ لهذا ، فما هو إلا عارض لا يلبث أن يزول ، ويعود كل شئ إلى وضعه الذى لا يصلح شأنه إلا عليه .

والإسلام قد جعل تشريعه فى العلاقة بين الرجل والمرأة قائماً على ما بينهما من ضروب الاتفاق والاختلاف .. فألف بينهما من جهة ، وفرق بينهما من جهة أخرى .. جمعها فى كائن واحد هو « الإنسان » ، وفرق بينهما داخل إطار الإنسانية : رجلاً وامرأة ، ذكراً وأنثى .

وهو بهذا التدبير الحكيم وضع الأمر فى مكانه الصحيح السليم .

فها من حيث الإنسانية كائن واحد : المرأة والرجل سواء .

يتكافئان فى الدم ، والعرض ، والمال !

فتقتل المرأة بالرجل . ويقتل الرجل بالمرأة فى القصاص عند قتل أحدهما الآخر عن عمد . فإذا قتل رجل امرأة عامداً كان القصاص قتله . وكذلك الشأن فى المرأة . إذا قتلت رجلاً قتلت به . والرجل والمرأة إذا فاحشة أقيم عليهما سعد واحد . . وهو جلد كل منهما مئة جلدة إذا كانا غير محصنين ، أو رجماً إذا كانا محصنين .

وفى المال : يسرق الرجل فتقطع يده اليمنى ، وتسرق المرأة فتقطع يدها . وحرمة ما فى يدها من مال كحرمة مائى يد الرجل من مال ، لا يؤخذ إلا بحق ، والاعتداء على ما بيدها من مال مثل الاعتداء على ما فى يد الرجل من مال ، يقام فيه الحد على السارق ، وتوقع العقوبة على الخاطف والمغتصب .

والقرآن الكريم يوجه أو امره ونواهيه إلى الناس جميعاً ، لم ينفرد النساء بأون خاص من الأمر أو النهى إلا ما كان من مستلزمات طبيعتهن ، وما يقتضيه الحياء الذى ينبغى أن يكون سمة بارزة فى المرأة ، ليظل لها مكاناً فى قلب الرجل . وذلك كالنهي عن التبذل والخلاعة فى الزنى والحركة .

أما فيما عدا هذا الذى تقتضيه طبيعة المرأة فالأوامر والنواهي متوجهة لئليها معاً وبقدر واحد . فالصلاة ، والصوم ، والزكاة ، والحج ، وقبلها جميعاً الإيمان بالله وبرسوله . هى جميعها للرجال والنساء على حد سواء ، لا يكمل إيمان الرجل أو المرأة إلا بهما . والمرأة والرجل فى موقف الجزاء سواء . الحسنة بدثر أمثالها ، والسيئة بمثلها .

وأكثر ما يتوجه الخطاب إلى الرجل والمرأة فى القرآن على صورة الجمع بينهما فى مثل : يا أيها الناس . ويا أيها الذين آمنوا . .

ولكى لا يكون هناك أدنى لبس فى أن المرأة والرجل على حد سواء تجاه أوامر الله ونواهيه - جاء القرآن الكريم بصور من الخطاب يزوج فيه بين الرجال وبين النساء مثل قوله تعالى : «إن المسلمين والمسلمات ، والمؤمنين والمؤمنات ، والقانتين والقانتات ، والصادقين والصادقات ، والصابرين والصابرات ، والخاشعين

والخاشعات ، والمتصدقين والمتصدقات ، والصائمين والصائمات ، والحافظين فروجهم والحافظات ، والداكرين الله كثيراً والذاكرات ، أعد الله لهم مغفرة وأجرًا عظيمًا» (١) .

فهذه تسوية مطلقة بين الرجل والمرأة في مجال الطاعات والعبادات ، وفي مقام الجزاء الطيب للعمل الطيب . ويقول سبحانه وتعالى : « ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ، فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون فيها » (٢) ويقول جل شأنه : « من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجزيه فيه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » (٣) . هذا هو وضع المرأة مع الرجل في إطار الإنسانية .. هما في مقام واحد ، لهما من نفس واحدة ، كما يقول سبحانه وتعالى : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً » (٤) .. ويقول سبحانه : « هو خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها » (٥) .. ويقول سبحانه أيضاً : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة » .

فأما في غير المجال الإناثي للرجل والمرأة فهي رجل وامرأة .. ذكر وأنثى .. فليسكل منها طاقاته واتجاهات طبيعته !

فالجهد - مثلاً - الذي فرضه الإسلام على المسلمين عند اقتضاء دواعيه وقيام أسبابه ، قد أعفى الإسلام منه المرأة أن تدخل ميدان الحرب مقاتلة ، تقتل أو تقتل .. لأن ذلك لا يناسب طبيعة المرأة ، ولا يتفق مع وظيفتها في الحياة . إن الحرب شر بشع الوجه .. دماء تراق ، وأشلاء تتناثر ، وأرواح تزهر .. منظر مفرع مروع .. تطير له نفوس الأبطال شعاعاً وتنخلع قلوبهم هلعاً .. فكيف بالمرأة وما في طبيعتها - منها تكن - من رقة ؟ وما في عزيمتها من خور ؟

- | | |
|----------------------------|-------------------------|
| (١) سورة الأحزاب : آية ٣٥ | (٢) سورة النساء : ١٢٤ |
| (٣) سورة النحل : آية ٩٧ | (٤) سورة النساء : آية ١ |
| (٥) سورة الأعراب : آية ١٨٩ | (٦) سورة الروم : آية ٢١ |

أستطيع المرأة أن تصبر على هذا الموقف ، وأن تتأسك أو صالها فيه ؟ ذلك شيء فوق طبيعتها من غير شك .. وقد دارت الحرب بين الناس والباس في ملحمة متصلة من أول الحياة إلى اليوم ، ولم يشهد الميدان جيوشاً من النساء ، ولا عرف فوارس منهن إلا في فترات نادرة ، وظروف قاهرة — لا تكاد تذكر في هذه الملحمة الطويلة التي عاش فيها الناس محاربين . . وحتى في هذه الفترات كانت المرأة لا تخرج للحرب إلا وقد لبست ملابس الرجال ، وشدت نفسها وعزمها بهذا الثوب المستعار .

ومن جهة أخرى ، فإن المرأة وهي التي كانت مصدر الحياة ومستودعها ، وهي التي حملت الإنسان جنيناً ونشأته في كيانها ، وغذته بدمها ولبنها ، وشاظرته — روحها — هذه المرأة كيف تحمل على أن تغدو إلى ميدان القتال لتهدم ما بنت ، وتقتل أبناءها بيدها . إن ذلك لا يمكن أن يستقيم مع طبيعة المرأة ، وإن استقام — على عوج — عند أفراد في الحياة الإنسانية من النساء . . لا يحسب لمن حساب . وهناك — غير هذا — واجبات كثيرة أعفت الحياة منها المرأة ، وألقت بها على عاتق الرجال ، كالقوامة على الأسرة وتدبير شأنها وحمل أعبائها ، كما أن هناك واجبات أعفت الطبيعة الرجال منها وجعلتها منوطاً بالنساء ، كالخل والرضاعة .

(ب) الزوج والزوجة:

وحيث يجتمع الرجل والمرأة كزوج وزوجة يسكون للرجل المقام الأول ، وللرأة المركز التالي له . . إن اجتماع الرجل والمرأة كزوجين هو نواة لمجتمع صغير ، ولا بد أن يكون لهذا المجتمع — على صغره — من أمير يقوم عليه ويتولى تدبير أمره وتوجيه شعونه .

إن الإسلام لا يدع أى مجتمع — مهما صغر — دون أمير يقوم عليه ، ويتولى حمل المسؤولية عنه . يقول النبي الكريم : « كلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته . فالأمر الذي على الناس راع وهو مسئول عن رعيته ، والرجل راع على أهل بيته ، وهو مسئول عن رعيته ، وعبد الرجل راع على مال سيده ، وهو مسئول عنه . »

فلسكل من الرجل والمرأة نصيب من حمل المسؤولية في مجتمع الأسرة الصغير .. ومع هذا فلا بد - لهذا المجتمع الصغير من مسئول عام ، يتولى - إلى جانب مسؤوليته الخاصة - المسؤولية العامة .. وعلى هذا ، كان لابد أن يكون الرجل - لا المرأة - هو الذى يتولى القيام على شؤون هذا المجتمع الصغير ، ويكون منه بمنزلة الرأس من الجسد .. قال تعالى : « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض ، وبما أففقوا من أموالهم » (١) .. ويقول سبحانه : « وللرجال عليهن درجة » (٢) .

ومع هذا ، فقد نبه الإسلام على رعاية الحقوق التى ينبغى أن تكون للزوجة فى هذا المجتمع لئلا يطغى عليها الرجل ويستبد بها ، وتطغيه الإمارة ، فلا يرى للمرأة مكاناً معه ..

فالقوامه التى جعلها الإسلام فى يد الرجل ليست قوامه جبرية ، أو استبداداً ، وانتقاماً ، وإنما هى قوامه ألفه ، وحب ، ومودة ، قوامه غايته إسعاد أفراد المجتمع الأسرى ، فرداً فرداً ، لأن فى إسعادهم سعادته لرب الأسرة لأنه لما يسعد نفسه فى أبنائه الذين هم بضعة منه ، وفى زوجته التى هى بعض نفسه كما يقول القرآن : « خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة » (٣) .
الرحمة الشاملة أيضاً :

وفعود إلى حديثنا عن حانب الرحمة فى الرسالة المحمدية بعد أن عرفنا شمول هذه الرسالة وعمومها ، وامتدادها عبر الأزمان والأجيال .. وبعد أن عرفنا أنها لم تكن رسالة طوارئ ترى مهمتها فى وقت محدود .

وقد استبان لنا مما تقدم أن الناس فى ظل الرسالة المحمدية فى أمن من الضربات المفاجئة القاصمة ، فلا ينزل بهم ما نزل بأقوام الأنبياء من قبلهم من خسف ، وإغراق ، ومن صواعق ومهلكات تحملها حجارة من سجيل تملطرها السماء .. « وما كان الله ليعذبهم وأنت فىهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون » (٤)

ولا شك أن هذا رحمة واسعة وفضل كبير اختست به الرسالة المحمدية ،

(٢) سورة البقرة: آية ٢٢٨

(١) سورة النساء: آية ٣٢

(٤) سورة الأنفال: آية ٣٣ .

(٢) سورة الروم: آية ٢١

التي ما كان غير « محمد » في كماله الكامل أن يحمل مثل هذه الرسالة العامة الساملة .
يقود فيها الإنسانية كلها إلى شطآن السلامة والأمن ، محتملا ما احتمل من أذى ،
وعنت ، وألم ، دون أن تطاوعه نفسه الرحيمة بالانتقام من آذوه . . . وأودع
دعوة عليهم لتفتحت لها أبواب السماء بالقبول ، وأصبحت المهلكات على أعدائه
صباً . ولكن صبر وصابر ، واحتمل أن يلقي عليه الروث ، وأن يرى بالأسحجار
من سفهاء ثقيف حتى تدمى قدماه ، وأن يتبادره السهام في غزوة أحد حتى يغرز
المخفر في جبهته وتنكسر رباعيته ، ويسيل دمه ، ثم يسأله بعض أصحابه : ألا تدعو
على قريش دعوة تمحقهم وتذهب بهم ؟ فيجيب الرسول الرحيم : « إنا بعثت هادياً ،
ولم أبعث لعاناً . . » ويخفق قلبه الكبير بعواطف الحنو والرحمة بمزوجة
بالإشفاق والأمل ، وتتحرك شفاته ، بهذه الكلمات الخالدة : « اللهم أهد
قومي ، فإنهم لا يعلمون » .

وقد تدافع في صدر الرسول دوافع الغيظ والألم . وتتهرك في نفسه الرغبة
في الانتقام من المعتدين الظالمين . فتصرف السماء هذه الرغبة إلى ما هو أليق
بالرسول العظيم ، وإلى ما هو أنسب لرسالته الرحيمة . . تصرفه إلى التسامح والعفو ،
فالعفو والتسامح من شريعة الإسلام . « وأن تعفوا أقرب للتقوى » . ولما صبر
وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور ، (١)

في غزوة أحد قالت قريش من المسلمين ، فقتل عدد كبير من خيار الصحابة ،
وأصيب الرسول بجراحات في جسده الشريف . . ولم تقف قريش عند هذا ،
بل مثلت بقتلى المسلمين ، وتولت هند بنت عتبة ، وزوج أبي سفيان - كبير هذا
الإثم . وقادت حملة التمثيل ، فبقرت بطن حمزة عم النبي ، وأسعد الله والإسلام ،
وتناولت مزقة من كبده ولا كتفا في فمها . . تشفياً وانتقاماً من قتلى بدر ، وفيهم
أبوها عتبة ، وأخوها الوليد بن عتبة .

ولما رأى الرسول الكريم ما فعلت قريش بعمره ، وبصحابته من تقتيل
وتمثيل قال : لئس كان لنا غلبه على قريش لنمثلن بقتلهم أكثر مما فعلوا بنا . . فنزل
قوله تعالى : « وإن عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير

(١) سورة الشورى : آية ٤٣ .

للسابرين . . واصبر وما صبرك إلا بالله ، ولا تحزن عليهم ، ولا تلك في ضيق مما يمكرون . إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » (١)

فانظر إلى أدب السماء مع رسول رب العالمين إلى العالمين . . لأنها ترضى في نفسه جانب البشرية ، فلا تمد عليه منافذ التنفيس لعواطفه وانفعالاته ، فتأذن له بأن يعاقب ولكن بمثل ما عوقب به . فذلك هو شرع الله مع الأعداء والأولياء . « وإن عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوفيتهم به » . . لاحرج في هذا . . وهنا يتنبه الرسول إلى أنه قد بعد شيئاً عن هذا الأدب السماوى في تلك العزيمة التي عزمها للانتقام من قريش ، لأنه لا يعاقب بمثل ما عوقب به بل بأكثر مما عوفب به ، وهذا ما تأباه شريعة العدل الذى يمسك « محمد » بميزانه المستقيم . . ولو انتهت الآية عند هذا الموقف لكان فيها العظة البالغة للنبي في أن يدع عزمته في الانتقام من قريش حتى بمثل ما كان منهم ، فذلك هو الذى يراه مناسباً لهذا العتاب الخفى الذى شعر به من الآية الكريمة ، والذى لا يشعر به إلا فلب متعملاً بالمالأ الأعلى ، موصول بأنوار السماء . .

ولكن الآية لم تقف عند هذا . . « وإن عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتهم به » . بل أظهرت المفهوم الذى فهمه النبي منها . . « ولئن صبرتم لهو خير للصابرين » فجاءت الدعوة عامة للنبي وأتباع النبي بالصبر على أذى الأعداء ، وعلى مبالغتهم في هذا الأذى بالتمثيل بالقتل . . ولا يقف الأمر عند هذا ، بل يختص النبي بتوجيه خاص . « واصبر وما صبرك إلا بالله ، ولا تحزن عليهم ، ولا تلك في ضيق مما يمكرون . . عزاء جميل من رب العالمين لنبيه الكريم في هذا الموقف الذى فقد فيه سبعين شهيداً من أكرم صحابته ، وأعز أوليائه !

ثم يحتتم المشهد بهذه الخاتمة التى تدعو إلى التقوى وإلى الإحسان : « إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » . . ومن التقوى والإحسان . . العفو عن الجاهلين وملاقة إسماعيلهم بالإحسان ، والغفران . . « ويدرون بالحسنة السيئة » . « ادفع بالتي هي أحسن » (٢)

(١) سورة النحل: الآيات ١٢٦ — ١٢٨ (٢) سورة الرعد: آية ٢٣ .

(٣) سورة فصلت: آية ٣٤

أرأيت إلى هذا اللطف الذى يحف الله به نبيه فى هذه المحنة القاسية التى مسّت شغاف قلبه ؟ ثم أرأيت إلى تدبير الله سبحانه وتعالى فى هذه الداخر التى دخل بها إلى قلب النبى ليتجه به إلى جوانب العفو والمغفرة ؟ لقد عاتب الرسول فى رفق ، وعزاه فى حكمة ، ودعاه إلى حضرة فى إعزاز وتسكريم .

ويلقى الرسول هذا التوجيه السماوى بالرصاص والقبول . فيقول : « بل نلقى ونصبر » !

• • •

ومن ينابيع « الرحمة » التى تفيض بها الشريعة الإسلامية هذا اليسر الذى تقوم عليه أحكامها . فإنها الشريعة التى اختير لها الطريق الوسط بين الشرائع السماوية كلها . وهو سمة الإسلام ، وسمة أهله . قال تعالى : « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً » ، لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيداً ، (١) .

والوسط فى كل شىء هو مركز الاعتدال فيه ، ومكان القلب منه . وطبيعى أن فوق الوسط منزلة أعلى منه ، وأنه ليس هو غاية السجّل . ولكنه مع هذا هو خير فى مجموعه بما فوقه .. لأنه أثبت وأدوم ، ولأنه أقرب إلى متناول الناس .. إن لم يكن الناس جميعاً ، فالأغلب الأعم منهم ..

إن الاعتدال فى أى شىء ، وفى كل شىء يحتمله الناس ، ويقدرّون على الوفاء به ، ويصبرون على مكروهه .. أما ما فوق الوسط فهو أمر لا تحتمله أكثر النفوس ، ولا تصبر عليه .. وقد يرتفع الإنسان إلى أكثر مما يحتمل ، فيختل توازنه ، ويسقط فى الهاوية ، ولا تكون السلامة والعافية إلا حيث الاعتدال الذى يجد فيه الإنسان القدرة على التحرك إلى فوق أو إلى تحت ، وهو فى تلك الحركة لا يخرج عن المقام الكريم اللائق به حيث يظل بالمنزلة التى يشرف منها على الأرض ، ويشارف فيها السماء !

قد يقول بعض الناس إن الوسط ، لا طعم له ، ولا ذاتية له . . لأنه أشبه
شئ بالخط الوهمي . . إنه ليس شيئاً ، ولا ضد شئ . . إن القسمة في الأمور
إنما هي الشئ وما يقابله : الخير ، والشر . . الأبيض . . والأسود . . الحلو ،
والمر . . الجميل والقيبح . . والوسط الذي يفصل بينهما ليس إلا خطأ وهمياً .
أما الذي يأخذ صفته من هذين الطرفين ، فيأخذ شيئاً من هذا وشيئاً من ذلك
فهو دحيل عليهما ، اصيق فيهما . . يضاف إلى هذا مرة ، وإلى ذلك مرة حسب
الصفة الغالبة عليه من أى منهما .

والشئ الذي على تلك الصفة شئ باهت اللون ، واهى الأساس . . لا يمسك
بشئ ، ولا يمسك به شئ !

انظر . . الماء الفاتر . . وهو وسط بين الحار والبارد . . لا يصلح للاستحمام
ولا يساغ للشرب !

والشراب المز . . وهو وسط بين الحلو والمر . . لا طعم له . . قد جمع بين
الضدين ، وخلط بين المتناقضين .

هذا في الماديات . . فإذا ذهبت إلى المعنويات وجدت أن التوسط فيها ،
والوسط منها ليس هو غاية الكمال فيها ، ولا نهاية الخير منها . . بل إنه كلما بلغ
المرء فيها منزلة وجد فوقه منازل أخرى أكرم وأفضل . . ولهذا كان التفاضل
بين الفضلاء ، وكان الفضل للمسبق المتقدم ، والحظ الأوفر لمن جد في الطلب .
وتقدم الركب . . فالعلم والتقوى ، والإحسان ، والجهد في سبيل الله ، والصبر
على المكروه ، وغيرها من الفضائل التي يتميز بها الأخيار من الأشرار ، هذه
الفضائل لا ينازع أحد في أن الاستزادة منها استزادة من الخير ، وأن القول
بالتزام حد الوسط منها هو غاية الغايات فيها قول مردود . وكيف وقد علم
الله سبحانه وتعالى نبيه الكريم أن يدعو فيقول : « رب زدني علماً » (١) . . وهو
الذي بلغ غاية العايات من العلم الذي لا يبلغه من البشر غيره ؟ وكيف والله

سبحانه وتعالى يدعو عباده إلى التسابق في مجال الخير فيقول سبحانه : « سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض » (١) . ويقول : « وفي ذلك فليتنافس المتنافسون » (٢) . لقد فتح المجال للتنافس بين المتنافسين على مصراعيه بلا حدود .. فما تأويل هذا ؟

ونقول إنه غير منكر أن فوق حد الوسط منازل كثيرة للفصل ، وأنه غير محجور على الناس أن يرقوا إليها ، وأن يتنافسوا فيها . . . إن الطريق إلى السكك مفتوح للناس جميعاً . . ليس عليه حارس . . فاسلك من وجد في نفسه القدرة ، وأنس منها الاستعداد على مجاوزة « نقطة » المرور أن يضع قدمه على الطريق ، وأن يسير إلى حيث يبلغ جهده !

ولكن هذا شيء ، والتشريع العام شيء آخر ..

التشريع إلزام . وهذا عن تطوع واختيار !

التشريع عقد بين صاحب الشريعة وبين أتباع هذه الشريعة . . فهم مطالبون بالوفاء بها . . إذا قصرُوا حوسبوا على تقصيرهم وأخذوا به ، ولا كذلك ما كان عن تطوع واختيار ! يستطيع الإنسان أن يمتصيه ! وكيف عنه !

والتشريع حين يكون عاماً تقتضى الحكمة فيه أن يكون قائماً على معيار يسع الناس جميعاً . الأقوياء والضعفاء . كما تقتضى رحمة الخالق بعبادة أن يكون التكليف مقدرّاً على ما يحتمل الضعفاء لا الأقوياء ، وأن يكون مافي الأقوياء من قدرة على احتمال ما فوق التشريع هو فضل من فضل الله عليهم . . يزدادون به كما لا فوق الكمال الذي بلغوه بأداء ما كلفوا به . . فإنه « ما على المحسنين من سبيل » !

وهنا يتضح معنى الآية السكرية « لا يكاف الله نفساً إلا وسعها » (١) ، فإن أى نفس لا تضيق بالتشريع الذى قد على قدر الضعفاء ، وفصل على مدى احتمالهم ! وما تسع نفوسهم .

لهذا كان تشريع الإسلام كله مضبوطاً على هذا التقدير . وكانت سيرة الرسول

في المسلمين ، وأدبه لهم ، قائماً على هذا الصراط المستقيم ، صراط الله الذي له مافى السموات وما فى الأرض ..

يقول الرسول صلوات الله ، وسلامه عليه : «سيروا بسير أضعفكم» !
فوكب الإسلام موكب ملاحظ فيه جانب الضعفاء فى ماديّات الحياة ومعنوياتها ، فلا يوطأ فيه الضعفاء بالأقدام ، ولا يتخطاهم الركب . . .
وهذا إعلان من نور ، وصحيفة مشرقة مسطورة بيد الرحمة والحكمة السماوية بمكانة الإنسان ، وقيّمته عند الله .

فالإنسان شيء عظيم عنده . . . ينبغى ألا يضيع بحال أبداً . . . وعلى الجماعة ، أن تتقيد به ، لا أن يتقيد هو بها ، ومن حق الإنسان الفرد أن يحيا فى الجماعة ، وأن ترعى الجماعة هذا الحق ، بل وأن تضحي بالكثير من جانبها لأجله . . .
فأين هذا مما تدور عليه حياة كثير من المجتمعات فى هذا العصر، عصر المدنية، وعصر الثور كما يسمونه ؟

إن الإنسان فى كثير من هذه المجتمعات لا يبدو أن يكون أداة من أدوات الإنتاج ، وأن مكانه فى الجماعة على قدر ما يعطى من محصول ! فإن لم يكن من القوى المنتجة فليلق به فى عرض الطريق ، وليذهب طهماً للجوع والحرمان !

وأين هذا الذى يلقاه الضعفاء فى ظل المدفئة الحديثة من امتحان وازدراء من هذا العطف والحنو ، والرعاية التى يلقونها فى ظل الدعوة الإسلامية وتحت جناحها ؟

رأى نبي الإسلام شيخاً من اليهود قد ضعف بصره ، وذهبت قوته وهو يتكفف ، فقال الرسول الرحيم . . . «ما أنصفناك ..» ثم فرض له فى العطاء !

وليس هذا شأن الإسلام مع الإنسان وسجده ، بل إنه مع كل حى . . . من حيوان وإنسان ..

فقد نهى الإسلام عن تجريح الحيوان ، أو إرهابه بالعمل . . فإن ذلك ظلم
كظلم الإنسان للإنسان . . له جزاءه السيء عند الله . .

ويكشف نبي الإسلام للناس عن صور من هذا المصير الذى يصير إليه أولئك
القسماء الذين يؤذون مخلوقات الله . .

يقول النبي الكريم : عذبت امرأة في هرة حبستها حتى ماتت ، فدخلت فيها
النار . . فلاهى أطعمتها ، ولاسقتها . ولاهى تركتها تأكل من خشاش الأرض . .

كما يكشف النبي الرحيم عن المصير الكريم ، والجزاء الحسن الذى يلقيه أصحاب
القلوب الطيبة الرحبية فيقول صلوات الله وسلامه عليه : وبيننا رجل يمضى فاستد
عليه العطش فوجد بئراً ، فنزل ، فشرب ، ثم خرج . . فوجد كلباً يلتمس ، يلتمس الثرى
من العطش فنزل فملا خفه ، فسقى الكلب ، فذكر الله له فغفر له . .

والحيوانات التى أحل الله لنا أكلها بعد ذبحها . يجب أن نرفق بها إلى آخر
لحظة من حياتها . . يجب أن نذبح ذبحاً حسناً . فلا يطول لإيلامها وتعذيبها ؛ فيقول
النبي الرحيم : « إذا ذبحتهم فأحسنوا الذبحة ، .

والحيوان المؤذى كالمقرب والشعبان ، وغيرها مما يتأذى الناس بمقامه بينهم
ينبغي إذا قتلناه أن نقتله من غير تعذيب له . . فنقتله لنُدفع أذاه ، لئلا تنسف منه :
« وإذا قتلتم فأحسنوا القتل » .

ذلك هو تدبير الإسلام فى رعاية الضعفاء والرفق بهم ، سواء أكانوا من
الإنسان أو الحيوان .

فإذا ظهرت فى هذا العصر بعض الدعوات التى تنادى بالرفق بالحيوان ،
فلأنها على ظاهرها الطيب البهيل - ليست نابعة عن طبيعة أخيلة ، ولأنها
صورة من صور الترويض عن الجوانب المفقودة فى الإنسان من عاطفة الحب
والرحمة ، بحيث استحسنت فى الناس رغبات التحكم والقهر والسيطرة من جانب
الأقوياء على الضعفاء ، أمماً وأفراداً ، وحيث تجلب هذه النزعات الحيثية الرحبية
(٢٨ - الهى محمد)

في تلك الحروب المروعة المدمرة التي تأتي على الأمم ، وتحصد الناس بنهر حباب ، وتغرق في بحورها العميقة الأطفال والشيوخ والنساء بلا رحمة . فكان هذا المظف البادى على الحيوان هو في الواقع تسكين عن هذه الجرائم ، وتبرير لها ، في حال معاً .

وقد يسأل سائل : كيف تمضى الحياة بهذا الركب الذي يدعو الإسلام الناس فيه إلى أن يسيروا بسير أضعفهم ؟ وهل يستطيع مثل هذا الركب « السلحفائي » أن يبلغ غاية : أو يحقق مقصداً ؟ أليس هذا هو سر تخلف المجتمع الإسلامى وسبب ضعفه وتخاذله بين المجتمعات الإنسافية ؟ وماذا يرجى لسائر يسير هذا السير الواهن المتخاذل بينما الناس يشدون وينطلقون ؟ ماذا يرجى لهذا الإنسان غير التخلف والضعف والقصور عن أن ينال شيئاً من طيبات الحياة التي تمتلئ بها أيدي الجادين المطلقين فيها ؟

ونقول : إن الذي يدعو إليه الإسلام في أن يسير المجتمع الإسلامى بسير الضعيف ليست غايته توهين قوى الأقوياء ، وإطفاء جذوة الحماس المتقدة فيهم — بقدر ما هي مآثر للضعفاء على إطلاق القوى الكامنة فيهم ، وبهشها من رقدتها . . عن طريق الغيرة والتنافس والمدوى التي تصيبهم من جانب الأقوياء .

إن تدبير الإسلام في هذا هو أن يجعل من طاقات الأقوياء ، ومن الحرارة والحماس الذي ملأ صدورهم - دفئاً يملأ صدور الضعفاء بالأمل والرجاء ، ويطرد من كياناتهم هذا اليأس الذي يقتال كل رغبة دافعة إلى السير في ركب الحياة !

إن الذي يريده الإسلام بهذا التدبير هو استنقاذ هذا العدد العديد من ضعفاء النفوس . أصحاب الهمم الفاترة ، والعزمات الخائرة ، حين يعطف عليهم الركب القوى فيضمهم إليه ، ويدعوهم إلى السير معه !

ولا شك أن في هذا كسباً كبيراً للجماعة ، وزيادة غير قليلة في رصيدها من القوى العاملة في الحياة ، بهذا العدد الكبير الذي يضاف إليها من الضعفاء الذين لولا هذا التدبير الحكيم لذهبوا مذاهب الضياع .

إن إطلاق أقوياء إنطلاقاً لا التفتات فيه إلى الضعفاء يوقع اليأس في قلوب المتخلمين فيظنون حيث هم ، إذ لا أمل لهم في اللحاق بالناس .

وربما بدا لبعض القائلين أن يقول : ولم لا يقع العكس ، وهو أن تحيى العدوى من الضعفاء إلى الأقوياء ، فيتحول الركب كله إلى دسلخفاء ، لا تتحرك أبداً . أو تتحرك إذا تحركت في تناقل وبطء ؟

ونقول أيضاً : إن هذا القول مردود لأهـور :

منها أن الإنسان مدعو من جانب ذاته وحب تحصيل الخير لـنـفـصـه أن يسعى ويعمل ، وأنه إذا وجد الجادين العاملين استولى عليه دافع يدفعه إلى مساهمة الناس واللحاق بهم وخاصة إذا وجد أنه لـ يـفـرـق في لجج الحياة أبداً إذا اندفع مع المندفعين وخاتته قراء لأنه سيجد أيدياً كثيرة تمتد إليه ، وتستدقده ، ولا تدعه وشأنه يلقى مسيره .

وهذه هي فائدة السير بسير الضعفاء . ، إنه يعطى إحساساً للضعفاء أنهم لو انفعوا وانطلقوا . فإن يتركوا إذا خارت قواهم ، وأدركهم الجهد والاعياء . وهذا لا يترددون عن الإقدام والمناصرة والاندفاع .

ومنها أن الإنسان — في الركب الإسلامى — مدعو إلى العمل والسكناح ، وذلك فوق ما فى نفسه من دوافع للعمل والسكناح حفظاً لـكـيـانـه — وأنه إذا قصر فى ذلك عند محالماً لـثـرـيـعة ذبـه التى تحت على العمل وتدعو إليه . وتجعله ضرباً من ضروب العبادة والقربى إلى الله .

يقول النبي الكريم « إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه » وليس اتقان العمل فى مجرد تجويده ، وإحسان صنعه كما يفهم كثير من الناس ، وإنما من تمام إتقانه الجـد فى أدائه . وإفراغ ما فى الوعاء لـلـنـحـازـه فى سرعه . وفى إتقان .

هذا ، وليست دعوة الإسلام —هــذه بالـى تأخذ على الأفراد طريقهم

في الانطلاق إلى غاية ما تحتل طاقتهم . فإن كل فرد له في مجال عمله أن يطلق كل قواه ، وأن يتحرك في كل مجالاته . ما دام لم يعتمد على أحد ، أو لم يفوت حقاً على أحد . .

فالناس في ظل هذه الدعوة في حرية مطلقة للعمل حسب طاقتهم واستعداداتهم . ولكن الذي تدعو إليه تلك الدعوة هو أن تنسق حركات الناس حين يكونون في عمل جماعي يقتضى أن يعملوا له جميعاً ، سواء أكان ذلك في شئون الدنيا أم في شئون الدين كالسير إلى الجهاد لملاقاة العدو . فإن واجب الجماعة أن تسير في ركب واحد وأن تنظر إلى الجانب الضعيف منها ، فلا تحمله على ما عند الأقوياء من قوة . . أما إذا لاقوا العدو فعلى كل مقاتل أن يعطى كل ما عنده من قوة . . فلا يقع مثلاً — أن يسير على بن أبي طالب في مضاربة العدو بسير حسان بن ثابت ، وإن كان ذلك واجباً أن يكون في حال السير إلى جهة القتال ، لا في ميدان القتال ، والتحام المعركة .

وفي الصلاة — صلاة الجماعة — ينبغي أن يكون أداء الصلاة على قدر طاقة الضمءاء ، حتى لا يكون في أدائها ما يشق على المرضى والعجزة والشيوخ . . وهذا ما ينص به الحديث : « من أم فليخفف » .

ومن جهة أخرى . . هل مطلوب الحياة من الناس أن يهجروا حتى يلهثوا ، وحتى تنقطع أنفاسهم ؟

إن الأعدال في العمل ، والموازنة بين الحركة والسكون ، وبين العمل والراحة ، فيه الكفاية كل الكفاية لحاجة الإنسان في الحياة ، وتحقيق مطالباته منها .

ومن جهة ثالثة . . فإن دعوة الإسلام هذه رحمة بالأقوياء أن يشقوا على أنفسهم وأن يهجروا كل طاقتهم في سكرة الانطلاق وحميا التزاحم والتنافس . . فكثيراً ما يذهل الإنسان عن نفسه ، وينسى ما ينبغي أن يكون لبدنه ، وعقله

من حق في الدعة والراحة . . وكثيراً ما يكون هذا سبباً في انحلال قوى الإنسان ، انحلالاً مفاجئاً ، فيفسد جهازه ، وتعطل ملكاته ، ويصبح غير صالح للعمل القليل ، فضلاً عن الكثير . وفي هذا يقول الرسول الكريم : « إن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى ، . . ولعل فيما نرى في المجتمعات الأوروبية والأمريكية التي جرفت تيارات الحياة المادية ، وألغتها سيئات التنافس ، والتسابق في الحصول على المال — لعل فيما نرى من الآثار السيئة التي أصيب بها الناس من انحلال في القوى الجسدية والعقلية فوق ما أصيبوا به في قواهم الروحية — لعل في هذا شاهداً ودليلاً .

نعود بعد هذا إلى ما في مقررات الدعوة الإسلامية من مظاهر اليسر والرحمة بالناس . . ففي القرآن الكريم ، وفي سنة النبي القولية والعملية منهج واضح متكامل لتربية المجتمع الإسلامي وإقامته على طريق الاعتدال في أموره جميعها ، الديني منها والدنيوي على السواء ففي القرآن الكريم :

يقول الله سبحانه وتعالى: « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » (١) . ويقول سبحانه: « الذين يتبعون الرسول النبي الأمي ، الذي يجدره مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ، يأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم » (٢) . لقد كانت الديانات السابقة تأخذ أتباعها بأنواع من العقاب ، لما كان منهم من عناد ، وبغى وظلم ، فتحرم عليهم بعض الطيبات التي كانت من قبل حلالاً لهم ، كما يقص القرآن من أنباء بني إسرائيل : « فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم ، وبصدمهم عن سبيل الله كثيراً ، وأخذهم الربا وقد نهوا عنه ؛ وأكلمهم أموال الناس بالباطل » (٣) ، وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر ، ومن البقر

(٢) سورة الأعراف : آية ١٥٧

(١) سورة البقرة : آية ٢٨٦

(٣) سورة النساء : آية ١٦١

والغنى حرمنا عليهم سحومهما إلا ما حملت ظهورهما ، أو الحوايا ، أو ما اختلط بعظم ، ذلك جزيناكم بغيبهم » (١) .

وقد جاءت الشريعة الإسلامية فرفعت هذا الحظر ، وأباحته لاتباعها كل طيب : « اليوم أحل لكم الطيبات ، وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم ، وطعامكم حل لهم » (٢) . « قل لا أجد فيما أوحى إلى محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقاً أهل لغير الله به » (٣) . « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا ، خالصة يوم القيامة » (٤) .

ثم إن القرآن قد حمل إلى المسلمين دعوة يدعون بها الله : « ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الدين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به » (٥) . وفي هذه الدعوة الضارعة إلى الله تخفيف ورحمة .

وكثير من آيات القرآن تحمل إلى المسلمين هذه الدعوة إلى الرفق ، وإلى القصد في الأمور : « والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ، ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً » (٦) . « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتتعد ملوماً محسوراً » (٧) .

وهل منهج أعدل وأكمل من هذا المنهج الذي دعا الله إليه نبيه ، وهل أدب يناظر هذا الأدب الذي أخذ به في قوله تعالى : « حذوا العفو ، وأمر بالعرف ، وأعرضوا عن الجاهلين » (٨) .

فهل رحمة بعد هذه الرحمة التي تحف بالمسلم ، وتوف عليه من ظلال شريعته السمحاء ؟ إن الذي يستقيم على شريعة الإسلام لا تتعثر بخطاه ، ولا يتثقل

- | | |
|---------------------------|-----------------------------|
| (١) سورة الأنعام آية: ١٤٦ | (٢) سورة المائدة: آية ٥ |
| (٣) سورة الأنعام: آية ١٤٥ | (٤) سورة الأعراف: آية ٣٢ . |
| (٥) سورة البقرة: آية ٢٨٦ | (٦) سورة الفرقان: آية ٦٧ . |
| (٧) سورة الإسراء: آية ٢٩ | (٨) سورة الأعراف: آية ١٩٩ . |

طهره ، لأنه يئب في ركب الحياة نشيطاً قوياً ، لا يتقله قيود ، ولا نوه نواه أعباء . إذ أن كل ما نكلفه الشريعة به هو في واقع الأمر زاد عتيد ، يعينه على الحياة ، ويثبت أقدامه فيها ، وليست تلك التكاليف مما يهبط الإنسان ويحطم ظهره ، هي حمل على كل حال ، ولكنها لا تعدو أن تكون ذلك الحمل الذي يحمله المسافر من زاد يتزود به ، وعتاد يعينه على الطريق !

الرحمة عزوان الإسلام : والإله الذي يتوجه إليه المسلمون بصلاتهم وولائهم هو « الرحمن الرحيم » ، وليس « رب الجنود » كما تدعوه اليهود . . !

الإنسان في القرآن :

الإنسان — من حيث هو ذات لها وجودها الخاص هو في واقع الأمر متوجه الرسائل السماوية ومماط أوامرها ونواميها . . فغاية هذه الرسائل هداية الناس ، وإسعادهم ، وتوثيق روابط الألف والمودة بينهم .

والفرد هو القوة العاملة في الخلية الإنسانية . فإذا صلح الفرد كان لبنة صالحة في بناء تلك الخلية . وعلى قدر ما في الخلية من أفراد صالحين يكون حظها من الصلاح ، ومكانتها في بناء المجتمع الإنساني !

الحياة تجري على هذا الناموس . من الذرة يتكون الجبل . ولا تقوم الشجرة العظيمة إلا من البذرة ، ولا النخلة الباسقة إلا من النواة . ولا تكونت الأنهار العظيمة إلا من قطرات المطر . . قطرة قطرة .

كذلك المجتمع الإنساني . هو مجتمع لم يأخذ هذه الصفة ولم يحىء على تلك الصورة إلا لأنه فرد يقوم إلى جانب فرد ثان إلى جانب فرد ثالث . . وهكذا . إلى ملايين ومئات الملايين من الأفراد .

والإسلام ينظر إلى المجتمع الإنساني من خلال « الإنسان » الفرد . فلا يرى المجتمع كتلة متضخمة من لحم ودم . وإنما يراه أفراداً مجتمعة . كل فرد له

وجوده الخاص ، وله حساب المستقل . ثم له حساب آخر فى رصيده المجتمع
الإنسانى الكبير .

يتحدث القرآن عن الإنسان فى أول آية نزل بها جبريل على الرسول الكريم :
« اقرأ باسم ربك الذى خلق . . خالق الإنسان من علل . اقرأ وربك الأكرم
الذى علم بالقلم . . علم الإنسان ما لم يعلم » (١) .

فأفراد الإنسان هنا غاية الإلفات إلى ذاتية الإنسان الفرد ، وأنه خلق خلقاً
مستقلاً . خلقاً سبق خلق الناس . فالإنسان هو الأصل . . والناس لامفهوم لهم
إلا بالإنسان . ويتكرر هذا المعنى فى القرآن أكثر من مرة . فيقول تعالى فى
موضع آخر : « ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه » (٢) . « فآله خلق
الإنسان . . ومن الإنسان كان الناس » ويقول سبحانه : « ولقد خلقنا الإنسان
من سلاله من طين » (٣) والإنسان هو مخلوق الله ، والناس من الإنسان . ويقول
سبحانه : « إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج ، نبئليه ، فجعلناه سميعاً بصيراً » (٤) .

لأفراد الإنسان فى تلك الآيات التى تتحدث عن خلق الإنسانية ونشأتها
لا يمكن أن يكون لغير علة . فما وردت إشارة فى القرآن إلى خلق الإنسان إلا فى
هذه الصورة المفردة ، وحق حين يخاطب الناس ويلفتون إلى نشأتهم لا يطلق
الخطاب عاماً وإنما يردده إلى الإنسان الفرد . « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر
وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل ، لتعارفوا » (٥) .

فالشعوب والقبائل لم تخلق هكذا شعوباً وقبائل ، وإنما جعلت من المخلوق
الفرد ، وهو الإنسان ، من ذكروأنثى . فالفرد أصل ، والمجتمع وليد هذا الفرد ،
وثمره بذرة .

(١) سورة العلق : آيات ١ — ٥
(٢) سورة ق : آية ١٦
(٣) سورة المؤمنون : آية ١٢
(٤) سورة الإنسان : آية ٢
(٥) سورة الحجرات : آية ١٣

وبهذا التقدير كانت نظرة الإسلام إلى المجتمع الإنساني . الفرد أولاً ، ثم الجماعة بعد هذا ، فهو يشهد داء الفرد ، ويقوم وجوده ، ويدعم كيانه ؛ ثم يبعث به عضواً صالحاً يأخذ مكانه في كيان أكبر منه هو كيان الأسرة ، ثم هو مع الأسرة في كيان أكبر .. هو المجتمع .

والتشريع الإسلامي يخاطب الفرد ويوجه إليه أوامره ونواهيه . يخاطبه باعتباره ذاتاً مسؤولاً عن أعماله ، محاسباً عليها . ويخاطبه باعتباره حلقة حية في كيان المجتمع ، يصيبه ما يصيب هذا المجتمع من خير أو شر .

ثم يكون حصار هذه الأعمال الذي يحصده المجتمع من الخلق الإنساني للحياة موزعاً على العاملين جميعاً . كل حسب ما بذل من جهد ، وما عمل من عمل : « من عمل صالحاً فلنفسه ، ومن أساء فعليها » (١) . « من يعمل سوءاً يجز به » (٢) « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » (٣) .

وفي القرآن الكريم سورة سميت باسم الإنسان .. وفيها الخطاب موجه إلى الإنسان الفرد في آياتها الأولى ، وموجه إلى الإنسانية في الآيات التالية . « يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم ، الذي خالقك ، فسواك فعادل ، في أي صورة ما شاء ركبك .. كلا ، بل تكذبون بالدين ، وإن عليكم لحافظين ، كراماً كاتبين ، يعلمون ما تفعلون .. » (٤) .

والذي يتدبر آيات الكتاب في هذا الأمر يجد تصريحاً عجيباً في توجيه الأوامر والنواهي هذا التوجيه المردد بين الفرد والجماعة .

فآيات الأحكام كان من شأنها أن تجيء في صورة الخطاب الجماعي ، لأن شريعة الإسلام شريعة عامة لكل من يدين بها من الناس - فالصلاة ، والزكاة ،

(٢١) سورة النساء : آية ١٢٣
(٤) سورة الإفطار : الآيات ٦ - ٩

(١) سورة فصلت : آية ٤٦
(٣) سورة الزلزال : ٧ ، ٨

والصيام ، والحج فرائض عامة على المسلمين جميعاً — هذه الآيات قد جاء فيها الخطاب جمعاً كما جاء مفرداً .. يخاطب الجماعة حيناً ويخاطب الفرد حيناً .. وأحياناً يزواح بينهما ، فيحمل الخطاب في صدر الآية للفرد ، ثم يجعله في آخرها للجماعة ، أو العكس .. فن الآيات التي توجه فيها الخطاب للجماعة ، قوله تعالى : « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، واركعوا مع الراكعين » (١) . . وقوله تعالى : « آمنوا بالله ورسوله ، وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ، فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير » (٢) . وقوله سبحانه : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله » (٣) .

ومما جاء فيه الخطاب مفرداً قوله تعالى : « ومن يعيش عن ذكر الرحمن فيضي له شيطاناً ، فهو له قرين » (٤) . « من عمل صالحاً فلنفسه . ومن أساء فعليها وما ربك بظالم للعبيد » (٥) . « يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فثلاقيه . فإما من أوتى كتابه يمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً ، ويقلب إلى أهله مسروراً » (٦) .

ومما توجه فيه الخطاب إلى الفرد والجماعة معاً على الوجهين تقديمياً وتأخيراً :

قوله تعالى : « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا » (٧) .

وقوله سبحانه : « الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة » (٨) .

وقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الادبار ، ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة ، فقد باء بغضب من الله ، وماواه جهم وبئس المصير » (٩) .

- | | |
|----------------------------------|-----------------------------|
| (٢) سورة الحديد : آية ٧ | (١) سورة البقرة : آية ٤٣ |
| (٤) سورة الزخرف : آية ٣٦ | (٣) سورة التوبة : آية ٧٩ |
| (٦) سورة الانشقاق : الآيات ٦ - ٩ | (٥) سورة فصلت : آية ٤٦ |
| (٨) سورة النور : آية ٢ | (٧) سورة المائدة : آية ٣٩ |
| | (٩) سورة الأنفال : آية ١٦ . |

ونقف هما وقفة فصيحة عند تلك الآيات التي زاوجت بين خطابات الفرد وخطاب الجماعة . . نقف للشهد مهداً راتماً من مشاهد الإعجاز القرآني ففي الآيات من روائع الإعجاز ما يملك على الراء مشاعره ، فلا يكاد يدري ما يصنع إزاءها . . ولو جاز الـ حود لغير الله لكان هذا القرآن أحق ما يسجد له !

فانظر في قوله تعالى : « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما » !

جاء الخطاب في صدر الآية محدثاً عن المفرد : السارق ، والسارقة ، ثم جاء الحكم موجهاً إلى الجماعة . .

ذلك أن السرقة إنما تقع في أغلب الأحيان من الفرد الواحد ، ولا تنبع من جماعة إلا نادراً ، وفي هذه الحال تأخذ صورة غير صورة السرقة فتكون غصباً ، أو قطع طريق .

أما تنفيذ الحكم ، وإقامة الحد على السارق ؛ فهو إلى الجماعة التي خرع الفرد على نظامها . وخالف شريعتها !

فإقامة النظام وتنفيذ أحكام القانون — الشرعي أو الوضعي — واجب على الجماعة . . إن فرطت فيه ، أو تخاذلت عنه كانت آثمة في حق نفسها معرضة للفوضى والضياع .

وكذلك الشأن فيما في الآية الثانية « الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة » .

أما الصورة الثالثة : « يأبى الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار . ومن يؤلم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال ، أو متحيزاً إلى فئة . فقد باء بغضب من الله . وماواه جهنم وبئس المصير » .

ففي هذه الصورة : جاء التوجيه عاماً للذين آمنوا عند لقاء العدو ، ونهوا عن أن يولوا عدوهم الأدبار . وأن يفروا من ميدان المعركة .

وهذا التوجيه ملزم للمسلمين جميعاً أن يقيموا عليه في ساحة الحرب . .

وقد نصح فيات المسلمين جميعاً ، وينتقد عزمهم على تنفيذ هذا التوجيه الملزم ،
والأخذ به .

ولكن حين تدور رحى الحرب ، ويحمى الوطيس ، قد تنحل بعض العزائم ،
وتستكره بعض النفوس ربح الموت . فيدعوها ذلك إلى التمسك بالفرار .
أو المسارعة إليه ..

وهنا موقع الإعجاز فيما جاء في الآية من إحكام وتدبير ؛

ومن يولهم يومئذ دبره الامتحرافاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة . فقد باء بغضب
من الله . . .

إنها تمسك بالمقائين من المسلمين فرداً فرداً . لتقول له : اذكر أنك إذا وليت
ظهورك للعدو - إلا متحرافاً لقتال ، متحيزاً مكاناً مناسباً ، أو منضماً إلى جماعة من
إخوانك — إنك إن أعطيت العدو ظهورك فأراً من ميدان القتال ، فقد رجعت
محملاً بغضب من الله ، على حين ترجع جماعة المسلمين بثواب عظيم ورحمة
ورضوان . سواء منهم من رجع إلى الله مستشهداً في ميدان القتال ، أو رجع إلى
بيته سالماً أو جريحاً . .

* * *

ونعود إلى موقف القرآن من الإنسان . .

ولسأل بعد هذا ؟

أهناك نظام اجتماعي سليم معاني من أدواء الانحلال والتفسيخ — يقوم على
وحدات من الأفراد لا ترابط بينهما . كل فرد فيها عالم وحده . يعيش بنفسه
ولنفسه . أو يقوم على جماعة قد اندمجت فيها الأفراد اندماجاً كاملاً حتى ذابت
ذاتية الفرد . وذابت معاملته ؟

هل هناك مجتمع على هذه الصورة أو تلك ؟

ربما ؛

يحدث جان جالت روسو في كتابه «العقد الاجتماعي» عن صورة متخيلة غير
محتقة فالمجتمع الأول . . المجتمع الذي تنأثر فيه الأفراد كما تنأثر قطع الأحجار
على صـدر الصـحراء . . كل فرد يعيش منعزلاً على نفسه . لا يشعر بأحد
ولا يشعر به أحد . .

يقول «روسو» :

« ولا يبق بعد ذلك سوى دين الإنسان (١) . أو المسيحية . لا مسيحية
اليوم ، ولكن مسيحية الإنجيل . وهي تختلف عنها تماماً .

« فبمقتضى هذا الدين المقدس السامى يعترف الناس - وهم جميعاً أبناء نفس
الرب - بأن الجميع إحوة ، وأن المجتمع الذى يؤلف بينهم لا يحل حتى الموت .

« بيد أن هذا الدين لما لم تكن أية علاقة خاصة بالجسد السياسى - فإنه - يترك
للوفائين - السارية - القررة الوحيدة التى تستمدّها من ذاتها ، ولا يضيف إليها أية
قوة أخرى . .

« وبذلك تظل رابطة من روابط المجتمع الخاصة - بلا أثر . .

« وأكثـر من ذلك . . فبدلاً من أن يربط قلوب المواطنين بالدولة ، يبعدها
هنا . باعتبارها من أشياء الدنيا . .

« ولست أعرف شيئاً أكثر تناقضاً مع الروح الاجتماعية من ذلك .

ويسطر روسو فيقول :

« ويقولون لنا : إنه إذا أوجده شعب من المسيحيين الحقيقيين . فلأنهم
يؤلفون مجتمعا ، هو أكثر المجتمعات التى تستطيع أن نتصورها كمالا . .

(١) أى النظام الذى يجعل الإنسان وحدة قائمة بذاتها ، لا صلة لها بمن حولها .

« وأنا لا أرى في هذا المرض سوى سموية كبرى واحدة، هي أن المجتمع
المسكون من مسيحيين حقيقيين لا يعود مجتمعاً من بشر .

« بل وأقول أيضاً إن هـ . المجتمع المزعوم لن يكون — رغم كل هذا —
أقوى المجتمعات ولا أدومها .

« فبقدر كماله ستوزع الرابطة ، وستكون جرثومة هلاكة في كماله ذاته . . .
— أي في هذا المجتمع المثالي .

« فكل إنسان سيقوم بواجبه : يخضع الكعب للقانون ، والرؤساء عادلون
ومنعمنون . والحكام مخلصون ولا يفسدون . . والجنود يحترمون الموت .
ولن تسكون هناك خيلاء ولا ترف وكل ذلك جميل جداً .

« ولكن دعنا ننظر فيما هو أبعد من ذلك :

« إن المسيحية دين روحاني تماماً . لا تشغله سوى أمور السماء وحدها .
فوطن المسيحي ليس في هذا العالم . .

« وصحيح أنه يقوم بواجبه : ولكن يقوم به بعدم مبالاة عميقة بنجاح ما يهمل
به لإليه أو فشله ، فهو إذ لا يجد ما يلوم عليه نفسه . لانه كثيراً أن يسموه
الحال أب . يسمون على هذا الأرض .

« فإذا ازدهرت الدولة لا يكاد يجرؤ على التمتع بالبهجة العامة . ويخشى أن
يفخر بمجد بلاده . وإذا هلكت الدولة يبارك في الرب التي ألقت ثقلها على
سحبها !

ويستطرو روسو أيضاً هذا الموقف فيقول :

« ويجب في هذه الحالة أن يكون جميع المواطنين بلا استثناء مسيحيين صالحين
على السواء . حتى يعود السلام المجتمع ، ويهم التوافق .

« ولكن إذا وجد — أسوء الحظ — رجل واحد طموح . . وراء واحد
تأملينا مثلاً — أو كرومويل — فإنه سيوجد بلا ريب سوقاً رائجة في مواطنيه
الأتقياء . فإذا استطاع واحد من أولئك أن يفرض نفسه على مواطنيه

ويستولى بخدمة ما على جزء من السلطة العامة ، فمرعان ما يصير موضع كل
تسكيريم . فمن إرادة الله أن يكون موضع احترام . . وسرعان ما يسير صاحب
سلطان ، وإرادة الله أن يطاع . . ١١

ثم يقول روسو :

« بيد أنى أخطئ إذ أتكلم عن جمهورية مسيحية . . فالكلمتان متنافيتان . .
« إن المسيحية تبشر بالعبودية والطاعة . وروحها ملائمة أكثر مما ينبغى للطفليان .
ويستغل الطفليان دائماً هذه الحقيقة لصالحه . . إن المسيحيين الحقيقيين خلقوا
ليكونوا عبيداً . .

ثم يقول أيضاً :

« ويقال لنا : إن الجنود المسيحيين يمتازون . وأنا أنكر ذلك وأتحدى من
يثبت لى ذلك !

« أما أنا فلا أعرف كتابات مسيحية !

« وسينذكر لى البعض الحروب الصليبية . ولست أرى دون أن أناقش فى قيمة
الصليبيين أقول إنهم لم يكونوا مسيحيين ، بل جنود القساوسة ، ومواطنى
الكنيسة . فالوطن الذى قاتلوا من أجله كان وطناً روحياً ، ولست أدرى كيف
جملته الكنيسة زمناً (١) ٩٩ ،

وليس بعد قول هذا الكاتب الاجتماعى العظيم الذى أشعل مار الثورة الفرنسية
بكتابات وآرائه — ليس بعد قوله من يقول إن النظرة المتوازنة التى نظر إليها
الإسلام إلى الإنسان ، حين جعل له ذاتية ، ثم جعل هذه الذاتية تعمل بإرادة .
وضيق وعقل فى كيان المجتمع الإنسانى — ليس من يقول بعد هذا إن الإسلام كان
جائراً على الفرد ، محقراً من شأنه . وحاعة أولئك الغربيين الذين يحاولون دائماً
أن ينزلوا من قدر الإسلام بحسبان أن ذلك مما يعلى قدر المسيحية . ويرفع شأنها !

ولكن أكثر هؤلاء القوم يعلنون من أمر الإسلام ما يعلم هذا الكاتب الحر ،
إلا أنهم يعز عليهم أن يقولوا كلمة الحق ، إذا كان فيها ما يزيح الإسلام . أو
يكشف حقيقة من حقائقه المشرقة .

يقول جرونيباوم في كتابه « حضارة الإسلام » :

« والإسلام .. من بدايته — لم يعترف للإنسان إلا بقليل من التقدير ،
وينزع القرآن إلى إقناعه بمهانة أصله الجسدي . فيصف خلق الفرد وتكوينه
تفصيلاً : « ولقد خلقنا الإنسان من سلاقة من طين ، ثم جعلناه قطرة من قرار مكين ،
ثم خلقنا النطاة علقه ، فخلقنا العلقه منضغة فخلقنا الموضغة عظاماً ، فكسونا
العظام لحماً » (١) .

فإذا يريد هذا السيد من القرآن أن يقول غير هذا في الإنسان ؟ الإنسان الذي
ينسى دائماً أنه من سلاقة يرجع إليها أصل كل إنسان ؟ ماذا يقال للإنسان الذي
يحقر أخاه الإنسان . ويتخذ لنفسه نسباً آخر غير هذا النسب الذي يلتقي فيه مع
الناس جميعاً ؟

أليست هذه حقيقة خلق الإنسان ؟ ثم أليس هذا هو موقف كثير من الناس
من الذهول عن هذه الحقيقة ؟ وتقسيم الشعوب إلى منازل ودرجات ، حسب
ما يجرى في عروقها من دم ، وحسب ما يكون لبشرتها من لون ؟

إن الإسلام لا يكاد يعترف للإنسان عن أصله هذا إلا ليقتل نوازع التفرقة
العنصرية التي عانت البشرية منها ما عانت من ألوان التسلط والقهر ، ومن صور
الاستهلاء والاستعباد . . ولا يزال هذا الداء يخامر أهدأ وشعوباً إلى يوم
الناس هذا .

يريد الإسلام بهذا أن ينزل الإنسان — كل إنسان — على حكم الآية

الكريمة : « يا أيها الناس ، إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل
لتعارفوا . . إن أكرمكم عند الله أتقاكم . . إن الله عليم خبير » (١) . . وأن يكون
سلوك الإنسان — كل إنسان — قائماً على هدى الرسول الكريم : « أيها الناس
إن أباكم واحد وإن أصلكم واحد . . كلكم لآدم . . وآدم من تراب ، لأفضل
لعرقي على عجمي ، ولا لأبيض على أحمر إلا بالتقوى » .

✽ ✽ ✽

تلك هي الرسالة التي تلقاها « محمد » من ربه ، ونسب نفسه لها ، وجاهد في
سبيلها ، واحتمل ما احتمل من ألوان الأذى والضرر من أجلها . فكان له هذا
النصر المبين ، وكان لرسائله هذه انثرات الطيبة المباركة في الحياة ، بما غرست في
القلوب من إيمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر . وبما سمعت
للناس من مناهج الحق ، والخير والإحسان . . وتلك عقبى الدعوات الصادقة ،
والنيات الخاصة . . لا يخطئها النجاح أبداً ! وإن قامت في وجهها العواصف ،
واعترضت طريقها المعابر ، فإن يد الله قائمة عليها ، تشد أزرها وتثبت خطواتها ،
وتتمكن لها أسباب البقاء في الحياة .

خاتمة ... ومفتتح !!

وبعد ..

فهل فرغ حديثنا في سيرة الرسول ؟

وهل أخذت النفس بحفظها من حديث السيرة ، على الوجه الذى قصدت إليه ،
وتصورته ، وخططت حدوده ومعالجه ؟

والحق أن حديث السيرة النبوية — حسب ما أردت — لم يبدأ بعد . .
لذا أنى حين أقلب هذه الصفحات الكثيرة التى كتبتها هنا ، والتى تبلغ المئتين
عداً — أكاد أنكرها ، لأنها لم تكشف لى من سيرة الرسول بعض ما عرفت من
آياتها الوضيئة المشرقة ، ولم تفض على من¹ النفحات الزكية الطيبة ما كنت أجد
حين أمسك بطرف من أطراف السيرة الكريمة ، أو أورد الخاطر على منهل
من مناهلها !!

وأشهد لقد غلبنى على أمرى فى هذا البحث ما وجدت من مغريات وأباطيل
رمى بها المفترون المبطلون فى دهاء خبيث وفى حقد أعمى — رموا بهده
المغريات فى ثنايا السيرة الكريمة ، رجاء أن يكشفوا من أضوائها ، أو يجبروا
من أنوارها ، ثم ليكون لهم من ذلك الضلال طريق إلى الشريعة الإسلامية وإلى
كتابها الكريم ، حين قدروا ألا قيام للشريعة ولا احترام لكتابها إذا كان فى
صاحب الشريعة وحامل كتابها ما يريب أو يعاب . وهم فى هذا التمهيد مهبطون
إلى حده بعيد ، لو أنهم بلغوا ما ينفون ، ونالوا ما يمتنون ، وهيات ، وهيات

وكما قلنا من قبل : لأنه وإن كانت النبى ذاتيته . والقرآن ذاتيته — فليهما فى
واقع الأمر كيان واحد ، وإن أى مثلية نصيب أحدهما — وهيات — هى
قسمة سواء بينهما . إذ كان القرآن هو شريعته الإسلام قولاً ، ولذا كان النبى

هو شريعة الإسلام عملاً ، فإذا خالف قول صاحب الشريعة عمله ، أو كذب عمل صاحب الشريعة قوله لم يكن للشريعة ، ولا لصاحب الشريعة سلطان على الناس ، ولا مقام في الحياة . .

ولهذا كان أبلغ وصف وأصدق للنبي ما وصفته به ، « السيدة عائشة » وقد سئلت عن خلقه ، فقالت : « كان خلقه القرآن » أي أنه والقرآن كيان واحد ، فالنبي هو التفسير الحق لما نزل عليه من آيات الله .

ولاذن فلم تكن هذه المفتريات التي زحف بها الجهلة والمضللون على سيرة الرسول — لم تكن مقصوداً بها الرسول لذاته ، وإنما كانت غايتها تدمير الشريعة وصاحب الشريعة جميعاً ، ثم يأتي من وراء ذلك تدمير المجتمع الإسلامي كله ، وتضييع أكثر من أربع مئة مليون إنسان يديرون بهذه الشريعة ، ويجعلون مصيرهم إليها !

أرأيت لذن جنافية آثم من هذه الجنافية ، وأغلظ جرماً وشناعة منها ؟ فإلى أين تتجه هذه الملايين ؟ وإلى أي مساق نساق هذه الأمم إذا صح تقدير هؤلاء المضللين ، فتخلت هذه الملايين عن شريعة الإسلام ونبتتها وراء ظهورها ؟

أتذهب إلى المسيحية ؟ إن أصحاب هذه المفتريات لا يؤمنون بالمسيحية ولا يعترفون بها ، وإن نسبوا إليها ، وحسبوا من أهلها ؛ لأنهم أعداء المسيحية ، وعدو لكل دين !

وما للإسلام عندهم من ذنب إلا أنه دين ! .. دين نزل من السماء ، ولم يخرج من التراب والطين !!

ولذا كان في المسيحية وفي أسرارها ومشتغلها الثلاث فيها مالا تسليسه عقول هؤلاء الذين كفروا بالمسيحية ولا تفهمه فلسفتهم . . فهل كان ذلك شأن الإسلام عندهم ، وهل جاءوا إليه بقلوب سليمة . وعقول صحيحة فوجدوا فيه شيئاً لا يستقيم مع العقل أو يخرج على شرائط التفكير . . في أوسع مجالاته وأعرق أغواره ، وأدق مسائله ؟

هذا هو الإسلام — عقيدة وشريعة — في معرض النظر لكل ناظر ، لا يقوم
دونه سدة أو كهان ، ولا يستأثر بشيء منه أحد دون أحد . فهل جاءوا عليه
بشاهد واحد من العقل يقول فيه قولاً ينسكركه عاقل ، أو ترده الحياة ، ويأباه
نظامها وعمرانها ؟

وكذب وافتراء ، وإمعان في الكذب والافتراء أن ينظر في الإسلام ناظر
منصف ، بعيد عن الهوى ثم يجد في الإسلام ما لا يستقيم مع الحياة ، أو ما لا يجري
مع سن الطبيعة ونواميدها !

لقد بذر الإسلام بذوره الأولى في أفقر مكان وأجدبه ، وفي أقصى قلوب
وأصلدها ، وفي أظلم عقول وأضلها ، ثم لم يمض جيل من أجيال الناس حتى أثمر
هذا البذر أطيب ثمرات الإنسانية وأكرمها ، نخرج في جيل واحد من العلماء ،
والفقهاء ، والساسة ، والقادة ، أعداداً وفيرة ، يصلح كل فرد فيها أن يكون قائد
ركب الحياة كلها ، إلى مواطن الخير والفلاح !

ولم تكن مغارس الإسلام هذه في أمة من الأمم ، أو في شعب من
الشعوب ، بل كانت مغارسه في الإنسان من حيث هو إنسان . . ففرس في قریش
كما غرس في الفرس ، والروم ، والحبش !! لجمع إبلالا الحبشى مع عمر القرشى ،
مع عمار الفارسي مع صهيب الرومي ، ليقم من ذلك شاهداً على أنه دين الإنسان
— من حيث هو إنسان — مجرداً من الجنس واللون والمواطن ! وأن أي إنسان
يشجعه إليه ، ويرد موارده يجد أطيب زاد الدنيا والآخرة جميعاً .

ذلك هو الإسلام ،

أفليس من العدوان على الحق ، والتضييع للخير أن تسكدر موارد هذا المورد
العذب ، وتدمي سبله ، وتطمس معالمه ، أو يضلل الناس عنه أو يحال بينهم وبينه
هالك الأراجيف وهذه المبطلات ؟

ثم هذا نبي الإسلام محمد عليه الصلاة والسلام .

ماذا أخذ من دنيا الناس ، وماذا جمع من أموال ، وحصل من ذهب وفضة ،
وماذا اقتنى من ضياع وقصور ؟

أيحسب في المخادعين ، والكذابين والمحتالين من يرد كل هذه الدنيا التي وقعت
بين يديه ؟ .

وماذا ينبغي المخاتل بختله ، والكذاب بكذبه ، والمنافق بنفاقه ، والمدعى
بإدعائه ، والمنهوذ بشعوذته — ماذا يريد هؤلاء ومن على شاكلتهم إلا أن
يفيدوا مالا . أو يحصلوا ثراء ، أو يستكثروا مما عندهم من المال والثراء ؟

ولقد عرفت الحياة كيف كان طعام محمد ، وكيف كان لباسه ، وكيف
كان مأواه وفراشه .

أما ماخلفه وراءه من طعام الدنيا . . فلا شيء ، إلا درعاً مرهونة عند
يهودى ، في قوته وقوت أهله .

ثم كان أن حسم الأمر جميعه فيما فرض على ورثته من بعده ألا يرثوا شيئاً
من ممتلكاته إن ترك وراءه مايورث . فقال : « نحن معاشر الانبياء لا نورث ،
ما تركنا فهو صدقة » .

فلن كان هذا الجهاد الذى جاهد ، وهذا الضر الذى وجد ، وهذا الأذى
الذى احتمل ؟

لأنه لله ، وفى سبيل الله ، والحق الذى بين يديه ، وفى سبيل الأمانة التى حملته
السيما إياها ، وكلفته أداها إلى الناس جميعاً . . « قل ما سألكم عليه أجر ، إلا
المودة فى القربى » (١) .

فلو لم يكن محمد نبياً . . ألما كان من حقه على الإنسانية — كإنسان —
أن يمجّد وأن يكرم ، وأن تكون سيرته فى مسمع الحياة وبصرها ، آية
للمؤمنين ، ودرساً للدارسين ، وقدوة للمقتدين . لهذه المعاني الكريمة التى اشتمل
عليها ، ول هذه المثل العالية التى عاش بها ، ولهذا السمو الروحى الذى خلق فيه ؟

فأى خير فى الحياة ، وأى صلاح يرجى للناس إذا كان يحفظ الماملين المخلصين الشرفاء الأطهار أن يلقوا من الناس إنكاراً ، وجهوداً . وأن يكون فى الناس من يلقق لهم إلا كاذب ، ويزيف عليهم الأباطيل ؟

ومع هذا . . . فإن الخير هو خير . حيث كان ، ولأن الكلمة الطيبة لا تسقط أبداً . . . لأنها كشجرة طيبة . أصابها طيب وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها . . .

وقد وفى الله سبحانه « محمداً » أجره ، وأجزل له المثوبة ، فرفع ذكره فى العالمين ، ومكن لدعوته فى الحياة ، وجمع قلوب الملايين من الناس على حبه والولاء له ، جيلاً بعد جيلاً ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين ؟

ولقد شهد « محمد » بنفسه منزلته فى قلوب أصحابه ومكانته من نفوسهم ، حيث كان أثر عندهم من أنفسهم ، وأحب إليهم من آبائهم وأزواجهم وعشيرتهم ، فقر بذلك عيناً ، وطاب نفساً . . . هذا إلى ما قرأت به عينه ، وطابت به نفسه مما له عند ربه من رضى ورضوان ، بشر به الوحي ونطق به القرآن : « ولستوف يهطيك ربك فترضى » (٢) .

* * *

أقول : إن همى هنا — فى هذا البحث — كان منصرفاً إلى مواجهة ناك المبطلات ، والمدعيات التى ادعاهما خصوم الإسلام على نبي الإسلام ، وعلى الكتاب الذى أنزل عليه .

وكنت أقدر أن هذا الموقف لا يصرفنى عن الغاية التى قصدت إليها من هذا البحث ، وهى الوقوف على موارد السيرة النبوية ، وإرواء النفس من رحيقها الطيب العاثر . . .

ولكن جرى الأمر على غير ما كنت أحسب وأقدر . . فلقد وجدت بين
يدى كثير من المفتريات والباطيل والخرافات التي تحتل مكاناً كبيراً يزعم
الحقائق المعتمدة في السيرة النبوية ، ويكاد يغلبها ، ويحزها عن مواضعها .

ولقد شغلني هذا الموقف ، الذي ربما أكون قد أسرفت فيه بعض الشيء ،
والذي ربما يكون قد حملني فيه الخماس الديني ، والعبرة على حمى الرسول — أن
أشدد الحساب على أولئك المفترين ، وأن أضرب حتى في تلك المفتريات الميئة
التي لا يج الباطل لها أ كفافاً من يوم أن ولدت . . ولم آخذ نفسي فيها بالقول
المعروف : « الضرب في الميت حرام » بل كنت أضربها مرة بعد مرة ، ولم يشفع
لها علمي أنها ميئة بأن أتركها وشأنها . . بل كان هذا العلم عندي داعية للزيد من
توجيه الضربات لها ، إذ كان مما أعلم أيضاً أن التبتة الخبيثة تستمسك بالأرض
الخبيثة . وإن تسكن ما تسكون من الفساد والعطب . . .

وهذه المفتريات النكدة وإن تسكن ميئة ، خامدة الانفاس ، فإنها قد
تصادف قلوباً مريضة ، أو عقولاً فاسدة ، فتبيض فيها وتفرخ ، وتنتج أشأم
مواليد . . تتصايح في كيان أصحابها بالمروق من الدين ، وبالتجديف بالكفر
والإلحاد فيه .

من أجل هذا جاء ما كتبت في السيرة ، وإن كان محققاً - على ما أرجو -
لبعض الواجب في الدفاع عن حمى الرسول ورسالته - أقول قد جاء ما كتبت
في السيرة شيئاً أشبه بمن يقف إزاء المجاني الطبية من غسل النحل ، ثم يجد حولها
جماعات من الزناوير والأفاعي ، فيشغل نفسه بإجلائها عن هذا الرزق الحسن ،
والزاد الطيب ، ليأخذ ما يشاء من رزق ، ويحمل ما يستطيع من زاد . . .
له وللناس !

كان ذلك هو موقفي تماماً !

فلقد جمعت إلى السيرة النبوية الكريمة ، فوجدت رزقاً غدياً ، وزاداً كريماً
طيباً ، ولكن وجدت زواحف كثيرة من الضلالات ، والمفتريات . والجهالات .
تأخذ على الطريق ، وتحول بيني وبين مواردها الصافية ، وبجانيها الطيبة .

وكنت - والحال كذلك - بين أمرين:

إما أن أمضى في طريقى ، متخبطاً بين سحب متكاثفة من الضباب والدخان وأقنع بصحبة السيرة في هذا الجو المظلم العاصف ، وأرضى بما يلوح لى خلال تلك الصحبة من شهاكات .

وإما أن أكشف معالم الطريق ، وأجلى هذا الضباب والدخان عنه ! حتى أملأ العين بهذا النور العاوى . . لا يحول بينى وبينه ضباب أو سحب .

وغير مذكور أن علماءنا - قديماً وحديثاً - قد كانت لهم ضربات قاصمة لتلك الضلالات والمفتريات . وأنهم قد استطاعوا أن يحلوا عن حمى السيرة النبوية هذه المنكرات ، وأن يضعوا على الطريق معالم كاشفة بين الحق والباطل ، وبين الهدى والضلال . . وليس على من يرد موارد السيرة الكريمة إلا أن يأخذ طريقه إليها ، وأن يسلك أى طريق من تلك الطرق الكثيرة المستقيمة الممهدة .

وكان يمكن أن آخذ طريقاً من تلك الطرق الممهدة ، وأن أتفقد آثار من سبقوا من الرواد . . كان يمكن أن أفهل هذا ، وأن أوفر الجهد الذى بذلته فى محاربة هذا الباطل ، وإذاقته موتاً بعد موت !

ولكننى آثرت أن أمهد لنفسى طريقاً إلى السيرة النبوية المطهرة ، وأن أجلى ببدي عنه هذه الضلالات وتلك البدع . ليكون لى من هذا العمل ثواب المجاهدين أولاً ، ثم ليكون لى ثانياً من الطمأنينة ما يثبت أقدامى على الطريق ، فلا تهجم على خاطرة من تلك الخواطر السوداء التى تترصد غفلة القلب ، أو ضعف النفس ، وتفسد على صحبى السيرة المطهرة ، وتقطع أمداد النور التى تفيض منها . .

• • •

ولست أزعم أننى شنيت ما بنفسى من الخواطر التى كنت أجدها حينها الثقيت بهذه المفتريات والباطيل التى تسيلت إلى حمى السيرة المطهرة . .

لا أزعج أفنى شفيت بما بنفسى من هذه الخواطر المزعجة ، فزلات أجد بين
يذى كثيراً من هذه الأباطيل ، لم أعرض لها فى هذا البحث ، ولم ألقها لقاء
مباشراً . ولو وقفت منها هذا الموقف لأنفقت أضعاف هذا الجهد الذى بذلته فى
تلك المحاولة دون أن تبلغ النفس غايتها من مجاهدة تلك الأباطيل ، وتعريتها من
أساليب الخداع والتويه الملفة فيها !

لهذا ، فقد اكتفيت بهذه الإمثلة القليلة التى سقتها فى هذا البحث ، فإنها على
قلتها تمثل أوجهاً كثيرة من وجوه الباطل التى تظهر شائبة كالحبة فى معرض السيرة
النبوية ، وتطل متلصصة بين أحداثها وشعورها المشرفة الوضيئة !

• • •

وعلى أى ، فإن ما ضمت عليه فصول هذا الكتاب يمكن أن تكون مدخلا
إلى السيرة النبوية لمن يريد أن يلتقى بها ، وأن يعطىها عقله كله وقلبه كله ، دون
أن يلتفت إلى هذه الأباطيل التى تصادفه ، ودون أن يدخل عليه منها ما يزيغ به
قلبه ، أو يضطرب له عقله ، فقد عرف فيما جاء فى هذه الفصول — إن لم يكن قد
عرف من قبل — عرف مما جاء فى هذه الفصول أن نبي الإسلام فوق الشكوك والريب ،
وأن القرآن أرسخ من الجبال فى مراسيمها ، وأسمى من الكواكب فى مداراتها ..
إنه كلام الله الذى لا يأتى الباطل من بين يديه ولا من خلفه « تنزيل من حكيم
حميد » .

فأى كلام ينال من مقام النبى فى عليائه ، وأى كلام يشم منه رائحة الشك فى
أنه كلام الله ، الذى نزل به الروح الأمين ، على قلب النبى الكريم — إن أى كلام
من هذا أو ذاك هوى زور وهتان ، جاء به عدو مغيب محقق ، أو ولي جاهل أحمق .
وما كان للزور أن يصد الحق عن وجهته ، ولا أن يقف له فى طريق إلا كما يقف
الغمام وصغار الحصى فى مجرى السيل العتي المتدفق .

إن الذى يطالع السيرة النبوية المطهرة لا يستطيع أن يخلص إليها إلا بعد أن
يجتاز هذه المرحلة من القلق والأسى لما يجد فى ثنايا هذه السيرة من خاخ منصوبة ،

وشبالت مريأة ، لاصطياد الجبهة والسذج ، ومن في قلوبهم مرض — بما يلتقي
لإيهم من مقابله القول ، وما يزين لهم من زور ويهتان .

على أن من كان سليم القلب ، معافى من آفات الضلال والهوى لا يحتاج إلى علم
العلماء وحكمة الحكماء حتى يجتاز هذه المرحلة ، في أمن وسلام ، وأن يلتقي بالسيرة
كما يلتقي بالقمر في ليل تمامه ، وقد خرج من وراء السحاب !

وأحسب أن هذا الكتاب ، يمثل تلك المرحلة ، التي تجابه قارئ السيرة
النبوية — وهي كما قلنا — مرحلة يعانى فيها المرء أزمات نفسية ، وجدافية ،
وذهنية ، من هذه الضلالات والمفتريات التي اندست في نفساها السيرة ،
وتلبست بها !

وإذن ، فلينذكر هذا قارئ الكتاب ، وليعلم أنه لم يقرأ فيه سيرة الرسول
السكريم ، ولا بعضاً منها ، وإنما الذى قرأ هو إشارة بالإصبع إلى الطريق المستقيم
إليها ، وإنما هو زاد يقبل به من يزعم لقاء السيرة والقبس من أفواها !

ومن يدري ؟ فإمل كتاباً آخر يحى وراء هذا الكتاب . . يتحدث عن السيرة
حديثاً بعيداً عن هذا الجو الذى انمقدت فيه سحب الخصومة وثائرات الجدل . .
حديثاً يقف على حمى السيرة وقفة لإجلال ، وخشوع ، وصلاة .

فإن ييسر الله يكن من وراء هذا الكتاب ، كتاب ، وربما أكثر من كتاب ،
والله المستعان ، وهو ولي التوفيق ؟

(تم بحمد الله)

المراجع

نُتِبَ هنا أهم المراجع التي كانت، تحت نظرنا، إعداد هذا الكتاب

أولاً: الكتب المقدسة

القرآن الكريم . . . التوراة . . . الإنجيل

ثانياً: كتب التفسير والحديث

تفسير ابن كثير . . تفسير الزمخشري . . تفسير البيضاوي

صحيح البخاري . . صحيح مسلم . . باوغي المرام من أدلة الأحكام

ثالثاً: كتب العقيدة والشريعة

الرسالة للإمام الشافعي . . . تحقيق أحمد محمد شاكر - ١٩٤٠

مقدمتان في علوم القرآن . . . (مطبعة السنة المحمدية) .

النبوات لابن تيمية . . . المطبعة المنيرية - ١٣٤٦ هـ .

السياسة الشرعية لابن تيمية . . . المطبعة الخيرية سنة ١٣٢٢ هـ .

الإسلام والنصرانية . . للإمام النسيخ محمد عبده .

قضية الألوهية . . للؤلف (جزءان) . الناشر: دار الفكر العربي .

رابعاً: كتب في التاريخ والسير

الشفا بتعريف حقوق المصطفى . . للقاضي عياض . . المطبعة العثمانية سنة ١٢١٢ هـ .

السيرة لابن هشام (أربعة أجزاء) . . المطبعة الخيرية بمصر سنة ١٢٢٩ هـ .

السيرة الحلبية طبعة مصر سنة ١٣٢٠ هـ .

الطبقات، لابن سعد طبعة صادر بيروت .

زاد المعاد، في هدى خير العباد، لابن القيم (أربعة أجزاء) مطبعة السنة المحمدية.

محمد رسول الله . . لإيدين دينيه . . . ترجمة الدكتور عبد الحلليم محمود .
حياة محمد ، لإميل در منجم ترجمة عادل زعيمو

خامساً : كتب فلسفية واجتماعية

مقدمة ابن خلدون المطبعة الاميرية سنة ١٣٢٠ هـ
حضارة الإسلام ، تأليف جوستاف جرونباوم (الألف كتاب) مكتبة مصر .
قصة الحضارة ، تأليف : ول ديورانت . . . طبعة جامعة الدول العربية .
تجديد التفكير الدينى الإسلامى . تأليف : محمد إقبال ترجمة : عباس محمود .
رسائل الجاحظ ، مجموعة رسائل . . . (للسندوبى) .
الزوميات ، للمعري (طبعة صادر) بيروت .
العقد الاجتماعى ، لجان جاك روسو (الألف كتاب) ترجمة عبد الكريم أحمد .

سادساً : كتب أدبية

نهاية الأرب فى فنون الأدب ، للنويرى (طبعة دار الكتب المصرية) سنة ١٩٤٩
أدب الكاتب ، للصولى طبعة القاهرة سنة ١٣٤١ هـ .
البيان والتبيين للجاحظ (طبعة السندوبى) .

الفهرست

مرفحة	الموضوع
٣	مقدمة
٨	مقدمة الطبعة الثانية
٩	صلوات وابتهاالات (الكلمة الطيبة)
	الباب الاول
٢٥	الاسم والمسمى
	الباب الثاني - النبوة .. والنبي
٤٦	هل النبوة ضرورة لإنسانية
٥٠	بشرية الرسل
٥٢	الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس - صفوة الحق
	الباب الثالث - المعجزة .. والإعجاز
٥٧	المعجزة
٦٥	إمكان اتصال الانسان بالمالأ الأعلى
٦٧	رأى ابن خلدون
٦٨	اختلاف المعجزات باختلاف الامم
	الباب الرابع - مصادف الرسالة الإسلامية
٧٤	شخصية الرسول
٧٥	تخطيط هذه بيان
٧٧	عظمة محمد
٧٧	عظمة الانسان .. وعظمة النبي
٧٩	موقف .. وموقف
٨٠	ما أشبه الليلة بالبارحة
٨١	محمد ... بعد القرآن

الموضوع

مع الجادين والمنصفين: ٩٣

لامارتين ٩٢ — ول ديورانت ٩٤ — ستانلي لين بول ٩٧

فوستيل ذو كولاوتر ٩٧ — بارتلى هيلر ٩٧ — جويستان

لوبون ٩٧ — كارليل ٩٨ — وليم ميود ٩٨ — سبورت

اسم ٩٨

دعوات الحق . . . ونزوات الباطل ١٠٠

النبي والمتنبي ١٠٢

أنبي أم عظيم ١٠٨

الباب الخامس — خاتم النبیین

والله أعلم حيث يجعل رسالته ١١٣

محمد . . . والوحي ١٣١

الحق . . . والباطل ١٣٧

وما صاحبكم بمجنون ١٣٨

ثمر الصرع والجنون ١٤٥

ابن صياد واختبار النبي له ١٤٧

الغرافقة العلى ١٥٠

الباب السادس — الداعى وموطن الدعوة

مفارقات . . . ومقابلات ١٦٣

حساب غير هذا الحساب ١٦٤

ماذا هناك . . . ما معنى هذا التوافق ١٦٥

هذا النبي الالهي ١٦٧

النبي العظيم . . . هدفه العاصفة ١٦٩

مولد النبي ١٦٩

الباب السابع — الرسول . . . وخصائص الرسالة

أصحاب الفيل ١٧٢

فداء النبي ١٧٧

الموضوع	صفحة
ماذا في جبين عبد الله	١٨٥
حلم آمنة	١٨٩
قصة الختان	١٩٤
قصة سق العمد	١٩٥
إرهاصات بين يدي النبوة	١٩٨
دين الحس	٢٠٢
رجال في الطليعة	٢٠٥
الرهبان والسكبان	٢٠٧
من أخبار والسكبان	٢١٢
معجزات الرسول .. بعد البعثة	٢٢٤

نبح الماء ٢٢٨ — شجرة تتكلم ٢٣٢ — معجزة النبي
 للنبي ٢٣٤ — إنك على الحق المبين ٢٣٥ — انشقاق
 القمر ٢٣٧ — قصة الإسراء ٢٤٢ — مد غير منظر ٢٥١ .

الباب الثامن - الرسول . . والمعجزة الكبرى

« لو أنزلنا هذا القرآن .. الآية »	٢٦٥
الرسول الكريم ٣١٩ — أسلوب القرآن ٢٨٢ — محمد والقرآن	
عند غير المسلمين ٢٨٤ — التشريع في القرآن ٣٠١ —	
صياغة أحكام الشريعة ٣١٤ .	

الباب التاسع - بشيرة الرسول

شواهد من أحوال الرسول - القرآن وشخصية الرسول	٢٢٥
ما شهدت به الأعداء	٢٢٦

الباب العاشر - المرأة في حياة النبي

الرجل والمرأة ٣٢٧ - النبي البشري ٣٣٨ - الحقيقة والظل ٣٣٩	
زوجات النبي	٣٥٢

